الدكتور عبد الجليل شلبي

عظماء قادة الأديان



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.


عظماء قادة الأديان



□ فاتحة الكتاب □

□ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ □

﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾
آمِينْ



الدكتور عبد الجليل شلبي

مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦

□ من أدب القرآن الكريم □

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ، شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ .

* * *

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

□ مقــدمة الترجمة □

هذه تراجم موجزة لاثنين وعشرين زعيماً دينياً ، اختلفت أزمانهم وبلادهم وتنوعت طرق الدعوات التى نادوا بها . ولكن يجمعهم هدف واحد ومقصد واحد :- أراد كل منهم أن يقدم للإنسانية صنيعاً ، وعناه أن يصلح في حياة الناس اعوجاجاً ، وكل واحد منهم بذل جهداً كبيراً في سبيل دعوته ، وكانت أفكارهم غريبة على الناس ، وقام في سبيل كل واحد منهم عقبات ولقى من قومه عداوات ، وعدد كبير منهم - كما ترى - لقى مصرعه أو قدم حياته طائعاً في سبيل دعوته . منهم من اغتيل ، ومنهم من حكم عليه بالإحراق أو القتل ، ولم يعدم أى واحد منهم أنصاراً ، ولم تمت أفكارهم ومبادئهم التى دعوا إليها ، وكثيرون مجدت أفكارهم بعد موتهم ، وخلع عليهم أتباعهم من صفات القداسة ، ونسبوا إليهم من الخوارق والمعجزات ما لم يدَّعوه ولم يخطر لهم ببال .

والكتاب نشر أول ما نشر فى أمريكا سنة ١٩٤٢ ضمن سلسلة من المنشورات يجمعها عنوان تراجم حية - **Living Biographies** - كانت كل مجموعة منها تشمل نحو عشرين ترجمة للعظماء المشهورين في جانب من جوانب الفكر أو الفن . فهناك سلسلة للمشهورين في الفلسفة وأخرى لمشهورى العلميين وثالثة لمشهورى الشعراء وأخرى لشهيرات النساء ... وهكذا .

وهذه المجموعة عرضت عشرين زعيماً دينياً ، أو مصلحاً عن طريق الدين ، وهم مرتبون حسب الترتيب التاريخى الزمنى ، ولم تذكر من رجال الدين الإسلامى غير النبى محمد - ﷺ - وزدت عليها ترجمتين موجزتين

جداً لرجلين أحدثا في تاريخ الإسلام الحديث رَجَّة ، وأحدثا فى دعوته نموذجاً لم ينقطع بعد .

وجرياً على طريقة الكتاب اكتفيت بهذا العرض الموجز ، أردت به أن يقف الشباب الناشىء على السمات الكبرى المميزة لفكر هذين الزعيمين . وهما جمال الدين الأفغانى ، وحسن البنا ، وقد كانت نهاية حياتهما متشابهة ، ومات كل منهما وبقيت فكرته ودعوته .

وكان مدرس الأديان في معهد مارى ليبون قد اقترح علينا قراءة هذا الكتاب . توسعة للمعلومات الدينية ، لأننا كنا ندرس فقط « تاريخ الأديان فى الشرق الأوسط » ،. وعددٌ غير قليل من هؤلاء المصلحين عرضتُ أفكاره وتاريخ جهاده في كتاب « الإرساليات التبشيرية » ،. وكتاب قادة الأديان هذا Religious leaders يتسم بصيغة أدبية ، تأنق كاتباه ، وهما هنرى توماس ودانا لى توماس - فى أسلوبه وأكثرا من التعبيرات المجازية ، وعنيا بعرض حياة كل زعيم والأحداث التى مرت به ، وعلى الأخص الصعوبات التى واجهته ، وقد عرضا الأفكار التى اقتنع بها وأراد الناس أن يتبعوه فيها ، والكتاب مع ما ينعكس فى تراجمه من صور تاريخيه للعصور التى عاش فيها هؤلاء الزعماء ، متعة أدبية ، وبه مواقف شائقة جذابة ، وتصوير حَيٌّ لمواقف الجهاد ، والاستماتة في سبيل الفكرة والتضحية بكل شيء ، حتى بالنفس . حباً فى إسعاد الناس ، وهدايتهم إلى الطريق التى يراها الداعية حقاً وجديرة بالاتباع ، ولا يسع قارىء تاريخهم إلا الإعجاب بهم واحترام مقاصدهم - ربما من عدا « بُوذَا » الذى آثر التسول - وشَبابنا الآن بحاجة إلى معرفة هؤلاء الأشخاص على الأقل تخفيفاً للنزعة المادية التى طغت على حياتنا وجَعَلتْ كل واحد يفكر فى بناء نفسه المادى ، وينسى المثل العليا والأخلاق السامية النقية التى تعمل لإسعاد البشرية كلها ، ولو ترتَّب على ذلك شقاء

داعيتها وكثرة متاعبه .

ومن قِبَلى أردت بترجمة الأصل والزيادة عليه أن أزجي به وقت الفراغ والبطالة ، وكما قال شوقي - « بطل من يقتل البطالة » ولم ألتزم بتعبيرات المؤلفين واستعاراتهم الكثيرة ، ولكنى نقلت المعنى المراد من حياة كل شخص وجهاده . ولعلى أن أكون وفقت فيما عملت وفيما قصدت .

وقد وضعت تعليقات بسيطة لتفسير بعض المواقف أو العبارات فالكتاب فى الأصل مقالات أدبية ليس بها حواش .

وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل . والحمد لله رب العالمين .

عبد الجليل شلبى

* * *

□ مقدمة المؤلفين □

منذ عدة أعوام تحدث H . j . Wells[1] عن الحاجة إلى كتاب مقدس عام . أراد به كتاباً يؤكد روح الوحدة بين جميع الأديان . وهذه الحاجة أصبحت الآن أعظم مما كانت من قبل ، فنحن الآن أكثر ميلاً إلى أن نقيم معركة حول الفروق بين اليهودية والمسيحية والإسلام ، والهندوكية والبوذية والكونفوشية ، والشنتوية[2] ، ولكننا تناسينا أن الفروق بين هذه الأديان – كما هى بين الأديان الأخرى الكبرى ، ضيئلة جداً وليست ذات أهمية . والحقيقة الهامة الرئيسية هى أن جميع الأديان تتضمن حقيقة مفردة . هذه الحقيقة – حين نلاحظ أن التثليث يتماسك في وحدة – تعلن أبوة الله ، وإخاء بنى الإنسان ، والمعجزة المقدسة في المحبة[3] .

وسنرى هذه الحقيقة الجوهرية ماثلة في قصص هؤلاء القادة الدينيين العظماء ، وهؤلاء القادة (الذين يتضمنهم هذا الكتاب) قاموا في أقطار مختلفة وفى أزمنة مختلفة ، ولكنهم راقبوا حقيقة واحدة من وجهة نظرهم المختلفة فى أفضلية جانب على جانب . وهكذا نجد رسالاتهم تنمى ألواناً وعادات متشعبة ، متفرقة في الكتب المقدسة في أنحاء العالم . وبكشف غطائها الخارجى – نجد أن كل هذه الكتب تبدى روحاً واحداً .

---

(١) هو العالم الانجليزى الكبير صاحب موسوعة التاريخ The Out line Of Hestory والمؤلفات الأخرى الكثيرة .

(٢) المعركة بين الفروق تعنى التوحيد .

(٣) الكاتب يتحدث من وجهة نظره .

هذا أعظم درس يمكن أن نتعلمه من دراسة الأديان – وحدة النوع الإنساني – كما تعبر عنها فكرة الهندوك –: « كل أرواح الأفراد إنما هى أجزاء من روح واحد كونى » – وذلك تماماً كما أن الرأس المنفصل من الجسم ، أو الجذع ، أو الأيدى والأرجل ، كلها أجزاء من جسم واحد تتصل فيه بعضها ببعض . وقد أعاد القديس بولس هذه الفكرة إذ قال : « كلنا أجزاء من واحد وعندما يشكو واحد منا يشكو الجميع » وذلك تماماً كما يشكو عضو من الجسم فيتألم الجسم كله ، وقد استعمل التلمود عبارة مختلفة فى ألفاظها ولكنها تحمل المعنى نفسه ، فهو يقول : كما تملأ الروح الجسد ، يملأ الله الكون ، نفس واحدة إلهية هى نفوس الناس جميعاً ، ولهذا فإنك حين تؤذى شخصاً آخر لا تؤذى نفسك فقط ، ولكنك آذيت الله .

هذا التعبير المميز في جميع الأديان الكبرى يمدنا بقانون عالمى ، إنه القانون الذهبى ، هذا القانون الذهبى ذو التعاطف المتبادل ، مثل الحقيقة الذهبية التى تعلن الوحدة بين الناس والله وهى الأسس الأخلاقية لدرس حياة القادة الدينيين العظماء : ما تحب أن يعمله لك الناس ، أعمله أنت للناس – عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، هذه القاعدة الأخلاقية للسلوك الإنساني تذكرها جميع الكتب المقدسة للأديان المختلفة ، وفى بعض الأحيان تستعمل بطريق النفى : « ما لا تحب أن يعاملك به الناس لا تعاملهم به » وفي أحيان أخرى نجد الفكرة تأتى فى عبارات مختلفة : أحب جيرانك كما تحب نفسك .. وجوهر الفكرة دائماً واحد – الأبوة . والإخاء والمحبة – كما سترى عندما تقرأ التراجم الآتية – هى الفلسفة التي تنصهر فيها الأديان المختلفة لتجمع في دين واحد . الجميع شامل عام والجميع يتضمن النور والهداية .

H.T

D.L.T

* * *

□ موسى □

١٥٠٠ ق . م

بعض الناس ينكرون وجود موسى - [عليه السلام] - كما ينكر بعض الناس وجود هومر ، وشكسبير ، وعيسى . وللعجز عن شرح حياة الرجال العظماء فى العالم كله ، يحاول صغار الرجال أن ينفوا وجودهم ، ولكن مرقس تواين Mark Twain . فى منطقه الساخر المازح جادل الذين أنكروا وجود موسى قائلاً : إذا كانت الوصايا العشر لم تكتب بيد موسى ، فإذن هى قد كتبت بيد شخص آخر يحمل اسم موسى(١) :- والدكتور هاين Heine - فى لهجة أخرى ساخرة ، وإن تكن أكثر منطقاً . لاحظ أنه إذا لم يكن الله قد خلق موسى حقاً ، فإن كتاب العهد القديم يذكرون الله بما كان يجب أن يراقبه بخلق هذه الشخصية التى خلقوها هم ، (وأسندوا إليها هذه الأعمال) - هذا لأن العبرانيين القدامى كانوا بحاجة إلى شخصية نبى غير عادية تربطهم بأمة تعيش تحت قيادة الله وحده . وكان النبى الذى نجح فى هذا العمل هو موسى ، إما شخصية حقيقية من لحم ودم كانت فى مصر ، وإما شخصية نبى أو بطل خيالى قومى لا يزال إلى الآن فى قلب شعبه . ومرة فى محاضرة ساخرة قال المحاضر : إن موسى كان أعظم شخصية تاريخية لم توجد قط ، وحينئذ قام واحد من السامعين ليصحح كلامه قائلاً

---

(١) التشكيك فى موسى نبى بنى إسرائيل ومعجزاته شائع . وفى هذا الحديث تجد أشياء كثيرة ، تختلف عما جاء فى القرآن ، وعما يعرفه المسلمون عن موسى ، ولكنه يعرض أفكار الآخرين ومعلوماتهم ، ونحن بحاجة إلى أن نعرفها .

ماذا تعنى يا سيدى المحاضر ؟ هل تعنى أن موسى كان أعظم شخصية خيالية ظلت حية إلى الأبد ؟ .

أما إنه لايوجد دليل علمي على أن موسى كان حقا شخصية تاريخية – ولكن شخصية موسى الحية قد أوحت بمكتبة حقيقية متكاملة عن ذات لها فكر خلاق ، وهذه الشخصية – كشخصية مثابرة صامدة التأثير فى تقدم الإنسانية – هى التى نحاول هنا أن نعيد خلقها .

* * *

شخصية موسى – كما هى الآن نتاج مكون من أقاصيص العهد القديم – وأساطير الربانيين ، وطبقاً لهذه القصص والأساطير . كان موسى طفلاً يهودياً تبنته بنت فرعون ، ثم نما وترعرع أميراً مصرياً ، وكما علمنا – ثقف ليكون رجل دين ، وقد كان منذ سنه الباكر ميالاً إلى تعاليم إخناتون ، هذا الملك المصرى الذى قدم للمصريين عقيدة التوحيد ، واعتبر ذا جنون للاضطراب الذى أحدثه[1] .

وعندما شب موسى عين قائداً لحملة حربية ضد الأحباش ، وقد نجحت حملته ولكنه لم يكن ميالاً إلى الحروب ، وكان ميالاً جدّاً للثقافة والتعلم ، ولذا دخل الكلية اللاهوتية فى جامعة هليوبولس – مدينة الشمس – وقد حلق لحيته وقطع شوطاً بعيداً فى الرياضيات ، وكان مهيأً لرسالته كشريف مصرى فى حياته ثم كان مبجلاً محترماً ذا ذكر حسن بعد موته . ولكنه فى قرارة نفسه كان متمرداً وكان يهودياً يحمل أخلاق اليهود ، وقد ألف أن يتصل بالطبقة الدنيا من الناس ، وألف الناس أن يروه يتحدث إلى العمال اليهود

---

(١) جاء موسى بعد عهد إخناتون بأكثر من مائة عام ، ومن المستبعد أن يستقى من فكره وعقيدته شيئاً ، وإخناتون دعا إلى عبادة الشمس ، وأجبر الناس عليها .

الذين يصنعُون الآجر للبناء . وقد وجد – مع دهشته واستغرابه – أن هذه الطائفة من الغرباء طيبة جذابة إذ لم تكن ذات فظاظة وغلظة . وهم على شاكلة سادتهم المصريين كانوا يفخرون بتاريخهم وما كان لهم من أجداد عظماء ومواقف تاريخية لامعة ، وقد تحدثوا إليه عن أبيهم إبراهيم الذى غادر مدينة أور الكلدانية ، باحثاً عن الحرية وقد وجدها فى وطنه الجديد بين الصحراء والبحر ، أرض الكنعانيين الجميلة التى تفيض لبناً وعسلاً ، ثم هى أرض مباركة لتجلى الله فيها ،. وقد أقام بهذه الأرض وأقام بها أتباعه من بعده وتكاثرت فيها ماشيتهم وأثمرت حقولهم حتى صاروا أثرياء ،.– هكذا قَصُّوا لموسى ، ففخروا بماضيهم وبكوا لحاضرهم .

« ولكن اليهود كانوا دائماً أمة لا تميل إلى الاستقرار ، وقد كتبت مقاديرهم عليهم أن يعيشوا هكذا متنقلين فى أنحاء الأرض – من قطر إلى آخر حتى أخضعهم مصيرهم إلى العبودية فى أرض مصر ، ولكن هذا لا ينسيهم الرُّواد العظام من أمتهم » .

وقد استهوى هؤلاء القومُ موسى كما استهواه تاريخهم ، ولذا ازدادت زياراته لهم وكثرت إقامته بينهم ، أما أصحابه الأرستقراطيون من بنى مصر فقد سخروا أول الأمر منه ، ثم هزئوا من سلوكه العجيب ، ثم بدأوا ينقدونه ويبينون خطأه فى هذا السلوك ، وأنذره فرعون أن يبتعد عن هؤلاء السذج الغرباء غير المثقفين من الجنس السامى . ولكن موسى لم يلق بالاً لهذا الإنذار وظل على سجيته من لقائهم ومجالستهم . ومرة بينما كان يرقب بعض أصدقائه العمال اليهود وهو فى عمله رأى مصرياً رئيساً على جماعة منهم يلهب أحد اليهود بالسوط فى غير رحمة ولا هوادة ، وأخذته العاطفة إزاء هذا المنظر القاسي العنيف . فوكز موسى هذا الرئيس المصرى فقضى عليه . وكانت هذه حادثة ذات أهمية كبيرة . فإن قتل رئيس عمل مصرى من أجل رقيق

يهودى يعد من الكبائر . ولذا ائتمر به أشراف القوم ورأوا أنه لابد من الاقتصاص منه ، فلم يجد بداً من الفرار إلى الصحراء ، لينجو بنفسه .

* * *

فى الصحراء أصبح الأمير المصرى راعياً ، ولكن فصلاً جديداً من تعلمه بدأ الآن ، لقد ترك لفائف الجلد الثَّرية التى كان يكتب عليها فى جامعته فى هليوبوليس ، كما ترك تعاليمهم الكريهة عن أرواح الموتى وظلالهم ، ولكنه فى ذلك العهد الجديد تعلم أن يقرأ صحائف السماء أثناء الليل ووجد كتابة نارية فى تلك النجوم اللامعة وقد أبعد عن ذهنه الآن حيوانات المصريين وطيورهم وزواحفهم التى يعبدونها ، واعتبرها شيئاً مثيراً للسخرية . ولذا أخذ على نفسه أن يعمل كى يهتدى إلى الإله الذى يستحق الاحترام .

بحث طويلاً عن هذا الإله الخالق . وقد وجده فى هذا التيه ، أرشدته إليه مظاهر الطبيعة ، وجده راكباً العواصف الهوج ، وسمع صوته فى هزيم الرعد ، وأحسه فى أشعة الشمس الباكرة عندما تلمس منابت الأشجار والحشائش فى الصحراء ورآه وجهاً لوجه فى العليقة الملتهبة .

وجد موسى إلهه الجديد فى الصحراء إنه إله بدوى مزعج صحراوى ، إله عربى ، إنه يثب فوق الجبال ، ويركض عبر الفيافى ، وينحنى فى الخيام ، إنه إله يرقب أبناءه أثناء نومهم ، ويقودهم فى المعارك ، ويضرب أعداءهم فى غير رحمة ، يغير رأيه بسرعة كما تغير الرياح اتجاهها ، ينتقم بسرعة جداً لأدنى إهانة ، وهو لا يتورع عن قول الكذب إذا كان الكذب يخدم الغرض الذى يريده ، ثم هو الإله الذى لا يحتمل أى ظلم ، وهو جواد على الغرباء ، رفيق بالأيتام ، رحيم بالفقراء – بإيجاز إله يملك كل الأخطاء وكل الفضائل العربية البدوية ،– به صفات موسى نفسه كما لو كان موسى قد نظر فى غدير

ماء أو فى مرآة فتعرف على إله يملك كل صفاته ، إنه سام ممجد إلى درجة ما فوق الطبيعة البشرية ، والقائد الدينى العظيم كالفنان الكبير يبث صفاته فى جلسائه .

* * *

ظل موسى في هذه الحياة الصحراوية عدة أعوام ، أحب عزلتها فى هذا الفضاء الرحيب ، وقد هيأت لأفكاره فرصة الامتداد والتوسع . وقد وجدت طبيعته الصوفية غذاء منعشاً فى هذا الهدوء الواسع سواء فى الرمال أو فى السماء .

تزوج موسى من بنت رجل ميسور ، زعيم بدوى ، وأقام معه مطمئناً إلى حياة التأمل ، ولكن نفسيته القلقة دفعته إلى التحرك لعمل ، إنه لم ينس هؤلاء المسترقين الذين تركهم وراءه فى مصر ، لقد اعتاد أن يتحدث عنهم إلى أصدقائه من البدو ، حدثهم عن حياتهم المنحطة ، وماضيهم المجيد ، ورثى لهم إذ أصبحوا عمالاً يصنعُون الآجر فى مصر ويحرقونه فى القمائن ،— وكان البدو يستمعون إلى موسى فيشعرون بالرثاء إلى زملائهم ولسوء الحظ الذى حالفهم ، لأن هؤلاء البدو أيضاً من ذرية إبراهيم ، وكلهم أبناء هذا الجد المتمرد . الذى رسمت شجاعته طريقاً مضيئاً عبر الصحراء لأتباعه ، وقليلاً قليلاً ، التمعت الفكرة فى ذهنه ؛ فقال : إن هؤلاء اليهود فى مصر لابد أن تكون فكرة الفرار من مصر قد خامرتهم ، ليتخلصوا من العبودية تحت يد فرعون إلى الحرية فى الصحراء ، ولعله أن يتيسر له أن يقودهم بعد حين إلى أرض الكنعانيين ، إنها الأرض القديمة لجدهم إبراهيم . ولابد لليهود أن يعودوا إلى عهدهم ، وعليه أن يقيم بينهم وحدة تكوّن أمة حرة ، ثم أن يعرفهم الإله الحق والدين الصحيح .

أى حلم بهيج هذا الذى التمع فى خاطر موسى ، وهو فى الصحراء يرقب أغنامه وهى ترعى على سفح الجبل فى سيناء .

وفي الوقت نفسه مرت به قافلة قادمة من مصر إلى الشرق ، فأخبره ذووها أن فرعون قد مات ، وأن فرعوناً آخر جديداً قد اعتلى عرش مصر ، وحينئذ أحس أن الوقت المناسب لعمله قد آن .

ومرة ثانية نجد موسى فى مصر يتجول بين هؤلاء المستضعفين المسترقين من اليهود يستحثهم على الثورة والتمرد ، أوعز إليهم أن يَدَعُوا آلاتهم ، وأن يتركوا نقل الأحجار وحريق الآجر . وبذا تحول موسى الأمير المصرى . والراعى البدوى إلى قائد عمال . وكان أول من نظم صناع الطين وكون منهم وحدة فى التاريخ كله .

* * *

وقدم موسى التماساً لفرعون أن يطلق سراح أرقائه اليهود ، ولكن فرعون لم يأبَه بِهِ ، بل قال له : بأى وجه جئت إلىَّ بهذا الطلب الشاذ الغريب ؟ وقال موسى : جئت إليك بسلطان من ربى . قال فرعون ومن ربك ؟ كم من الزمن حكم . وكم من المدن غزا ، وأى الأسر أزالها عن عرشها ليتبوأه ؟ وكما تقص علينا أساطير الربانيين أجابه موسى : لقد كان إلهى قبل أن يوجد العالم ، وهو كائن بعد نهاية العالم . وعندما يتجلى برحمته فالعاطفة هى رداؤه ، والحب تاجه ، وعندما يحقق العدالة فالنار هى سهمه ، واللهب جِرَابُه ، والسحب هى تروسه ، والبرق سيفه .

ولكن فرعون كان جاحداً غليظ القلب تجاه إله موسى وشعبه ، فقال له : أما إنه توجد قوة عليا ، واحدة فى السماء وعلى الأرض ، وهذه القوة العليا

هى أنا نفسي . ولكى يظهر قوته وتحديه لهذا الرب الذى تحدث موسى عنه ،أصدر أمراً أن كل عامل لابد أن يضاعف عمله اليومى من صنع الآجر ، وعند المساء إذا نقص قالب من الأحجار فلابد أن ينتزع طفل من أمه ليكون مكان الحجر الناقص ، والبناءون الذين يبنون المنازل والمدن إذا فقدوا حجراً فلابد أن يدفنوا أطفالهم أحياء فى الجدران بدلاً من الأحجار الناقصة(١) ، وعندئذ تفقد « يهوه » إله العبرانيين أولاده ، ولينير عقل فرعون وينقذ أبناءه رمى مصر بعشرة أنواع من البلاء – وبالطاعون ، (وأرسل على المصريين الطوفان والجراد والقمل ، والضفادع والدم آيات مفصلات) .

هكذا تجرى الأسطورة فى الكتاب المقدس وفى التلمود . ولكن دراسة الشراح العلمية تعطينا صورة أخرى أقرب إلى الحقيقة – وطبقاً لهذه التفسيرات – يقولون إن فرعون رأى هذه الجماعة عنصراً متأخراً يألف القذارة والتمرد ، فكدسهم جميعاً فى بقعة غير صحية فى مقاطعة تسمى جوشث ، وكانوا دائماً مصدر خطر لسادتهم المصريين ، أى خطر وافد يمكن أن تتبع جرته حتى ينتهى إلى هذه البقعة القذرة ، ولكن موسى انتهز هذه الفرصة ليعزو كل هذه المزعجات إلى أنواع البلاء العشرة التى ذكرها العهد القديم ، والتى أزعجت أرض فرعون . وراجت دعواه حتى أن فرعون عندما رأى بنى إسرائيل يجلون عن البلاد بقيادة موسى ، لم يشعر بضيق كثير . ولكنهم ما كادوا يتحركون للخروج حتى غير فرعون رأيه ، فرأى أنهم يمثلون ممتلكات أكثر مما يمثلون ديناً وأنهم مصدر تقدم مادى لأمته ،– لهذا عبأ جيشاً واقتفى أثرهم ، فلما وصل إلى شاطىء البحر الأحمر كانوا قد أفلتوا ، ورجع

(١) هذا ما يصوره خيال القدامى من اليهود ، ولا حقيقة له فى التاريخ ، ولكن حقاً سام فرعون بنى إسرائيل سوء العذاب .

مهزوماً . ولكن العهد القديم فى لغة بهيجة وصورة درامية يقول إن فرعون والذين معه ابتلعهم البحر نهائياً[1] .

وغنى موسى أغنية الفرح والسرور لموت أعدائه المصريين ، ويقول الربانيون : إن الله عنفه ووبخه لفرحه هذا وقال له : كيف ترنم ترنيمة السرور شماتة بعبادى الذين هلكوا – لهذا ، ولأنك نظرت إلى هؤلاء الهالكين نظرة تعالى وتكبر ، و لم تُبدِ أَسَفاً لأعدائك الشاكين سوف يكون مستقبلك حزيناً ويكتب على أتباعك الحزن ، وتذكر الأسطورة أن هذا هو السبب فى أن موسيقى موسى وأبنائه ظلت إلى الأبد موسيقى حزينة .

* * *

هكذا استخلص موسى قومه اليهود من مصر . ولكنه وجد نفسه قائداً لشعب مخاصم عنيد دائم النزاع غير موحد ، ولكن عبقرية موسى استطاعت أن تربطه فى وحدة قوية ، واستغرق موسى بضعة أعوام ليهىء المعجزة التى يربط بها هذا الشعب الممزق – فقبْلَ أن يهىء هؤلاء الرعاع غير المنظمين ليكونوا أمة متحدة منظمة كان لابد أن يبث فيهم مشاعر جديدة حية ، لابد أن يبث فيهم روحاً جديداً من الأخلاق والقوانين ، وقد تهيأ له ذلك لأنه ولد قائداً ، وقد أدرك أن هذا يتأتى بإلهاب عواطفهم البسيطة الساذجة بشيء دينى ، ولهذا كانت خطبته المؤثرة فى جمع لهم حاشد أمام مناظر الطبيعة التى تؤيد ما يقول واختار جبل سيناء لهذا الغرض ، إنه منظر مؤثر حقاً ، إن له خمسة رءوس عالية من الجرانيت تسمو فوق السحب ، وينهار الجليد من فوقه محدثاً زئيراً رهيباً ، اعتبر موسى هذه الأصوات صوت الله وأنها أملت عليه الوصايا العشر ، إن هذا الجبل الشاهق منبر ملائم

---

(١) الذى فى العهد القديم أنهم إذ أفلتوا من فرعون رجع .

للوحى ، فعلى شعافة تلتقى السماء والأرض فى اتصال قريب .

هنا سلم موسى قومه – وهم أنصاف همج وأنصاف متحضرين – صيغة من قوانين الأخلاق التى هدت وأضلت منذ ذلك العهد حتى الآن ، إنها على الرغم مما بها أحياناً من قسوة ، ورغم ما بها من زلات طفلية متكررة كانت واحدة من المحاولات الأولى فى التاريخ التى أوصلت الفكر الإنسانى إلى القلوب . إن تشريعه العين بالعين ليست أكثر مما يتوقع من رجل قادم من غابة بدائية وقوم متوحشين أو شبه متوحشين ، ولكن توصيته أن يكوّن الشخص صداقة مع الفقراء ، وأن يكون ذا عاطفة مع الغرباء أكثر مما نتوقع ممن يسمون متحدثين الآن ، أننا حتى الوقت الحاضر مازلنا نحتقر الفقراء سيىء الحظ ونحتقر الغرباء .

ومن الأساطير التى تتصل بتلقى الوصايا العشر أسطورةٌ تذكر أن الإله كان يسكب الدموع وهو يسلم موسى وصاياه . ودهش موسى حين رأى حزن إلهه فى موقف ينبغى أن يبعث السرور ، وسأله عما يبكيه . فقال له : يا موسى : إنك هَدِيّي فقط ، إننى أسلم إنجيلى إلى بنى الإنسان ، ولكننى – يابنى – أرى ما سيفعله الإنسان بهذا الإنجيل ، وتستمر الأسطورة فتذكر أن الله هيأ بكل واحد من أبْنَائه – مع الإنجيل – ملكين ، واحد يبث الحكمة فى رأسه ، والثانى يضع الرحمة فى قلبه – « ولكن هكذا لم يستفد الأبناء الأغبياء لا حكمة ولا رحمة .

* * *

إن الكتاب المقدس الذى بين أيدينا الآن – كما قال لنا الباحثون – ليس هو الكتاب الذى أعطاه الله موسى على جبل سيناء ، فالنّسخة الأصلية – أو الترجمة الأولى للوصايا العشر – حطمها موسى عندما رأى قومه فى أدنى الجبل يعبدون عجلاً ذهبياً ، إن الدين الحقيقى كان بعيداً عما تتصوره

أو تفهمه عقلية بدائية ، ولذا اضطر موسى أن ينقح وصاياه ، وأن ينزل بها من مستواها الرفيع الإلهى إلى مستوى عقلية الإنسان الساذج .

كان الكتاب الأول مكتوباً فى الأعالى على ياقوت أزرق هبط من السماء ، وفى لون السماء ، أما الكتاب الثانى فكتب على الأرض ودُوِّن على جرانيت أرضى ، والكتاب الأول تكلم بلغة الإله ، والكتاب الثانى تكلم فقط بلغة الإنسان .

إن صيغ الكتاب المقدس التى جاء بها موسى تلائم النقص الذى فى قلب الإنسان فى هذا الوقت الباكر من حياة البشرية ، وقد وضع الأساس الصَّلبَ لمن سيأتون بعد ، كما وضع تعاليم أكثر إنارة للأنبياء اللاحقين — وهذا الأساس الموسيقى للدين الذى يعرف به الأنبياء ، وضع ليوفق بين العدالة والرحمة .

« أنا الرب إلهك الخالد ، لست إله انتقام فقط ، بل إله رحمة » — وقد وضع موسى الحزن جزءاً مكملاً للرحمة ، « لا تستبق لديك حق الرجل الفقير حتى مغيب الشمس . فربما نام فى ثوبه » « إذا ضرب شخص خادمه المسترق ، فلابد أن يمنحه حرية فى مقابلة جرحه وإيذائه » .

إن موسى من قديم يحب الرحمة والرفق بالعمال والأرقاء الضعاف ، وهو أوصى بتحرير الرقيق بعد ستة أعوام من خدمته « فى السنة السابعة سوف تطلق عبدك حراً ، ثم تمنحه هدية ، لانك — نفسك كنت مسترقاً فى أرض مصر ، وقد خلصك الرب إلهك » .

فوق كل ذلك أراد موسى أن يسكن أنانية الإنسان بالصدقة بلسماً يشفى نفسه ، فجاء فى وصاياه : « عندما تجمع الحصاد من حقلك ، لا تتبع جوانبه لتجمع كل شىء فيها ، ولا تجمع البقايا التى تتساقط من الحصاد ،

بل دع ذلك للفقراء والغرباء والأرامل واليتامى ، لأن الرب إلهك يعطف على اليتامى والأرامل ، ويحب الغرباء ، أنت أيضاً كنت غريباً فى أرض مصر » .

ويمكن تلخيص تعاليم موسى كلها فى شىء واحد – صيغة مفيدة فى وقتها ، كأول وصية أو قانون ذهبى من الله : « أَحِبَّ جارك كما تحب نفسك » .

* * *

تتوالى الأخبار بأن حياة موسى فى سيناء كانت فى خطر ، لأن الجنس الذى حاول هو أن ينقذه من العبودية كان سيئاً ضد منقذه . ولم يكن موسى نبياً لجيله ، فبينما كانت نظراته مركزة على أرض المعاد ، كانت أعين قومه تتطلع إلى الوراء وتتركز على قصاع اللحوم فى مصر ، لقد آثروا الحياة المنحطة التى ألفوها فى الأسر على الحياة غير المضمونة التى يمنيهم موسى فيها بالحرية والتى يريدهم أن يناضلوا من أجلها ، لم يكونوا ميالين لأن يكونوا أحراراً ، وقد شكا موسى كثيراً أنهم لا يستحقون الحرية ، ومن هنا بدأوا يدبرون المكايد ضد الرجل الذى عمل لتحريرهم ، وقد اكتفوا أول الأمر أن يسبوه ، وأن يشوهوا سمعته فيما بينهم ، فعابوا كل فكرة له وكل عمل ، – فإذا استيقظ فى الصباح الباكر قالوا إنه يصحو مبكراً لينتقى لنفسه أحسن أنواع المن ، وإذا تأخر فى نومه تناجوا إنه طريح الفراش لكثرة ما كظ بطنه بالمن ، إذا جلس وحده متواضعاً هيناً تعالت شكواهم بأنه متكبر لا يجالس رفاقه ، وإذا دعته الرغبة للاجتماع بهم أن يجالسهم . تغامزوا فيما بينهم أنه يدلف إلينا يريد أن يسمع ثناءنا وتصفيقنا له .

ثم انتقلوا من التشهير به إلى اتهامه ، قالوا : إنه يحرض طائفة منا ضد

طائفة أخرى إنه يحرض الفقراء الوضيعى النسب على الأشراف الأثرياء ، ثم تآمروا على خلعه ، وقالوا « لا نريد قائداً بعد ، أنت أيها القائد قد خنتنا ، لقد سرقت الجواهر التى خرجنا بها من مصر ، نريد الخبز وليس المن والسلوى . لقد كذبت علينا إذ منيتنا الأرض الموعودة التى لن نراها أبداً ، إنه حلم لم يكن له وجود إلا فى ذهنك » .

ثم تآمروا على قتله إذا لم يرجع بهم إلى مصر :

ولكن موسى واجه متهميه الزارين عليه ، وقابل تهديداتهم بالصبر الجميل ، قابل أحجارهم بالخبز وعدوانهم بالتسامح ، وقال فى نفسه : إن الله سيسامحهم ، قال لهم : إن صياحهم وشكواهم لأجل الغضب والألم ، وما يقوله الإنسان لغضبه وشكواه فإن الله لا يصغى إليه .

وفى جلسات عزلته المريرة كان يحس أنه لا يجد سماحاً لهم فى قلبه ، وكان يقول فى نفسه : إن هذا الجيل لا يستحق أرض المعاد ، لا ، ولا الجيل الذى يأتى من أولادهم ، كيف أستطيع إبراز النوم لقوم لا أعين لهم ؟– ولكن الله – كما تحكى الأسطورة – اطلع على أفكار موسى الخفية ، ولم يكن مسروراً لهذه الأفكار .

* * *

أخيراً مضى هذا الجيل كله ، وجاء جيل جديد مستعد أن يدخل الأرض الموعودة . ولكن هذه الأرض لم تكن لموسى ، وقال الله له إن الوقت يحين عندما تغادر أنت هذه الدنيا واستعطف موسى ربه قائلاً : دعنى أقود هذا الشعب إلى أرض المعاد ثم أذهب عن الدنيا ولم يستجب الله دعاءه ، بل قال له : لا .

ورجاه موسى ثانياً قائلاً : إذا لم يكن لى أن أدخل أرض المعاد قائداً ،

فدعنى على الأقل أدخل بين الأتباع ، وقال الله له أيضاً : لا .

– إذا لم يسمح لى أن أدخل أرض المعاد حياً فدعنى أدخلها ميتاً ، دع عظامي تستريح فى أرض المعاد .

– وهز الله رأسه رافضاً ، وقال لموسى : إنك لن تدخلها أبداً بسبب آثامك .

– وعجب موسى لهذا الرفض ، وقال لربه : هل أنا ارتكبت آثاماً ضد الله ؟

– لا ، ولكنك أثمت ضد الإنسان . لقد تشككت فى غريزته الجائعة نحو النور ... الإنسان بغريزته جبان وحشى ، شهوانى ، كذاب . لا عقيدة له ، مختال ، متمرد جموح ... ! ثم ماذا أنت نفسك إذا لم تكن إنساناً ، وإذا كنت قد فهمت تعليمي لماذا تشك فى أنك واحد من أتباعك ؟– هل ستفهم ذلك فى يوم ما ؟ .

– لقد كنت بطيئاً جداً فى تعليمك لى .

– إن لديهم الأبدية كل الأبدية ليتعلموا ، ولكن الإنسان لابد أن يكون صبوراً – وأنا الآله الرحيم » سأكون صبوراً كل الصبر معهم .

وتستمر قصة الربانيين فتذكر أن موسى عندما سمع هذه الكلمات استسلم ، وأسلم نفسه للموت ، لأنه عرف حينئذ أن الأرض الموعودة ليست هى أرض كنعان ، بل العالم كله ، المدرسة الأبدية للعدل والرحمة والمحبة[1] .

وعندئذ تولى الإله الأبدى البقاءِ وضعَ موسى على الأرض فى رفق ،

---

(١) هذا تصوير للعقيدة التى عليها اليهود إلى الآن من تكوين مملكة تشمل العالم كله .

ثم قبض إليه روحه من بين شفتيه ، ومات موسى ، وقبلةُ الله على فمه .

* * *

هكذا نجد قصة موسى كما صورها الكتاب المقدس وأساطير التلمود .

وبتمحيصها وتفحصها تحت ضوء العلم الحديث تجد أن موسى يبدو صورة فذة ، وليس أقل بهاء مما صور به ، وبطولته الكبرى أنه أتى بمعجزة خالدة فى التاريخ ، لقد نقل من مصر إلى الصحراء بقايا سلالة ميتة مفككة ، ثم أخرجها من الصحراء أمة متماسكة تأبى أن تموت .

* * *

□ أشعياء □

٧٥٠ ق م – تقريباً

○ **الأحداث الهامة فى حياته :**

ولد فى أورشليم – تزوج حول سنة ٧٤٠ ق م . تحمل أعمال النبوة سنة ٧٣٩ ، ق م ، أنجب ولدين هما . شيرجا شوب (ولد سنة ٧٣٨ ق م) وماشير شال هاش باز (ولد سنة ٧٣٤ ق م) ، قدم نصائحه للملك أحاز والملك حِزِقيا أثناء الأزمة الوطنية من ٧٣٥ – ٧٠١ ق م ، مات شهيداً – لا يعرف بالدقة تاريخ وفاته .

* * *

عندما مات الملك عوزيا الأكبر – أعقل وأحكم سكان فلسطين منذ أيام الملك سليمان – كانت مملكة يهودية فى ذعر وهلع ، لأن هذا القطر الصغير صار بين شقى الرحا ، الأشوريون من جانب والمصريون من الجانب الآخر يهددونه بقواهم الحربية التى لا طاقة له باحتمالها ، ولذا صار هذا الإقليم على حافة التخريب والدمار ، ووجد الحاكم الجديد نفسه محاصراً فى أورشليم بين القوتين المتأهبتين لغزوه ، وكان لابد له أن يركن إلى أحد الجانبين ليأمن شر الآخر ، وبينما رأى بعض قومه أن يتحالف مع مصر رأى بعض آخر أن الأفضل أن يحالف الأشوريين ، وحار الملك ولم يستطع أن يتخذ قراراً فى الانحياز لأيهما ليجد لديه الحماية ، وبينما كان يمشى يوماً على شاطىء البحيرة مفكراً حائراً فوجىء بمقابلة أشعياء أحد النبلاء الشبان فى أورشليم .

كان أشعياء ممسكاً بيد ابنه الصغير ، فلما رأى الملك توقف عن مشيه حتى يصله الملك ، وكان أشعياء عندما مات الملك عوزيا قد تلقى النداء الإلهى يأمره أن يساعد شعب الله ، هتف به صوت الله : « مَن الذى أُرسلُه لإنقاذ شعبى » ، وأجاب أشعياء ، ها أنذا ، أرسلنى ، وهذا ما جعله يتوقف حتى يقابل الملك « أُحاز » كَىْ يقدم له نصيحته ، وليهدىء تفكيره المضطرب الحائر قال له : إنى سمعت نداء الله ، وإنى أنصحك أن تظل ساكناً هادئاً ومقتنعاً بمعونة الرب ، إنى أحذرك من الركون إلى أى من هذين الجانبين المعاديين ، لا تتكىء على أسنة الرماح لأجل خلاصك ، إنها ستمزق جسدك أو تخدش يديك » .

وشكر الملك لأشعياء نصيحته ، ولكنه قرر فى نفسه ألا يأخذ بها ، إن العزلة لن تنجيه ، فقرر أن يضع ثقته فى قوى الأشوريين . ولم يشأ أن يبدى قراره لأشعياء ، وبدلاً من الحديث فى هذا الموضوع ، ربت الملك على رأس الطفل ، وسأله : ما اسمك يا بنى ! .

وأجاب الطفل : اسمى شيرجا شوب يا صاحب الجلالة[1] .

والتفت الملك إلى أشعياء وقال : « شيرجا شوب » تعنى أن بقية ستعود ، فهل أصبت الحق ؟ .

وقال أشعياء : هذا الاسم مفتاح نبوءتى ، إن الله سيعاقب يهودية لأجل آثامها ، سوف يضع هؤلاء الأقوياء المتكبرين ، ويدمر منازلهم ، ثم يقودهم أسرى تحت نير أجنبى ، وسيجرد أورشليم من أطفالها ويدعها تجلس على الأرض باكية ... ولكن الله لن يدع أبداً شعبه ويتخلى عنه ، فى نهاية

---

(١) Shear - Jashub .

الأيام بقية منهم سترجع . هذه عقيدتي ، واسم ابنى رمز لهذه العودة .

* * *

كان أنبياء فلسطين فى التاريخ القديم على حظ كبير من الشذوذ فى تعاملهم ووعظهم ، كانوا يتسمون بالجراءة والخشونة ، يتدخلون فى كل شيء ، يتحدَّوْن الأثرياء ، يغتابون القسس ويحطون من قدرهم ، يتخطون القوانين فى غير مبالاة كانوا خالين من التهذيب الاجتماعى . وكانوا من مختلف الطبقات . حمالون وزرّاع وعمال ورجال أعمال ، ومن طبقات أرستقراطية كما هو شأن أشعياء ، ومع هذا نصبوا أنفسهم مفسرين لقانون الله ومشرعين ، وكانوا يهملون أنفسهم فنادراً ما يغتسلون ، ويبدون فى ملابسهم القذرة وإهمال شعرهم كالحيوانات الآبدة فى الجبال ، يعيشون على أكل الجذور والمن (العسل الطبيعى) وقد يأكلون الأعشاب أو الثمار ، هؤلاء هم الذين يعلِنون قرب الهلاك لرفاقهم .

لم يكونوا يكتفون بإعلان الأفكار الغريبة ، بل كانت لهم طرق مشوشة مضطربة فى إعلانها .

وعلى سبيل المثال دنس واحد منهم رغيف العيش الذى معه قبل أن يأكله ، واعتبر هذا إشارة إلى أن الله سوف يدنس شعبه ، ونبىّ آخر شعَّثَ شعره واندفع بعينيه البراقتين إلى داخل الهيكل . وهو يحمل فى يديه جرة ، ثم أمر المصلين أن يتركوا صلاتهم ويتبعوه إلى الخارج ، ثم ترك مكان العباده واتجه إلى السوق العامة وأمام مزبلة للقاذورات — حيث تجمع حشد كبير هناك —ضرب بجرته الأرض فحطمها ثم أخذ بقايا الحطام فنثرها فى جوانب المزبلة ، ثم صاح فى الناس قول الرب : هكذا سوف أحطم هذا الشعب وأدمر هذه المدينة .

هكذا كانت طريقة هؤلاء الأنبياء التى يثيرون بها انتباه الشعب ويوجهونه إليهم . طريقة موحشة عجيبة وحتى أشعياء مشى مرة عارياً فى شوارع أورشليم ليعلن أن هذه المدينة لأجل ذنوبها سوف تجرد وتعرى ، وبوجه عام كان الأنبياء فى هذا الوقت موضع سخرية لدى معظم الشعب ، وعلى الأخص لدى الطبقة الممتازة . ولكن الجادين من بين معاصريهم كانوا يعنون بجانب آخر لهم ، لقد لاحَظوا أن ذوى الطموح من رسل الله وسفرائه ، كانت عواطفهم ملتهبة نحو إقامة العدالة ، إنهم حينئذ يملكون شجاعة نفيسة ، يكفى إنهم لم يكونوا يتهيبون أن يدخلوا على الملك ليعنفوه على ظلمه ويفضحوه بين جلسائه ، وفوق ذلك وقفوا ضد العبادة الزائفة والخطب الجوفاء التى كانت تلقى فى الهيكل ، عنفوا الوعاظ وواجهوهم بالعبارات القاسية .

« إننى أكره وازدرى صلواتكم واحتفالاتكم ، إننى لا أجد مذاقاً لهذه الاحتفالات ولا أشم منها رائحة العبادة ... أبعدوا عنى أصوات أناشيدكم ... ولكن دعو الحق ينساب كما تفيض المياه . ودعوا العدالة تجرى كما يجرى النهر » .

حقاً كانت خطبهم النبوية هى ادّخار نعمة العدل والقضاء على آفات الظلم ، وهذا حقاً هو العبء الذى اضطلعوا به .

« كان الأنبياء معلمى الأخلاق والمنذرين بعواقب الانحراف فى العالم القديم ، كانوا يعْتقدون أنهم قد استكشفوا القانون التاريخى الفعال ، وبه يستطيعون أن يتنبأوا بأحداث المستقبل فنجد فى عظاتهم : أن أعباء الإثم — سواء فى الأفراد أو فى الجماعات — إنما هى الموت » — كانوا يعتقدون أنهم يعلمون المستقبل لأنهم فسروا الماضى تفسيراً صحيحاً : « ما حدث من قبل لابد أن يحدث بعد ، لأنه لا جديد تحت الشمس » .

إنهم عرفوا ويريدون كل شخص أن يعرف صرامة قانون الأسباب والمسببات ، والنتائج المترتبة على كل عمل ، يستوى فى ذلك قوانين الأخلاق وقوانين الماديات في الوجود الإنسانى : كما أنه من المؤكد أن النهر ينحدر إلى المحيط ، يجب أن يكون مؤكداً أن الظلم ينحدر بالأمة إلى الدمار » .

كانت هذه الروح التى حدت بأشعياء أن يقدم لأمته النصيحة ، وأن يساعدها بها خلال أيام الأزمة التى ألمت بها من حرب الآشوريين .

* * *

كان الآشوريون – كما كان الألمان – يريدون أن يحكموا العالم كله ، كانوا أكثر الأمم عناية بالمظاهر ، وأكثرها طموحاً وأكثرها حباً للحروب ،. كانوا ذوى لحى كثيفة ، وأنوف طويلة وشفاه غليظة ،– يمتازون بالجرأة وعدم المبالاة ، انْسابوا من عاصمتهم « نينوى » فى عجلاتهم الجرارة التى كانت حديثة الاختراع فاكتسحوا كل ما قابلهم ، وبثوا الذعر فى قلوب الأجنَاس الأخرى ، ولذا لم تكن الحروب معهم كما هى مع الأمم الأخرى ، وخصوصاً فى هذه الأيام العجفاء ، الجائعة ذات الضرورات الكالحة ،– لقد كانت هذه العجلات فناً جميلاً كما أنها فن غير جميل .

كان ملوك الآشوريين يسرون كثيراً حين يوجهون أوامرهم بما يريدون فَيُنفَّذُ لهم ما أشاروا به من أحكام قاسية ، بمجرد إشارة خفيفة تقطع ألسن الأسرى وتسمل عيونهم ، وبآلتهم الحربية الحديثة كانوا يأملون أن يكتسحوا العالم كله ، وأن يكونوا حكاماً عليه ألف عام .

والآن ظهر ملك من أكثر محاربيهم قسوة وأشدهم فظاظة وافتراساً هو الملك سنا حريب ، وقد بدأ زحفه إلى الأمم التى فى الغرب . بدأ بدعوتهم واحدة بعد الأخرى أن يُمدُّوا له يد السلام ويعْقدوا معه صداقة ، ولكنه

تدريجياً وعندما قبلوا ما قدم لهم من مساعدة ، عدا عليهم فسحقهم بقبضته القرمزية ، وأخيراً تقدم إلى مملكة « يهودية » . وعلى عادته حاول أن يخدع فريسته لتستلم له بدون حرب .

أكد للملك الجديد – وهو حزقيال الذى ارتقى العرش بعد موت أحاز . أنه لا يريد أن يمس اليهود بأذى ، وأنه لايريد منهم أكثر من أن يكونوا أصدقاءه الحلفاء – ولكنه عندما اكتسب موافقتهم على هذه الصداقة . طلب أن يرسلوا إليه جزية هينة برهاناً على هذه الصداقة ، وهى نسبة من ثروة يهوديه العظيمة . وفى مقابلة هذه الصداقة والجزية وعد أنه سيمنع قواته الحربية من الزحف ضد يهودية .

وحذر أشعياء ملكه من هذه المعاملة ، ولكن حزقيال لم يأبه بإنذار النبى ، ودفع الجزية التى طلبها سنحاريب ، وقد قبل القائد الآشورى الثروة التى قدمت ، وشكر حزقيال كثيراً ، ثم غزا يهودية ! وكانت هذه هى اللحظة التى تقدم فيها أشعياء لينال عظمته الكبرى .

فى الأيام الأولى وعندما كان خطر المعتدين لا يزال بعيداً ، عنف أشعياء مدينته وشعبه ،:

. « كيف تصير المدينة المؤمنة زانية عاهراً ، لقد كانت مليئة بالعدل وهى الآن عش المغتالين ، أمراؤك أيتها المدينة متمردون ، كل واحد يحب الرشوة ويجرى وراء المال لا يرعى قاضيك يتيماً ، ولا هو من يحمى أرملة تأتى إليه . ولأجل هذا الظلم سيسلط الله عليهم أعداءهم الغرباء كالسوط ، هؤلاء العادون من أرض الحلفاء لن يكونوا إلا آلة فى يد الله المنتقم ، إن الله يقول :

إنى أرسلت عليكم ملك آشور كقضيب من غضبى ، قضيب أعاقب

به شعبى . سلطته عليهم ليأخذ الأسلاب والغنائم منهم ، وليكتسحهم بعيداً كما تكتسح الأوحال من الطريق » .. ولكن هؤلاء البغاة الآن فى يدى .– وتغيرت النبرة الغاضبة فى كلام أشعياء إلى نغمة رقيقة ، نغمة تشجيع وأمل ،– أكد لقومه أن سنحاريب لن يغزوهم . وأن بغيه العاتى سيدل على أنه لن يفعل ما ينذر ويهدد به من عذاب .

هذا المحارب الوقح يظن أنه سيد العالم ، ولكن فى الواقع هو لا يملك حتى إرادته ، ما يظنه إرادته وعزمه هو فى الواقع إرادة الله وحده . وسيسوقه سوقاً إلى مصيره .

هذا الملك الأحمق يقول فخوراً : إننى بيدى القوية قطعت أمماً ، وبحكمتى استصْفيت كنوزهم ولكن الله يضحك من كلامه ، هل تتكبّر الفاس على اليد التى تقطع بها ؟ إن الملك سنحاريب ليس إلا فأساً طيّعةً فى يد الرب ، وسينكسر الفاس قبل أن تضرب مدينة الله ضربة واحدة .

وبينما كان أشعياء يذيع هذه الكلمات فى قومه كان سنحارب يواصل خطواته بدون رحمة تجاه يهودية ، وقد استولى على ست وأربعين مدينة فحكم السيف فى رقاب الرجال ونقل مائتى ألف من النساء والصبيان أسرى أرقاء ساقهم إلى بلده .

أخيراً وصل سنحاريب إلى أبواب أورشليم فخوراً بانتصاره المرتقب ، وبدأ بتوصية الملك حزقيال أن يستسلم ، وقال له بكبرياء وازدهاء : هأنذا حبستك فى عاصمتك كما يحبس الطائر فى قفصه ، وأنه لا يجدى عليك أن تركن إلى حماية الرب ، أنا الملك سنحاريب ، وحدى السيد ، بأمرى ترتجف الجبال ، وبإشارة منى تموت أمم وتحيا ، بيدى القوية غزوت العالم ، وبحكمتى وعقلى زحزحت حدود الدول ، وأخرجت الكنوز من مخابئها ، استوليت

عليها كما يجمع البيض جامع من عش مهجور ، لقد جمعت الأرض كلها ، ولا يوجد شخص يستطيع أن يحرك جناحه أو يفتح فمه أو ينطق بتفريده .

وخضع حزقيال لهذا التهديد ، ورأى من الحكمة أن يخضع لرجل ذى قوة خارقة ، إنه سنحاريب قاهر العالم !.

ولكن أشعياء إجابة لهذه الكبرياء من سنحاريب أوصى قومه أن يبقوا على صمت وتحد . وقال لهم أفضل لكم أن تموتوا مع الحرية من أن تعيشوا عبيداً ، ولكن ثِقُوا أن الله لن يدع شعبه ليكون مسترقاً ، إن كبرياء سنحاريب ستنتهى به إلى مصيره المحتوم . . إن أنفاسه هى النّار التى ستلتهمه ،

« طبقا لقانون الأخلاق الصارم الذى به تموت الأمم وتحيا ، ستكون وحشية هذا الباغى مثل السلاح الذى يرتد إلى صدر المحارب به ، ويل لهذا الباغي النّهاب ، ولكنكم لن تسلبوا . إذا أنتم عاملتموهم بخيانة فلن يكونوا خواناً معكم ، عندما تمسكون عن النّهب فستنهبون ، وعندما تكلُّون وتمسكون عن معاملتهم بخيانة فإنهم سوف يعاملونكم بخيانة » الآن ناهِبُنا يجلس فى عليائه كأنه إله ، ولكن غداً سينحط من علياء عرشه مع بقية الأوباش الذين معه ، ثم تزيلهم مكنسة الدمار .

« إن سنحاريب حيوان متوحش ، وسوف يعامَل معاملة الحيوان المتوحش بيد الله ، سوف أضع الشّص فى أنفه واللجام فى فمه — سأرجعه ثانياً من الطريق الذى جاء منه » لقد جاء سنحاريب ليحطم « يهودية »[1] ولكن هذا المحطِّمَ سيكون هو المحطَّمُ ، أعلن أشعياء هذه بثقة وإصرار ،

---

(١) يريد مملكة يهودية .

أو بحكمة قائد حكيم .

* * *

تحققت نبوءة أشعياء ، فلم يستطع سنحاريب أن يستولى على أورشليم . هذا ما نعْرفه ليس فقط من الكتاب المقدس ، ولكن أيضا من كتابات آشورية قديمة وجدت فى خرائب نينوى ، والقصة التى وجدت مسجلة فى الكتابة الآشورية تتكلم بصيغة المفرد المتكلم وبلسان سنحاريب نفسه ، قص فى شىء من الصخب والتباهى جولة غزوه وانتصاراته على الأقطار فى غرب آسيا ، وأخذ يسرد المدن التى استولى عليها واحدة بعد الأخرى ، والأسلاب التى ربحها والملوك الذين أخضعهم .

« كل هذه المدن أنا حاصرتها ، وأخضعتها إلى نيرى ، أنا أخذت ثرواتهم ... قدمت رؤساءهم للموت ، وضعت أجسامهم فى السّفود[1] ... » واستمر يصف مسيرته إلى أورشليم ، وهناك اقتطع القصة .

إن ما حدث لسنحاريب عند حصاره أورشليم ليس معروفاً بالدقة إلى الآن ، وتبعاً لما جاء فى الكتاب المقدس ، أن ملاك الرب « خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً . ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة »[2] .

هذه القصة جاءت فى أسلوب رائع فى شعر بايرون فى قصيدته « أنغام عبرية » وفيها يقول :

---

(١) السفود الخازوق أو قضيب الحديد الذى يشوى عليه اللحم .

(٢) سفر الملوك الثانى ١٩ / ٣٥ .

قدم آشور قدوم الذئب فى حَظِيرة[1]
كانت فيالقه تتألق فى الأرجوان والذهب
كان بهاء أسنتهم مثل النجوم على صفحة الماء
عندما تتدحرج الأمواج الزرقاء ليلاً فى أعماق الجليلى
مثل أوراق الغابة عندما تبدو خضرتها فى الصيف
كان الجيش مع راياته مرئياً عند غروب الشمس
مثل أوراق الغابة عندما تضرْ بها رياح الخريف
كانوا كذلك فى غدهم ملقينْ مثل الهشيم
لأن ملك الموت مدّ جناحيه على مهادهم
وتنفس فى فم الأعداء عندما مر بهم
كانت عيون النائمين ثابتة تبدو عليها قشعريرة الموت
وخفقت قلوبهم خفقة واحدة ثم سكتت إلى الأبد

ومضى بايرون يصف فى شعره الجميل قوة سنحاريب وانهزامه بيد القدرة الإلهية :

وأعولت أرامل آشور بأصوات عالية وتحطمت الأصنام فى معابد الإله بعل
وضربت قوى الأمميين بالسيف وذابت أمام نظرة الله كما يذوب الجليد

وجاء المؤرخ اليونانى هيرودوت برواية أخرى اعتمد فيها على كتابة مصرية ، وفيها عزا هزيمة سنحاريب إلى أن قطيعاً من الفيران سطا على آلات جنوده فقرض سياتها[2] ، ولعل الحقيقة أن يكون ذلك طاعوناً وبائياً تفشى فى جنود سنحاريب ، ومنشؤه البيئة غير الصحية والحالة التى أجهد بها جنوده

(١) هجم كما يهجم الذئب على عش .
(٢) الجلد الذى يشد به القوس .

طلباً للغزو ، ووجود هذا الوباء غير مستبعد فى مثل هذه الطبيعة الشاذة ، وقد صورها أشعياء فى أسلوب شعرى يصور أن ملاك الله ضرب الجنود . وقد نجد فى قصة هيرودوت إشارة إلى هذا الطاعون لأن الفيران تكثر فى هذه المستنقعات العربية .

ومهما يكن من شأن السبب الذى هزم به جيش سنحاريب فهذا هو ما انتهى إلينا .

ورجع الملك المهزوم حزيناً خجلاً إلى عاصمته نينوى ، وقد جاء فى سفر أشعياء أن ولديه ادرامليك Adramilich . وسيرزر Sarezer . عَدَوَا عليه فَقتَلاه ، وكانت هذه نهاية طاغية من أفظع الغزاة وأشدهم قسوة فى العالم القديم .

إن هؤلاء كان لابد أن يحطمهم الله ، لقد أظهر هذا الرجل جنوناً وولعاً بالحروب ، ولم يبال بأرواح الناس ، وكانت عاقبته الخسار .

* * *

لقد نقى الله الأمم بمصفاة هذا الهلاك . كما تنبأ أشعياء ، وهو سيرجع البقية الباقية تحت حماية الأبوية . وهذه البقية ليست هى اليهود وحدهم ، ولكنها بقية جميع الأمم فى العالم كله ، تلك تحيى آمال المستقبل وتجعله طاهراً ، لقد طهروا من ظلمهم فى أتون المعاناة والمصاعب ، وهؤلاء الأطهار سيكونون أول قومية إنسانية فى تاريخ الإنسانية كلها . إنهم سيعيدون بناء مجتمعهم على صخرة ثابتة من العدالة تحت قيادة الله وحده ، سينقطع الإنسان عن الشرور ، ويعرف كيف يعمل الصالحات ، ويبحث عن العدالة ، ويقطع كل أسباب الظلم ، وسيعلن الله فى هذا اليوم « سأخمد كبرياء المتكبرين ، وسأضع علو الظالمين » .

واستمر أشعياء فى وصفه لهذا اليوم وهو فى غمرة حماسه ، مأخوذاً بالرؤية التى قال إنه رآها ، يقول إنه العصر الذهبى الذى تزدهى به الدنيا يوم أن يظهر مسيح الله ، إنه رسول الله الذى يصلح الضمائر ويطهر القلوب ، فى ذلك الوقت سينام الحمل فى حضن الذئب ، وينام النمر بجانب السخلة[1] وهكذا يسود الأمن حتى تجد ابن البقرة وابن الأسد والعجل السمين كلها تعيش معاً ، ويستطيع الطفل الصغير أن يقودها ويصرفها ... وبالنسبة للأرض ستكون مليئة بعلم الله ، كما يملأ الماء المحيط .

فى هذا اليوم ستفقد الأمم المتكبرة كبرياءها وتتخلى نهائياً عن ظلمها ، هذا لأنها رأت تحطيم المتكبرين المستبدين ، ورأت امتداد المساواة والعدالة والعدالة بين الناس على الأرض كلها . « كل الأمم ستكون تحت جناحى متمتعة برحمتى ، لأنهم جميعاً أولادى ، ومن صنع يدَىَّ .

وهكذا ظل أشعياء يقول : إننى أتنبأ لكم بأن ذوى القلوب الخائفة المرتعبة سيتمتعون بالأمن والقوة ، ولا يخافون شيئاً ، لأن عينى رأت عظمة الله وجلال تجليه » .

وتطلع أشعياء إلى قمة نبوءته ، وتحدث عن خلود الأمل الإنساني ، قال : وسيكون فى نهاية هذه الأيام أن الجبال التى في بيت الله[2] ، سوف تبنى كقمة للجبال كلها ، وستنساب إليها الأمم وتهتف : دعونا نصعد إلى جبل الله ، وإنه سيعرفنا صراطه المستقيم ، وسنمضى قدماً فى طريقه ... إنه سيحكم بين الأمم وسيصدر سبحانه قراره لكل الأمم أن تدع آلاتها الحربية ، ستفرغ حشو مسدساتها فى الهواء ، وستصهر حرابها ، ولن يرفع واحد

---

(١) العنزة الصغيرة .

(٢) فى البلد الذى فيه بيت الله .

سلاحه لحرب الآخر ولا تحارب دولةٌ دولةً ، وأيضاً لن يتعلموا بعد طريقة الحرب .

* * *

هذه هى الرؤيا الثمينة التى تركها أشعياء بن عاموس لجيله ، ولكن ما كان جواب هذا الجيل له ؟- إنه جواب الأجيال لمعظم الأنبياء – لقد قسموه بالمنشار قسمين – كما يروى لنا المؤرخون .

إن الدنيا – كما قرر هذا النبىُّ فى رسائله إلى العبريين – لا تستحق الرسالة التى جاء بها ، لا تستحق الأنبياء الذين جاءوا لبث الهداية والإصلاح بين بنيها ، ولكن الله سبحانه أذن لأنبيائه بدعوة الناس ، وهيأهم لأن يتحملوا المشقات ويكابدوا الصعاب لأنه ينظر إلى الأجيال التى تأتى بعد ، فهو يريد أن يهىء لهم مكاناً أفضل ليعيشوا فيه .

* * *

□ زردشت □

Zaroaster

٦٥٠ ق م تقريباً

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد من أسلاف نبلاء .
فى سن الثلاثين تجلت له الرؤية الإلهية .
ذهب إلى مجلس الملك قشتاسبا .
سجن بسبب عقيدته التى ليست أرثوذكسية .
أطلق من سجنه ، وغير الملك قشتاسبا عقيدته الدينية .
أسس عقيدة دينية جديدة .
ذبحه غزاة الإقليم وهو يتعبد فى المعبد .

* * *

هذه – طبقا لكتاب الفرس المقدس – قصة « زردشت » . حامى البشرية . ميلاده وحياته وموته .

إنه منذ بدء الخليقة تقوم معركة مستمرة بين أهورا مزدا إله النور وأهرمان إله الظلام ، يقول أهورا مزدا : إننى أبداً لم أذق طعم الراحة من أجل رغبتى فى أن تستمر حمايتى لهذا الكون الذى خلقته بيدى ، وكذلك لم يسترح أهريمان من أجل رغبته فى أن يحطم المخلوقات التى خلقها أهورامزدا .

إن هذا الخالق ذو جهود مستمرة خالدة ليحمى النوع الإنسانى وقد علم الإنسان لذلك فنون السلام ، والاقتصاد والصداقة والمحبة ، واستئناس الحيوانات وزراعة الأرض ... ، ولكن الشيطان فى جهاده الأبدى المستمر ليحطم البشرية ، علم الناس فنون الحرب ، والإسراف والعداوة والبغضاء والسرقة ، ونهب بعض الناس من بعض ، وتخريب كل منهم أرض الآخرين وإتلاف زرعهم .

وفى فترة هذا الصراع بين هذين الإلهين - إله الخير وإله الشر - انتهت الدنيا إلى وقت ساد فيه الحزن . لأن قطاع الطرق فى الجبال ذبحوا وقتلوا سكان السهول . جمع أهريمان كل الأرواح الشريرة فصمموا أن يضعوا نهاية لهذا السلام فى حياة البشر ، واضطر الناس أن يخضعوا لهذا العمل المحزن ، حتى الحيوانات العجم كانت حزينة لما تتوقعه من تفرقتها قهراً عن أصحابها .

وأخيراً اتجه الجميع إلى « جوزورفان . Gosurvan » روح الثور المقدس ، وطلبوا أن يتوسط نيابة عنهم أمام عرش الإله الأعلى ، واستجاب جوزورفان وصاح بأقصى خواره كما لو كان ألف من الرجال يصيحون فى صوت واحد : « لمن تركت - ياالله - حماية مخلوقاتك ؟ حيث حطمت الأرض ، وذبل الزرع ونضب الماء وذبح الرجال ؟- وقال الله له : إننى سأخرج من يقوم بالخلاص ، وينجى مخلوقات الأرض جميعاً . « وكان هو زردشت » . زروستر .

* * *

عندما ولد « زورستر » - وكان اسمه الفارسى زاراثاستر Zarathuster - « زرادشت » ابتهجت الطبيعة كلها . غنت الأشجار والأنهار والجبال والطيور وغنت أغنية النصر لهذا الإله قاهر الشيطان . وغمر

الكون كله ضياء إلهى ، وانفجرت رنة الضحك على شفتى الطفل الوليد عندما شاهد هذا النور ، ولكن الأرواح الشريرة شرعت فى الحال تعمل عملها لإماتة هذا الوليد الحكيم .

أراد أحد هذه الأرواح أن يلوى عنقه أثناء نومه فى مهده ، ولكن يده تجمدت عندما مدها نحوه ، وأراد روحٌ آخر أن يلقى به فى طريق القطائع المجفلة ففعل ، ولكن أحد الثيران – بمساعدة أهورامزدا – وقف بجانب الطفل ليحميه ويحول بينه وبين وطأة الماشية المميتة ، وجاء روح ثالث فوضعه فى وجار ذئب ، ولكن الذئاب أبت أن تمس حتى شعرة من رأسه ، وعلى العكس من ذلك ذهبت الذئاب فساقت إليه شاة لترضعه .

وهكذا نجا الطفل من كل مؤامرات السوء التى دبرت له ، وشب وترعرع ، وفى السابعة من عمره قدم إلى معلم حكيم علمه الطرق الموصلة إلى الله ولم تغفل عنه الأرواح الشريرة ، أرادوا أن يحطموا جسمه بالأعشاب السامة وعقله بالترهات ، ولكنه انتصر عليهم بمساعدة معلمه . ويقول بعض الكتاب القدامى إن معلمه هذا كان هو النبى إرميا العبرانى.

وفى الخامسة عشرة من عمره كان خليقاً أن يضطلع بأعباء دعوته الدينية . وخلال الخمسة عشر عاماً التالية صفى أخلاقه وطهر نفسه فى مياه العواطف المقدسة النبيلة ، ساعد المسنيّن ، وطب للمرضى ، وأطعم الجياع ، ورحم الحيوانات المثقلة بالأحمال فخففها عنها ، وتنقل بين أقرانه ليريحهم مما يصادفهم من عناء ، وبوجه عام أعد نفسه للتدرب العملى والاستقلال الذاتى . أو الحياة المستقلة .

وهكذا عند الثلاثين كان مستعداً للنهوض بأعباء رسالته معلماً للناس مبشراً بدين جديد ، ذلك أنه رأى من فوق قمة الجبل – جبل سايالان – تلك الرؤية الإلهية التى وجهته هذا التوجيه ، هناك فى كهف من كهوف الطبيعة

كان قد أعدّه من قبل للأجسام السموية . وفى بقعة متفردة طالما أنفق فيها الساعات للتأمل والتفكير وجد أهورامزدا أمامه وجهاً لوجه . وبعبارة أدق - طبقا لتعاليمه - رأى أمامه وجوه أهورا السبعة ، هذا لأن زردشت مع أنه يؤمن بأن الله واحد ، يضيف إليه سبعاً من الشخصيات ، فهو يمثل النور الأبدى، والحكمة البالغة ، والعدل الذى لا يحيد ، والقوة التى لا تغلب ، والتقوى والإحسان والحياة الأبدية .

وحين أظهر الإله الواحد ذو السبع صفات نفسه لزرادشت ، جعله نبياً وقاده إلى السماء ، وعلمه التمييز بين الحق والكذب ، وحيث وعى النبي هذا الدرس فى قلبه هبط ثانياً إلى الأرض ليعلمه أقرانه ، وعند هذه النقطة قامت أرواح الشر من جديد - بوصفها حراس الكذب - لتغير على زردشت وتقتله ، وفى شمال الإقليم . وهو مقاطعة مليئة بالغابات والأحراش وأسباب الموت - أسرع أهريمان على رأس حلفائه ليدبروا قتله ، قال لهم : فلنقتل زردشت الكامل العدالة والحق إنه لو عاش فستموت الشرور ، وبغير الشرور لا حياة لنا ، سنموت نحن أيضاً ، ولكن زردشت سلح نفسه بالحق والإيمان ، وجعل سيف العدل والحق حماية من هؤلاء الشياطين .

ورأى شياطين الشر أن حملتهم قد باءت بالفشل فلجأوا إلى حملة وأسلحة أخرى ، لجأوا إلى أسلحة مسمومة وخداع غير مسلح من التظاهر بالحب والصداقة . أخفى الشيطان نفسه وتقنع بقناع الآلهة الجميلة الفاتنة آلهة الأسرار والآثام ، وأخذ أهريمان يوسوس له ويغريه بمتعة اللحم والدم ، ولكن زردشت أعرض عن هذا الإغراء ، وانخرط فى الأعمال الموصلة إلى الله . وظل لمدة عشرة أعوام يتجول هنا وهناك ليبلغ كلمة الله إلى هؤلاء الذين ختم الشيطان على أسماعهم وأصمهم عن كلمة الحق . ولم يكن طريقه سهلاً ، بل فى كل مكان كانت عقبات من الحيل والوساوس التى تصد الناس عنه ، لقد بذل أعداؤه فى سبيل الصد عنه كل غال ونفيس ، ولذا عز عليه

أن يكوّن أتباعاً ، وأخيراً استجاب له أحد أقاربه . متيومان Metyoman ، ومضيا معاً يتجولان ويعانيان المشقات ، ولكنهما فوق هذه المعاناة استطاعا أن يصوغا الكلمات الذهبية لكتاب الآفستا ، كتاب الفرس المقدس أو إنجيل الحق .

* * *

تعرف الافستا لدى الغربيين باسم « زند أفستا » Zendavesta . وهى كتاب دين وأخلاق وفلسفة ، فهى تتحدث عن الإله الخالق وعن واجب الإنسان نحوه وعن مصير الحياة . وقد ذهب هذا الكتاب الأصلى مع الأيام ، وليس لدينا الآن غير بقايا منه ، ويقال إن الكتاب الأصلى كان يملأ ما لا يقل عن اثنى عشر ألفاً من جلود البقر وقد حطمت أثناء حملة الإسكندر الأكبر على هذه البقعة ، إذ أشعل جنوده النار فى عاصمة الفرس . Perspolis ، ولكن البقايا التى تخلفت تكفى لإعطاء صورة واضحة صحيحة عن آراء زردشت وفكره عن الله والإنسان والمصير .

[والمبالغة واضحة فى مقدرة شخصين اثنين أن يكتبا فى مدة قصيرة ما يملأ اثنى عشر ألفاً من جلود البقر] .

ونلمح التشابه الواضح بين إله زردشت ، أهورامزدا – والإله الذى تحدث عنه النبى موسى يهوه « Yeh wah » ، وزردشت مثل موسى صور إلهه – كموسى – فى صورة جسدية كما تخيله هو ، [وهذا طبقاً للصور الإلهية العديدة التى صور بها يهوه فى الكتاب المقدس] .

أهورامزدا يصوره فى صورة إنسان إلهى هو زوج لهضبة فارس – كما أن يهوه إله بدوى من الصحراء العربية – إنه كامل العلم كامل القوى كامل الرحمة والرثاء لبنى الإنسان ، خالق الكون كله ، وهو أبو الجنس الإنسانى ، ويمد

كل مخلوق بحياته وما يعيش به . جسمه هو النور وهو بهاء الكون ، الشمس والقمر عيناه ، وكساؤه هو هذه القبة الصلبة الزرقاء قبة السماء ، هو الذى صنع السموات لتبعث النور ، وخلق الأرض لتنشىء الحياة ، هو الذى رسم للكواكب مجراها . وقاد الشمس فى ممرها ، وأمسك السماء أن تقع على الأرض وأمسك الأرض أن تزول وهو الذى يمد بالماء والنبات ، وهو الذى يتحكم فى سرعة الريح والسحاب ...

أهورامزدا بعث فى الإنسان الرغبة فى الزرع ، ويبث فى البذور قوة النمو ، وفى كلمة هو مجموعة القوى الطبيعية الذى تؤلف عناصر الحياة وتكسوها الجمال .

أما القوى التى تشوه وجه الحياة الجميل فإنها تنبعث من الشياطين . وأهريمان هو الذى خلق الظلمة وكل الأشياء والصفات القبيحة الضارة . سواء فى ذلك الأفاعى والجراد والنمال والحشرات والفيران ... ، وأيضاً العواصف والفيضانات والأمراض ، وجوارح الطير والديدان والهوام .— كلها عدو يحارب قوى الخير والمنفعة ، كما تقف ضد العدل والرحمة والعواطف النبيلة والسلام ،. [وإذن فالحرب بين الطائفتين دائمة أبدية] .

وعلى الرغم من انتصارات الشرور هى انتصارات وقتية وإلى أجل ، ولن تستطيع قوى الشر أن تتغلب على الله ذى العلم الكامل والقوة التى لا تحد . إنه يعلم عاقبة هذا النضال . وقد أعد لها سلاحاً لا ينثنى ، ورصد للشر قوة لا تغلب إنها الإنسان العادل الصالح [زرادشت] .

وقبل أن يعد أهورامزدا هذا المخلوق العادل ، كان لابد أن يجرى عدة تجارب مع الطينة الإنسانية ، وفى البداية صور ماشيا وماشيوى Mashya: and Mashyoi . (آدم وحواء فى مخطوطات الفرس — ثم وضعهما فى جنة أرضية ، وتكلم إليهما قائلا :

« أنتما رجل وامرأة ، أصل الدنيا ، وقد خلقتما لتقيدا العدالة وأن تؤديا واجب القانون فى تقوى وإخلاص ، فكرا تفكيراً صالحاً وتكلما بكلمات حسنة ، اعملا أعمالاً صالحة ، ولا تعبدا الشيطان » .

« وظل ما شيا وماشيوى لمدة من الزمن يؤديان بتقوى واجبهما ، ويعبدان الحق ، وظلا زوجين آليفين ، فانجبا سبعة أزواج من الأولاد ، بنين وبنات ، ... ، وظلا خمسين عاماً يلدان ، ولما بلغا مائة عام ماتا معاً .

أما أولادهما فمع مرور الزمن نسوا عبادة الحق ، ووقعوا تحت وسوسة أهرمان – وهو أبو الكذب – لذا أرسل الله عليهم الطوفان من الثلوج الذائبة ، فأتى عليهم جميعاً فأهلكهم عدا القلة الأتقياء . وأعلن أهورامزدا أن الحق سيولد ثانياً زيادة على هؤلاء الذين لم يهلكوا ، وهم سيكونون بذوراً للأتقياء أو للرجل التقى . ولكن من هو الرجل التقى ؟ . إنه هو الرجل الذى سيبنى حياة رفاقه على ثلاثة أركان . هى الفكر الحسن ، والكلام الحسن ، والأعمال الحسنة .

وقبل كل شيء إنه من الحتم للنوع الإنسانى أن يفكر فى العدالة ، ولابد أن نهيىء أذهاننا ونعدها بحسن التجربة – لابد أن نتعلم كيف نأسى مع الحزانى ونفرح مع المسرورين ، لابد أن نزيل الجهل بنور البحث عن الأسباب ،– لأن الجهل هو الذى يحطم بنى الإنسان . وهو سبب الجراح المتبادلة بين الناس ، إن الشخص الغبى هو الذى يجهل أنه حينما يؤذى جاره إنما يؤذى نفسه ، أما الشخص العاقل فهو على العكس من ذلك يعرف أن الرفق بالآخرين . سواء كانوا قريبين أم بعيدين – سوف يعُود عليه بالرفق والرحمة .

وهكذا نجد أن أول ما يتطلبه دين زردشت ، هو تسوية العلاقة بين الإنسان وبين رفاقه ، وذلك بالتفكير فى العدالة والحق .

والأمر الثانى الذى يتطلبه هذا الدين هو الصدق فى القول ، لأن الشخص الذى يقول غير الحق قد يخدع صاحبه ، ولكنه لا يستطيع أن يخدع الله ،– ولهذا إنه من الضرورى أن تكون شريفاً ليس فقط فى تفكيرك بل أيضاً فى حديثك . بعبارة أخرى ليست الديانة الزردشتية سلبية ولكنها طريق إيجابى للخلاص . ولكى نخلص أنفسنا لابد أن نعلم الآخرين كيف يخلصون أنفسهم ، وجاء فى الآفستا ، أن واجباً علينا أن نعلم أعداءنا الصداقة ، وأن نعلم المنحْرفين الحق ، ونبث الحكمة فى نفوس الجاهلين – وفوق ذلك لابد أن نبغض الزيف ، والذى ينطق بغير الحق هو أكبر عدو ومضاد للناس جميعاً ، إنه لا يؤذى فقط الأذن التى تسمعه ولكن يؤذى روح جيرانه ونفوسهم ، وزردشت على استعداد أن يسامح كل شخص ولكنه أبداً لن يسامح الكذاب ، ومن سامح مشيع الكذب كان هو نفسه مشيَعاً للكذب ، ومن صادق الكذاب كان كذاباً ، لأنه بصداقته له أو حسن معاملته إياه يسقى بذور الكذب التى فى نفسه ، وسرعان ما تخرج ثمارها فى أشجار الظلم .

ويؤكد زردشت احتقاره لمن يكتم الحق . ولكى يتمسك الإنسان بعناصر الكلم الطيب لا يكفى أن يقول الحق فقط ، بل لابد أن يقف ضد الباطل ، ليكون على حق ولكى يكون مستقيماً لابد أن يرفع صوته بالحق عندما يرى أى خطأ ليجعله صواباً أو أى أذى حتى يقتص من المخطىء ، أو أى قسوة لتكون معلنة– ، « أنه لسعيد جداً أمام الله فى علاه من يتدخل هنا فى الأدنى لمساعدة مسكين أو إنصاف مظلوم » هذا لأن الإنسان ليس مخلوقاً انعزالياً يستطيع أن يعيش وحده بعيداً عن أقرانه ، كل إنسان أخ لأقرانه ، وهم يكونون أسرة واحدة متماسكة من الجنس البشرى ،

« إن الله نفسه يقف على باب بيتك فى صورة إخوانك المنبعثين فى هذا الكون » .

ومن الفكر الصالح والقول الصالح تَنْقَاد تلقائياً إلى المبدأ الثالث من مبادىء زردشت ، وهو العمل الصالح ، لأن من فكر فى الصلاح وقال الحق ، لابد أن يكون عادلاً ، والعدل هو الهدف النهائى والأسمى للرجل الصالح . وكل واحد من أتباع زردشت يعتبر نفسه جنديا طول حياته للأعمال الصالحة ، ومبدؤه هو أننى طالما كان لدى قوة وطاقة على أن أعمل الخير من أجل إخوانى فى الإنسانية . إنه على استعداد دائما أن يقف ضد القهر والقسوة . وأن يكون عدواً ألد للذين يظلمون الناس ، وسعادة دائمة للبشرية .

هذه فكرة زردشت التى لا يفْتر عن تكرارها ، أن تمنع الظالم وتساعد المظلوم .

« تأمل أيها الإنسان : أنك عندما تأخذ على يد المسىء تجعل نفسك ينبوعاً للخير والرفاهية والسرور تفيضها على الآخرين » — والعمل الصالح فى نظره ليس مجرد واجب ولكنه مسرة وبهجة ، لأنه يؤدى إلى وجود أفضل ،— عندما يتحاب الناس ويساعد بعضهم بعضاً للوصول إلى مستوى أفضل فإنهم ينتزعون أقصى المسرة من هذه المحبة .— إن الخير ينبجس من النية الحسنة .

« لا تتناول طعامك حتى تطعم المعوز ، لأنه سيأتى يوم تسأل فيه المعوزين ليطعموك ، — وعلى العكس من ذلك ، عندما تمنع قطعة الخبز من الجائعين ، فإن هذه الكسرة ستكون ناراً أو فحمة ملتهبة فوق رأسك » — أعدى أعداء الإنسان أطماع نفسه . الأطماع تولد الكراهة ، والكراهة تنتج القسوة ، والقسوة تؤدى إلى الموت » .

هكذا كانت تعاليم زردشت تجاه الأخاء الإنسانى ، وفى فقرة من فقار الأفستا لخص هذه العلاقة — كما فعل كونفو شيوس وهليل ، وعيسى ،

صاغها فى لغة عالمية وقانون ذهبى : لا تقف ضد شخص آخر مهما كان موقفه سيئاً ضدك » – هذا طريق الحق وهذا هو الغرض النهائى للحياة الإنسانية » لأن الحياة لا تنتهى بالموت ، ولكنها تستمر بعد الدفن فى القبر ، وعندما يموت الرجل الصالح تبدو أعماله الصالحة – أمامه فى صورة حسناء شابة ، يفوح شذاها كما لو كانت جميع الأزهار التى فى الدنيا مجتمعة . وعندما يموت الشخص السيء تبدو أعماله السيئة أمامه فى صورة عجوز شوهاء مقبوحة تفوح رائحتها الكريهة كما لو كانت أكداس القاذورات التى فى الدنيا كلها مجتمعة .

وبحسب الأعمال تقاد الأرواح إلى صراط التّنقية ، وهو قنطرة فوق جهنم ، فذوو الأعمال الصالحة يمرون عليه فيرقون إلى الأعلى فيدخلون فراديس السماء ، موطن النور ومنزل السرور .

ولكن الرجل السيء الأعمال يسقط من فوق الصراط فيلقى به فى الجحيم ، موطن الذعر والظلمة والعذاب والدموع . ويتولى تعذيبه عفاريت تولد من سيئاته وذنوبه ، وهى أفكاره السيئة وأقواله السيئة وأعماله السيئة .– وهنا تصل الفضائل إلى قمة انتصارها ، وتصل الرذائل إلى هزيمتها وانكسارها .

« فى النهاية سوف يقضى على الرذائل نهائياً ، وكل ما يشكى منه ويؤلم سوف يفنى ، يفنى المرض والمعاناة ثم لا يكون موت فى هذه الحياة الثانية .

بعد أن يثاب الصالحون ويعاقب المسيئون ، سوف ترتفع الأعمال وتستأنف الحياة مرة ثانية على هذه الأرض حيث تقوم مملكة السماء ، ستكون الأرض منبسطة لاجبال فيها ولا وهاد ولا حر ولا ثلوج .

النهّابون الذين روعوا أهل فارس سيختفون ، الذين كانوا يأتون من

وراء الجبال فينهبون القطائع ، والرياح التى كانت تنساب من فوقها فتسلب الناس صحتهم ، كل أولئك لن يكون لهم وجود فى مملكة السماء المقبلة ، ستكون الحياة كلها عدلاً خالية من الآلام ، خاليه من الخوف والأحقاد ثم لا يكون موت بعد ذلك لأنها حياة أبدية ، ليس فيها ظلم ولا خلافات ولا كذب ولا حماقات ولا معاناة – كل المخلوقات ستكون أبدية دائمة الحياة ، ويكون إله النور وحده هو الحاكم الأعلى .

* * *

أخيراً وجد زردشت – وهو غارق فى أحلام مملكته المرجاه – ملجأ يكفه مشقه التجوال ، ذلك إن الملك – فشتاسبا – قبل تعاليمه ، ورحب به فى قصره ،– وكانت معجزة المعجزات أن يحصل هذا النبى الفارسى على هذا التكريم فى بلده ، تزوج ثلاث مرات ، وأنجب أسرة كبيرة ، ونال شهرة واسعة ، إنه ساحر يأتى بالعجائب الخارقة ،– وكان معاصروه مهتمين بآياته أكثر مما هم مهتمون بروح الرسالة التى جاء بها ، أنكروه عالماً وحكيماً ، وامنوا به بهلواناً صانع ألاعيب ، كانوا يتناقلون الأحاديث فيما بينهم عن عجائبه الإلهيه القدسية ، يقولون إنه يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، يدخل البيوت المغلقة من خلال الجدارن الصم ، يسخر الرياح العاصفة للنيْل من أعدائه يعيد الموتى ثانيا إلى الحياة ... كل هذه الخوارق وغيرها لاكتها ألسنتهم وتفتحت لها أذهانهم ولكنهم عموا عن المعجزة الحقيقية التى تقوم عليها عظمته ، وهى قابليته أن يلين القلوب المتحجرة . وحتى قبول الملك رسالته يحاط بأسطورة ، لقد ظل يرفض تعاليمه حتى أرسل أهورامزدا إليه فى قصره الملكى ثلاثة من رؤساء الملائكة فى مركبة نارية فانذروه : « إذا أنت قبلت رسالة هذا النبى فإنك ستكون مباركاً ، وستتمتع بحياة طويلة ، وتظل ملكاً حاكماً مائة وخمسين عاماً ، أما إذا لم تقبل رسالته فسوف تلتهمك نار الله

الموقدة حتى تأتى عليك » – وأمام الخوف والرجاء قبل الملك رسالة زردشت لينجو من غضب الرب ، وحينئذ قدم له الملائكة ينبوع الحياة فشرب منه ، ثم خلعوا عليه ثوب النصر على أعدائه .

لقد كان الملك فَشتاسبا فى مسيس الحاجة إلى ثوب النصر على أعدائه . لأن حشوداً هائلة من الأعداء غير المؤمنين ، ومن الأمم المحيطة به قد تحالفوا فيما بينهم وتجمعوا تحت راية الشيطان فى حرب ملعونة ضد الإيمان . ثمانية من جموع الأعداء ، وقفوا ضد مملكته .

فى هذه الحروب الدينية أحرز الملك الفارسى النصر ، ولكنه فقد النبى الذى آمن به فبينما كان زردشت مع ثمانين من القسس يؤدون صلاتهم فى المعبد – معبد النار المقدسة – اندفع الغزاة المسلحون إلى المدينة ، وشملها ظلام وعم السلب والنهب ، وفى سكرة هذا النصر الوقتى القم الجنود النار أسفار الأفستا وهدموا المعبد . ثم ذبحوا النبى وأتباعه من القسس جميعاً ، ومن دمائهم المراقة أطفئت النار المقدسة وانتهت العبادة التى سنها زردشت .

وعندما كان زردشت يلفظ أنفاسه الأخيرة كان قوس قزح يتألق فوق المعبد ، وسأل زردشت أهورامزدا : لماذا هذا القوس المتألق ، وأجابه أهورامازدا : إنه ابتسامة الأرواح التى فوق السماء ، تواسى وتشجع الأرواح التى على الأرض .

* * *

□ جوتاما بوذا □

Goutama Buddha

٥٦٣ ق م – ٤٨٣ ق م

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد سنة ٥٦٣ ق م .
نشأ وتربى فى قصر أبيه ، ملك أسرة – ساقياس Sakyas .
تزوج حسناء من أقاربه .
قطعت المسرات والأفراح الملكية برؤى المعاناة ثم الموت .
فى سن ٢٩ ترك قصر أبيه باحثاً عن الحقيقة .
اهتدى إلى الحقيقة وهو جالس تحت شجرة التين المقدسة – شجرة النور .
بدأ يبشر بديانته الجديدة فى مدينة بنارس .
كون حوله أصدقاء – إخوة – للتبشير بدعوته .
تجول خلال أقطار الهند ليذيع بين الناس « علم الحياة » .
مات فى سن الثمانين فى مدينة كوزيناجرا « Kusinagara » .

* * *

كان اسمه الأصلى : سدهارتا ساقيامونى جواتاما . وهو بمعنى : جوتاما من قبيلة ساقايا الذى بلغ قمة الكمال .

ولد لأمير هندى قبل أن يولد المسيح (لنَجار يهودى فقير)[1] بنحو خمسة قرون . كان أبوه حاكماً على قبيلة ساقيا التى كانت تقيم على سفوح جبال الهمالايا . أما أمه فكانت أحدى زوجتى أبيه ، وكلتا الزوجتين بنت ملك كان بجوار هذه القبيلة ، وعندما أحست أمه – وهى حامل به – أن موعد ولادته قد دنا شرعت فى الانتقال إلى قصر والدها لتلد هناك طبقاً لعادات القبيلة ، وقبل أن تصل إلى القصر فاجأها المخاض ، وألجاها إلى غابة فى الطريق فولدت ابنها جواتاما – تحت أشجار رخصة ناعمة .

نشأ الصبى وترعرع فى بلاط أبيه الملكى ، ولم تكن له صلات بالعالم الخارجى ، وعاش ممتعاً بكل أنواع المسرات ، فنما جسمه وبدت عليه البهجة والطموح ، وفى التاسعة عشرة من عمره تزوج احدى الحسناوات من قريباته ، وكانت تسمى ياسود هارا Yasod hara . ولكن سعادته بهذا الزواج لم تكن مكتملة لأن زوجته كانت عقيماً ، وكان حزيناً لحرمانه من النسل ، ولكن هذا الحرمان فجر فى ذهنه أنواعا من التفكير ، لماذا لا تصفو الحياة لأحد ، إنها فى أبهى صورها تشبه الذهب الزائف ، إن الذى يبدو من أسعد الناس وأمتعهم بالمسرة نجد حياته مليئة بالخلل وتنغصه دائماً خيبة الأمل . هل تستحق هذه الحياة أن نستمر عليها بعد ذلك كله .

وخرج فى أحد الأيام مع سائق عربته يتجول بين المزارع والحقول – وكان السائق يسمى تشانا Channa ، وفى الطريق قابل شيخاً مسناً قد حنت السنون ظهره وأوهنت قواه . وتراجع جوتاما إلى الوراء محزوناً لهذا الرجل ، وهمس سائقه فى هيبة : هذه يا سيدى سنة الحياة ؛ من عاش طويلاً ردته الحياة صغيراً . وقبل أن يفيق من صدمة هذا المنظر المريع ، قابله سائل فقير قد غطت جسده البثور ، وبدت عليه سمات المرض المنفر ، وقال السائق

(١) كتبنا هذه الجملة وفاء بحق الترجمة ، ونحن طبعا لا نؤمن بها .

ثانياً : هذه يا سيدى سنة الحياة أيضاً . وسكت جوتاما غارقا فى تأمله . واندفعت العربة ، فقابل هيكلاً عظمياً عارياً قد تغير لونه وسفعته الشمس وبدا فيه التعفن ، وقال السائق : هذه يا سيدى نهاية الحياة .

ورجع الأمير ثانياً إلى قصره مفكراً مستغرقاً فى تفكيره ، لقد قابل الآن تعاسة الإنسان فى هذه الدنيا وجهاً لوجه ، وقرر فى نفسه أن يعمل شيئاً تجاه هذه التعاسة واتجه تفكيره إلى الرهبان الذين يقفون لدى باب قصره يتكففون . واستمع إلى تراتيلهم ، ثم قال لهم : ألا تحدثوننى عن سبب تعاسة هذه الحياة وشقاء الناس فيها ، ولماذا هى خداعة إلى هذا الحد ، لا تدع صفواً إلا كدرته ؟ ولكنه صمم منذ إذن أن يودع القصر وما به من مباهج ومسرات ، وأن يعيش وحده باحثاً عن الحقيقة .- وبينما كان يتأهب لرحلته التى قررها بدا على زوجه الحمل بعد هذه المدة كلها ثم أنجبت طفلاً ذكراً ، وازدحم الناس حوله مهنئين » . تهنئة للوالد وتهنئة للوالدة ،- تهنئة خالصة لزوجة تنجب مثل هذا الوليد » .

وغنى الناس ورقصوا ، ولكن الأمير الشاب انخرط فى تفكيره ، وقال لنفسه : إنها مشكلة أخرى يجب أن أفكر جيداً فى حلها . وتريث حتى تأتى الحفلة الكبيرة التى سيقيمها الراجا والده ابتهاجاً بهذا الميلاد .

وفى منتصف الليل استرق الخطا إلى مخدع زوجته ، ولم يكن إلّا نور خافت من مصباح ضئيل ، فانحنى برفق على وجهها ، وكانت مستغرقة فى النوم تتنشق شذا الورود التى كانت تحيط بفراشها ، وتعبق الحجرة برائحتها الجميلة ، وكانت الزوجة المستغرقة فى النوم قد لفت أحدى يديها حول رأس الطفل واحتضنته بالأخرى ، وود لو يحتضنهما ويقبلهما ، ولكنه خشى أن يوقظهما من نومهما ، واكتفى أن يلقى عليهما نظرة وداع ، وانصرف فى هدوء ، ثم نادى سائقه وطلب إليه أن يعد جواديه السريعين . وبينما كانت

خيوط النور الباكر تطارد جحافل الظلام ، ركب مع سائقه غانا Ghanna . وذهنه ملىء بالخواطر – كان مصمماً على ما عزم عليه بينما كانت أصوات الإغراء فى ذهنه تستحثه على العودة ، إنها وساوس الشيطان وإغراءاته ، « ارجع ثانياً فستكون ملكاً . ساجعلك الزعيم الديني والحاكم على المقاطعات الأربع . فقط تخل عن هذا الشروع الجنونى ... » .

ولكن الأمير الشاب أبى أن يصغى إلى هذا النداء ، ولم تكن الوعود التى أغراه الشيطان بها إلا شيئاً هيناً كنسيم الليل الذى يمر به ، وعند انشقاق الفجر كان قد وصل إلى شاطىء النهر . هناك قطع شعره الطويل المسترخى[1] ، وجرد نفسه من سمات الإمارة فخلع الجواهر التى يلبسها . وسلم كل ذلك مع الجوادين لسائقه ، وأمره أن يرجع وأن يخبر أباه وزوجه بما صمم هو عليه ، ثم لبس ملابس الزراع ، وذهب ينشد الحكمة من حكماء القسس الذين ينقطعون للتعبد فى كهوف الجبال .

* * *

أصيب جوتاما بخيبة أمل ، لم يجد لدى الكهان شيئاً يتعلمه منهم ، إنهم يعلّمُون الديانات القديمة ، إنه لم يضح بالملك والثروة ويهجر أهله لأجل هذه الحكم الرخيصة ، ولا تستحق هذه الحكمة أن يخلع لها ملابس الملوك ليلبس ملابس السائلين المتسولين .

كان رجال الدين فى الهند فى ذلك الوقت فى منزلة الراجوات[2] لهم السيادة على الشعب ، وكانت أرواح الناس متعلقة بهم بسبب ما لديهم من أعمال السحر والشعوذة والخرافات ، وبسبب ما كانوا يمارسونه من الطقوس

(١) كان الملوك والأمراء يطيلون شعرهم .

(٢) الراجا رتبة عند الهنود تعادل رتبة بك عند الأتراك .

وإقامة الحفلات ، كانوا كأنهم غزاة استولوا على الشّعب ، وقد قسموه إلى طبقات تتباين فى مكانتها ، بدءاً من البراهمة الذين هم القمّة العليا إلى جماعة المنبوذين الذين لا يلمسهم أحد فى الدرك الأسفل من الناس .

لم يسترح بوذا لهؤلاء القوم ، وبدا له أن رجال الدين البراهمة لا يعرفون شيئاً من الحقائق ، ولقد تبع نصائحهم ستة أعوام متمسكاً بقوانينهم ، ولكنه الآن لا يستريح إليها ، إن طريق الخلاص الوحيد الذى أعلنوه هو طريق التنسك والرهبة ، قالوا : إن الإنسان لابد أن يعمل بمثابرة لكى يطهر جسده ، ولابد أن ينجح فى تطهير نفسه ، لابد أن يصوم وأن يصلى بمثابرة ليحصل على هذا التطهُّر ، وهو قد صام وصلى وطهر جسده ، ولكن عمله الدائب انتهى به إلى غبطة بعض العاملين والإعجاب بهم ، إنه لم يصل من خلال صلاته ونسكه إلى الحقيقة ولم يقترب منها ، ورأى أن الطريق إلى سلامة العقل واطمئنان النفس لا يأتى من طريق المعاناة وإرهاق الجسم بالمتاعب ، ولذا رجع يأكل ويتابع الطريقة المألوفة للحياة التى كان عليها من قبل . ونتيجة لهذا المنهج الجديد تخلى عنه أصحاب الخرافات الذين كانوا يزدحمون حوله . ويلتفون ، لأنه – فى الواقع – خيب آمالهم ، فاعتبروه كافراً ، ومرة ثانية عاد وحيداً منفرداً كما كان .

وفى إحدى لياليه الانعزالية ، وعندما كان تحت شجرة التين غارقاً فى تأملاته فى صراع مع شكوكه ووحدته ، هبطت عليه السكينة ، وعندما أفاق من هذا الاستغراق عند مطلع الفجر كان قد تغير نهائياً ، ولم يبق هو جوتاما ، بل صار بوذا الذى ملأه النور ، لأنه أخيراً استطاع أن يظفر بمعرفة السر العميق العظيم لمعاناة الإنسان ، عرف أسبابها ولبها .

* * *

لقد شعر أن طائراً روحياً هبط عليه من خلال رؤاه وحيرته وانكشافاته ، وأوحى إليه أن يقوم بتعليم الناس ، وسرعان ما غمره الحماس وملأه الشعور بأنه نبى يجب أن يقوم برسالته . واتجه فى الحال إلى مدينة بنارس ، وفى حديقة الغزلان ألقى أول خطبة له . ولم يأت لاستماعه سوى خمسة من أغْمار الناس ، وكان ما قاله فى أول الأمر شيئاً مألوفاً تقريباً لديهم ، لم يكن بعيداً عما يقوله قسسهم ، ولكنهم بالاستمرار فى السماع أحسوا أنهم يستمعون إلى شىء جديد ، ولكنه غريب رهيب .

قال لهم إن طريق الخلاص ليس شيئاً خارجاً عن محيطهم ، ولكنه كامن فى روح كل فرد ، إن تقديم الحفلات وإقامة الصلوات لا يجعلهم ينالون معرفة الحق .

لم ير أن يقدم لهم شيئاً من الحقائق أو السحر أو أنواع العقائد ، أو الخوارق التى يقدمها رجال الدين . ولا شيئاً من الأعمال الحسنة التى يثق الناس فيها ، ولكنه أعلن أنه على العكس مما يقوله البراهمة وما يركزون عليه من الحياة المقبلة بعد الموت . أو الحياة التى مضت قبل وجود البشر ، ولكنه ركز تعاليمه على السلوك البشرى فى هذه الحياة ، وعلى الاستقامة الحسنة فى الوجود الحاضر . إن الفيْلسوف الذى يبحث عن إجابة للمسائل أو الأعمال غير المطروقة والتى تعتمد على مجرد النظر والفكر دون وجود عملى لها ، ليس أحكم من رجل الشارع الساذج الذى يجرحه السهم فيمضى وقته فى البحث عن الرجل الذى ضربه ولا يعمل شيئاً لإخراج السهم من جسمه .

وقال عن نفسه إنه فى مجهوده الطويل لينزع السهم من جسده – سهم الحيرة والشك – أنعم النظر إلى كلا الطرفين المبالغين فى تطرفهما ، الأمير المنغمس فى ملذاته وشهواته ، والراهب المنهمك فى تطهير جسده وروحه ، فوجدهما معاً على خطأ .

كما يسقط المطر على الكوخ الصلب فلا ينبت شيئاً . كذلك تهبط العاطفة والحكمة على القلب الذى لم يهذب .

قال إنه بحث بحثه الأعمى فى هذا التطرف من الملك والراهب واهتدى إلى الطريق الوسط وهذا هو الذى يفتح الأعين المغمضة ، ويهب نعمة الفهم – الذى يقود إلى السلام العقلى واطمئنان القلب – الذى يهدى إلى الحكمة العليا والنور الكامل . فما هذا الطريق ؟ « إنه قدرة الشخص على السيطرة على عاطفته تلك العاطفة التى تربطه إلى الأبد بعجلة الحياة الدائمة الدوران ، وهى دائماً معاناة عند الولادة وأحزان عند الموت ، مثله كمثل متعلق بعجلة مستمرة الدوران ولا تقف أبداً .

وفى السنّ التى كانت حياته فيها شبه همجية أعلن قانونه الذهبى قانون السيطرة على العاطفة هذا القانون الذى أمضت الحضارة ألفى عام تحاول السيطرة عليه أو الوصول إليه ولا تزال فى محاولتها . ذكر أن الطريق الوسط الذى ينشده يتكون من ثمانية من مبادىء وجهات النظر الصحيحة ، هذه المبادىء هى : المقاصد السامية ، الكلام اللين الحسن ، السلوك القويم الاحسان إلى الناس ، الحياة المسالمة ، المثابرة على العمل الصالح ، النشاط الثقافى ، ثم التفكير العميق .

وفقط خلال هذه المبادىء يستطيع الشخص أن يستنقذ نفسه من اعوجاج عاطفته ، وكانت هذه المبادىء قوام تعاليمه الأولى .

انتشرت شهرة بوذا فى أنحاء الهند ونسجت حوله أساطير كثيرة تتحدث عن حكمته وعن عزائه البائسين ورحمته ، وإنجيلُه الأعظم ملىء بهذه الأساطير .

ومما يروى عنه أن امرأة حسناء شابة كان لها طفل عزيز عليها ، وقد

اشتد به المرض وما زالت الآلام تلحُ عليه حتى مات ، وذهبت نفس المرأة حسرات على ولدها ، فحملته ميتاً على يديها وذهبت تطوف به هنا وهناك تسأل من تظن أن لديهم علماً بالطب أن يرشدها إلى دواء لابنها يعيد إليه الحياة فلم تجد وأخيراً ذهبت إلى راهب فى صومعته وسألته عن طب لابنها ، وتمتم الراهب : إنها لا تفهم ، ثم قال : عزيزى الطفل ، إننى آسف لأننى لا أملك الدواء الذى تطلبه ، ولكننى أعرف شخصاً عنده هذا الدواء ». وقالت المرأة متلهفة راجية : من هو هذا الشخص لأسرع بالذهاب إليه ؟ قال : إنه بوذا ، إنه حقاً الشخص الذى يجب أن تذهبى إليه . وبلهفة بالغة أخذت الأم الحزينة تبحث عنه حتى انتهت إليه ، انتهت إلى الرجل النورانى : إننى حقاً أعرف الدواء المناسب ، إنه مُشَهٍّ[1] معروف « هو بذور المستردا » ! وانبهجت الأم وفرحت جداً أن كان دواء ابنها شيئا يسير المنال ، ولكن بوذا أردف إرشاده بقول : لا تحصلين عليه إلا من بيت لم يمت فيه أحدٌ ، لا طفل ولا زوج ولا والدان ولا حتى رقيق ، وذهبت الأم الشابة الحزينة تبحث عمن يمكن أن يمدها « ببذور المستردا » التى وصفها بوذا ولكنها كلما سألت أحداً : هل بيتك هذا لم يمت فيه أحد أصلاً ، لا زوج ولا طفل ولا والدان ولا حتى عبد رقيق » ؟- كان يجيبها بأسف : إن مثل هذا البيت لا وجود له ، إن الموتى أكثر من الأحياء ؛ وأمام اليأس من وجود هذا المنزل جلست المرأة الحزينة مستغْرقة فى تفكير عميق ، ثم قامت فى صمت متجهة إلى غابة فدفنت وليدها » ثم رجعت ثانياً إلى بوذا ، فسألها : هل وجدت بذور المستردا التى وصفت لك ؟ » وأجابت المرأة لا ياسيدى ، ولكننى وجدت الدواء ، لقد دفنت أحزانى فى الغابة والآن أريد أن أتبعك في سكينة وسلام !.

هذه قصة ظاهرة المغزى فى تعاليم بوذا .

---

(١) فاتح للشهية .

كانت إرشاداته أن السرور لا يكون فى تملك الأشياء ، ولكنه فى طرحها والتخلى عنها .

إن عقيدة التخلى عن الممتلكات هى التى ينبعث عنها سر الحياة ، إن وجود الإنسان فى هذه الدنيا يمثل رحلة الروح من الحياة الأرضية إلى الحياة السموية ، ولكن هذه الرحلة تتكون من رحلات أو هجرات متتابعة للروح تتنقل خلالها من جسم لآخر .

كان بوذا منذ البداية واقعاً تحت تأثير الرهبان ، فتبع تصوراتهم المألوفة عن رحلات الأرواح وتنقلها من جسم إلى جسم آخر ، وكانت تعاليمه أن روح الأفراد تولد ثم تولد .. وهكذا تَرْحَلُ من جسم لآخر مرات ومرات ، حتى تصل فى النهاية إلى موقف تتخلص فيه من السجن فى الأجسام ، وحينئذ تفنى فى « النرفانا » أو النّعيم السماوى ، وقال لتلاميذه عن روحه هو إنها كانت فى جسم طائر . هو السُّمَانَى أو السَلْوَى .

هذا التصور الفج عن رحلة الأرواح نقح وصفى مع تقدم بوذا فى سنه ، فأصبح فكرة مهذبة أدنى إلى الشاعرية ، ففى فلسفته الأخيرة لم ير انتقال الروح من فرد لآخر فى سلسلة من الانتقالات الفردية ، وبدلاً من ذلك كان يعلم حوارييه أن كل روح حية تشبه المشْعَل الذى تنتقل الشعلة منه إلى مشعل آخر تحته ، وهكذا تظل فى تنقلها خلال الأجيال حتى تذوب أخيرا فى شعلة الكون الأبدية ، أو فى شعلة الخلود الكونى الأبدى وبتعبير مجازى – كما جاء فى كلامه – إنّها كالنّاقوس ، كل حياة كالنغمة التى تتردد فى حجرة مفتحة الأبواب ، ومنها ينبعث الصوت خلال الردهات والممرات برنين النغمة نفسها ، وأخيراً يفنى الصوت أو يبتلعه الفضاء السموى .

عقيدة بوذا إذن تعنى أن مصير الحياة – حياة كل فرد – لها غاية بعيدة ، وأنّ كل شخص يمثل جزءاً هاماً من الإنسانية كلها . أما بالنسبة

للخلود الشخصى ، فإن بوذا لا يؤمن به ، ولا حتى يرغب فيه ، إنه يرى أن روح كل فرد ليست إلا جزءاً من روح الكون . وتطلب خلود شخص يعنى إدماج جزء فى امتداد الكل .- كذلك علم أن تعاسة الإنسان وشقاءه إنما تسببها الأنانية والطموح فى كلتا الحياتين ، حياة الدنيا وما بعدها . ولكن الذى يخضع نفسه وشخصيته الصغيرة إلى النفس الكبرى - روح الإنسانية كلها - هو الذى يكون مهيأ فى النهاية أن ينهى رحلة من حياة إلى حياة حتى يدخل فى النرفانا ذات الراحة الأبدية .

والنرفانا إذن طبقاً للعقيدة البوذية هى الفناء الكامل للرغبات الجسدية ، ومعناها كما يلى :-

« نِيُر » معناها خارج ، و « فا » تعنى إلى ، و « نا » لانطفاء . والسماء عنده على هذا تعنى إطفاء شعلة الرغبات العاطفية للشخص . [النيرفانا هى الذهاب إلى الفناء الكامل] .

وللبوذية فى ذلك تعبيرات عديدة ولكنها تتلاقى كلها عند نهاية واحدة . فيقولون إنها الانطفاء الكامل لروح الحزن والمعاناة من روح الفرد .

الخلاص الأخير من بحر الوجود العاصف .

الوجود محيط زاخر ، وهدير أمواجه هو كثرة التناسل الإنسانى . والزَّبَدُ الذى تحمله أمواجه هو هذه الأجسام القابلة للفناء . والشاطىء البعيد هو النرفانا ، فهى مرفأ السلام ، ولكى يصل الشخص إلى هذا السلام والخلاص من الأنانية - لكى يصل إلى أعماق هذا الشعور لابد أن يتخلص الناس مما ألفوه من روح الأنانية سواء فى اجتماعياتهم أو سياساتهم أو اقتصادياتهم .

إن نظام الطبقات المغلق المتحجر الذى يفصل الواحد من الهندوكين عن

الآخر بسبب الميلاد يجب أن يزول ، لقد ولد الناس جميعاً ليكونوا متساوين فى الحقوق . وكانت كلماتٍ جرئية شجاعةً فى الوسط الهندى أن يقول بوذا : إن الرجل يكون نبيلاً أو وضيعاً من خلال أعماله . وليس بسبب ميلاده .

كعامة الأنبياء الكبار استبقى بوذا من ديانة أسلافه ما كان صالحاً . بينما كان يعارض قوانينهم الدينية الأخرى ، ولكن على عكس الأنبياء لم يعلن أن الله كلّمهُ ، لم يُغْرِ قومَه ، أو يرشوهم أن يتبعوه بجزاء حسن وثواب عظم فى الجنة ، كما أنه لم يخوف بالعذاب فى جهنم لمن لم يتبعه لقد رفض أن يؤسس قواعده الأخلاقية على خرافة أيا كان نوعها . وقرر أن على كل شخص أن يخلص نفسه من الغرور والأنانية ليصل إلى حياة النعيم الكامل بعد الموت . « إن التفكير – على سبيل المثال – فيما إذا كان القديس سيلقى مثوبة فى الجنة أولا ، مثل الدغل المظلم . أو كالصحراء الواسعة ، أو معرض الدمى المتحركة » كل الرجال الصالحين لابد أن يكونوا أرفع من الجدال والمنازعات فى هذه الأنانية الحقيرة .

قَدَّمَ بوذا لأتباعه مجلساً نبيلاً ناضجاً ، اعْمَلْ عملاً حسناً لأجل العمل الحسن ، اعمله لخير سلامك الروحى ، اعمله لكى تكون مثل سيد هارتا « بوذا » – الرجل الذى استكملت إرادته غايتها .

وعقيدة بوذا إذن هى عقيدة التخلى والتسامح ، وهو لم يدّع أنها هى الحقيقة المعصومة ، ولا أنها وحدها الحق ، ولا أن أى عقيدة أخرى لها حق هذا الادعاء ، ويرى أن العقائد الدينية المتعصبة تقود إلى العداوة والبغضاء ولا تقود أبداً إلى الحكمة والسلام ، والطريق الأكيد الذى يقود إلى الخلاص إنما يكون من خلال الاحترام المتبادل بين جميع الناس ، وجميع الأجناس وجميع العقائد ، وهو يعلم اتباعه ألا يستعملوا أى سلاح لأجل تحويل الناس إلى

عقيدتهم إلا سلاح الكلام اللين واللسان المعسول : « إذا أنا لم استطع أن أقنعك بالحجة فإنى لن أقنعك أبداً » – وهو لم يكن مغرماً بالجدل الدينى فى عقيدته الدينية ، ولكنه كان متمسكاً فقط بمبادئه الأخلاقية ، ومن كلامه : أنا لا أعرف شيئاً عن حقيقة الله الخفية ، ولكننى أعرف بعض الشىء عن بؤس الإنسان وشقائه .

وكان شغله الشاغل أن يخفف آلام الناس بقدر ما تحتمله الطاقة البشرية ، وقد حاول أن يجرى على نظام للرحمة والرثاء مبنى على ثلاث قواعد أخلاقية هى الوسطية أى الاعتدال والصبر والمحبة ، وبأعماله هو أظهر حكمة الوسطية ، لقد نشأ فى وسط ثرى مترف غاية الترف ، ولكنه سرعان ما تخلى عنها ، ثم عاش حياة مفرطة فى التقشف ، حتى إنه فى وقت قصير هزل وأرهق ، وفى النهاية اختار طريقاً وسطاً ، وأسس سعادة حقيقية على طريقة معقولة ، هى عدم الإسراف فى أى شىء ، وكبح جماح النفس بدلاً من الانغماس فى الرغبات ، وكان محارباً لغيبوبة النفس وسكرها فى غمار الشهوة ، أو اغترارها بالقوة ، أو الغزو والحروب ، – فهذه الثلاثة على السواء تؤدى إلى الجنون ، وإن علامة الروح المريضة أن تكون ذات طموح بالغ ، أو أن تتطلع إلى التعالى فوق الضعفاء ، أو أن تتغلب بطريق الحرب ، لأن الحرب أم الموت وأم الكراهة ، والكراهة شر من الموت . ولكن كيف يمكن أن تتغلب على ظمأ النفس إلى الحروب والتغلب ؟ .

يقُول بوذا إن هذا يكون بالمثابرة على الصبر . بمسامحة المتقلبين المعتدين ، بمعاملة المعتدى كما يعامل الطفل المريض . وبمقابلة الكراهة بالحنان ، لأن هذه هى الطريقة التى يمكن بها أن تحول عالم الأطفال الجانحين إلى الوحشية والمحبين للتغلب والحرب إلى عالم متمدن وإلى رجال ونساء ذوى أخلاق حسنة ، لقد علم أتباعه بطولة المعاناة من غير إحداث آلام ، وشجاعة الموت

من غير قتل ، وفوق كل ذلك علمهم الصبر النبيل ، وسماه صبر الشوق ، وأن لا تراق قطرة دم واحدة لأجل جلال الله .

لم يعلم بوذا أتباعه جلال الله وتسبيحه ، ولكنه علم قوة المحبة ، لقد نبذ عرش الملك ليعيش بين الذين لا يتركون ميراثاً ، ولذا هو يستحث أتباعه أن يفعلوا مثل ذلك ، فعليهم أن ينبذوا عرش الكبرياء والعظمة ، وأن يمتزجوا فى تواضع وانكسار بأتباعهم .

كل شخص يريد أن ينضم إلى زمرة المترهبين من أتباعه لابد أن يلبس الملابس الصفراء وأن يأخذ على عاتقه أن يحيا حياة المتجولين فى أنحاء الأرض ، وأن يقسم وينذر أن يخلص نهائياً ذهنه من الأشياء الدنيوية التى تتعلق بها رغباته الحسية ، وأن يكرس نفسه لشىء واحد هو السعادة من خلال المسالمة وأن يخلص نفسه من الظلم ومن الخرافات ، وبذا تقوم حياته على البساطة والإيمان والرفق . وهكذا يعيش البوذى فى سلام تام ، لا يسبب إيذاء لأى كائن حى ، وذلك لإيمانه بتناسخ الأرواح ، فهو يؤمن برابطة الدم بين المخلوقات كلها ، وليس فقط بين بنى الإنسان ، لأن الأرواح فى تنقلها تكون مرة فى إنسان وأخرى فى طائر أو حشرة أو ثعبان وهكذا .

كما أن النحلة لا تؤذى الزهرة ، تتمتع بألوانها ورائحتها ، وتحلق بعيداً بعيداً لتمتص الرحيق ، كذلك دع الرجل العاقل يعيش فوق الأرض .

البوذى يكرس نفسه لهذا المبدأ ، مبدأ الإخاء التعاونى ، ومن أجله يلبس الراهب ، مرقعته الصفراء ، ويحمل « طاسة التسول » ، ومعه فاس يقطع بها الأشجار للوقود ، ومعه أيضاً موسى وبعض المياه ، وهو لا يحتاج لشىء زيادة على ذلك لحماية نفسه ، لأنه مغلف فى سلاح بوذا الخفى ، إنها الفروسة ، فروسة عدم الكراهة لأى مخلوق ،:

« اسعوا فى مناكب الأرض ، بشروا بإنجيلى ، قولوا للناس إن الفقراء ، والوضيعين والأغنياء وذوى المكانة الرفيعة ، كل أولئك سواء ، بل شخص واحد ، وكل الطبقات يكونون وحدة فى هذا الدين ، كما تصب الأنهار العديدة فى المحيط .

* * *

حدث مرة أن بوذا فى تجولاته اتجه نحو المدينة التى يحكمها أبوه ، مدينة « كابيلافاستو » وذهب إلى البيت الذى ولد فيه . وهرع إليه أعمامه وإخوته فقابلوه عند حافة غابة أو حديقة من حدائق العاصمة ، وعندما رأوا حالة الفاقة والفقر التى كان عليها ، أحزنهم أن يصير الأمير ولى العهد إلى مثل هذا الوضع من رثاثة الثّياب ومظهر الذلة ، رجعوا إلى المنزل يغمرهم الحزن العميق ، ولكن – جوتاما لم يعبأ بهم – أمسك « سلطانية التسول » ومشى بين الناس يأخذ صدقاتهم ، وعندما علم أبوه أن ابنه يتكفف الناس فى الطريق ، خرج إليه مسرعاً ، ثم توسل إليه قائلاً : لماذا يا بنى تجلب إلينا هذا العار ؟ وأجابه ابنه – سيدى المهراجا . هذه هى طريقتنا المقدسة ، وقال الوالد : يا بنى إننا سلالة عنصر رفيع محارب ، ونحن نعطى ونأخذ ، ولكننا لم نكن أبداً متسولين .

ونظر بوذا إلى أبيه نظرة رثاء ، وقال أنت وأسرتك تستطيعون أن تعلنوا أنكم سلالة ملوك ، ولكننى أقول إننى من سلالة أنبياء ». ومع ما فخر به الوالد من عراقة نسبه وعلو محتده استمر ابنه فى كلامه قائلاً : إننى أيضاً عندى شىء أود أن أقدمه لك ، فإنه إذ كشف الولد عن كنز ثمين ، فإن من واجبه أن يهدى إلى والديه أثمن ما فيه من الجواهر ، وحينئذ قدم إليه مبادىء العقيدة التى يجرى عليها .

وسكت الوالد ولم يجب ، ولكنه انتزع سلطانية التسول من ولده ، ثم قاده إلى المنزل حيث اجتمع أعْضاء الأسرة والخدم ليحتفوا بمقدمه .

وفرد واحد من أفراد الأسرة رفض مقابلته ، تلك كانت زوجته — « ياسودهارا » —، قالت : إذا كنت شيئاً ذا قيمة وقدر لديه ، فإنه سيأتى إلى . وعندما لم يجدها بين الحاضرين ذهب هو إليها ، ووجدها فى حجرة نومهم ، تلك الحجرة التى كانت فيها عندما ألقى عليها آخر نظرة وهى مستغرقة فى نومها وولدهما ينام على ذراعها . وعندما رأته يلبس مرقعته الصفراء ، وقد جز شعره وأزال علامات الإمارة من جسده ، ثم بدا وجهه معروقاً نحيلاً ، غمرتها ذكريات حياتهما السعيدة السابقة ، كما غمرتها أحزانها ، وخرت على الأرض تقبل قدميه ، والنشيج يمسكها عن الكلام ، ولما رأى والده ما هى عليه من حزن وأسف ، رأى أن يتدخل فى الموقف فقال : يا بنى : ارحم هذه الفتاة كما وفَتْ لك أثناء غيابك ، لقد ظلت وفية محبة لك طوال السنوات التى غبتها ، لقد رفضت أن تستمتع بملبس رافه أو طعام شهى ، مترقبة بفارغ الصبر أنْ تعود إليها ، لم تكن تأكل إلا مرة واحدة فى اليوم . ولا تنام إلا على الأرض ، متجافية عن لين الفراش ، عد يابنى إلى زوجك وولدك ، وإلى المملكة التى تنتظرك .

وأصغى بوذا إلى كلام والده ونشيج زوجه وهو مطرق ، لا ينظر إليهما ، بل يومىء نحو الأرض ، وهما يطمعان أن يستجيب لهما ، وأن يخرج من صمته ولكنه ظل صامتاً .

وقامت « ياسودهارا » ونظرت إلى ولدها الحبيب : راهولا **Rahula** . ثم ألبسته أبهى ملابسه ، وقالت له : إنك ستقابل أباك الآن . ودهش الصبى الذى لم يعرف والده من قبل ، وقال : أنا لا أعرف والداً غير راجا ، فمن ذا غيره يكون والداً لى .

وأثناء هذا الكلام دخل الصبى وأمه الحجرة التى بها بوذا ، وإذا هو يمسك بيديه « طاسة التسول » ويأكل ما بها من الأرز ، وقالت « يوسودهارا » هذا أبوك يا بنى ، كان غائباً فى بعض أعماله ، ولقد سمعته يقول إنه عثر على كنز ثمين كان مختبئاً ، اذهب إليه الآن وسله عن نصيبك فى الكنز الذى كشفه ، قل له : إننى ابنك ، وسأكون رئيس العشيرة ، وسأطلب ميراثى من هذا الكنز الثمين ، فأعْطِنِيه ، وخطا الصبى نحو بوذا ، وقال يا أبى إنى فرح بعودتك ، اعطنى ميراثى وحظى من كنزك الثمين !.

وظل جوتاما صامتاً مستغرقاً فى تفكيره وتأملاته ، وأيضاً يأكل بأناة أرزّه ، وعندما فرغ من طعامه ، نهض فى صمت وأخذ طريقه إلى الغابة خارج المدينة ، وتبعه ابنه راهولا ، ومرة ثانية طلب ميراثه : « أتوسل إليك يا أبى أن تمنحنى حقى فى هذا الكنز . ولم يتكلم بوذا حتى وصلا أخيراً إلى شجرة التين ، وعندئذ تكلم القديس إلى ولده مع ابتسامة رقيقة ، فقال : يا بنى أنت على حق حينما تسأل حظك فى هذا الميراث . وسأقدمه لك ، ثم التفت إلى بعض الرهبان عند الشجرة ، وقال له : اعط « روهالا » « سلطانية التسول » التى يستحقها ، ودعه يدخل فى زمرتنا المقدسة ، زمرة الرهبان ، ثم دعه يتبعنى .

* * *

خلال السنوات الباقية من عمر بوذا الطويل ، ظل يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ويكون جماعات فى الغابات خارج المدينة ، أو فى خمائل الحدائق أو شواطىء الأنهار ... ثم تكاثر الحواريون حول هذا القديس الذى يعطيهم حقهم الكامل وميراثهم من الكنز الذى كشفه .

وفى خاتمة المطاف بعد أن تجاوز الثمانين . مر بكوخ حداد فتناول عنده

وجبة الظهيرة ، ثم رجع إلى غابة فتمدد فوق فراش من أوراق الشجر ، وبدا عليه مرض الموت ، وتجمع حواريوه حوله فزعين ، ففتح عينيه الكليلتين متجهاً إليهم ، وقال : « لا تظنوا أنه بسبب أن ذهب معلمكم أن الكلمة قد انتهت » .

وعندما انتهى إلى سكون السلام القدسى ، بدأت مرحلة أخرى من دعوته ، ولو علم أن دوراً جديداً كان مقدراً أن يحدث لفاض عجباً منه ، فالمعلم الديني الذى لم يبشر و لم يؤمن بإله صار نفسه إلهاً لديانة جديدة ، وظهر له أتباع كثر يقدسونه ويعبدونه .

* * *

□ كونفوشيوس □

Confucious

٥٥١ ق م – ٤٧٨ ق م

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى بورن فى مدينة لو Lu . وهى شانتونج الجديدة سنة ٥٥١ ق م .

فَقَد والده وهو فى الثالثة من عمره .

تزوج فى سن التاسعة عشرة ، وصار والداً فى سن العشرين .

فى سن الثانية والعشرين أنشأ مدرسة الحكمة .

فى سن الثالثة والثلاثين أبعد عن مدينة لو ، وفى سن السابعة والثلاثين رجع إليها فيما بين السابعة والثلاثين والثانية والخمسين كان يدرِّسُ ويعلم .

عين رئيساً على حكام مدينة تشونج تو Changtu .

عين وزيراً للجرائم فى مقاطعة لو .

فى سن ٥٦ ناله الازدراء الملكى ، وحكم على نفسه بالخروج من المدينة .

كان معه حينئذ ثلاثة آلاف من الحواريين .

فى سن ٦٩ رجع ثانياً إلى لو فأكمل تعاليمه .

فى سن ٧٠ فقد ولده ، وفى سن ٧١ فقد حوارياً عزيزاً عليه .

مات سنة ٤٧٨ ق م .

* * *

هذا الحكيم الصيني ابن لرجل عسكري كان يدعى شوليانج – Shu- Liang Heh . وكان جندياً في رتبة بسيطة ، وكان يرى نفسه أقل الذين ينْتمون إلى أسرته العريقة النبيلة ، وكان دائم الحزن لأنه كان قد تجاوز السبعين من عمره ولم تنجب له زوجه غير البنات ، وكان له خليلة أنجبت له ولداً ذا عاهة ، وهو ابن غير شرعي ، وكانت عقيدة الصينيين المتأصلة فيهم أن الرجل لابد أن يكون له من ورثته ولد شرعي يصلي له ويدعو بعد موته . وإلَّا فإن روح هذا الرجل لن تكون مستريحة في مقرها الأخير بعد موته . ولذا قبل أن يعد نفسه للرحلة النهاية صمم على الزواج ، وتزوج من فتاة لا يتجاوز عمرها السابعة عشرة ، فما لبث أن تحركت في جوفها نسمة ، ثم ولدت غُلاماً .

كان الغلام كبير الأذنين جداً مما أثار عجب أبيه ، وكانت عقيدة الصينيين أن الآذان الكبيرة الضخمة إلى هذا الحجم تدل على ثبوت الحكمة في رأسه . وتنبأ الرجل أن ابنه هذا سيكون من الحكماء ، مما جعل أباه يبتهج ويفرح كثيراً ، ثم سماه : كونج – فو – تسي . Kung - fu - tse وهي تعني السيد كونج الحكيم . وحقاً لم يكن هذا الطفل طفلاً عادياً عندما نما ، وأيضاً أعباء حياته لم تكن أعباءً عادية . فَقد أباه وهو في الثالثة من عمره ، وعندما بلغ حد الرجولة كان عليه أن يعمل ليعول أمه الشابة . وفي السابعة عشرة من عمره تقلد وظيفة مدنّية فكان قَيِّماً على خزائن الحبوب في الدولة . وقد استطاع أن يكون ثروة طيبة من هذا الحصاد ، لأنه بعد عامين اثنين ، وعندما بلغ التاسعة عشرة قدم عربوناً لزواجه مبلغاً كبيراً وأشياء فاخرة لزوجة ثرية ، وكان يتمتع باحترام الكبار الأثرياء في الدولة ، وفي يوم زواجه تسلم من دوق المدينة أثمن وأسخى هدية . زوجاً من السمك الكبير النادر الوجود ، وبعد عام واحد أنجب ولداً فسماه – تقديراً لهدية الدوق – بو – يو - Po Yu . أي السمكة الجميلة .

وكان السيد كونج Mr , Kung – وهو كونفيوشس ناجحاً فى وظيفته ، ولكنه لم يكن قانعاً ، لأنه فى طبيعته كان رجل تفكير أكثر منه رجل عمل ، وكان يريد قبل كل شىء وبعد كل شىء أن يكون معلماً . وواتته الفرصة التى كان يريدها من خلال تيار من الحزن . ذلك أن أمه قد ماتت ، ومع حزنه عليها استراح من عبء رعايتها والقيام بشئونها ، وطبقاً للتقاليد الصينية أقام فى كوخ بجانب مقبرتها لمدة ثلاثة أعوام ، ثم اصطحب زوجته وطفله الصغير وبدأ رحلته التى كان يريدها ، ولعله قال فى نفسه : إننى أعيش الآن فى كل جانب من جوانب الصين أو ما وراءها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولكن إقامته الثّابتة التى لا يشعر معها بغربة كانت هى أفكاره .

* * *

فى القرن السادس ق م – كانت الصين أرض الأمراء والإقطاعيين ، وكانوا ينحنون فى طاعة عمياء أمام الأمبراطور ، بينما يطعن أحدهم الآخر إذا سنحت سكتة خلال الاحتفالات ، وكانت فترة من الزمن تمسك فيها عقول المغتالين وأفكارهم بزمام الأمور ، ومنذ آلاف السنين كان حكماء الصين هم الذين يتبوأون القمة ، وليس الشطار والمجرمون . أما الآن فالكلاب المسعورة من المجرمين والظلمة أطلقت من أجحارها ، فقد استقرت أفكار الحكماء والمعلمين لدى الأخلاق والفضائل المدونة المرصودة عسى أن تكون وراءها إعادة لحياة الصين الأولى ، وبين هؤلاء الباحثين والمنقبين فى أعماق الماضى من تاريخ الصين كان كونفوشيوس ، وربما شجعه أكثر على المضى فى هذا الطريق أن أجداده كانوا قد جمعوا حِكما وعظات مدة تزيد على ألف عام . وفى يوم من الأيام أثناء بحثه عن الحكمة وجريه وراءها وصل إلى بلاط الملك شو Chou ، وهناك رأى الفيلسوف الشهير لاو –

تزى . Lao - Tze » وهو أمين المكتبة الملكية ، فتحادثا معاً طويلاً ، وأبرز كونفوشيوس مهارته وغزارة علمه ، واستمع الفيلسوف الكبير إليه مع ابتسامة تنم عن سخرية ، وظل كونفوشيوس يتكلم ، وأخيراً قال له الفيلسوف : إن الموضوعات والأشخاص الذين تكلمت عنهم قد ماتوا أو هم موتى ... ولقد قيل لى إن التاجر الثرى الذى يدخر كنوزاً ثمينة تحت الأرض عنده ... ليس فى وضع أفضل من متسول يتكفف الناس .

ورجع الفيلسوف الشاب من رحلته فى حيرة مؤلمة حزينة وقال فى نفسه ، وربما أيضاً فى مذكراته : إننى أعرف كيف تحلق الطيور فى السماء ، وكيف تسبح الأسماك فى الماء وكيف تركض الحيوانات فى جنبات الغابة ... ولكن أمام التنين أقف حائراً لا أستطيع أن أقول شيئاً : كيف هو يمتطى الريح ويخترق السحاب ثم يصعد إلى السموات العلا : ولقد رأيت اليوم هذا الفيلسوف « لاو – تزى » وأستطيع فقط أن أقرنه بالتنين » .

ولكن تدريجياً ومع مرور الأيام وهذا المعلم الحيى الناشىء يجمع تلاميذه ويعرض عليهم أفكاره انقدحت كلمات الفيلسوف الكبير فى ذهنه وأصبحت واضحة جلية .

كانت مقاطعته التى نشأ فيها « لو » قد انغمست فى سلسلة طويلة من الحروب المدنية الداخلية ونتيجة لهذه المعارك اضطر صديق له حميم منذ زمن بعيد أن يهرب عبر الحدود إلى مملكة مجاورة هى مملكة تشاى - Chi وكان هذا الصديق دوق كاو Kao . وكان كونفشوس يدرك المصير المرتقب لأتباع الدوق إذا ما سقطوا فى أيدى الأعداء ولذلك اختار فئة قليلة من تلاميذه المخلصين وتبع الدوق إلى منفاه . وبينما كان يجتاز متاهة جبلية رأى امرأة عجوزاً جاثية على ركبتيها أمام قبر حديث البناء وقد غمرت الدموع وجهها . فتقدم إليها وسألها عن هذا القبر فأجابته : إنه والد زوجى اغتاله

نمر فى هذا المكان . وكذلك زوجى أيضاً ، وأخيراً قابل ابنى هذا المصير نفسه .

وسألها المعلم الشاب : لماذا تظلين على الإقامة فى هذا المكان الموحش أليس من الأفضل أن تنتقلى إلى مكان مدنى آمن ؟ .

قالت له : فى هذا المكان لا توجد حكومة ظالمة . ونالت الكلمة من نفسه موقعاً . وعندما وصل إلى مدينة شاى . Ch-i » قدم نفسه إلى أمير البلدة . وعرض أمامه استعدادهُ لخدمة البلد بالعمل على إزالة الحكومة الظالمة . وهنا أخيراً فهم من كلمة الفيلسوف الكبير « لاو – تزى » معانى كبيرة لم تنقدح فى ذهنه من قبل بهذا الحجم .

« إن تيار المعرفة يجب أن يستخرج من كنزه ثم يتداول بين الدارسين حتى يصل أخيراً إلى مكامن ومستودعات الإنسانية ، وعندما يضطرب المجتمع الكبير ويعتريه القلق لابد أن يتحول العالم الدارس إلى إنسان مدنى » .

كان حاكم شاى Ch-i أول الأمر مسروراً باستقبال فيلسوف فى بلاطه ، فرحب به وسر بحديثه وكان مغرماً ببحث أمور الدولة ومشكلاتها مع هذا الفيلسوف ولكن رجال مجلسه عجبوا له وسخروا منه فى وقت واحد .

وسأل الأمير مرة كونفيوشس عن تحديد وتعريف الحكومة العادلة ، فأجابه :

« عندما يكون الحاكم هو الحاكم ، والوزير هو االوزير ، عندما يكون الوالد هو الوالد والابن هو الابن ... توجد حكومة عادلة .

وأنغض الأمير رأسه إشارة إلى رضاه عن هذا الكلام ، ولكنه أردف : إننى لم أفهم ما تعنى . ولكن يبدو أن كلامك جيد .

وكان الأمير مُنفعلاً شديد التأثر بكونفيوشس ، وقال فى نفسه من

الأجدر أن أتخذه وزيراً وحاكماً على مدينة لن شيو Lin - Chiu . وأفضى إلى رجال السياسة من حوله ، وكلهم أبدوا دهشة بالغة .. وقالوا كيف يوثق بفيلسوف فى حكم إقليم ، إذا تم ذلك فإنهم قريباً سيرون الصين مقودة إلى خراب ، أبدى ، وكثر لذلك تقليبهم الأيدى ، وَلَّى وجوههم ، وإبدائهم شارات الأسف ، وأخيراً تَقّدم رئيس الوزراء برجاء إلى الأمير أن يتخلى عن فكرته القتالة ، وقال : هذا الفيلسوف يا سيدى تنقصه التجربة وليس من السهل أن يفهم الشَعبُ أفكار فيلسوف ، وشَعبنا مُتكبّر متعال لا يقبل من الآراء ما ليس مألوفاً له ، وهو مع اعتزازه بآرائه ذو خطر شديد .

وشعر الملك بخطر الموقف . وهز كتفيه وأبدى موافقته على ما قاله وزيره . وقال فى نفسه : إن إدخال الفلسفة فى المجلس ربما يكون أخطر بكثير من قيام ثورة . ثم أعلن إلى كونفشيوس أن حياة بلاطه ليست ملائمة لمزاج فلسفى .

وكان العالم الحكيم ذكياً لماحاً ، ففطن لهذه الإشارة الخفية ، وأسرع بمغادرة المملكة وعاد ثانياً إلى بلده فوجد الوضع السياسى قد تغير وأصبح ملائماً ومحبوباً لرفاقه . وكانوا قد علموا بالمعاملة التى لاقاها فى بلاط الملك فى شاى Ch-i . ولكن مع ما كان بادياً فيهم من روح المنافسة بدا شيء من الكرم إذ اختاروا أن يكون حاكماً على مدينة شانجتو Chungtu . فعين حاكماً لها وبدت آثاره الحكيمة على المدينة إذ وضحت فيها العدالة - المحكمة - وبدت حركة من حركات التطهير التى يذكرها التاريخ ، كأنما غمرت قلوب الشّعب كله روح العدالة التى تذكر بذوى الآثار الطيبة العادلة .

ففى الغرب ظهر الفيلسوف سولون فمنح نعمة الحرية للشعب اليونانى الذى كان مستعبداً مسترقاً ، وفى الهند ظهر الأمير بوذا - رجل النور الذى أيقظ فى نفوس قومه معرفة ما فى الديانة الجديدة من جمال ، وفى بابل

Babylon أثار النبى حزقيال Ezekiel ثورة ضد الوثنية التى كان عليها طبقات الحكام ، والآن فى الصين قدمت للحكيم الفيلسوف « الأمير كنج Mr . Kung مدينة ليحكمها مع أمل أن يجرى فيها تجربة لحكومة شريفة عادلة .

ولمدة من الزمن بدأت المدينة تغير طريقتها فى الحياة ، فبدت كما لو كانت أسرة إنسانية انسحبت أخيراً من جولاتها الوحشية فى تيه أو غابة ، ثم بدأت فى تقدم إنسانى .

* * *

إن كثيراً من الواجبات والأعمال التى قام بها هذا الحكيم – قد تبدو فى نظر الرجل الأمريكى الحديث مضحكة ، فمن بين الأشياء الكثيرة التى أخذ على عاتقه تحقيقها أن ينظم سلوك وأخلاق الشعب ، لقد حدد أصناف الطعام التى يسمح بها للشعب على حسب الأعمار ، كما حدد نوع الملابس التى تلبس فى المنازل والمجالس المنفردة والأخرى التى تلبس فى المناسبات العامة ، كذلك حدد عدد المرات التى ينحنى فيها الشخص تحية لشخص آخر ، ومن تعاليمه أن الرجل لابد أن يمشى على الجانب الأيمن من الطريق أما الأنثى فإنها تمشى على الجانب الأيسر ، وحدد أيضا عمق القبور التى يدفن فيها الموتى وسَعتها وسمَك الخشب الذى يصنع منه صندوق الميت . ثم كون قانون التطهير والتخلى عن العادات المرذولة The Low Renun Ciation وفيه أن أى شىء يسقط على الأرض لا يجوز أن يلتقط ثانياً .

ونجح كونفوشيوس فى هذه الجوانب الإنسانية ونفذ قانونه بدقة فأعجب به أمير البلاد ، ورأى أن يعينه وزيراً للجرائم – كما لو كان رئيساً لمحكمة الجنايات .

وتوقفت الجرائم كأن سحراً خفياً أمسك المجرمين عن ارتكابها ، وأخفتْ نزعات الشر وقلة الشرف رؤوسها . وبسرعة صارت الطاعة والولاء والعقيدة الطيبة والإيمان سمات الرجال وصارت العفة والطهارة هى زينة المرأة وجمالها .

كان كونفوشيوس يُحَيَّا ويقابل بتجلة - كأنه الصنم المعبود فى القبيلة ، وكان اسمه على أفواه الناس كأنه أغنية محبوبة يرددها الصغير والكبير .

وأخيراً رقاه أمير البلاد إلى درجة رئيس الوزراء ، ولكن هذه الترقية كانت بداية نزوله ، هذا لأن أمراء الأقاليم المجاورة شعروا بالغيرة والحسد لهذا النجاح الذى أدركه - كونفيوشس ، فى تجديده وتكوينه الشعب تكوينا جديداً . وباتوا يخشون قوة هذا الحاكم الذى كاد يستولى على قلوب الشعب :

« إن وضع كونفيوشس على رأس الحكومة سيجعل مقاطعة « لو » سيدة على سائر المقاطعات ، وإن رعايَانا سَيَتْرُكُونَ بلادنا ليزدحموا فى مقاطعة « لو » ... » .

وهكذا اتفق أمراء الأقاليم على أن يتعاونوا وأن يعملوا جميعاً على وضع خطة تسلخ عن كونفيوشس منصبه المرموق ، لقد كان أمير البلاد فيما رأوا مفتوناً بفلسفة هذا الوزير وليس من السهل صرفه عنه ، وأعملوا حيلهم فاهتدوا إلى طريقة واحدة يمكن أن يحل بها هذا السحر ، وكان هذا هذا بفكرة فاتنة أخرى ،- وطبقاً لها قدموا لرفيقهم فى الحكم - هذا الأخ المبجل - هدية مكونة من ثمانين فتاة من الراقصات الفواتن » .

وابتلع المسكين الطعم ، فاستقبل الفتيات الفاتنات فى قصره وعنى بهن فشغلْنَهُ ورمى بحكمته فى الشارع وتوقفت الأعمال نهائياً فى المقاطعة ، وفقد

كونفوشيوس قداسته لدى الأمير ، وظل طوال فصل كامل وهو يترقب بفارغ الصبر أن يعيد الأمير له قداسته وتبجيله وأخيراً مع ثبات الفيلسوف وجَلَده لتحمل الأحداث ذهب مرة ثانية إلى منفاه .

* * *

ظل هذا المعلم الفيلسوف ثلاثة عشر عاماً متجولاً فى ربوع الصين من قرية إلى قرية ، وكان بصحبته بعض المخلصين المؤمنين برسالته من حوارييه ، وكانوا جميعاً يبدو عليهم الحزن ، ومرة قابلهم رجل مسن غريب عنهم ، فَدَنَا من بعض التلاميذ وقال لهم : « يا أصدقائى لماذا تَبدو عليكم الكآبة والحزن ؟ أللحظ العاثر الذى يقابله أستاذكم ؟ لقد مر على الدنيا زمن طويل وهى بدون مبادىء أو عناصر للحق والإيمان ، إن السماء تستعمله كناقوس يدق ليعلن رسالة الله » .

ولكن إذا كانت آذان الناس مغلقة عن السماع ، فإن أفواههم مفتوحة ذات شغف بالتعنيف والزجر . وكانت سلوى كونفيوشس وراحته فى ثبات كالجبال التى تصمد لعصف الرياح وعوامل الطبيعة . وفى صمت الغابات الفسيحة ، وفى هذه الصحراء وجد الصديق المنشود وهو الصمت . وفى أى مكان تكلم فيه كان يقابل بالصياح والاستهزاء أو يرمى بالحجارة ، وعندما وصل إلى مقاطعة « وِى » Wei – حدجه[1] أميرها بنظرة احتقار ثم استدعى محظيته المحبوبة لديه للقيام برحلة على عربته ، وقهر كونفيوشس على الركوب خلفها ، واجتمع حوله الغوغاء ، يصيحون فى مرح وسخرية : « انظروا الفضيلة تقفو الشهوة والرذيلة » .

وأصدر حاكم من مقاطعة أخرى أمراً بأن تقطع الشجرة التى كان يقف

(١) نظر إليه بمؤخر عينه مستخفاً به .

تحتها ليعظ وقال دعوها تسقط على رأسه وتسحق نهائياً حياته المتطفلة على الناس .

وعندما وصل إلى مقاطعة شيانج Chiang ، لم يسمح له البّواب بالدخول ، وأغلق الباب فى وجهه ، وقال أحد حوارييه لهذا البواب : ألا تعرف من هذا ؟. وقال البواب باحتقار بالغ : كل ما أعرف عنه أنه مثل الكلاب الضالة ،– وكان كونفيوشس حقاً فى هذه الحالة قذر الملابس لا يوحى منظره بأى احترام : ولكنه فى قذارته هذه كان يبدو رزيناً سعيداً فى نفسه ، ولقد كتب عن نفسه يقول إنه رجل ألهاه شغفه بالمعرفة واقتفاؤه أطرافها عن كل شيء حتى إنه نسى طعامه والعِنَايةَ بمظهره ، وهو فى بهجته وسروره بما يحصل عليه من الحقائق نسى آلامه وما قد يحمل على الأسى فى حياته ، وهو لا يعى ولا يُقَدِّرْ أن الهرم ، بينما تقدم السن ، يزداد عليه يوماً بعد يوم ، وأيضاً كان تصميمه وتفرغه لمساعدة الآخرين لم يبق لديه وقتاً ليعنى بنفسه أو يشعر بالضيق لما هو عليه .

وفى إحدى جولاته قابله راهب فأخذ يوبخه ويعيبه على تجوله فى شوارع المدينة مستجدياً الناس أن يسمعوه وقال له : أما كان من الأفضل أن تقفو آثار الذين هربوا نهائياً من غير أن يعانوا إهانتها وصفعاتها .

وأجاب كونفوشيوس فى شيء من الدهشة المريرة : لا أستطيع أن أخالط الطيور والأوابد ، وإذا أنا لم أخالط الشاكين والتعساء من الناس فمن أخالط ؟ .

ولهذا اكتفى أن يصاحب رفاقه وأن يسكن شكواهم وآلامهم ببلسم الحكمة . وكثيرون من الذين كان يقابلهم كانوا قلقين غير راضين عن مظاهر الحياة حولهم وكانوا قلقين جداً يريدون معرفة المعنى النهائى للحياة .، وعندما سألوه عما يعرفه عن الموت أجابهم فى شيء من الزجر الرفيق : كيف أفهم

الموت ، وأنا إلى الآن لم أفهم الحياة ، ثم خاطبهم خطاب الوالد الرفيق إلى أولاده الناشئين . لا ينبغى أن نشغل أنفسنا بالأشياء الخرافية أو الأشخاص الخيالية بينما نحن لا نعرف كيف نخدم الإنسان ! .

حقاً أنه كان واقعياً فى نظرته إلى الحياة ، إنه لم يكن فيلسوفاً نظرياً ، عندما سأله أحد تلاميذه عما إذا كان الشر يجب أن يرد بالخير ؟– أجابه : لأى شيء أُعد الخير إلا ليكون دافعاً ؟–

فى لهجة الحكيم الشرقى المجرب قال : « إن الشر لا يدفع بالخير ولا بالشر ولكنه يدفع بالعدالة »

لقد ركز نظرياته الفلسفية والأخلاقية فى جملة أو عبارة فى صورة النفى ، ولكن هذه العبارة حولت إلى عمل إيجابى وفلسفة عملية مصوغة فى قانون ذهبى استمر خمسة قرون بعده ، وهذه العبارة هى : وصيتى الوحيدة . لأجل السلوك الإنسانى هى المبادلة والأخذ والعطاء ، وعندما لا تجد من تتعامل معه من الناس تعامل مع نفسك .

إنه لم ينظم أفكاراً متسلسلة كما يفعل الفلاسفة ، بل بالأحرى كان يرى نفسه كالزارع الذى يبذر فى الوقت المناسب بذور الحكمة الحية ، وإذا اتخذت هذه البذور جذوراً فى قلوب الناس ، ورسخت فى خواطرهم ، فقد تخرج براعمها وزهورها لإقامة حياة متماسكة متوافقة ، أما بالنسبة للملوك فلم يكن لديه بذور تبذر فى قلوبهم ولكن كان لديه لدغات ينالهم بها ، وكان يعرف كيف يلدغ أولئك الذين يستمعون إليه فقط ليسخروا منه ويتهكموا به .

وألقى عليه أحد الأمراء مرة سؤالاً فى لهجة مضحكة ونغمة هازئة متحدية ، فقال : ما هى العناصر الثلاثة المرجاة التى تتطلبها حكومتك العادلة

الكاملة ؟ فأجاب :

« طعام كاف ، وجنود كافية ، وشعب يثق » .

وقال الأمير : وإذا لم تجد هذه العناصر الثلاثة فبأيها تضحى ؟ .

أجاب الحكيم : أضحى أولاً بالجنود ، ثم بعد ذلك بالطعام ، أما الثقة فلا أضحى بها أبداً . لأنه بغير الثقة لا بقاء للحكومة .

وواحد آخر من صغار الحكام سأله : أليست التعاليم الأميرية تجعل الشجاعة فوق كل شىء ؟ .

وأجاب الحكيم أنه يضع العدالة أمام كل شيء ، لأن الرجل ذا المكانة العليا ، والذى لديه شجاعة بدون عدل ما هو إلا تهديد للدولة ونذير خراب لها . والرجل من عامة الناس الذى لديه شجاعة بدون عدالة ليس أكثر من قاطع طريق .

لم يكن كونفوشيوس يؤمن بالجنة ولا بالنار ، ولكنه كان يؤمن كل الإيمان بأنصاره الذين تابعوه على حاله ، وكان يقول إنه ليس من السهل أن تجد شخصاً درس الفلسفة ثلاثة أعوام ثم لم يصر رجلاً جيداً » – لقد كان يحلم باليوم الذى يجد فيه الأخلاقيين والمعروفين بالعدل يحكمون البلد الذى يعيش فيه ، ولو أن الناس حكموا بعدالة وإنصاف ولو لمدة قرن واحد إذن لاختفت القوى الغاشمة من فوق الأرض إلى الأبد .

كانت عاطفته الغامرة المستولية على كل مشاعره أن يجد الحكومة العادلة ، أو أن يجد الشخص النبيل السامي الذى يمكن أن يحقق هذا النوع من الحكومة ليكون نموذجاً يحتذى فى الأجيال الآتية فى المستقبل . وهذا الرجل السامي النبيل متنقل يشق طريقه خلال القرون ، وهو يمتد خلال العصور والأجيال بسيرته وحسن سلوكه قانوناً كونياً يحتذى فى العالم كله ، وهو أيضاً يتكلم لتكون كلماته فى كل القرون قواعد كونية عالمية .

وفوق كل شيء هذا الرجل السامى النبيل يعنى بأربعة عناصر هى : الثقافة ، والسلوك الجيد ، والشرف ، ثم الإيمان .

ويجب أن يَنْشُرَ حكمته وفضائله فى نماذج من العمل ، وأن يعمل دائماً على الحصول على تسعة أشياء هى طرق الحياة السليمة .

بالنسبة لعينيه هو حريص على أن يرى جيداً وبوضوح .

وبالنسبة لأذنيه لا يسمع إلا ما فيه خير .

وبالنسبة لمظهره وملامحه ، تجب أن تكون حسنة مقبولة .

وبالنسبة لسلوكه وتصرفه لابد أن تكون شيئاً يستحق الاحترام .

وبالنسبة إلى خطبه ومواعظه لابد أن تكون مخلصة منبعثة عن إيمان .

وبالنسبة لإدارة أعماله لابد أن يكون شريفاً .

وبالنسبة لشكوكه لابد أن يسائل الآخرين ، كى يتأكد مما تشكك فيه .

وبالنسبة لمزاجه لابد أن يفكر فى أنواع المعاناة التى قد تنبعث عن الغضب .

وبالنسبة لطموحاته يفكر دائماً فى العدالة .

وبينما يبتز الرجل العادى الآخرين ويقتص منهم فإن الرجل السامى النّبيل The Supereior . يقتص من نفسه – إنه يحب الآخرين لأجل فضائلهم ، ثم هو يحاول أو يعرف أسباب فشلهم : الحب والحكمة هما قلب هذا الرجل السامى وروحه .

وفى أشد ساعات حياته إظلاماً وحلكة أثناء تجوله كان يعلن : إنه لا يعنينى كثيراً أن يفهم الناس ما أقول ، ولكن الذى يعنينى كثيراً جداً هو أن أفهم الناس .

لقد كانت الحكم العميقة لهذه العقيدة فوق مدارك البادئين وأيضاً فوق مدارك الحكام الظالمين .

أما الحواريون الذين عاشوا مع الحكيم وتحملوا معه المعاناة خلال رحلاته المضنية عبر السنين فقد عرفوا قيمة الإنسان حتى مع أنهم لم يكونوا دائماً يفهمون قيمة كلماته ليست المبادىء هى التى تمنح الإنسان قوته ولكنه الإنسان هو الذى يمنحها القوة .

لم يكن حواريوه يجدون فيه مجرد فيلسوف أو حكيم ، ولكنهم كانوا يرونه نبياً . وهو لم يحاول قط أن يبهرهم بمعارفه الخاصة ، ولكنه حاول ببساطة أن يضىء نفوسهم بمعارفه الواسعة ، ومشاركتهم فى العواطف ،– وكان يقول : إنه يوجد رجال يبحثون عن المعانى الغامضة فى الدين والفلسفة ، وهناك من يخصص حياته لمثل هذه الأعمال من أجل أن يدرك شهرة ويترك اسماً يتوارثه أعقابه ولكننى أبداً أبداً لا أفعل ذلك .

وببساطة جداً كان كونفوشيوس رجلاً مدنياً ذا سياسة ، مهمته هى البحث عن الدولة ، كان يرى أن سلوك الأفراد هو أساس المجتمع ، ولذا فكل شخص فى الدولة حتى أحط مواطن فيها لابد أن يقدر ثقافة الأفراد ، ويعتبرها جذوراً لكل شيء فى الدولة . هذا إذا كانت الصين تريد أن تتحاشى أو تنجو من حروبها الأهلية المدمرة .

هل يمكن أن توجد نهاية لهذه الفوضى الداخلية ؟، إن نظام المجتمع لابد أن ينبثق من تربية الأسرة ، نظام يقوم على الإخلاص والاحترام المتبادل . الإمبراطور يقوم بدور الوالد ، وهو لابد أن يكون مرشداً ودوداً ، والشعب كله أبناؤه ، وأبناء الشعب يجب أن يكونوا محترمين وطائعين : « عندما تهب الرياح لابد أن تنحنى الحشائش » – إذا حدث نزاع أو انشقاق بين أفراد

الأسرة فلابد أن يحزن الجميع له ، وأن يعتبر حدثاً ليس أقل من قتل الأخ أخاه ، لأن الرحمة والحنان الأخوى بين أفراد الشعب ، والجزع الوالدى من الحاكم فرض يحتمه قانون السماء .

ثم إذا ارتكب الوالد ظلماً أو حاد عن العدالة فى أمر من الأمور فإن أبناءه لابد أن يكونوا محكومين بالشعور بالواجب ، وهو أسمى وأعلى فى قانون الأخلاق من الولاء للمملكة ، إنهم لابد أن يقاوموا الظلم الذى يقع من أبيهم ، وأيضاً إذا اختار الإمبراطور وزراءه بدون تعقل ، أو أساء سلطته كرئيس للأسرة ..، فلابد أن يقاومه الشعب ، ولذا فإن حق التمرد قانون إلهى كحق الطاعة .

ولكن متى تقوم هذه الأسرة التى تمثلها الدولة ، أو تكون فى طريق التقدم والقوة ؟ ومتى يشرع أبناؤها فى البحث عن العناصر التى تكون الفهم المتبادل ؟ .

إن هذه الدولة السعيدة – فيما يلاحظ كونفوشيوس – تعمل بجهد ومشقة لتقيم كيانها دولة مستقلة ووحدة متماسكة ، وتتحاشى بقدر الإمكان – كل تعقيد وتشابك ، إنها تحدُّ من الرفاهية بين حكامها ، ثم تحاول أن توزع الثروة بين الناس ، إنها تعنى بسنّ قوانين العقوبة ، وأن تزيد من الثقافة ،– إنها تدرس الأخلاق والموسيقى لكل أفراد الشعب ، لأن الموسيقى قريبة من الإحسان والعطف وباعثة عليه ، والموسيقى الجيدة موحية أيضاً بالعدالة » .

وقد كان كونفيوشس يشبه ضارباً على الناى لاعباً موسيقياً .

هذه الدولة السعيدة تهيىء وتعد ليوم مرتقب ، وذلك عندما تتكامل العناصر الكبرى على الأرض وتتماسك عناصرها بين الناس – عندئذ سيصير العالم كله إمبراطورية واحدة سوف يتحاور الناس ويتجادلون بعضهم مع

بعض بإخلاص وإذن يشيع السلام فى العالم كله ، إنهم حينئذ لن ينظروا إلى آبائهم على أنهم أباء فقط ، وهم لن يعاملوهم على أنهم أطفالهم فقط ... كل شخص سيكون له حقوقه ، وكل أنثى لها شخصيتها الفردية ... والأنانية والشقاق والبغض .. كل ذلك سيقضى عليه ، ولن يجد طريقاً للعودة .

السراق والنهابون والخونة .. لن يعيثوا فى الأرض فساداً بعد ذلك .

هذه هى الدولة التى تسمى الوفاق الأكبر .

ومتى يشرق فجر هذه الدولة العظمى أو الجمهورية العالمية على الناس ؟– يقول المعلم الحكيم – وهو يسترجع أسباب نفيه ، ويجذب أرغُنه من فمه ، ويبتسم ابتسامة تنم عن المرارة : عندما أقابل رجلاً يحب الفضيلة . ويحب الجمال .

* * *

فى التاسعة والستين من عمره رجع أخيراً إلى بلدته لو lu – لقد التقى طرفا الدائرة التى طافها منفياً مبعداً ، لقد مات أمير البلدة من زمن طويل بسبب إفراطه فى حياة الترف ، ولكن الناس لم ينسوا أستاذهم الوزير الأول أو رئيس الوزراء – ومرة ثانية تزاحموا حوله للاجتماع والتشاور أو للشعور بالراحة من حديثه ، ولكن السنين كانت قد أورثته نحافة وضعفاً ، وكان يتطلع للاستقالة من الحياة ، لقد وقف حياته على الأعمال الأدبية . وجمع الأشعار الصينية القديمة ، ونسق المعزوفات الموسيقية التى أديت فى الحفلات العامة ، كذلك أعد تاريخاً تذكارياً لبلاده وتدريجياً وبازدياد منتظم شعر باقتراب نهايته .

الجبال العالية العظمى لابد أن تتقلص .
والأشعة الحادة القاسية لابد أن تنكسر .

وهذا الحكيم الفيلسوف ذبل وصوح كما يذبل النبات .

أقام تلاميذ الحكيم الفيلسوف ضجة وانزعاجاً حوله عندما ألقوه أخيراً فى مقره الأخير ، جمعوا أقواله فى كتب ، واخترعوا له أقاصيص ومعجزات وضخموا أعماله – قالوا إنه هو الشّمس وهو القمر ، ذو جلال باهر ، لا يمكن أن يقترب أحد منه أو يدنو من مكانته كما يستحيل أن يوضع سلم يتسلقه شخص من الأرض إلى السماء يستحيل أن يوجد شخص مساو له ، وهكذا انطلقت المبالغات .

كانت شهرته بعد موته عالية كبيرة كما كان إهماله فى حياته شديداً كبيراً ، وزع الأباطرة صوره فى أنحاء الدولة ، حفروا أقواله على الأحجار ، أقاموا القباب هنا وهناك باسمه وأمروا أن تذبح القرابين وتقدم له الضحايا أربع مرات فى العام ، وقبل أن يمضى على موته زمن طويل ميزوه بلقب رسمى « الإله الأسمى » ، ولكن فى هذه العبادة الجنونية نسى معظم عباده صحة كلماته : كل ما يمكن أن أُدْعَى أو وأُسَمَّى به هو أننى تلميذ طموح لا يشبع ، ومعلم لا يمَلُّ التعليم .

هذا فقط ، ولا شىء أكثر .

* * *

□ يوحنا المعمدان □

(يحيى - عليه السلام)

John The Baptist [1]

٥ ق م - ٢٨ م

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى منطقة يهودية سنة ٥ ق م.
فقد والديه طفلاً .
رفض أن يكون قسيساً .
تجول فى الصحراء للتجول والعبادة
تبنى حياة الرهبنة .
بدأ يبشر فى السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور طيبريوس .
أعلن تعميد عيسى حمل الله .
كان يقرر أنه المسيح المنتظر .
أنكر زواج هيرود انتيباس من هيروديا
سجنه هيرود فى قلعة ميكاريوس .
قطع رأسه بتحريض سالومى سنة ٣٠م
كان يبشر بقرب مملكة السماء .

* * *

كان يحيى عليه السلام نبياً مرسلاً من الله ، و لم يكن هو النور ، ولكن جاء ليشهد النور ، توافد عليه القسس واللاويون ليسألوه من هو ، فقال إنه ليس هو المسيح المنتظر ، وقال لهم تأملوا وافحصوا من حولكم ، فبينكم

---

(١) كلمة بابتست Baptist - من الفعل الإغريقى Baptizein بمعنى يغمس .

شخص لست أهلاً أن أحل سيور حذائه ،– ورأى المسيح قادماً فقال : انظروا . ها هو ذا قادماً ، إنى جئت فقط لأعلنه وأعرف به بنى إسرائيل .

إن قصة يوحنا المعمدان تصور قصة درامية صارخة لشخص كان يدرك عظمة نفسه ، ولكنه كان شغوفاً وعاملاً على إفساح الطريق لشخص أعظم منه .

* * *

ولد هذا النبى الكريم فى إقليم « يهودية » – وكان أبوه هو النبى زكريا – عليه السلام – أما أمه اليزابيث فكانت بنت كاهن ومن أسرة كهنوتية ، ولها قرابة بالسيدة مريم الصديقة أم المسيح – عليه السلام – وكان زكريا وزوجه من البررة ، الصالحين ، الأتقياء أمام الله ، ولم يؤخذ عليهما أى عمل يشين . ولكنهما لم يكونا سعيدين فى حياتهما لأنهما لم يرزقا الولد ، فقد كانت اليزابيث عاقراً ، وأدركها وأدرك زوجها الكبر ونالت منهما السنون ، ولم يعد لهما أى أمل فى أن ينجبا ولداً .

وحدث يوماً عندما كان زكريا يحرق البخور فى المعبد أن تراءى له ملاك الله جبريل – وهذا ما يحدثنا به لوقا فى إنجيله – وقال له : إن زوجتك ستضع لك غلاماً وسيكون اسمه « جوها نان » وهو اسم جون أو يحي ، وهذا الغلام سيكون مكرساً للأعمال القدسية ، وهو الذى سيرد بنى إسرائيل إلى حظيرة الله ، وهو الذى سيوجه ويلين قلوب الآباء للأبناء ، ويوجه العصاة إلى طريق الحكمة والعدالة .

وعندما وفت اليزابيث أيام حملها ووضعت ولدها الذى بُشّر به زكريا ، تلقى زكريا وحياً عن ابنه ، وامتلأ به روعه ، « إنه مبارك من الله رب إسرائيل ، وأن الرب قد زار بنى إسرائيل وقرر خلاصهم لأنهم شعبُه ،

وسيكون يحيى مبشراً لهم ، وخاطب زكريا ابنه فى مهده : يا بنى سوف تدعى من الله لتعرف شعبه طريق خلاصه ، إن هذا الشعب قد قبع طويلاً فى الظلام ، وأنت ستشع النور على حياته ، وقد مكث طويلاً فى ظلال الموت ، وأنت الذى ستقود خطاه إلى حياة السلام .

هكذا كان يحيى بن زكريا منذوراً منذ ولادته لقيادة شعب الله وخلاصه ، ونما ونمت معه قواه الروحية ونزعة التبتل والعبادة ، فكان يمضى معظم وقته منقطعاً فى الصحراء للتأمل والتفكير ، مترقباً اليوم الذى يؤمر فيه أن يقوم بمهمته .

وكانت بداية قيامه بهذه المهمة فى السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور طيبريوس (ت ٢٨ م) . بدأ عمله داعية . متجولاً فى أنحاء فلسطين وفى الصحراء ، وكان طويل شعر الرأس ثائر شعر اللحية ، له صوت صارخ وعينان تشعان ببريق كاللهب ، وكان يلبس قميصاً أبيض مصنوعاً من شعر الجمال الخشن ، وكان يعيش على الجراد والعسل البرى ، ومن يراه يحسبه النبى أليجا أو كأن روح أليجا قد تقمصته ، لما يبدو فى عمله ودعوته من الحماس ، فقد كان يتجول سريعاً مندفعاً بين أرجاء القطر كالريح العاصف ، ومهمته وتعاليمه أن ينظف قومه جسماً وروحاً ، وأن ينقى أفكارهم ويُطَهِّر قلوبهم ، وكان يصيح فيهم « توبوا إلى الله إن مملكة السماء عند اليد ، الآخرة تقترب ... » ولما سأله الجمع من حوله عما يريدهم أن يعملوه كى يظهروا توبتهم ويبرهنوا على طهارة قلوبهم . أجابهم : « من كان له معطفان فليعط واحداً منهما أحد الفقراء مِمَّنْ لا معطف له ، ومن كان عنده طعام فليفعل مثل ذلك ... لا تزاولوا الاغتصاب ، ولا تتهموا أحداً بغير حق ، وليقنع كل شخص بما لديه ».

وكبداية رمزية للتوبة والطهارة أمر أتباعه بتطهير أجسامهم من مياه

النهر – نهر الأردن – ولم يكن مجرد الاغتسال أو المزيد منه كافياً فى نظره ، وقد رفض أن يعمد الذين لم يكونوا مظهرين الاستعداد لتطهير قلوبهم من الكبر والطمع ، وكان يهيب بالإسرائيليين : يا أولاد الأفاعى ، لقد أنذرتكم أن تفروا من غضب الله ، ودعوتكم إلىّ ، إنكم لا تستطيعون أن تهربوا من أفكاركم الخبيثة ، ليس لدى نبى الخلاص آلة سحرية يخلص بها العصاة ، ولكن عليهم أن يرجعوا نهائياً عن آثامهم . كل شجرة تُقَوَّم بما تثمر ، ولقد وضعت الفأس فى أسفل الشجرة ، وكل شجرة لا تأتى بثمر تقطع ثم يلقى بها فى النار .

وبهذه الإنذارات الصارخة بدأ يحيى يفترق كثيراً عن معاصريه المعلمين فى فلسطين ، وكانوا ينتمون إلى جماعة الآسينيين ، وهم إخوة – صوفية من الرهبان – (واسمهم مشتق من الآسى بمعنى الطبيب) – وكانوا يتجولون فى القرى والأقاليم يستحثون الناس أن يعترفوا بآثامهم ، ويوقظون عقولهم وقلوبهم إلى أنَّ مجىء المسيح المخلص قد اقترب ، وأنه سينقذهم مما يعانونه من شدائد ، إنها معاناة قد تفضى إلى الموت ، وإنهم إذ يرذحون تحت نير الرومان وبين مخالبهم العنيفة ، أشبه شىء بالعصفور فى مخالب النسر الشره .

كان أغلب هؤلاء المعلمين المبشرين من جماعة الآسيين Essens – وكانت هذه الطائفة ذات عبادة خاصة وأسرار صوفية ورحية ، وجميعهم كانوا يعمدون فى نهر الأردن ، ويرمزون بهذه الطهارة الجسدية إلى طهارة الرّوح ، وكان يحيى من هذه الطائفة ، تلقى تعليمه معهم ، ولكنه بهذه الطريقة التى سلكها فى التبشير بدأ يبتعد عنهم قليلاً قليلاً ، حتى صارت له طريقة خاصة تمتاز بالشدة والتهديد ، وكان له صفات خاصة تساعده على هذا المسلك ، وهى صفات لا يملكها الآخرون ، وهى جراءة القلب والصراحة ، والشجاعة العالية ، ولذا لم يكتف بمجرد الإرشاد بل زاد عليه

التهديد والعنف .

* * *

كان يحيى – عليه السلام – فى شجاعته القوية وتقواه العميقة ، يبدو صورة من النَّبى أليجا ، وكان أليجا ركز نشاطه ونقده على الملك أحاب ، وكذلك يحيى ركز نقده الصارخ على ما فى قصر الحاكم – هيرود إنتيباس – من فساد وخروج على تعاليم الدين وقوانين الأخلاق ، وفى هذا المجال نافس أستاذه أليجا وزاد عليه فى تعنيف الحاكم والتشهير به .

والسبب الرئيسى الذى جعله يعجل بهجومه وتشهيره بهذا الحاكم ، هو زواج هيرود إنتيباس – حاكم الإقليم الرابع The tetrach – من هيروديا ، فهذا الزواج فيما أعلن يحيى لم يكن فقط زواجاً باطلاً وغير شرعى ، بل أيضاً غير أخلاقى ، لأن هيرود انتزع هيروديا من أخيه (غير الشقيق) .

وزيادة على ذلك لكى يكسب مرضاتها ، تخلى نهائياً عن زوجته ، وكانت هيروديا ذات طموح بالغ وعواطف جامحة ، استولت بها على قلب الرجل وعلى تفْكيره وعقله ،

كان يحيى يُنْذِرُ بنزول اللعنة على البلاد ، لأن هذا الزواج ليس شيئاً غير الزنا بالمحارم ، وكان الحاكم يتميز غيظاً لهذه العبارات الجارحة ، لكن هيروديا وجدت فى هذا الثائر إغراء وسحراً ، وعلقت عليه آمالاً أخرى ؛ إنه ثائر غاضب يمكن أن يقود الشعب فى ثورة ناجحة ضد الرومان . وبذا يهيىء لها ولزوجها عرشاً على إسرائيل لا يستطيع أحد أن ينازعهما فيه ، لذا استدعت يحيى إلى قلعتها فى « مكاريوس » Machaerus – ودار بينهما هذا الحوار .

إنك لابد أن تثير الشعب ، وأن تقنعه بل تغرس فى قلبه أنك أنت المسيح المنتظر ، وأنك جئت لتخلصهم من نير الرومان .

– وماذ بعد ؟ .

– تعرفهم فى النهاية أنهم سيستقلّون ، ويحكمون – كما كانوا يحكمون من قبل بحاكم من بيت إسرائيل .

– حاكم ظالم مستبد من بنى إسرائيل يحل محل ظالم مستبد أجنبى ، مكواة وسمة بالنار من حاكم محلى خير من كى وإحراق من حاكم غير محلى .

(وكان ذلك استهزاء وتعريضاً بها وبزوجها ، ولذا كان يخاطبها ساخراً ، وقالت :

– وأنت لا ترى فرقاً بين الاثنين .

إنهما معاً سيحرقان بنار واحدة .

– وحيث إنك تدعو إلى إقامة مملكة السماء لماذا لا تدعو إلى إقامة مملكة إسرائيل ، ولماذا تعارض فى إعادة مملكة إسرائيل القديمة ، وأنت تعلم أنها مملكة موعود بها من الله ؟ .

(وكانت تريد بذلك أن تظهر ما فى عمله من تضارب ، لأن إعادة مملكة إسرائيل القديمة أمر سموى ودينى أيضاً) .

– فى مملكة السماء التى أدعو لها سيكون الحكم لله وحده ، وليس للإنسان فيها أى سلطان .

هكذا انتهت هذه المقابلة الأولى ، وقد فشلت المحاورة بينهما أن توجد صلة بين فكر هيروديا وفكر يحيى ، لقد عجزت هيروديا أن تفهم أفكاره البسيطة السهلة ، ربما لإفراطها فى البساطة والسهولة ، وظلت تعلق آمالاً عليه فى إعداد الشعب للثورة التى تريدها .

إنه رجل ذو تأثير وقوة ، يمكن أن يكون موقفه من الشعب موقف النجم الهادى ، يسير الناس وراءه حيث اتجه ، وكل ما ينبغى أن يفعله لهذه القيادة هو أن يعلن أنه هو المخلص لقومه ، وأنه هو المسيح الذى ينتظرونه ، إن آلافاً من حوله ينتظرون إشارة منه ليقوموا بالثورة ، وكلمة واحدة منه قد تفجر سخطهم وتلهب مشاعرهم لثورة عارمة ، إنه فى استطاعته أن يمثل دور المكابيين إذا أراد ، ولكن تدريجياً وبشىء من الأناة سوف تأتى الإشارة التى تنفجر بها الثورة ، ولكنه بغباء يهذى بإقامة مملكة السماء ، تلك الخرافة الخيالية ، بدلاً من الدعوة إلى مملكة اليهود على الأرض :- كان ذلك تصورها .

وطلبت من زوجها أن يطلق سراحه ، وقالت : دعه يتجول ويهذى كما يشاء دعه يحشد الجموع من حوله ويوحى لهم بما يريد ، وعندما تتضح أفكاره وتنمو رؤياه سيفىء إلى رشده ، ويقبل خطتنا فى الدعوة إلى إعادة مملكة إسرائيل .

وأطلق الحاكم سراح النبى ، ولكنه كان يعده تارة ويخوفه أخرى : « إذا كنت على استعداد لتقود قواتنا فى ثورة ضد الرومان الغاشمين ، ولتخلص الأمة من ظلمهم ، فستكون لك أعلى رتبة بيننا ، ولكن إذا أصررت على حماقتك وهذيانك - وعلى الأخص العبارات النابية المعيبة التى تشيعها ضدنا ، فسوف نكون مضطرين أن نضع نهاية لهرائك وهذيانك ! » .

وخرج يحيى - غير مكترث بوعيد ولا تهديد - ليبشر بمملكة السماء . ويسخر من مملكة الأرض التى يريدها ، الحاكم وزوجه .

* * *

فى هذا الوقت ظهر مبشر آخر يدعو أيضاً إلى مملكة السماء ، وكان

هذا نجاراً ناشئاً من قرية الناصرة ،– ذلك هو عيسى بن مريم[1] – وجاء هذا الشاب إلى يحيى كي يعمده من نهر الأردن ،– وكان ذا منظر مهيب ، كان فى عينيه بريق يتألق كما تتألق نار المعبد المقدسة ، وما إن رآه يحيى قادماً عليه حتى التمعت فى ذهنه خواطره التى تحدث بها من قبل ، كأنما كانت دعوته وحديثه عن المخلص وتمنية الناس به كانت كلها مركزة على هذا الفتى – وجال فى خاطره بسرعة أنه الحوارى الذى سيحمل عبء الرسالة ، ولما دنا منه قال له فى ابتسامة رقيقة : أنا فى حاجة لأن أعمّد من يديك : فكيف جئتنى لأعمدك ؟ .

وفكر يحيى طويلاً وهو يتوسم هذا النجار الشاب ، الذى جاء إليه فى براءة وإخلاص لِيُعمَّد منه ، وقال فى نفسه : إنه يؤسفنى أننى لا أرى هذا الفتىٰ ، والواقع أن كلاً منهما كان لديه ما يشغله ، وكل يجد فى محيطه ما يحتاج إلى عمل متواصل طويل .

ولما علم يحيى أن هذا الناصرى بدأ يعمد الناس ويعظهم كما يفعل هو ، بعث إليه[2]. وهو مغمور بفرح الأستاذ بتلميذه النابه النجيب ، وفخور أن يكون له مثل هذا الحوارى ، بعث إليه بعض تلاميذه ومستمعيه ليزيدوا عدد أتباعه والمستمعين إليه ، وزاد أن أوصاهم أن يمنحوه أذناً صاغية ، وأن يشجعوه على أداء رسالته ، وبعد قليل جداً نما إليه أن هذا الناصرى قد اجتذب جموعاً ازدحموا حوله أكثر من الذين حول يحيى نفسه ، وجالت فى خواطره مشاعر غريبة متضاربة فهو معجب فخور بهذا الشاب ، وهو

---

(١) الذى فى الأصل : عيسى بن يوسف النجار ، وقد تكررت هذه العبارة فى غير موضع ، وربما كان مؤلفا الكتاب يهوديين يريان ذلك ، ولا نستطيع مجاراتهما فيما كتبا .

(٢) الذى فى الأناجيل أن المسيح بدأ يبشر بعد القبض على يحيى .

أيضاً محزون لتفوقه عليه ، وفجأة انبثق فى ذهنه ، الأمل وتوقع فجر المستقبل المرموق : ألاَ يكون هذا الشاب الناصرى هو المخلص الذى جئت لأبشر به ؟

ومضى يحيى على طريقته متجولاً مبشراً ونذيراً ، وأفكاره تنمو تدرجياً حول تحقيق أحلامه ، ولكنه كان يزداد – أيضاً – حماساً فى التّنديد بحاكم الإقليم ، وزواجه الفاسد ، واستمراره فى عيشة محرمة ، كان يشعر بأن أيامه الباقية صارت قليلة محدودة ، فقد أنجز عمله وأدى رسالته كاملة –، لقد جاء ليمهد الطريق لمجىء المسيح المخلص ، وقد مهد الطريق وأصبح واضحاً ، وها هو ذا المسيح قد ظهر ، وإذن فقد حان رحيله ، ثم إن الله – سبحانه – أرسل له علامة لا تتهم ، وهى نقص قوته وازدياد قوى عيسى ، وامتلأت نفسه اقتناعاً بأن حكمه على عيسى بأنه هو المسيح المنتظر حكم صائب لا خطأ فيه ، إنه هو هو منذ البداية .

لذلك لم يدهش ولم يكتئب عندما جاء جنود هيرود للقبض عليه ، لأنه كان يتوقع نهايته ، وقال فى نفسه إنها نهايتى وبداية عيسى ! .

ومرة ثانية اقتاده الجنود إلى قلعة « مكاريوس » – وفى هذه المرة لم يعرض عليه انتيباس وهيروديا التمتع بحرية فقط ، بل عرضا عليه ثروة كبيرة ومنصباً رفيعاً ، ومكانة شرف ممتازة ، وكل ذلك فى مقابلة شىء هين عليه ، وهو أن يعلن بين الناس إنه هو المخلص ، وأن يحرض الشعب على الثورة ضد الرومان .

وهز يحيى كتفيه استخفافاً بما سمع .

– إن المخلص ههنا موجود بينكم ، أما أنا فلست المخلص .

– أنت لا تشير إلى مخلص بوجه من الوجوه ؟– من هذا المخلص الذى تعنيه ؟ .

أهو عيسى الناصرى ؟ .

– نعم إنه هو !

وانفجرا معاً فى ضحك ساخر .

– عيسى مخلص ؟!– هذا الذى يبشر بالعفو والتسامح ؟، هذا الذى يدعو للمحبة والإخاء ؟! الذى يقول أدر خدك الأيمن لمن صفعك على خدك الأيسر ؟

أى سخرية وأى غباء فى توقع خلاص من مثل هذا الشخص ، كيف يرجى نصر على يديه وهو يدعو إلى الخنوع والاستسلام ؟!

وقابل يحيى ذلك كله بإصرار وغلظة ، وقال فى جفاء : هو وحده يعرف الطريق إلى المملكة .

ونظرا إليه معاً نظرة ساخرة يائسة ، وقالا فيما بينهما : لا شىء نستطيع أن نعمله مع هذا الداعية ، إنه مجنون لا يتحول عن أفكاره ، ولم يكن مجرد قول أو كلمة شتم وإهانة ، بل كان الذى قر فى أذهانهما فعلاً أنه مجنون أو شبه مجنون ! .

[كان الفرق بينهما وبينه بعيداً والفجوة الفكرية واسعة ، فهو لا يشغله إلا مملكة السماء ، أما هما فكانا يحلمان بمملكة إسرائيل ، والعرش الذى يتبوآنه حكاماً على المملكة ، لهذا اتهموه بالجنون] .

ورأيا أن هذا المجنون بهذيانه ودعاياته سيسبب لهما أخطاراً ، وأن من الأفضل لراحة بالهما ، وهدوء الشعب أن يسجنوه ، وأن يكون سجنه فى مكان القاذورات والعفن أسفل القلعة ، وأن يلقى هناك إلى الأبد ، فهكذا كان مصير كثيرين من الآسيين ، أولئك المعلمون الذين كانوا يطلقون ألسنتهم بالسخرية من ساداتهم .

وهكذا ألقوه فى غيابة هذا السجن القذر آملين أن ينسيا سريعاً وجوده .

وكان من الممكن أو المقرر أن ينسى فى سجنه لولا ، أن عضواً من البيت المالك وهو الأميرة سالومى . كانت سبباً فى خروجه ، فخرج ليلقى حتفه .

وسالومى هى بنت هيروديا من زوجها السابق ، وكانت حسناء ، فاتنة يشتهى كل شخص أن يظفر منها بنظرة أو كلمة ، وكان قد حدث يوم أن أحضر يحيى إلى القصر أن حاولت تلك الفاتنة اجتذابه إليها وإيقاعه فى غرامها ، وربما أمَّلَتْ أن تتخذ من نظراتها الساحرة وسيلة لتحويله إلى ما تطلب أمها وهيرود من الدعوة إلى الثورة ومملكه إسرائيل :– ولكن يحيى ازدراها ، وصاح بها فى احتقار : اذهبى أيتها الساقطة !

ونالت الإهانة منها منالاً جعلتها تصر على الانتقام لكرامتها الجريحة متى سنحت الفرصة .

وحدث بعد سجن يحيى بأيام قليلة أن احتفى هيرود بعيد ميلاده فى مدينة « مكاريوس » ، وكان حفلاً مشهوداً رقصت فيه سالومى الحسناء أمام المدعوين ، وأعجب بها هيرود كلّ الإعجاب حتى حمله إعجابه بها أن يقسم لها أيماناً مغلظة أن يجيبها إلى ما تطلب أياً كان ما تطلب .

كان قلب الأميرة مليئاً بالحقد على يحيى ، وكانت عيناها تتقدان بشرر الكراهة والغيظ لما آذاها من اللفظ الجارح ، وأيضاً لفشلها فى إغرائه : فلما أقسم هيرود لها هذه الأقسام قالت : أريد رأس يحيى .

وكان السكر قد لعب برأس هيرود حتى ضعفت إرادته ، وتحت تأثير الأقسام التى أقسمها ، وافق على ما طلبت ، وقال أحضروا لها رأس يحيى !.

[وقد ندم بعد ذلك وتخوف عاقبة هذه الفعلة ، ولكن هذا الذى كان] .

سرعان ما أحضر رأس النبى على صينية ، سلمت ليد الأميرة ، سالومى فرقصت بها وهى تحملها على يديها !

* * *

من غير أن يشعر الحراس ، وضع الخدام الصينية ، وعليها رأس النبى متجهاً بنظره نحو الجبل ، ومن أسفل الجبل انبعث صوت رهيب ، صوت هذا الذى تنبأ به يحيى من قبل صارخاً :

« مباركون من الله أولئك الذين اضطهدوا من أجل الحق ، ولهؤلاء أعدت مملكة الله » .

ونزيد على ما كتب المؤلفان أن هذا الحادث كان خليقاً أن يعصف بهيرود نهائياً لولا أن الربانيين والأحبار من طوائف اليهود ، كانوا يحاربون يحيى ويكرهونه ويودون التخلص منه ، فكان موقفهم هذا مما ثبط الشعب عن الثورة وهدأه ، ولكن هذا الأمير الحاكم ظل بغيضاً لدى شعبه .

* * *

□ عيسى – عليه السلام □

Jesus

٤ ق م – ٢٩ م

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد سنة ٤ ق م فى عهد الحاكم هيرود فى قرية « بيت لحم » .
عندما كان فى سن الثانية عشرة ذهب مع أمه ويوسف النجار إلى أورشليم .
عمد من النبى يحيى عليه السلام
بدأ دعوته عقب القبض على يحيى
حصل على شهرة أنه يشفى المرضى
قُدِّرَ وعظم لأنه داعية سلام
اختار اثنى عشر حوارياً
أعلن حواريه بطرس أنه المسيح .
تنبأ بالقبض عليه وموته
أعد نفسه لرحلة إلى أورشليم
وصل إليها وهو يركب جحشاً
أثار العداوة ضد الأقوياء والأغنياء ،
تناول آخر عشاء له مع حوارييه
وقال لهم واحد منكم سيخوننى
كان حواريه يهوذا هو الذى خانه
قدم للصلب سنة ٢٩ م (عمره ٣١ سنة) .

* * *

كان شاباً عجيباً ظهر فى مدينة كابرنوم **Capernaum** ، إنه نجار من الناصرة يدعى عيسى ، ابن لنجار يدعى يوسف – حدث أنه فى يوم من الأيام كان يمشى بجانب بحر الجليلى ، فأبصر بشخصين صيادين يرميان شباكهما فى الماء ليصطادا السمك ، وهما سيمون وأندريه ، فصاح بهما : تعاليا معى ،

وسأجعلكما تصطادان الناس .– ولما يمتاز به من قوة الشخصية والتأثير . تركا فى الحال شباكهما ، وتبعاه حواريين له . وحينما تجول فى أرض الجليلى تجمع الناس حوله ليستمعوا إلى صوته الموسيقى الجذاب ، وفى مدينة كابرنوم تقدم إليه ضابط رومانى ورجاه أن يشفى ابنه من مرضه ، وكان طريح الفراش مشلولاً لا يستطيع الحركة ، وقال له عيسى اذهب إلى ابنك وبقدر إيمانك سيكون حظه ، وفى اللحظة نفسها شفى الشاب .

وكان الناس فى أرض الجليلى يتهامسون فيما بينهم : إن هذا الشاب له قُوى إلهية – وقال رجل صاحب قارب فى بحر الجليل : إننى رأيته بعينى يصنع معجزة من معجزاته ، كان القارب يسير بنا فى البحر حين هبت فجأة عاصفة قوية ، وأيقنا جميعاً أن القارب سينكفىء ، وكان عيسى نائماً هادئاً كأن شيئاً لم يحدث ، وكنا نحن فى فزع ورعب ، فايقظناه من نومه ورجوناه أن يعمل شيئاً ينقذنا – وقام فقال لنا : لا تخافوا واهدءوا ، ثم تكلم إلى الرياح فأنصتت لكلامه وهدأت فى الحال .

وسمع أحد الحاضرين فقال متَعجباً : أى نوع من الرجال هذا الشخص الذى يكلم الريح فَتسمعه وتسجيب لكلامه ؟ وتهامس جماعة آخرون فقالوا : إنه هو يحيى المعمدان عاد إلى الحياة ثانياً ، وقال شخص ثالث إن هيرود إنتباس يؤمن بذلك :

وقال الشاب صاحب القارب : إننى أرى أنه أقوى من يحيى وأعظم ، ومن جانبى أعتقد أن عيسى الناصرى هو المسيح المنتظر .

* * *

عندما كان فى الثانية عشرة من عمره كانت تبدو عليه صفات الباحث عن الحقيقة ، المستقل بنفسه المعتمد على تفكيره وعقله ، وعندما صحبه

والداه إلى بيت المقدس ، انغمس فى جدال مع الربانيين الرجعيين فى المعبد اليهودى . وكان عقله الشاب القوى مصراً على استخلاص العقيدة من الروايات العديدة القديمة ، وقد رجع أبواه وهما يظنانه مع الرفقه العائدة وبعد مسيرة يوم رجعا ، فوجداه بعد ثلاثة أيام فى الهيكل بين المعلمين يجادلهم ، والناس يدهشون لأسئلته وأجوبته ، وقالت له أمه : لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هو ذا أبوك وكنا نطلبك معذبين ، فقال لهما : لماذا تطلبانني ، ألا تعلمان أننى لابد أن أشغل بالسؤال عن أبى ؟. وكانت كلمات غريبة من شاب ناشىء ، ولم يفهما ما أراد ، ولكنهما كانا متعودين أن يذعنا له فلم يجادلاه ، وكما فى إنجيل لوقا كانت أمه تحتفظ بكل ما يقول .

ولم يسجل التاريخ ما عمله خلال الاثنى عشر عاماً التى تلت ذلك ، ولكننا نجده فى سن الثلاثين يغادر بلده بيت لحم – ليتجول على حافة نهر الأردن ويتصل بأتباع يوحنا ، وكان يوحنا أشد منه حمية وأعنف مجادلة ، أما هو فكان ذا رقة ورفق ، لم يكن اهتمامه الأكبر أن يخلص التّائبين ، ويعاقب غير التائبين ، ولكنه كان يبحث عن الآثمين وأصحاب الخطايا ليرشدهم إلى التوبة ، ويقول : إن الاهتمام بالسعادة فى هذه الدنيا يوجب اللعنة الأبدية فى الدار الآخرة . ولكنه مع ذلك كان ثائراً متمرداً على الأوضاع السائدة مثل يوحنا ، كان يكره التقاليد الجامدة ويكره المنافقين ، وحيث كان قد عمد من يد يوحنا صار قائد حوارييه .

قبض على يحيى حيث كان عيسى متروكاً لنفسه . وظل لحين من الزمن يتجول فى التيه، وحاول أن يجرب رسالته ومشروعه أمام صمت الصحراء والسماء، وأخيراً عاد إلى قريته وهو شغوف بأداء رسالته أمام شعبه، ولم يستقبله الشعب بما كان يرجو، بل كانت تحيته أنه رمى بالحجارة وقوبل بالازدراء، لقد رجع النبى إلى وطنه فوجد الأبواب موصدة أمامه، الأوابد فى الحقول تجد أوجارها، والطيور

فى السماء تجد أعشاشها ، ولكن هذا الطريد من الناصرة لا يجد مكاناً يضع فيه رأسه وهكذا تجول بين جبال يهودية ، واستطاع أن يجمع حوله فئة من الصيادين والعمال والفقراء سيئى الحظ . طائفة من الذين قضى عليهم سوء الحظ أن يكونوا طريدى مجتمعهم ربط بينهم العوذ واليأس ، وقد أنِسو إليه لأنه مناهم بأحلام وآمال بعيدة . أمرهم أن يلقوا عن كواهلهم أثقال الحياة التى يعانونها ، وأن يتبعوه إلى مملكة جديدة ، وهكذا اتبعوه ومضت هذه المجموعة من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية يبشرون بملكوت السموات ، ويؤسسون أينما حلوا مملكة السماء على الأرض .

كانوا مجموعة من الأتباع يمشون كالعاصفة المدمرة ، ومرة عندما رفضت إحدى القرى أن تضيفهم أو تقدم لهم شيئاً من القرى هموا بإحراقها حتى تأتى إلى الأرض ، ولكن عيسى نصحهم ألا يفعلوا ، وقد وجدوا متعة فى الخروج على تقاليد المجتمع المتبعة ، فكانوا كالأرضة التى تأكل الملابس ، وعندما عابهم الناس بأنهم لا يحترمون يوم السبت ويأكلون فيه سنابل القمح ، وهو يوم صيام وعبادة ، قالوا : إن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت . كانوا يستنزلون اللعنة عل الذين يأبون أن يستمعوا لهم ، ويسمونهم القبور المطلية أو المبيضة ، بل كانوا يدعون الله إن يدمرهم كما دمر سدوم وجمّوره . كانوا يمثلون القوى الحربية فى الجليلى ، وكان عيسى قائدهم الذى يهيئهم للثورة المرتقبة ، كان دائماً يحاول كبح جماحهم إذا اشتطوا وغلوا ، ولكن فى وقت ما وجد أنه من الصعب أن يسيطر أو يتحمل الإهانة التى توجه إليه من قوم يتصفون بالوحشية والغباء[1] .

* * *

(١) لا تنطبق هذه الصورة على السيد المسيح ، فلم يكن ثائراً مدمراً ، وإباحة أكل السنابل يوم السبت هو التسامح الحق ، كان الأحبار يقفون عند ألفاظ النصوص ، وكان يأخذ بروحها .

كان عيسى يحب الأطفال والأطفال يحبونه ، فأينما اتجه كانوا يزدحمون حوله ويسألونه أن يلعب معهم . وكان من المألوف أن ترى هذا الجسم المتين قد لوحته الشمس ، وهو يمشى مجهوداً خلال طرق الإقليم التربة . وقد تجد طفلاً جاثماً على كتفه ، وآخر متعلقاً بذراعه ، ومجموعة من الأطفال يمشون معه ومن ورائه وهم يلوحون بأيديهم ويصيحون ، أو يرددون الغناء الذى يردده يهود فلسطين .

وكان وصوله إلى أى قرية من قرى فلسطين يوم عطلة أو عيد للأطفال ، كان حقاً كالمزمار الأرقط فى الناصرة ، وكان الأطفال على استعداد أن يذهبوا معه إلى آخر الدنيا .

أما هو فركز كل آماله على رفاق اللعب الصغار ، وقال : لهؤلاء ستكون مملكة السماء ، « إن من يقدم لواحد من هؤلاء – ولو كوبة صغيرة من الماء البارد ، لن يعدم أبداً أجره عليها » .

وقد أحبه الصغار وألفوه ، فكانت الأقاصيص الساحرة الذى يتحدث بها عن المملكة المقبلة حبيبة لديهم ، ولا يرون فيها شيئاً من الغرابة أو الاستحالة ، ولا أنها مجرد خيال ، بل هى حقيقة مترقبة ، وكان يقول لهم إنه هو القائد الذى سيقودهم بنفسه إلى الأرض الجميلة ، هنالك لا توجد أبداً كراهية ولا أحقاد ولا حروب ، ثم لا يوجد أى منغص ولا شكوى ولا مرض ولا موت ، هناك حكمة الله تهبط على قلوب الأطفال » .

كان الأطفال يجلسون فى صمت وإصغاء إلى أقاصيصه العجيبة ، وعيونهم تشع بالدهشة والعجب ، ووجوههم تتضرم بالشوق والحيرة من الخيالات التى تخامرهم ، وكان هو يؤمل أن هؤلاء الصغار ،– وليس الكبار – هم الذين سيساعدونه على أن يبنى على الأرض مملكة السماء الجديدة . هذا لأن الكبار كانوا فاسدين ، ولم يصبحوا بعد صالحين للمغامرة ، كل

واحد منهم كان يرى القذاة فى عين جاره ، ولكنه لا يرى الخشبة فى عين نفسه ، إن الدهاء والخبث الذى ران على قلوبهم ، والألفاظ الخشنة الغليظة التى اعتادوها قد حالت بينهم وبين إلف الكلمات الرقيقة ، وعندما كان يتحدث إلى هؤلاء الكبار عن مملكة السماء كانوا يقابلونه بالسخرية ، ولا يستطيعون إدراك مراميه ، فيقولون له : متى سندخل مملكتك ؟. وأينا سيكون على يمينك ومن سيكون على يسارك ؟.

كان هؤلاء – على كبرهم – أطفالاً فى نظره – كانوا دون المراهقة فى كل شيء عدا مقدرتهم القوية القادرة على ارتكاب الآثام – وعندما كان ينظر إليهم ويستمع إلى كلماتهم الساذجة الغبية ، كان يتحقق ويتأكد لديه أنه يعيش فى عالم أطفال ، ولذلك لم تعد تغضبه إهاناتهم ، بل كان يرثى لهم ، وكانت هذه نقطة تحول فى حياته . نجده يهيب بهم : تعالوا إلى أيها العمال المثقلون بأعباء الحياة .. ستجدون لدى الراحة والاطمئنان .

لقد تحولت أخلاقه بسرعة جداً من أعمال مخلوق إلى رحمة إلهية ، إنه يتجول الآن سفيراً يدعو إلى صفاء النفس والإرادة الحسنة ، وأصبحت حاله الآن بعيدة عن حالته الأولى ، فهذا النبى الذى ألقى خطبته فوق الجبل يفترق افتراقاً واسعاً عن ذاك المثير المهيج للشّعب حتى بلغ به الأمر مرة أن يتوسل إلى الله أن يذبح أعداءه ، وهو الآن يقول : يارب ارحمهم فإنهم جاهلون ، وعلمهم عسى أن يعلموا ، باركهم بقدر ما عصوك ، اشف هؤلاء الذين يعانون من آثام قلوبهم كان كطبيب الأجسام الرقيق ، حتى إذا كانوا فى حال هذيانهم من المرض ضربوا الطبيب الذى جاء لكى يساعدهم .

إن الخطبة التى ألقاها عيسى من فوق الجبل تمثل أنبل المشاعر والإيحاءات لرجل فى أحسن حالاته اتّزاناً : طوبى للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى لأنهم يتعزون ، طوبى للودعاء لأنهم

يرثون الأرض طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ... » .

« لكن العدل وحده ليس كافياً . إن خبز العدل لابد أن يخلط بمن الرحمة ... طوبى للرحماء لأنهم سيرحمون » – وهكذا أطلق روح الرحمة الحية من الكلمات الميتة ، وقال إنه يتبع خطى الأنبياء الذين سبقوه : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس ، وإنما جئت لأكمله .

كان معارضاً للتقاليد الكنيسية التى كانوا عليها ، أو كما كان يقال : تقاليد السيناجوج[1] .

وقد عدل عن تعاليمهم ليبشر بمملكة السماء التى بشر بها الأنبياء من قبله .

« نظفوا معابدكم وأرواحكم ، تخلوا عن عاداتكم القديمة فى العبادة ، اعتنقوا روحاً جديداً للعدالة ، استبدلوا بتقاليدكم تقاليد الحق ، تقاليد العاطفة تقاليد المحبة والرحمة ، تباعدوا عن ادعائكم السيادة والتعالى على الأجناس والأمم الأخرى جميعنا إخوة فى دنيا الأسى والحزن وكلنا أبناء أبينا الذى فى السماء ، أحبوا بعضكم بعضاً . كفوا عن ظلم بعضكم بعضاً بسبب تهافتكم على جمع حطام الدنيا . يوجد شىء واحد طيب على الأرض وفى السماء – ذلكم هو القلب العطوف ، كونوا رحيمين محسنين ليس فقط إلى إخوانكم وأصدقائكم ، بل أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم ، لأنه لا عدو لكم إلا جرحى الأرواح – أَلِينُوا قلوبهم ، داووُا جراح القلوب ببلسم الرحمة ، صلوا لأجلهم لقاء ظلمهم إياكم ، وبهذا كان يبدو خبيراً فى طب الحياة . كان يعلم أن العدوان ليس هو السبب فى عداء الناس ، ولكنه نتيجة الظلم ، إن الظالم المستبد هو الذى عانى جراحاً عميقة من الظلم ، إنه يرى نفسه منتقماً لما ناله من قبل ، وإنه ينتقم إما لنفسه وإما لأشخاص قريبين منه ، الأشباه

---

(١) معبد اليهود .

ولائد الأشباه ، إن أشواك الكراهة لا تنبت وتنمو إلا من بذور الكراهة .

كيف تتوقعون أن تمحى الكراهة وتستأصل من الأرض وأنتم تلقمون الجائع بالحجارة عندما يسأل عن لقمة الخبز ، أو تقدمون له الثعبان عندما يسأل عن سمكة .

لذلك يوجد طريق واحد به يمكن أن تؤسسوا مملكة السماء على الأرض .

ومن هنا اتَّجَهَ إلى الحقيقة الذهبية بعمل إيجابى . إن الدور الذهبى الثّمين الذى قام به زردشت كان سلبياً ، وكذا ما عمله كونفوشيوس أو هليل . لقد كان هؤلاء يقولون : كل شىء لا تُحبّ الناس أن يفعلوه لك لا تفعله لهم ، أما عيسى فكان يقول : كل شىء تحب أن يفعله الناس لك أعمله أنت لهم . » – وبذا كان هو النبى الذى نقل العدل السلبى إلى محبة فعلية .

* * *

عندما قبض على عيسى . هرب أكثر حواريه بعيداً خوفاً أن يقبض عليهم ، وصاح أعداؤه وصخبوا مطالبين بدمه ،– وقد سلك عيسى مسلك سقراط حين رفض أن يدافع عن نفسه ، واستل بطرس سيفه محاولاً أن يستنقذه ، ولكن عيسى ابتسم فقط عندما رأى ذلك ! لقد تخلص فيما مضى من مشاكسات الأطفال الحمقى التى استعملوا فيها آلاتهم البدائية من الحديد أو الصلب ، إنه يعلم أن الانتصار الذى يحصل عليه المرء بالسيف إنما هو مقدمات لحرب أخرى ، وصاح فى بطرس : « اغمد سيفك » إن الذين يستلون السيف هم الذين سيقتلون بالسيف .. وأغمد بطرس سيفه وهو يفيض دهشة .

كان يتكلم بهذه العبارات أمام عساكر الرومان الذين قبضوا عليه ، وهى كلمات نبوية ولكنهم لم يصغوا أو يفطنوا لها . لأنهم فى هذا الوقت وهم فى قمة انتصارهم ، كانوا يمشون قدماً إلى موتهم . ولذا لم يعيروه اهتماماً .

ونطق بيلاطس بكلمة القضاء ، حكم عليه بالصلب . وطبقاً للعادة المتبعه فى الحكم الرومانى كان لابد أن يثبت بالمسامير على صليب خشبى .

وكان على جانبى المسيح لصان مصلوبان ، وعندما لفظا أنفاسهما الأخيرة كانا ينْطقَان باللعنة ، لكن عيسى كان يدعو الله أن يسامح أعداءه .

* * *

لقد رفضت دعوة عيسى من مواطنيه وأبناء بلده ، وتخلى عنه أصدقاؤه ثم صلب بأيدى أعدائه ، وأُخطِىءَ فى ترجمته وتفسيرات أعماله من كثيرين من أتباعه ، لقد كان شخصاً بسيطاً ذا روح بعيد عن التظاهر ، « أنا وديع منكسر القلب » .

كان يعارض المظاهر والتباهى ، والاحتفالات ، والمعابد ذات الجوّ الخانق ، كنيسته هى هذا الفضاء ، والمذبح الذى يقره ويعترف به هو أى حجر بجانبه ، ورداؤه الكهنوتى ، إنما هو رداء خشنٌ مزقته الأسفار ، والجوقة التى ترتل أناشيده هى جماعة العمال فى الجليل الذين يرتلون أناشيدهم الوطنية .

لو أن عيسى يعيش بيننا الآن لأزعجته مظاهر التعصب والكراهة والأحقاد والجرائم والاضطهادات ... تلك التى ترتكب باسمه ، ومرة ثانية كان يهيب بنَا أن نُصغى إلى كلماته الحكيمة ، إنها كلمات حتمية ضرورية فى هذه الأيام ، كما كانت ضرورية حين قالها منذ عشرين قرناً :

لا تكنزوا لأنفسكم كنوزاً على الأرض ، حيث تأكلها الأرضة ويرين عليها الصدأ ، وحيث يستطيع اللصوص أن يحفروا الأرض ويسرقوها ،- حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم أيضاً ،- هذا هو الجرى وراء حطام الدنيا ومادياتها التى لا قيمة لها - مسابقة الأقران على الربح وجمع المال ،- هذه القسوة ، هذا التنافس ، على كنوز على الأرض فانية ... تلك التى حدت بالأمم أن تمضى سراعاً ليحطم بعضها بعضاً ، فى سلسلة من الثورات والحروب .

ياليت الدنيا إذ سمعت كلام هذا النبى جمعته ووعته !.

« كل شخص يسمع كلامى هذا ويعمل به سيكون كالشخص العاقل الذى بنى بيته فوق الصخر ، ثم هطل عليه المطر ، وجرت من حوله السيول ، وضربته الرياح العاصفة ... ولكنه لم يسقط ، لأنه بنى على الصخر ، وكل شخص يسمع كلامى هذا ولا يعمل به ، سيكون كالشخص الأحمق الذى يبنى بيته فوق الرمال ، ثم تهطل عليه الأمطار ، وتجرى حوله السيول ، ثم تضربه عواصف الريح ، فلا يلبث أن يسقط .

« كثير من الرجال وكثير من الأمم بنوا بيوتهم الأخلاقية والسياسية فوق الرمال الوعثاء » .

« استمعوا إلى كلماتى واعملوا بها » .

إن الجانب الأعظم من تعاليم المسيح لم يعمل به إلى الآن ، ونحن بحاجة إلى العمل بها .

نريد بناء معبد من السلام فوق أساس من الجمال . إنه لهذا الغرض قد أرسل الله هذا النبى بين الأطفال العنيدين المتمردين فى الأسرة الإنسانية . « إنه عبدى الذى اخترته ، إنه حبيبى الذى تسر به نفسى ، وسأضع

روحى عليه ، ثم هو الذى يعلن الحكم للأمم ، وإلى أن يخرج ثمار العدالة ، ويهيىء للعدل انتصاره واسمه ، سوف تتعلق آمال الأمم .

من العدل إلى الأمل ، ومن الأمل إلى الفهم والتعقل ، ومن الفهم والتعقل إلى السلام .

* * *

□ بولس[1] □

٢ - ٦٧ م

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى طرسوس سنة ٢ م

تعلم صناعة الخيام .

أرسل إلى أورشليم للدراسات الربانية .

كان له عمل قيادى فى اضطهاد المسيحية .

ذهب إلى دمشق ليعمل ضد المسيحيين

رأى المسيح قبل وصوله إلى دمشق

وناداه لماذا تضطهدنى .

دخل دمشق ليعلن أن عيسى هو المسيح.

فى دمشق واجه اضطهادات ضده

هرب إلى الجزيرة العربية .

عاش فى حياة التأمل ثلاث سنوات .

رجع إلى أورشليم ضيفاً على بطرس

قام بالرسالة إلى سوريا وسيلسيا

بدأ من أنطاكية هو وبرنابا ليبث

الدعوة بين اليهود وغيرهم .

رحل أيضاً إلى آسيا الصغرى وأوربا

بصعوبة تخلص من الموت عدة مرات

قبض عليه وأرسل إلى فيلكس الحاكم

الرومانى فى قيصرية .

أرسل إلى الإمبراطور الرومانى

فى الطريق إلى روما أصيبت السفينة

ولكنه وصل سالماً .

توفى سنة ٦٧ م

* * *

(١) كتبنا فى كتاب «الإرساليات التبشيرية» ترجمة لبولس ، وجانباً كبيراً من أعماله – وما هنا يضاف إلى ما هناك .

كان اسم بولس الأصلى هو شاءول Saul – ولكن والديه دعواه بولس Paul بمعنى الصغير ، وهو اسم التدليل فى الإغريقية للطفل العزيز فى الأسرة ، ولم يكن فقط هو أصغر أفراد الأسرة ، بل كان أيضاً ألمع وأنبغ أفرادها ، وكانت أسرة فريسية من أغنى أسر الجليلى – والفريسيون هم مفسرو التوراة بين اليهود .

ولد فى مدينة طرسوس – مركز تجارة الأصواف فى العالم القديم ، وقد ربى على فهم وإدراك واسع ، ليس فقط لوصايا الرب بل على معرفة طرق الحياة وسلوك الناس ، وكان تعليمه دقيقاً عميقاً فى اليهودية ممزوجاً بشىء من الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية ، وفى سن الخامسة عشرة طبقاً للتعاليم اليهودية ووصايا أساتذتها أرسل إلى أوشليم ليدرس العقيدة فى الكلية الربانية هناك ، ولكنه قبل أن يحصل على الشهادة المؤهلة للدراسات ، العليا The Matriculation . تعلم طريقة النسيج ، وكانت هذه أيضاً طبقاً لوصايا معلمى اليهود أن الناشىء لابد أن يتعلم صنعة يكسب بها عيشه ، وكانوا يقولون : « من لم يُعَلِّم ابنه صنعة فقد علمه اللصوصية » .

وعندما حصل على درجته العلمية من الكلية كان – كبقية رفاقه – على استعداد لأن يعمل لكسب عيشه ، كما هو مستعد أن يعلم التوراة بالمجان ، وكان شديد التمسك بقانون التوراة – كان يصوم بانتظام ، ويكرس نفسه يوم السبت للصيام والعبادة فلا يحمل حتى حزمة بقل – ينظف يديه ويغسل الآنية التى يستعملها ، وكانت هذه سجية الفريسيين[1] .

* * *

(١) الاسم مأخوذ من الفرز أو الاختيار .

هناك مثل شرقى ساخر يقول : لماذا تعادينى ؟- هل سبق أننى أحسنت إليك ؟ .

هذا المثل ينطبق جيداً على الرسول بولس ، فقد أحسن كثيراً إلى اليهود ، إذ عادى أتباع المسيح واضطهدهم ، وفى اللحظة التى أمسك فيها عن اضطهاد المسيحين ، بدأ يواجه اضطهاد اليهود ، وتصبر فى بادىء الأمر وقال : لقد عانيت فقد الأشياء ، ولكن قبل أن يمضى زمن طويل نجده فى موقف حرج يوشك أن يفقد فيه حياته ، فقد عقد المتشددون من اليهود مجلساً للنظر فى قتله ، وأخذوا الأمر بجد فجعلوا يراقبون بوابات دمشق ليل نهار ، ولكنه استطاع أن يفلت من أيديهم بخدعة ماهرة . إذ دلاه أصدقاؤه من خلف الجدار فى سفط ، وأفلت ، ومن ثم بدأ حياة العنف ففى منفاه تخلى نهائياً عن فكرة التتويج بتاج الأشواك ، وكطريقة الرسل صار متجولاً يدعو إلى السلام ، ولم تكن تجارة رابحة تلك التى تلقى فى سبيلها الصفعات والرمى بالحجارة ، حتى الرسل المسيحيين أنفسهم كانوا أول الأمر ميالين لتحطيمه ، فكل الذى يعرفونه عنه أنه كان من كبار مضطهديهم ، ولهذا قابلوا ردته عن يهوديته ودخوله المسيحية بكثير من الريبة والحذر ، وقالوا ربما يكون جاسوساً ، من يدرى ؟ .

ولزمن طويل تجنبه اليهود والأمميون ، وظل هكذا صوتاً غير مسموع ، وجسماً محطماً من المظالم والمتاعب ، وفى خلال تجواله واجه المتاعب من حيث لا ترتقب ، أو كما قال : « كانت الأشواك تنبت له فى اللحم » ، وكأنما اعترته حمى الملاريا المزمنة ، وخلال أعماله للدعوة كان غير قادر على أن يتخلص من آلامه الجسدية ، ومرة بعد أخرى فى حال يأسه فكر أن يلقى هذا العبء الذى أثقله على عاتق من هو أمهر منه وأقوى ، ولكن كان دائماً فى هذه اللحظات يتذكر الكلمات التى قالها له الخيال الذى رآه :

إنه لابد أن يبقى مصراً على العمل الذى وقف نفسه عليه ، كى يؤدىء رسالته بصبر وبغير شكوى ، ولابد أن يتم جميع الأعمال التى عينت له ، ولذا ظل مصمماً على المضىّ فى رسالته ، وفى هذا التصميم وجد مصدرين لبث الشجاعة فى نفسه ، وهما الرسول بطرس ، وتاجر الأقمشة برنابا .

كان بطرس أول من قبله من الرسل ، أيده بقلبه واستضافه فى بيته . وقال لرفاقه ليس هذا الرجل جاسوساً ، ولكنه حوارى حقيقى للسيد المسيح . وظل بولس فى بيت بطرس أربعة عشر يوماً ، فَكّرا معاً خلالها وغيرا كثيراً من الفكرة التى كانت معروفة عن المسيح عيسى بن مريم . ولعلهما أن يكونا قد وقعا فى جدال غير قصير ، هذا لأنهما معاً كانا سريعى الانفعال ، ومحبين للجدال والمناقشة ، ولقد أوحى اتصاله ببطرس إليه الإيمان بمبدأ الخير فى القلوب الإنسانية . وكان لا تصاله ببرنابا فيما بعد مثل هذا التأثير،– وكلمة برنابا – فى اليونانية تعنى ابن المواساة » وهذا الرجل الذى تشجع به . تخلى مثله عن وظيفته وتجارته الرابحة ليبشر الناس برسالة المسيح ، أو بالأحرى ليعضد بول فى رسالته ، وكان بول نفسه رجل عمل وليس رجل كلام فقط .

فى طرسوس لأول مرة قابل بولس جوفيال برنابا ، وهو شخص جرىء لا يعرف الخوف ولا الغضب ، كان رجلاً مسنّاً ذا لحية كثة ووجه ينم عما يكنه صدرهُ . وكان يشرف على « إخوة »[1] يمد جماعتها بالمال والأمل جميعاً . وعندما قابل « بولس » لأول وهلة أخذ بشكله وكلامه . فقد كان شاباً ممشوق القوام ، ذا صوت عذب وبلاغة أخاذة ، وقال فى لهجة مازحة مشيراً إلى نفسه ، « ربانى ليس له مجتمع »– ليس له معبد ، ولكن جوفيال شجعه أن يبحث عن مجتمعه ومعبده فى الأماكن الأخرى ، وأن يظل

---

(١) جماعة متعبدة على مذهب معين .

متنقلاً من مكان إلى مكان ليؤسس المعابد ،– وقال له : إذا أبى اليهود أن يستمعوا إليك فاذهب بدعوتك إلى الأمميين ! وعلقت نصيحة الرجل المسن بقلب بولس ، وكانت فى الواقع فكرة جريئة محيرة ، فكيف ينقل الدعوة من بين الأسباط المختصين بها لينشرها بين شعوب العالم فى مختلف أنحاء الأرض – كانت هذه نصيحة جوفيال برنابا ، وقال له بولس سأعمل بنصيحتك وأنفذ ما اقترحت .

وهكذا تمت كلمة الله واتسع أفقها .

* * *

أخذ الرجلان – الشاب والشيخ – طريقهما إلى أنطاكية فى سنة ٤٥ م – وأنطاكية يومئذ ملكة الشرق وعروسه – يحف بها النهر من جانب والجبل من جانب ، وكانت كأنها صندوق من الجواهر ، بها التماثيل والقصور ، والشّلالات والحدائق ، وكان شارعها الرئيسى الذى تحف به الأشجار على الجانبين يمتد ميلين عبر المدينة ، وكانت أرضه مرصوفة بالأحجار الرخامية البيضاء التى تبهر الأعين ، وكان مقرراً لدى أهلها أنه طريق عام تمشى عليه آلهة الرومان . وفى هذه القلعة الحصينة لآلهة الوثنيين جاء المنفيون من اليهود ليكونوا ديناً جديداً . ذلك أن فى هذه المدينة ولدت المسيحية ، وقبل وصول بولس إليها كان أتباع عيسى من فرق اليهود المختلفة قد كونوا مسيحية خاصة ، إنهم يوقرون أنبياء اليهود ، ويتبعون القانون اليهودى ، ذلك أن عيسى قال : ما جئت لأنقض الناموس بل جئت لأكمله ، وهم يرعون أيام اليهود المقدسة ، ولما يكونوا بعد قد فصلوا الكنيسة عن معبد اليهود ، بل كانوا كبقية اليهود يجتمعون فى المعبد . (كلمةالمسيحية لم تكن حتى الآن قد وجدت . وكان حواريو النبى الناصرى يسمون عقيدتهم الثورية على اليهودية فقط باسم الطريق) .

كان هذا هو الوضع لعدة سنين قد مرت بعد المسيح . حتى جاء يوم سمى فيه هؤلاء ، الحواريون باسم المسيحين فى أنطاكية ، ثم انتشر الاسم إلى ما وراءها – وكلمة المسيحية (Christion) – نسبة إلى المسيح المصلوب – هى كلمة يونانية فى الأصل ، ترجمة لكلمة المسيح أو الممسوح Merrianist عند العبريين[1] – تعنى أتباع الممسوح ولكن لمدة طويلة . حتى بعد هذه التسمية الجديدة ظل المسيحيون مرتبطين بدينهم القديم ، وكان القول الشائع بينهم هو لكى تكون مسيحياً لابد أن تكون يهودياً أوّلاً .

ثم جاء بولس الطرسوسى ليبنى معبداً جديداً يناسب الاسم الجديد « المسيحية » . لقد أعلن أنه ليس ديناً خاصاً باليهود وحدهم ، بل الرسالة للأمميين أيضاً[2] .

ولكى يكون من السهل على غير اليهود من الأمم الأخرى ، ومن الوثنيين غير المتشددين أن يلائموا بين مذهبهم والمسيحية ، لم يضع فى معبده ما يضعه اليهود من عباراتهم المقدسة ، والتحريمات التى تحرص عليها اليهودية المحافظة ، بل وضع مكانها طلباً واحداً للخلاص هو : « آمن واعتقد ألوهية المسيح »– وقال نحن فى النهاية نقرر أن الشخص يطهر وينقى بعقيدته ومن غير الأعمال التى جاءت فى القانون .

لقد كانت ضربة من عبقرى ، ذلك أن العقل الإنسانى دائما يجنح إلى الطريق السهل المبسط للحرية والخلاص ، وقد سنّ بولس هذه السهولة ، لهذا صارت المسيحية منتشرة شائعة بين الأمميين ، ولكن قبل أن يمر زمن طويل تبينوا أن الطريق ليس ممهداً كما كانوا يتوقعون ، لقد أضيرت الآلهة الوثنية القديمة ، ولذا كان الحكام الوثنيون فى أنحاء العالم . خصوصاً قياصرة

---

(١) وهى كلمة خريستو عند اليونان .

(٢) تستعمل لهذا كلمة Gentiles – وهى كلمة لاتينية تعنى أمم العالم .

الرومان مغيظين لهذه الردة ، والانتكاس عن طريق آبائهم وقرروا أن يفنوهم نهائياً من الدنيا بطريق الإحراق على الصلبان الخشبية ، ونفذوا هذه الوحشية الرهيبة ، فكانت طرق الإمبراطورية الرومانية مضاءة بمشاعل بشرية وفى ضوء هذه المشاعل أخذ بولس يتنقل من مدينة إلى أخرى مصمماً على نشر دعوة المسيح وإذاعة أنه « ابن الله » . وبجانب هذا المبدأ الأساسى من العقيدة ، وجد أنه من الضرورى أن يضيف مبدأين آخرين ، هما الرجاء والحب ، وتمت حكمته مع المعاناة التى واجهها ، وأصبح معبده المسيحى يقوم على ثلاثة عناصر هى أحجار زواياه ، وكتب أن الحجر الأعظم فى هذه الثلاثة هو الحب[1] .

* * *

لقد كان بولس واحداً من هؤلاء القلائل الذين نقلوا المحبة من حالتها السلبية إلى التعبير عنها بالصدقة الفعلية ، وقد كرس حياته ليس فقط للتبشير بالكلمة ، بل لتنظيم وجود ذخيرة من مال المتطوعين لمساعدة الفقراء المعوزين . وحيثما كان بولس بين قوم مسيحين كان يقابل باحترام مضاعف ، لأنه قدم إليهم أيضاً خيراً مضاعفاً ، قوتاً تتغذى به أجسامهم ، و « المن » الذى تتغذى به أرواحهم .

ولكن بين الجماعات غير المسيحية كان له موقف آخر – فالعالم الوثنى وقد تعود الإيمان بعدد من الآلهة ، لم يسهل عليه أن يفهم دعوة بولس ، وفى يوم من الأيام كان هو وبرنابا يمشيان معاً حتى وصلا إلى قرية لايسترا Lystra وهى قرية ذات تاريخ دينى ، قريبة من الجبل الأسود ، وهناك أسطورة إغريقية تقول : إن الإلهين الوثنيين جوبتر Gupiter . ومركيورى

(١) جاء ذلك فى رسالته الأولى إلى الكورنثيين .

Mercurp قد نزلا معاً مرة إلى الأرض لزيارة الإله فيلمون Philemon .
والإله باخوس Baucis .

وبينما كان المبشران المسيحيان - بولس وبرنابا - يمشيان فى بعض الشوارع ، أصاب الناس الرعب والفزع لمنظرهما ، وأثير الناس والتفوا حولهما . أحد الرجلين ذو لحية غزيرة الشعر بيضاء ، والآخر ذو قد نحيل رشيق ، وأخذ بولس يلقى عليهم مبادىء الديانة التى يدعو إليها ، فقال لهم أبشروا ، فإن الوعد الذى وعد الله به الآباء قد أنجزه » - ولم يفهموا شيئاً فثاروا ثانياً أكثر مما ثاروا فى المرة الأولى وانتابهم فزع أشد .

وفى اليوم التالى استيقظ بولس على أصوات عالية صاخبة من الغناء والهياج ، لقد جاء القوم إلى مأواه ، ومعهم عجل حنيذ مزين بضفائر الزهور ، وقالوا إنهم جاءوا به ليذبحوه ضحية وقرباناً ، وسألهم بولس لمن تقدمون هذه الضحية ، أجابوا : لك ، ولك ، وأشاروا إلى بولس وبرنابا ، لأننا عرفنا أنكما الإلهان جيوبتر ومركيورى ، قد عدتما ثانياً إلى الأرض ! .

وأخذ بولس يشرح لهما أنه وصاحبه ليسا إلهين ، وإنما هما رجلان جاءا إليهم كى يخلصاهما من ضلال الوثنية ، وعبادة الأوثان وليحولاهما إلى عبادة الإله المسيح ، إله المحبة ! .

وبعد أن ألقى إليهم هذه المقالة تركهم ودخل بيته ، ولكن لم يكن ليستريح ، لقد تداول القوم الأمر فيما بينهم ، فقالوا إذا لم يكن هذا الرجل إلهاً فلابد أن يكون مكفراً مضللاً ، ثم دخلوا عليه فسحبوه ، وجروه خارج منزله ، وكان منزله فوق الجبل وأخذوا يرجمونه بالحجارة فى الشارع . وأخيراً تركوه ليموت بعد هذه الرجوم ، ولكنه كان قوى البنية شديد الحيوية عظيم الشجاعة ، فبينما كان التلاميذ ملتفين حوله ، انتصب واقفاً ثم رجع إلى القرية ، وفى هذه المرة استمع إليه التلاميذ ، وأدركوا ما يريد ! وقالوا إنه

رجل كان على استعداد أن يضحى بحياته من أجل الحق[1] .

* * *

كانت الحقيقة التى صورها بولس تتضمن ثلاثة أشياء ، أو ثلاثة حقائق روحية ، أبوةُ الله ، وبنوة عيسى له ، وإخاء الإنسان .– وأعلن أن الإله إله واحد ، هو الذى تحدث عنه أنبياء بنى إسرائيل ، وهو الأب للجنس الإنسانى ، إننا نؤمن بإله واحد لا يوجد إله غيره وهو الآب – خالق كل شىء ، وهو يتضمن كل شىء » .

بعد ألف وستمائة سنة من إعلان بولس هذه العقيدة ، نجد التصور نفسه للعقيدة تعلنه فلسفة سبينوزا Spinoza ، فقد كتب هذا الفيلسوف اليهودى القائل بوحدة الوجود :

إننى أقرر أن الله باق دائم ، هو سبب كل شىء ، وإنى أقول : كل شىء هو الله ، كل شىء يتحرك ويحيا من خلال الله ، وإننى بهذا أؤيد الرسول بولس » .

بولس يؤمن بالله الآب ، وبعيسى الابن ، وليس عيسى فقط ابن الله ، بل هو أيضاً معلن الله وكاشفه للناس ، كاشف لرحمة الله من خلال المعاناة التى كابدها هو ، وبولس – مثل ، العبريين القدامى – يؤمن بالتضحية ، ولكنها عنده نوع يختلف عما كان عليه هؤلاء ، فبدلاً من أن يضحى الإنسان بنفسه قرباناً لله – كما فى قصة إبراهيم وابنه – ضحى الولد بنفسه لأجل الإنسان . وفى العهد القديم يأتى الإنسان فى أوقات معلومة أمام الله وجهاً

(١) كل هذا ملخص بإيجاز شديد من سفر أعمال الرسل ، ويختلف عنه فى بعض المواقف اختلافاً واسعاً (المترجم) .

لوجه . وفى العهد الجديد يأتى الإله فى الأيام المقدسة أو المواقيت الإلهية أمام الإنسان وجهاً لوجه ، وبدلاً من نزول الإله إلى مستوى الإنسان ، رفع عيسى الإنسان إلى مستوى الإله . وذلك – فيما يقرر بولس – أنه من خلال عيسى يستطيع الإنسان أن يعرف صلته بالله ، وصلته بإخوانه بنى الإنسان ، الناس جميعاً إخوة لأن الله أبوهم جميعاً ، وبهذا كان بولس واحداً من أوائل العباقرة الديمقراطيين فى التاريخ العالمى كله . كان يؤمن بالديمقراطية الروحية التى تتمثل فى إخاء النوايا الطاهرة – الإنسانية كلها أسرة واحدة – هى وحدة الحياة الكونية ، كما توجد أجزاء عديدة فى الجسم الإنسانى اتحدت بعضها مع بعض لتكون هذا الجسم نحن أيضاً نكون وحدة جسدية من خلال اتحادنا مع المسيح ونحن جميعاً . مع أننا أفراد عديدون – نكون أجزاء من بعضنا البعض – فكل واحد منا جزء من الآخر – ولهذا فإن الواحد منا يعبد الله ويخدمه من خلال مساعدة بعضنا بعضاً – اخدم الله من خلال خدمتك إخوانك فى الإنسانية .

احذروا أن تفشلوا فى إكرام إخوانكم . عيشوا متماسكين بعضكم مع بعض . وفى سلام مع أبناء البشرية جميعاً . وجمع بولس خلاصة تعاليمه فى أن هذه العلاقة السلمية بين أفراد الأسرة الإنسانية لا تقتصر على الأخوة بين المسيحيين ، بل هى أخوة عامة تشمل المسيحيين واليهود والأمميين أياً كانوا ، لأن الله خالق الجميع وأب للجميع .

كذلك قرر بولس أننا جميعاً – مؤمنين وغير مؤمنين – إخوة إنسانيون للأخ الإلهى ابن الله عيسى ، ولقد تقبل عيسى أن يضحى بنفسه من أجل النوع الإنسانى كله ، ومن أجل النوع الإنسانى كشف نفسه بعد صلبه . وإن انبعاثه بعد موته كان مقصوداً به أن يكون برهاناً ودليلاً للعالم كله ، على أنه سيكون بعث بعد كل موت ، لا يوجد موت .

كان الإيمان بالخلود أحد العناصر الرئيسية فى عقيدة بولس . وفى بداية دعوته كان يشعر شعوراً قوياً أنه لا موت ، وأن لا أحد يموت أصلاً ، ومملكة السماء قريبة عند أطراف اليد ، ولكن بمرور الزمن وعندما رأى أتباعه يحرقون ويصلبون ويرجمون . انقطع عن تبشيره باستمرار الحياة فى هذه الدنيا ، أو فى هذا الجانب من القبر ، وبدأ يوجه النظر إلى الحياة فيما وراء القبر ، الناس جميعاً سيموتون ، ولكن هذا الموت ليس إلا مجرد نقلة من مرحلة من مراحل الحياة إلى مرحلة أخرى .

وفى رسائله التى بعث بها إلى حوارييه شرح عقيدته ، وبدأ شرحه بعقد مشابهة بين الجسم الإنسانى وبذور النبات ، إن البذور لابد أن تدفن فى الأرض كى يمكن أن ينمو النبات ويظهر فوق الأرض – إن ما تَبذره فى الأرض ليس حياً ، لا يحيى حتى يموت وأنت حينما تبذر لا تبذر الجسم الذى سيكون ، والذى سيظهر فوق الأرض ، وإنما تبذر حبوباً فقط . وإذن فلا ينبغى أن نُبتئس عندما نرى – بذورنا – وهى الجسم الإنسانى ملقى فى الأرض من غير حياة ، لأن الإنسان ليس فقط مجرد جسم طبيعى ، ولكنه جسم روحى . الجسم الذى يتكون من اللحم والدم يموت ، ولكن الجسم الروحانى يبقى ويزدهر فى جمال أبدى . كل موت يعنى بعثاً بالانتقال إلى حياة أكمل . الحياة القديمة غرست فى فساد ، ثم تنبعث فى صلاح ، غرست فى الرذيلة وعدم الشرف ، ثم تبعث فى بهاء وعظمة وجلال ، غرست فى ضعف وتبعث فى قوة ، بذرت فى جسم – جسم خلق من الأرض فهو أرضى ، وتبعث فى جسم من السماء ، فهو سماوى .

هذا إذن هو الأمل الذى قدمه بولس إلى كل ابن من أبناء الإنسانية ، ليعرف ويتمسك بإخائه الأبدى لابن الله !.

أيها الموت أين لدغتك ؟ ويأيها القبر أين انتصارك ؟ .

وهكذا مضى القديس بولس فى رسالته مسلحاً بسلاح الروح ضد الخوف من الموت ، واستمع جمهور الناس فى كل مكان إلى عظاته وتعاليمه وكانوا مستريحين لما يقول . ولكن المضللين من القادة – أولئك الذين حولوا دعوتهم الدينية إلى منافع شخصية ، تخوفوا رسالته ، وتوقعوا بها ضرراً عليهم ، ولذلك اضطهدوه ، لأنه مراراً وتكراراً عرض مقاصدهم السيئة ، كان لسانه الذرب ، وبلاغته المؤثرة مما يثير لا مما يلطف ، ولم يكن فى كل مواقفه قادراً على ضبط نفسه ، ولا على كبح مزاجه الحاد السريع الانفعال ، وكما فعل إرميا وعيسى من قبله – ذهب إلى المعبد الرئيسى ليجبه القسس ويقرعهم وجهاً لوجه ، فلم يَسَعْهم إلا أن يقبضوا عليه ويرسلوه إلى الحاكم الرومانى فى يهودية وهو « فيلكس » – وكما عبر عنه المؤرخون القدامى كان يزاول سلطة الملك مع ذلة العبد .

وقف بولس أمام فيلكس لا كما يقف السجين أمام القاضى ، ولكن كما يقف الأستاذ أمام تلميذه ،– وكما ذكر لوقا – كان فيلكس خائفاً مرتعداً أمام هذا المسيحى الجرىء ، وربما كان من مسرته أن يسلمه إلى جنده ليجلدوه ، ولكن بولس كان يعرف حقوقه القانونية ، فقال له : « إنه ليس مما يَسُوغُ لك قانوناً أن تجلد مواطناً رومانياً ، وهو غير متهم ولم يحكم عليه » – ثم استمر يشرح لفيلكس أنه لم يرتكب أى جريمة غير أنه يعمل لصالح إخوانه المسيحين وراحتهم ، ولذا كان يجمع التبرعات لمساعدتهم[1] .

وعند كلمة جمع التبرعات أرهف الحاكم أذنيه ، وقال فى نفسه إن هذا

---

(١) فى المقاطعات التى تتبع الرومان كان لمن لهم جنسية رومانية معاملة غير معاملة الآخرين .

الرجل قد يكون ممن يجمعون المال لأنفسهم متسترين وراء مساعدة المحتاجين ، وقد يستطيع هو إغراءه أن يبيع حريته بأى ثمن ، وعلى أى حال يحسن أن يجربه .

جعله فى شبْه سجن ، لم يسمح له بمغادرة المدينة .. قيصرية .. ولكن سمح له أن يتجول فى جوانبها – وأن يتحدث مع أصدقائه ، بل سمح له أن يزوروه فى قلعته للتحدث معه ، وبهذه الطريقة أمل أن يبقى جامع التبرعات قريباً منه، وأن يجتذبه أخيراً لفتح جيبه للمال، وغير مرة استدعاه لمجرد الحديث الودى، ولكن كل الذى استطاع أن يجتذبه للتحدث حوله كان الحديث عن الحقيقة ، والعفة وضبط النفس ثم المحكمة الآتية فى الدار الآخرة.

وظل الرسول محدد الإقامة فى قيصرية لمدة عامين ، ثم تجدد أمله فى الخلاص حين جاء حاكم جديد لإقليم يهودية ، إنه كمواطن رومانى له الحق أن يطلب محاكمته أمام الإمبراطور الرومانى ، ولكن الحاكم فيلكس رفض طلبه عدة مرات ، وهذه فرصة سنحت رأى بول أن يقتنصها ، سأل عن بعض الذين يجالسون الحاكم الجديد ، وأرشده الناس إلى فستس **Festus** ، فجدد طلبه لهذا الرجل ، وقال : إنى أريد أن أحاكم أمام القيْصر ، واستجاب له فستس وقال له ستمثل أمام القيصر ، وكان الملك اغريباس قد جاء إلى قيصرية لزيارة فستس الذى تولى الحكم بعد فيلكس .

ووقف بولس أمام الملك وبرأ نفسه أمام جموع اليهود ، ورغم معارضة الكثيرين برأه الملك[1] .

* * *

---

(١) هذه الأحداث موجزة هنا جداً ، وفى سفر أعمال الرسل صـ ٢٥ ، ٢٧ ، تفاصيل لها واسعة يحسن بمن يريدون كل ظروف الموقف أن يرجعوا إليها .

لم ينعم بولس بحريته ، فقد أخذ مع الأسرى تحت إشراف قائد مائه إلى روما .

عندما كان بولس فى رحلة إلى روما كان قد وصل إلى قمة العاصفة فى حياته ،- بعد أن أبحرت السفينة فى هدوء وبطء ، تزجيها ريح طيبة ، جاءت العاصفة ، وظلت السفينة لعدة أيام تضطرب فى أيدى الرياح والأمواج حيث لا تُرى شمس ولا نجوم ، وفقد الركاب الأمل فى النجاة ، وخلال هذه المدة التى كان القوم فيها معلقين بين اليأس القاتل والرجاء القليل – وجد صوت مبشر : « لا تخافوا » ربما غرقت السفينة وهوت إلى الحضيض ، ولكن حياتنا لن تضار ، سنكون سالمين » كان هذا صوت بولس ، وقد تنبأ بهذه النتيجة من خلال رؤية إلهية .

وحقاً فقد القوم سفينتهم ولكن لم يفقدوا حياتهم ، فى أشد ساعات الخطر ، وعندما أخذ البحر يضطرم بعاصفة وضبرب السفينة الموج من كل مكان ، تولى بولس الرياسة على ملاحى السفينة وذلك جرياً على عادته أن يتولى القيادة فى ساعات الأزمات – بدأ يأمر الركاب أن يتقاسموا ما معهم من الطعام ، لأنهم كانوا قد صاموا مدة طويلة ، وأصبحوا بحاجة إلى قوة يواجهون بها المشقة المقبلة ، وعندما أكلوا وشعروا بالانتعاش أمر الذين يحسنون السباحة أن يلقوا بأنفسهم فى الماء وعلى ألواح الخشب ليصلوا إلى البر أولاً ، أما الآخرون فبعض ركب ألواح الخشب وبعض يركب قطعاً من حُطام السفينة ، وبهذه الطريقة عبروا جميعاً إلى البر سالمين[1] .

وأخيراً سكن البحر وهدأت العاصفة .

برأ الحاكم الأعلى فى روما بولس من التهم السياسية التى وجهت إليه ، وسمح له أن يعيش فى روما فى سلام . وأقام لمدة عامين فى منزل له استاجره

---

(١) الذى فى أعمال الرسل أن صاحب هذا الأمر هو ربان السفينة .

هناك . وكان يتسلم كل ما يأتى إليه ، وكان يبشر بمملكة الله ويذكر الأشياء الخاصة بالسيد المسيح مع كل ثقة ، ولم يمنعه أحد ، وكتب رسائله إلى حوارييه ، وأيضاً تسلم منهم هداياهم ، أشياء صغيرة ذات أثر كبير ، أشياء ذات ثمن قليل ، ولكنها ذات قيمة كبيرة ، أى شيء أثمن من نظرة حانية من صديق إلى صديق ؟ .

ولم يدون بعد ذلك كاتبو ترجمته أحداثاً ذات مغزى ، ولا أدلة جوهرية لأجل الإيمان — ثم مات ميتة شهيد ، وفى رسالة من الرسائل التى كتبها فى أخريات حياته « رسالة إلى الفيلبيين » كتب أنه لم يكن معاكساً حين كان يزاول رسالة تنصير الناس .

ولقد أنهى حياته فى القصر وهو يدعو إلى التنصير ، وفى ابتسامه المقتنع وارتياحه ألقى عن عاتقه هذا العبء الثقيل .

« لقد جاهدت أحسن جهاد ، والآن أنهيت دورى ، لقد حفظت العقيدة والإيمان » .

وانظر فى كتابنا « الإرساليات التبشيريه ، ترجمة لبولس تكمل هذه الترجمة ، وقد استخلصتها من مصادر وثيقة .

* * *

□ محمد [ﷺ] □

٥٧٠ – ٦٣٢

○ الأحداث الهامة فى حياته :

٥٧٠ ولد فى مكة وفقد أباه ، (٢٠ ابريل) .

٥٧٦ فقد أمه

٥٩٥ استؤجر راعياً لقافلة تجارية من أرملة ثرية هى السيدة خديجة .

٥٩٥ تزوج منها

٦١٠ تراءى له خيال الله (رأى جبريل) [هكذا يقول المؤلف وليس كلامه صحيحاً] .

٦١٣ جاءه أول وحى .

٦١٩ فقد خديجة ، وفقد عمه أبا طالب [أخطأ المؤلف هنا إذ قال أنه فقد حواريه أبا بكر] .

٦٢٢ أفلت من مكة إلى المدينة

٦٢٧ أحرز نصراً على أبى سفيان فى المدينة .

٦٣٠ غزا مكة وفتحها

٦٣٢ فى ٧ يونيه انتقل إلى جوار ربه .

* * *

تنشأ الأديان وتنمو عادة فى البلاد الحارة ، والبدائيون هناك يتخيلون الله يمشى بينهم ، ويلمس أجسامهم ويمسها بالهجير اللافح من حضوره ، ولهذا يرون الخيالات ثم يتجهون بها غرباً نحو أوربا ، ولكنه ليس من القليل أن رسالة الشرق عندما تصل إلى الأقطار الباردة فى الغرب تفقد حرارتها وحساسيتها الشاعرية ثم تتحول إلى عقيدة صلبة لطائفة من الطوائف . هذا لأن الشعوب الغربية شعوب إقامة وليسوا رحلاً ، وهم أهل

تفكير علمى وذوو دهاء فى الخصام – إنهم مهرة فقط فى صنع الأيدى وإعمال العقل ، ولما يصلوا بعد إلى حكمة القلب .

فى القرن السابع الميلادى كان العالم يعانى جفافاً روحياً ، فقد كان اليهود أجلوا عن أرض الميعاد وشتتوا فى أنحاء العالم ، وكان المسيحيون قد عانوا سلسلة من المتاعب وامتزجوا بالرومان وبالبربر ، ولم يعد فى هذه ولا تلك غذاء روحى ، فى هذا الوقت انفجر ينبوع جديد بعقيدة خالصة ، انفجر من الشرق ليقدم للنصف الظامىء من العالم رياً روحياً ، ولكن سبل الله ذات سخريات وعنف ، فقد انبثقت هذه الديانة الجديدة من أشد البلاد جدباً – روحياً وعقلياً – تلك هى الصحراء العربية .

* * *

تمتاز الجزيرة العربية بأنها قطر يحوى عناصر عديدة متضاربة . فوهج الظهيرة أثناء النهار يطغى على برد الندى أثناء الليل ومد الرمال من الصحراء يهجم على الواحات الخصبة فى جوفها . وهذا التضارب من المد والجزر بين عناصر الكائنات لم يكن قاصراً على الحياة المادية الخارجية ، بل كان لابد أن يمتد إلى العالم الداخلى فى صفات العرب وأخلاقهم ، فمن قديم جداً كان الدم العربى يغلى ليهدر دم الجار من أبناء القبيلة نفسها ، وفى الوقت نفسه كان هذا الدم يحن إلى حماية الدم القريب وحفظ حياته . وقلب الشخص العربى منقسم ضد نفسه ، مرة ثائر ومرة رقيق رحيم . وهو مع ذلك مفعم بالشعر والأغانى ، والرأس العربى ثقافته هى الثقافة الوثنية ولكنه أيضاً مع ذلك فياض بالحكمة والمزاح ، وطعام العربى يحتوى على اللبن والعسل ليغسل عنه حرارة البلح ، وشجرة النخل تبدو هشة غير حقيقية كالخيال ، كأنها الهيكل العظمى للأشياء الصحراوية التى كانت بها قبل التاريخ ، وعندما يقترب الشخص منها يجد فى ظلالها أنفاس الحياة الطيبة اللينة .

كانت هذه هى الحياة المتضاربة الصور التى ولد فيها محمد [ﷺ] وفيها عاش ، وبلده الذى عاش فيه وهو مكة له تاريخ شائق حتى قبل ميلاده ، كانت مكة أبنية تحيط ببئر زمزم المقدسة ، واسم زمزم مشتق من صوت الماء المتدفق - حيث كانت هاجر زوج إبراهيم - فيما يقال تقف لتستريح من طول تجولها فى الصحراء مع طفلها إسماعيل ، وبمقربة من البئر تقوم الكعبة وبها الحجر المقدس الأسود ، وهو من الرجوم التى سقطت من السماء ، وقد وجد إبراهيم فيه دليلاً آخر على قداسة المكان من الله .

حول هذا الحجر وقريباً من البئر بنى العرب القدامى معبدهم الذى يسمونه الكعبة ، وهناك تتمثل دار الضيافة التى يحج إليها العرب كل عام من أنحاء الجزيرة كلها ، وظلوا كذلك حتى انتعشت أخيراً هذه الأبنية وكونت مدينة حول الكعبة . والحجاج ينشدون أغانيهم ويقدمون صلواتهم وضحاياهم للحجر الأسود والبئر المقدسة وللأصنام الخشبية التى تمثل النجوم أو بنات السماء ، وكانت رعاية الكعبة موكولة إلى عدد من الرؤساء مختارين من قبيلة معينة هى قبيلة قريش ، وكانوا يعيشون فى المدينة المقدسة نفسها .

ولد محمد فى قبيلة قريش التى كانت تقوم على رعاية الكعبة ، وفى العام الذى ولد فيه غزا مكة جيش من الأحباش ، وكان فيه فيل ، وهو أول فيل رؤى فى هذه البقعة من الأرض ، ولذا سمى العام ٥٧٠ م عام الفيل ، وطبقاً لما كتبه بعض الكتاب الأقدمين هزم هذا الجيش بمعجزة وحطّم نهائياً ، وذلك أن سرباً من الطيور - كان فى منقار كل طائر حجر انصبت على هؤلاء المحاربين فرمت رؤوسهم بالأحجار فقضت عليهم ، وبعض الكتاب المحدثين عزوا فناء هذا الجيش إلى وباء تفشى فيه وهو الجدرى .

وتجرى روايات أخرى بمعجزات أكثر تتعلق بميلاد محمد وطفولته ، فيقال إن أباه كان يترقب ميلاده ، وكان بجانب تيار من مسيل ماء مقدس ،

وقد انفجر هذا التيار فى منطقة جبل أرارات ، وعقب شرب الوالد منه مباشرة اختفى الماء والمجرى نهائياً وفى هذه اللحظة ولد الطفل ، فانكفأت الأصنام التى حول الكعبة وسقطت على الأرض ، وانقلبت تيجان الملوك من فوق رؤوسهم ، وفقد ملوك قدرتهم على الكلام ، والسحرة كانوا حزانى حائرين لأنهم فقدوا مهارتهم وقدرتهم على السحر .

ولكن مما لابد من ذكره أن محمداً نفسه لم يكن يعترف بهذه المعجزات ، ولا بأى معجزة تتصل بشخصه أو رسالته ، وكان يقول إنها معجزة واحدة أتخذها شاهداً على صدق رسالتى ألا وهى القرآن . وهو وحى الله ورسالته إلى الناس كافة .

وقد مات والده قبل ميلاده بقليل ، وماتت كذلك أمه وهو ابن ست سنوات ، وبذا وكلت رعايته إلى جده عبد المطلب . وكان هذا الجد فى المائة من عمره ، وبعد عامين مات جده فانتقلت كفالته إلى عمه أبى طالب ، وهذا الرجل كان تاجراً ماهراً ، وقد علم ابن أخيه الخشية من كل الآلهة كما علمه احترام الناس جميعاً .

لم يكن لدى محمد كتاب يتعلم منه ولكنه صار ماهراً فى تفسير كتاب الطبيعة ، فكان يعرف آثار الجمال والخيول وطرقها ، وعلامات العواصف والأنواء المقبلة ، ومواعيد تألق النجوم واختفائها .

وقد اصطحبه عمه أبو طالب فى رحلاته التجارية وكان يريد أن يخرجه رجل أعمال ناجح ، لكن محمداً كان شخصاً ذا حساسية حالماً ذا شاعرية ورقة ، ولذا اتجه قلبه إلى شىء آخر ، فأثناء ركوبه مع عمه على شاطىء البحر بين مصر وسوريا التمعت عيناه لمنظر الأمواج فى البحر آخذة منظر الأمواج الرملية فى الصحراء ولاحظ كذلك اضطراب الرياح والمد والجزر الذى لا يستريح ولا ينقطع ، ومن هنا أخذ يمزج بين أسواق العالم وأفراد الأسر

الإنسانية ، والأشخاص المختلفى الوجوه والملامح والألوان والعقائد والطقوس ، وهكذا اتسع أفقه العقلى للموازنة بين هذه القوى ، وللتأمل فى عظمة هذا الكون الذى شمل كل هذه العظمة ، وبدا واضحاً أمامه أن الأصنام بمكة التى لا أعين لها ولا سمع لم تخلق هذا الكون العظيم ، وأن قومه لا يعبدون القوى الحقيقية التى تستطيع أن تضر وتنفع ، وبين قافلة الحياة المستمرة بدا لمحمد شخص الله الخالق ، وبدا جلاله وعظمته وقدرته العليا تفرض نفسها على قلب محمد ومشاعره .

ومع ذلك كان يستمتع بهدوء الكون فى الساعات الحارة التى يهدأ فيها الكون ، وعندما كان يعتزل رفاقه وينظر القطائع على سفح الجبل ، فكانت تبدو له كما لو كانت أصابع روحية تلعب بنار مقدسة ، وكانت هذه المشاعر تمنحه قابلية أن يمد ظهره ويتطلع بوجهه وبقلبه إلى السماء .

وطبقاً لتعاليم عمه صار راعياً لقافلة تجارية تخص السيدة خديجة . وهى أرملة ثرية ذكية جميلة فى الأربعين من عمرها . وقد كانت على شاكلة محمد عميقة المشاعر الدينية . وأحست فى نفسها رغبة فى التحدث معه ، ولم يكن ذا ثقافة ولكنه كان ذا فكر قوى عميق وعقلية كبيرة وأعجبها كلامه ولكنها أحبت أن ترى حركاته وجوانب ملامحه الجميلة ، تلك التى كانت تتغير مع تغير الأغراض والأعمال . كان وجهه يلتمع مع كل فكرة سعيدة ، مرة يكسوه الهدوء وسكون التفكير ، ومرة يتوهج مع الغضبة للحق ، كان متحركاً دائماً كالهواء ، طويلاً نشيطاً ، رشيقاً ، يجيد ركوب الخيل والإبل ، حسن الحديث مهذب الألفاظ ، وكان هو الرجل الذى ينشده قلبها .

وماذا عسى أن يكون الشخص الكامل فوق ذلك .

إنه عادل مدقق مجرب ، خلق ليكون قائداً بين البدو من بلاده ؛— مفكر ، محتفظ بشخصيته ذو كمال ، يبدو حالماً مستغرقاً فى أحلامه وتأملاته ،

فإذا تكلم بدت شاعريته ، صوته كموسيقى البئر المقدسة ، طبائعه وشمائله لا يدرك غورها كالبئر العميقة التى لا قرار لها .

وشغفت خديجة بمحمد ثم تزوجته ، وكان بينهما خمسة عشر عاماً فى العمر ، إذ كان هو ابن خمسة وعشرين عاماً ، وهى بنت أربعين ، ولكن لم يكن ذلك ذا أثر بين قلبين تحابا ، وزالت بينهما فوارق السنين ، وكان زواجهما سعيداً فى أقصى السعادة ، كان هو يرعى لها أعمالها ، وكانت هى فى البيت تعمل لراحته .

فى إحدى السنوات وفى شهر رمضان المعظم ، أوى – بعد أعماله العربية التقليدية – إلى كهف قريب من مدينته ، وبعد ثلاثين يوماً وليلة من تفكيره المتصل فى معنى الحياة كان جالساً عند فم الكهف الذى يتعبد فيه . وكان يحدق فى امتداد الرمال من حوله وفى امتداد السماء البعيد ، وكان يحاول حلاً لثلاث مسائل حيرت الأجيال :– من أنا ، ولأى شىء خلقت ، وماذا ينبغى أن أفعل لأعرف ما قدر لى .

ولكن السماء معلقة فوق الأرض كالخيمة الثقيلة ، ولم يشأ الله بعدُ أن يطوى هذه الخيمة أو يرفع هذا الستار حتى يعرفنا إجابة هذه الأسئلة .

* * *

وفى أحد الأيام عندما كان فى الأربعين من عمره رجع إلى خديجة من الكهف الذى كان ينقطع فيه للتأمل ، وقال لها إن الله قد استجاب أخيراً وعرفنى إجابة أسئلتى .

كان جبريل ملاك الله قال له : إن هذه الأصنام التى تعبد ليست إلا قطعاً من الأخشاب والأحجار ، وأن الله وحده هو الخالق : وهو الأعلى ، الله أكبر .

هذا الإله الذى تحدث عنه محمد لم يكن إلهاً جديداً ، ولكنه هو « إلوّه » المذكور فى العهد القديم ، أوحى به إلى محمد فى نور جديد .

تكلم بهذا إلى خديجة ، وأجابته بأنها تعتقد أن ما يقوله حق .

وتكلم برؤياه أيضاً إلى عمه . أبى طالب . ولكنه نصحه أن يستبقى أفكاره وما أوحى به إليه إلى نفسه وألا يخبر أحداً به ، لكن محمداً أجابه لو أن الشمس وضعت فى يمينه والقمر فى يساره على أن يكتم هذا الأمر فإنه لن يكتمه » وعندما قال ذلك انخرط باكياً[1]

وأصر محمد على أن يحدث الناس بالوحى الذى تلقاه على الرغم من تحذير عمه ، وقليلون استمعوا إليه ، منهم ابن عمه على ، وهو ابن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وهو رقيق كان عنده ، وأبو بكر ـــ هذا التاجر الميسور فى مكة – ، وأفراد معدودون آخرون ، ولكن لمدة طويلة ظل الناس يسخرون منه ومن دعوته ، لأن إنْكار القُوى الخفية التى للأصنام ، ثم منع التضحية لها كان فى نظر الأغلبية أعلى درجات الكفر ! وكانوا ينظرون إلى محمد نظرتهم إلى شخص مجنون مسالم لا يؤذى أحداً إلا بإذاعة أفكاره ، ومعظم الكبار فى مكة تحاشوه نهائياً ، بينما كان الصغار يجرون وراءه ، ويرمونه بالحجارة[2] .

وعلى الرغم من كل الإهانات التى وجهت إليه ظل محمد مصراً على أن الله يكلمه من خلال الترجمان الذى ينقل كلامه وهو جبريل – كان

---

(١) لعب خيال الكاتب فى القصة – وقد كانت هذه القالة عندما جاء كبار القرشيين يشكون محمداً لأبى طالب راجين أن يكف عن عيب آلهتهم ، وأن يقدموا له ما يريد من المال والملك .

(٢) لم يحدث هذا إلا عندما ذهب إلى الطائف يستعين قبيلة ثقيف ، فسلطوا عليه سفهاءهم .

الصوت يأتى إليه فى سكون الليل ، ويهدئه بأغان شجية مريحة ، مع كلمات حكيمة صائبة .- ﴿ **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى** – يامحمد – **وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ .

لقد كان هذا هو الدين الذى جاء به إبراهيم وموسى وعيسى – حاول محمد أن يقدمه لقومه باسم جديد – هذا الدين الجديد القديم ، دين الإحسان والرحمة والرفق والمحبة ثم الأمل القوى فى الطاعة ، ذلك هو دين الإسلام .

إن السرور يكون بخضوع النفس لإرادة الله وحكمته، لأن إرادته سبحانه تمثل المحيط الكبير . الذى لا تأخذ رغبات الناس منه إلا ما يشبه قطرات الماء ، وحكمته كالشمس التى تجعل أفكارنا أمامها كالظلام المرفرف ، الذى لا يكشف حقيقة ما . دعنا نمجد فى الشمس ضوءها ودفئها وقوتها التى تمنح الأرض الحياة والجمال ، ولكننا لا نجرؤ على التحديق فى وجهها وإلا احترقنا . دعنا برضا واطمئنان نقبل مصيرنا وما قدر لنا من غير جدال وطول تساؤل . لأنه من الحتم أن ننخرط فى خطة الكون التى رسمتها يد الله ، الله يعلم الخير ويفعل الأفضل ، ومن يعبد الله ويحب أولياءه من العباد يفعل الأفضل والأوفق .

محمد نفسه كان شديد الحب لأوليائه ومحبيه ، وكان بسيطاً سهلاً فى عاداته وأخلاقه ، وقد عاش على الخبز المصنوع من الشعير والماء ، وعلى الرغم من أن فرص الثراء واتته صبر نفسه على العيش الخشن ، ولم تسمح له سجاياه أن يضرب شخصاً أو حتى أن يوبخه ، وعندما سئل فى بعض المناسبات لماذا لا يلعن أعداءه ويدعو عليهم . أجاب : إننى لم أبعث لعاناً ولا صخاباً وإنما بعثت رحمة للعالمين . ولقد لام نفسه لأنه لم يكن لين الحديث مع سائل

سأله كسرة خبز[1] ، وكان قصارى عزمه أن يبلغ الناس كلام الله !

ولهذا كان يذهب إلى القبائل الوافدة على مكة – خصوصاً فى موسم الحج – ليعلن بينهم أنه لا إله إلا الله وأن محمداً نبىّ الله ورسوله . وقليلاً قليلاً شق الدين الجديد طريقه وتجمع أتباعه فى بيته ، وحيا كل منهم الآخر بتحية الإسلام : السلام عليكم ، وهى التحية التى اختارها الدين الجديد وعبر بها عن آماله فى المستقبل .– ولكنه عندما كثر أتباعه واجه خصومات أشد ، حتى تحول الموقف أخيراً إلى عداء سافر صريح بين القديم والجديد .

ولمدة طويلة أراد محمد [ﷺ] أن يواجه العداوة بالمحبة ، وكان الدين الذى جاء به يأخذ طريقه رويداً رويداً إلى قلوب الناس .

« لا تقابلوا الناس بالعنف لأن مخلوقات الله جميعاً أعضاء أسرة واحدة ، وإن أحب الناس إلى الله هو من يبدى محبة أكثر لمخلوقات الله » .

وكان عباد الأصنام فى مكة مصرين على عناده لم تحركهم المعاملة الحسنة ولا الكلمة الطيبة ، وكل الذى رأوه فى محمد أنه عدو الأصنام ومحطمها ! إنه يعلن عداءه لصورهم الحبيبة لديهم كما ينكر عليهم عاداتهم التى درجوا عليها ووجدوا عليها آباءهم من قبل .

وتفاجر خصومه فأذاقوا بعض أتباعه سوء العذاب ، وبعضهم مات من شدة ما لاقى وبعضهم أودع السجن فى مهانة وذلة ، فى سجن ضيق شرق مكة ، وفى بادىء الأمر تراجع الخصوم عن سجن محمد نفسه ، لأن صلته وقرابته لكبار القرشيين فى مكة كانت تحميه من عداواتهم ، ولكنه وقد استمر

---

(١) كان ابن أم مكتوم تعرض له بإلحاح وهو يدعو الوليد بن المغيرة إلى الإسلام ، فأعرض رسول الله عنه – وفيه نزلت سورة ﴿ **عبس وتولى** ﴾ – وكان بعد ذلك يجيبه ويقول له أهلاً بمن عاتبنى الله فيه .

فى زرايته بعبادتهم ، واستهانته بأصنامهم وإعلانه أنه من الغباء أن يعبد الإنسان شيئاً صنعه بيده من الأحجار أو الخشب ، لم يجد خصومه بدأ من الدفاع عن آلهتهم ، وتجرأوا عليه ، وبدأوا يهددون حريته ثم هددوا حياته .

وفى هذا الوقت الحرج جاء الإنقاذ من مكان لم يكن فى الحسبان ، جاء من واحة فى جوف الصحراء – وهى المدينة – يثرب – التى تبعد عن مكة بضعة أميال نحو الشمال . ففى هذه المدينة كان الأهلون قد وقعوا فى مخالفات دينية ، إذ كان اليهود – العبرانيون – يحاولون إقناع البدو الوثنيين بعقيدة التوحيد وبالمسيح المرتقب ، ويعيبون عبادة الأوثان .

وفى أحد مواسم الحج ذهب بعض العرب من المدينة إلى مكة ليحجوا ، فسمعوا محمداً فى عرض الطريق يحدث عن وحدانية الله وأنه هو نبيه آخر أنبيائه ، وأعاد حديثه صدى مقالة اليهود وعقيدتهم التى يدعون إليها ! وقالوا : قد يكون محمد هذا هو المسيح المنتظر الذى يعلن اليهود أن وقت ظهوره قد أظل ، إن أتباع « يهوه » يتحدثون عنه كثيراً ، فلم لا يكون هو هذا ؟ واستمعوا إلى حديث محمد فكانوا مأخوذين به متأثرين غاية التأثر فدعوه أن يأتى إلى مدينتهم ليعلمهم هذا الدّين الذى جاء به وقد بُشّروا به من بنى يهوه .

كان الوقت ملائماً جداً لهجرة محمد من مكة ، وكان موقفه يدعو لذلك ! لقد ماتت زوجه خديجة ، ومات عمه أبو طالب ، وكان محمد نفسه هدفاً لأعدائه ، أربعون من أبناء قادة القبائل ورؤسائهم ، واحد من كل قبيلة . تقاسموا لَيُبَيّتُنَّ محمداً وليذهبن بحياته نهائياً .

وهكذا فى سنة ٦٢٢ م استطاع محمد أن يفْلت إلى المدينة . بعد ثلاثة عشر عاماً من إعلانه رسالته أو من تلقيه أول وحى ، وكان حين هجرته فى الثالثة والخمسين من عمره .

وهرب محمد إلى المدينة يُعرف عند المسلمين باسم الهجرة ، وهى تمثل بداية تاريخ المسلمين .

* * *

وإلى مدى بعيد أراد محمد أن يؤسس دينه الجديد بالوسائل السلمية وحدها ، « أما إنه خيرٌ من الصيام والزكاة والصلاة أن توفق بين رجل وآخر .

ولكن بعد سنوات من الاضطهاد الموجه ضده وضد أتباعه ، قرر أن يقابل القوة بالقوة ، وبعض المؤرخين يرون أن هذه الخطوة كانت غلطة من محمد ، ففى نظرهم أن لجوءه أخيراً إلى السيف شوه الأخلاق الريفية ، ولكن إذا كان بعض المؤرخين الأتقياء المسيحين أمثال توماس كارلايل قد التمسوا له العذر فى لجوئه إلى السيف ، والمقاومة المسلحة ، فإنَّا نأخذ بقول كارلايل نفسه : إنه كان فرداً فى مواجهة أمة ، ولكى يحمى نفسه ويحمى أتباعه ، ثم ليحمى ما هو أكثر أهمية وهو رسالته السموية ، كان هناك نداء عميق فى قلبه وفى خواطره يلح عليه أن يحمى نفسه إنساناً ورجلاً عربياً ، ثم إننا لابد أن نكون على ذكر من أن المسيحية أيضاً استعملت السيف فى بعض الأحيان وأن شارلمان لم يحول السكسونيين إلى المسيحية – كما يذكرنا كارلايل – بالتبشير والشرح ، ولكن بالسيف وإراقة الدماء ، والعبرانيون الأولون فرضوا دينهم الجديد على الكنعانيين بحد السيف[1] .

ومهما كان تفكيرنا وحكمنا الأخلاق على جهاد محمد ، أو الحرب المقدسة التى كان يخوضها ، فإننا لا نستطيع أن نحجب إعجابنا برسالته

---

(١) قتل شار لمان ٤٥٠٠ شخص من السكسونيين فى يوم واحد ، وحروب يوشع ومن بعده مسطورة فى أسفار العهد القديم .

الروحية التى عبر عنها بأن أفضل أنواع الجهاد هو جهاد المرء نفسه .

وقد حدث بعد هجرته إلى المدينة أنه بدأ يملى رسالته السامية التى تعرف فى العالم كله باسم القرآن[1] (كتاب الأشياء التى تقرأ) وكان الوحى الذى يتلقاه ينقل والذى يتضمنه القرآن ينقل بواسطة أتباعه كما سمعوه من فم سيدهم ، وكان يلقنهم ما يوحى إليه كلمة بكلمة ، وكان يكتب على أى شىء يمكن أن يكون باليد . قطعة من الجلد ، قطعة من جريد النخل ، قطعة من عظم الكتف ، أو قطعة ملساء من الأحجار .. وهذه القطع عندما جمعت كانت معجزة من معجزات الجمال ، كما تجمع أجزاء الجسم وأعضاؤه المختلفة فتنبعث فيها معجزة الحياة .

ولم يدَّعِ محمدٌ أنه صاحب معجزات وقال إنما أنا بشر رسول . ولم أكن ساحراً ، وكان يرى الدنيا تتكون من شىء واحد إنه شىء سام من المعجزات ، وهو مخلوقات الله . وكل هذا الكون العجيب يرتكز على شىء واحد هو القانون الإلهى ، وهذا القانون هو أن يحب كل منا الآخر ، وكلمة المحبة أو الرحمة ، تقع فى قلب وصميم التعاليم المحمدية . ومراراً وتكراراً نجد فى الروايات والتعاليم الإسلامية ، هذه الوصاة ، ومن أمثلة ذلك قوله : أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى – إذا كان معاملاً بغير عدالة أو سُجنَ ظُلماً – ساعدوا كل مظلوم وكل من يعانى ضيقاً – سواء كان مسلماً أو غير مسلم ، وعندما تمر بكم جنازة أى شخص – سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً قفوا على أقدامكم . أشد الناس عداوة لله هم أولئك الذين يسفحون دم أى مسلم بلا سبب .

أى شىء أعظم جلالاً وبهاء ؟ أن تدخل الفرحة على قلب إنسان ،

---

(١) معروف أن جزءاً كبيراً من القرآن نزل بمكة قبل الهجرة ويعرف بالقرآن المكى .

أن تطعم جائعاً ، أن تساعد محتاجاً ، أن تذهب الحزن عن قلب محزون . وأن تزيل الظلم والإجحاف عن شخص مظلوم .

ومن أجمل الأشياء فى التعاليم التى جاء بها محمد وصاته أن يخرج كل شخص من ماله سنوياً جزءاً معيناً ليكون من حق الفقراء – وإشارة إلى هذا الضمير الاجتماعى الذى يدعو محمد إلى إيقاظه يعلن الكاتب الإنجليزى برناردشو :

« إننى اعتقد أنه إذا وجد رجل مثل محمد يفرض دكتاتوريته على العالم الحديث ، فإنه سوف ينجح فى أن يقدم له ما هو فى مسيس الحاجة إليه من السلام والسكينة .

* * *

من أقوال محمد أنه فى السماء – فى الحياة الآخرة – سوف تنزع كل الأحقاد من القلوب ، ولن يكون هناك نزاع ، حيث يوجد فى السماء متسع للجميع .

وفى كلمات أخرى : لا توجد تفرقة ولا عدم مساواة فى السماء ، ويجب ألا يكون ذلك على الأرض . إن الدين الذى جاء به محمد عقيدة ديمقراطية ، كل شخص – سواء كان سيداً أو مسوداً – عِدْلٌ للآخر فى نظر الله ، وقد أعلن محمد نفسه أنه ليس فى الإسلام حكومة دينية – كما هو الشأن فى عرف الكنيسة – كل شخص قسيس لنفسه ، وبدلاً من أن يعترف المخطىء لدى الأب المسيحى أو يجلس على كرسى الاعتراف ، يركع ويسجد لله رب العالمين ، والله وحده هو الذى بيده الثواب والعقاب ، وفى العبادة المخلصة ، وفى الركوع والسجود ينساب النور الإلهى فى قلب العبد التائب – إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

وعندما عاد محمد إلى مكة منتصراً واحتشدت الجموع لتؤدى أول صلاة طبقاً لتعاليم الدين الجديد أناب محمد عبداً أسود ليؤم الناس فى صلاتهم .

هذا لأن المسلمين جميعاً أولاد الله ، ولا توجد تفرقة بينهم لا فى الجنس ولا فى اللون ولا فى القبيلة .

لقد كان محمد عميق المشاعر الإنسانية مع كل الذين جاءوا إليه يلتمسون النصيحة ، وهناك قصة عن امرأة شوهاء عجوز اعتادت أن تأتى كل يوم إليه بعد إلقاء درسه فترمى نفسها تحت أقدامه وتطلب منه أن يكون لها مكان فى الجنة ، وفى يوم من الأيام حين كان مرهقاً من أعبائه الكثيرة ، وقد ضايقه ترددها عليه كل يوم بهذا الغباء قال لها : لا يوجد فى الجنة مكان لعجوز شوهاء ، ولكنه سرعان ما لمح الأسى على وجهها ، فانفجرت الابتسامة الحانية على شفتيه ، وقال لها : « عند مدخل الجنة كل العجائز أو المقبوحات يرجعن شباباً جميلات عرباً أتراباً[1] .

وفوق ذلك كان يعلن أن الجنة لا تنال بالمسألة ، لابد من التعفف الدائم والصلاة ، وأن هناك عقداً اجتماعياً بين الله والناس ، لابد أن يتجه المسلم نحو الكعبة خمس مرات فى كل يوم ليؤدى صلاة لله ولابد أن يؤدى المسلم هذه الصلوات فى أى ظرف كان فيه وفى أى مكان — كل بقعة من الأرض طاهرة صالحة لأداء الصلاة « جعلت لى الأرض مسجداً .. » — وهذه الصلوات اليومية الخمس فرضت بإرادة الله الحكيمة .

ولقد ذكر محمد أنه كان نائماً فى فراشه فجاءه رئيس الملائكة جبريل فأيقظه . ثم ارتفع به إلى السماء ولكنه قبل أن يصل إلى السماء السابعة

---

(١) لم يقل لها لا يدخل الجنة عجوز من ضيق، ولكنه كان يمزح وقال لها: إن العجائز يردون شباباً.

ويكون فى حضرة الله . أكد محمد أنه قابل موسى فى سماء أخرى يقيم فيها هو والعبرانيون أتباعه واستشاره محمد فيما عسى أن يفعله إذا فرض الله عليه وعلى قومه خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، وأجابه موسى : إننى نبى عجوز شيْبْتُ فى خدمة الإنسانية ، إننى أعرف الناس جيداً إنهم لن يستطيعوا أبداً أن يؤدوا خمسين صلاة فى كل يوم ، وأعلن محمد ذلك إلى الله فخفض الصلوات إلى خمس وعشرين ، وعندما رجع محمد إلى موسى وأخبره هز النبى العجوز رأسه شاكاً أن يستطيع قوم محمد هذه الصلاة ، ولذا رجع محمد إلى الله وطلب منه التخفيف على عباده الضعاف المذنبين .. وبعد عدد من المرات تردد فيها محمد بين موسى وحضرة الله انتهت الصلاة إلى خمس صلوات .

ولكن أكثر أهمية حتى من الصلاة أعمال العبد الصالحة ، وتعاليم محمد ووصاياه تدور حول الكلمة الطيبة والعمل الصالح ، من ذلك أنه عندما سئل عن خير الأعمال . قال إنه أى شىء يُحضِرُ الابتسامة والسرور على وجه شخص آخر ، وفى بعض النصوص الإسلامية أن فتاة حزينة جاءت رسول الله – [ﷺ] تسأله : عن خير عمل يمكن أن تحيى به ذكرى أمها التى ماتت ، فأمرها أن تحفر بئراً على الطريق يشرب منه الظمآء .

وفى أيامه الأولى فى المدينة كان يقضى وقتاً طويلاً فى التحدث إلى الأطفال[1] – وعلى شاكلة – عيسى ابن مريم – كان يعتقد أن هؤلاء الأطفال أقوى وأضمن مساعد إلى مملكة الله ، ومحبته إلى الأطفال صارت بعد مضرب الأمثال . ومن أقواله : « كل مولود يولد على الفطرة »[2]

(١) لم يكن الأمر كذلك .

(٢) هذا حديث صحيح وبقيته : « حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

والأطفال فى نظره من أى ديانة كانوا يحملون بركة الله معهم ، وهم يولدون على الإسلام دين الفطرة .

ولأن الإسلام دين الله ، يشمل كل الناس رجالاً ونساء وأطفالاً (حتى الحيوانات)[1] وقد ذكر البعث الأعظم لكل شيء حتى الحيوانات أيضاً[2] ، لأن لها أرواحاً كالآدميين ، سَتَنَالُونَ أجراً على رحمة الحيوان فى كل ذى كبد رطبة أجر ، إذا أنتم أطعمتم الحيوانات فاسقوها أيضاً ، إنه لا حيوان على الأرض أو فى الهواء إلا هو عائد إلى الله حتى حيوانات العالم[1] .

وهكذا ظل يبشر بكتاب الحب الكونى ، وبلغ أواخر عمره ، ورجع إلى مكة وأخضع كل أعدائه ، ولكنه مع هذا كله ظل يعيش حياة بسيطة كالتى عاشها من قبل ، يحلب الناقة ويكنس الأرض ، ويرقع عباءته ، ويخصف نعله ، واستمر يعيش على قوت كقوت الحمية من خبز الشعير والماء ، وأنفق أيامه يعلم أخلاق التسامح مع جميع الناس .

وعندما اقتربت نهاية حياته اتجه إلى المقبرة التى دفن فيها أصحابه الذين قتلوا فى سبيل الله – وهم الآن أصبحوا آمنين مستريحين فى الجنة ، مقر الشجعان الصالحين ، ونادى أرواحهم إذ ذاك أنه لاحقٌ بهم[3] .

وقبل أن يموت بيومين سنة ٦٣٢ م – ذهب إلى المسجد وسأل الناس عما إذ كان قد آذى أحداً منهم ، فلم يجبه أحد ، وسأل ثانياً عما إذا كان لأحد دين عليه فأجاب بعض الحاضرين أن له لديه ثلاثة دراهم ، فدفعها له ،

---

(١) لم يرد فى أى أثر إسلامى وصف الحيوانات بالإسلام .

(٢) لا تحشر الحيوانات ولا ثواب لها ولا عقاب عليها إذ لا عقل لها .

(٣) زار رسول الله – ﷺ – قبل موته شهداء أحد كما زار البقيع ، وقال : « أنتم السابقون ونحن اللاحقون » .

وقال : أداء الدين فى الدنيا خير من أدائه يوم القيامة .

* * *

لقد كان واضحاً أن الحقيقة التى جاء بها محمد لا تكمن فقط فى الكتاب المقدس الذى جاء به ولكن فى حياته القدسية ، لقد كان حقاً – وبأدق تعبير – المسلم المثالى هو الشّخصُ الذى أخضع نفسه نهائياً لإرادة الله ،– « إننى أسمع وأُطيع » – ولم يعلن أبداً أن هناك شيئاً إلٰهياً ينسب إليه ، إنه بشر يَتلقّى وحياً من الله ، وأصر طول حياته على ذلك – ولذا لم تكن تعليماته وراء مفهوم أى شخص .

ويمكن تلخيص تعاليمه فى فقارٍ قليلة :

المسلم – أو الذى أخضع نفسه لله – لا ينبغى أن يشق على نفسه فى بحث النظريات اللاهوتية ، لأن دينه – الإسلام – لا يختص ولا يتركز على مجرد النظريات والعقائد ، ولكنه يضع تأكيداً أشد على الممارسة ، ممارسة الحياة الطيبة ، والطريقُ إلى الحياة الطيبة واضح بكل تأكيد – طبقاً لتعاليمه – فى القرآن . ولكى يتبع المسلم تعاليم القرآن لابد أن يخضع نفسه لأسس ثلاثة هامة ، العقيدة والتقوّى وحسن السلوك .

أما بالنسبة للعقيدة فهى الإيمان بأنه لا يوجد إله بل إله واحد هو الله ، وهذه عقيدة كل مسلم. الله واحد أحد – غير مكون من أجزاء – ليس له مثيل فى الأرض ولا فى السماء ، وهو قديم لا أول له ولذا هو موجود قبل خلق العالم كله ، وهو قادر على كل شىء ، يعلم كل شىء ، حاضر فى كل مكان وزمان ، إنه وحده خلق الإنسان ، وهو وحده الذى يخلص المتّقين من عذاب يوم القيامة ، ويعاقب الذين أساءوا بذنوبهم ، وهو باق لا آخر له .

من هذه النظرة نجد المسلمين أقربَ إلى تصور العبريين فى اعتقادهم بالوحدة الإلهية مما هم إلى فلسفة المسيحين فى قولهم بالثالوث المقدس ، ولكنه بعد هذا ضدهما معاً فى قبول الكتاب المقدس لديهما أنه كلام الله كما يزعمون ، إنه القرآن وحده كلام الله ، العهد القديم والعهد الجديد – فى نظر المسلمين كلام جيد ، ولكنهم لا يؤمنون به ولا يذهبون مدى بعيداً فى صحته ، وقد أعلن النبى محمد أن القرآن هو الكتاب الوحيد الكامل ، وليس مجرد رسالة من الله إلى محمد ، ولكنه الرسالة الأصيلة – كلمة بكلمة ، كما هى فى الأزل فى السماء . ثم هبط بها الوحى إلى الأرض لفهم بنى الإنسان .

وطبقاً لتعاليم محمد [ﷺ] – القرآن تنقيح وتصحيح جيد للعهد القديم والعهد الجديد اللذين أوحيا إلى النبيِّين موسى وعيسى .

إن صور الوحى المختلفة التى أُوحيت إلى الأنبياء السابقين – كما يعتقد المسلمون – جاءت إلينا فى أوقات متقطعة على لسان النبى محمد ، ولأن القرآن آخر وحى من السماء ، ومحمد آخر سلسلة الأنبياء ، وقد ختمت به الرسالات ، فإن القرآن نفسه يأمر المسلمين جميعاً أن يصدقوا برسالات الأنبياء السابقين ، وأن يولوهم ما يجب لهم من جلال وتقدير .

إن الله فى جلاله وعظمته قد خلقنا ، وهو يرعانا فى حياتنا الدنيا ثم يحاكمنا بعد الموت ، ولقد لون محمد عذاب الآخرة فى جهنم ونعيم المتقين فى الجنة بألوان حية ذات تأثير بالغ ، ولكن لأجل الحصول على هذا النعيم الأخروى لابد أن يبرهن المسلم أنه خليقٌ به ، ولا تكون هذه البرهنة من خلال عقيدته فقط ، بل أيضاً من خلال عبادته وسلوكه ، وهذا التوجيه الأخير يصل بنا إلى الأساس الثانى من الأسس الإسلامية ، وهو التقوى .

التقوى : المسلم التقى كما رأينا من قبل – يخصص خمس أوقات يومياً للعبادة والصلاة ، وليس الدين لدى المسلم عبادة تؤدى مرة فى كل أسبوع ،

بل هو كالنسيج المقدس تنسج خيوطه ماكينة الحياة فلا تمضى لحظة من لحظات الحياة بدون عبادة ، الله حاضر فى كل وقت ومع الناس أينما كانوا ، والمسلم يصلى ويضرع إلى الله عند انبثاق الفجر ، وفى منتصف النهار وعند العصر وعند غروب الشمس ، وعند اكتمال الليل (العشاء) . وسواء كان المسلم فى بيته أو فى الخارج تجده دائماً مستعداً أن يتوضأ فى الوقت المعين ليؤدى صلاته، وفى أى مكان يبسط مُصَلَّاهُ فيركع ويسجد متجها نحو مكة.

ويأتى الأذان لكل وقت من الأوقات الخمسة من فوق مئذنة المسجد من فم المؤذن ، كما لو كان نداء يَتَنَزَّلُ من السماء ، ويجيب المستمعون المؤذن بإعادة الكلمات نفسها أو بقولهم: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم».

وفى يوم الجمعة يجتمع المسلمون فى مسجدهم لأداء الصلاة العامة الجامعة . وقبل أن يدخل المسلم مكان العبادة المقدس ،- المسجد - يخلع حذاءه ، ويغسل يديه وفمه ووجهه وعنقه ورجليه .. هذا لأن المسلم يعتقد أنه لابد أن يطهر جسمه وروحه قبل أن يقف أمام الله . وبالإضافة إلى عبادته الخاصة وعبادته مع الجماعة ، لابد أن يصوم شهر رمضان . وصيامُ المسلمين يعنى ترك الطعام والشراب طوال النهار من هذا الشهر من انشقاق الفجر إلى مغيبِ الشمس .

وبقيت عبادة أخرى يؤديها المسلم - الذى يستطيع أداءها مادياً وجسمياً ، مرة واحدة فى حياته - وهى الحج إلى بيت الله الحرام ، وفى هذا الحج يتجرد المسلم من ملابسه ليلبس لفائف بيضاء بسيطة رمزاً للوحدة الجماعية بين المسلمين من مختلف الأجناس ومختلف الطبقات . ومما يُوصَى به الحاج ألا يكون فقط ذا مودة مع أخيه ، لابد أن يكون رحيماً مسالماً لكل المخلوقات ، حتى الحيوانات والطيور والنباتات .

وهدف الحج وبؤرته هى الكعبة ، وعندما يكمل الحجاج طوافهم حول الكعبة سبع مرات يسعون بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هاجر - زوج

إبراهيم – عندما كانت بلهفة بالغة – تبحث عن ماء لابنها إسماعيل الظامىء ، إذ كان طفلاً لا صبر له على الظمأ ، وإسماعيل أبو العرب .

والحاج إلى مكة – شأن المسلمين الأتقياء فى كل مكان – متجه إلى الله الرحمن الرحيم ، وفكرة الرحمة هذه وفكرة العاطفة الرحيمة بين الشّخص والآخر – تكمن فى قلب التعاليم الإسلامية وهى تصل بنا إلى الأصل الثالث من أصول الدين الإسلامى وهو السلوك .

السلوك : القرآن واضح جداً فى عقيدته وطريقته ولقد كرس محمد أكبر تفكيره إلى هذا الموضوع كما أوحى إليه فى القرآن – كان غرضه الأساسى فى الحياة أن يرفع السلوك الإنسانى إلى أقصى ما يمكن رفعه حتى يكون المسلم على صلة بالله ، ولذا حاول أن يخفى الفروق بين الأفراد والجماعات فى إخاء إسلامى يشمل الناس جميعاً ، ولكى يضم هذا النسيج على اختلاف خيوطه فرض السلوك القويم على كل شخص ، رجلاً أو امرأة أو طفلاً .

ولقد حرم شرب الكحوليات ولعب القمار ، والخيانة والغش ، والأنانية ، كما حرم القسوة من أى نوع كانت ، ولقد ميز تمييزاً واضحاً بين البر وهو التقوى وبين الصلاة ، **﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ..... أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾**[1].

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة وهى : **﴿ لَيْسَ البرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشْرق والمغْرب ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخِر والملائِكَة والكتابِ والنبيين ، وَآتَى المالَ علَى حُبِّه ذوى القُربَى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفى الرقاب ، وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفون بعهدهم إذا عاهَدُوا . والصابرين فى البأساءِ والضرَّاءِ وحينَ البأسِ أُولئِكَ الذين صَدقُوا ، وأُولئِكَ هم المتَّقُونَ ﴾** .

وأوصى محمد المسلمين أن يروا وَالِدِيهِمْ – ليس فقط بالاحترام . ولكن لابد من الرحمة ﴿ **فَلَا تَقُلْ لهما أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهما . وقُلْ لَهُما قولاً كَرِيماً . واخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرحْمةِ وقل رَبِّ ارحمهما كما ربَّيانى صغيراً** ﴾ .

وعارض محمد عدم الرفق باليتامى ، وقد كان نفسه يتيماً عندما كان طفلاً ﴿ **وَآتُوا اليَتَامَى أموالَهم** ﴾ والعمل بغير ذلك جريمة كبيرة : ﴿ **إن الذين يَأْكُلُونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنما يَأْكُلُونَ فى بطونِهم ناراً ، وسَيَصْلَونَ سَعيراً** ﴾ .

ويوصى القانون الأخلاق عند محمد بإصرار على العدل مع الأفراد والسلام مع الجماعة ، وإنه من حق المسلم أن يحمى نفسه إذا اعتدى عليه أحد : ﴿ **وقَاتِلُوا فى سبيل الله الذينَ يقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ ولكنه من الخطأ أن تعتدى على غيرك أوّلاً .. ﴿ **إنَّ الله لا يُحِبُّ المعْتَدِينَ** ﴾ . المسلم الحق هو رجل السلام . والرجل الرحيم بكل مخلوق حى . وقد وصف الدين الإسلامى بأنه وحدة المتحابين لخدمة المعوذين .

بهذا الاعتبار لا يختلف الإسلام عن معظم الديانات الكبرى الأخرى ، وفى أحسن حالاته أنه دين شامل أكثر مما هو مانع . والمسلمون يحترمون تراث العقائد الأخرى – العالم كله إخوة تحت رعاية الله ، وهذا الشّعورُ بوحدة الأسرة الإنسانية كان قاعدة أساسية كما كان عند القديس بولس ، وقد كتب بولس : « نحن جميعاً أجزاء بعضنا من بعض » .

وكان لابد لمحمد – كما فعل القديس بولس وكما فعل معلمو الأديان الكبار – أن يوحى بكلمات مؤثرة للشعراء المحدثين ، وجاء فى شعر إدوين ماركهام ثناء عليه وتقدير له . وأثنى عليه كثيرون من مفكرى الغرب ،

وكلما أمعن الدارس فى الديانة الإسلامية تتجلى له عظمة الإسلام وعظمة نبى الإسلام .

* * *

□ فرنسيس الأسيزى □[1]

Saint Francis Of Assisi

١١٨٢ – ١٢٢٦

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى أسيزى سنة ١١٨٢

تخلى عن وظيفته الحربية لمرضه ١٢٠٢

صادق أبرص ١٢٠٦

غادر البيت ليعيش فقيراً على جبل سوباسيو ١٢٠٦

بدأ يبشر الفقراء فى بلده ١٢٠٩

أسس نظام الإخوة ١٢٠٩

أسس نظام راهبات القديسة كلارا ١٢١٢

١٢١٩ ذهب إلى مصر ليبشر سلطانها بالإنجيل

١٢٢٤ رأى الملاك مسمراً على الصليب على جبل الفزنو

١٢٢٦ كويت إحدى عينيه ليتفادى العمى الكامل

١٢٢٦ توفى .

* * *

كان القديس فرنسيس الأسيزى من أكبر محبى الدنيا . كان يحب الله ويحب الإنسان ، كان الحوارى المخلص للمسيح ، والإيطالى الذى ينافس بوذا . وفى الحق إذا أثبتت الحقيقة التاريخية أن فرنسيس لم يسمع ببوذا أصلاً . فإن حياته تبدو تقليداً محكماً لحياة النبى الهندى ، إن أقاصيصهما وأحداث

(١) فى كتابنا « الإرساليات التبشيرية » شرح لأعمال فرنسيس التبشيرية .

حياتهما تحمل مشابهة تامة حتى ليَبدُوَانِ نسخةً واحدة من دراما ترجمت إلى عديد من اللغات . كلاهما هجر الحياة الناعمة ليعيش مع الفقراء وكلاهما تخلى عن الممتلكات الخاصة لأنها مصدر للشرور ، وكلاهما تجول فى أنحاء الأرض ليمهد الطريق ويزيل العقبات من طريق الشاكين والمعوزين . وكلاهما استطاع أن يفهم الرحمة والجمال فى هذه الحياة الدنيا ، وهما سواء ، كانا ينظران إلى أنفسهما متعاونين مع كل مخلوق ، كما لو كانا يكوّنان سيمفونية شعرية أنغامها هذه المخلوقات كلها . ثم أخيراً كل منهما عندما حضرته الوفاة أوصى أن يدفن على الأرض العارية ، هذا لأن كلاً منهما كان سعيداً جداً عندما يكون مصاحباً بأعماله الحسنة وحدها .

* * *

كان فرنسيس الأسيزى – أو طبقاً للاسم الإيطالى « فرنسيسكو برنادون » ابناً لبطرس برناندون ، وقد كان فى طفولته أدنى إلى الوحشية ، مبذراً . خشناً . ثائراً ، مسرفاً إلى درجة لا تقبل ، لم يكن لديه تصور لمعنى الرحمة ولا قيمتها فى الحياة ، ولم يكن يقدر قيمة المال ، فكان يبعثره بيمينه وشماله وعادة ينفقه فى مسرات الآخرين . وظن أنه من الحسن الجيد أن يهيىء لأصدقائه وقتاً سعيداً بواسطة مال أبيه ، ورأى أن هذا أفضل من خزن المال فى خزائن أبيه .

أما أمه فكانت زوجة مدبرة بنت رجل فقير ، وكانت تلاحظ بمرارة أن ابنها يسلك سلوك الأمراء ، ولا يبدو من تصرفاته أنه ابن رجل يرعى محلاً تجارياً صغيراً ، وكان أبوه يأخذ عليه هذا ويرى أنه لن يصلح أبداً لحالة حسنة . ولكن إذا كان أبوه وأمه يعبسان فى وجهه ، فقد كان أهل أسيزى وشبانها يعبدونه ، لقد كان طائشاً فى حياته كما هو طائش مع نقوده ، وكان

فى وصفه الجسدى نحيفاً أدعج العينين ، كما كان لمّاحاً ذكياً ، وكان دائماً مَرحاً طروباً ، كان قائد رفاقه فى الألعاب الرياضية وفى اقتناء المبتكرات أو الظهور بها ، وأيضاً فى الشيطنة والحب .- وعلى شاكلة بوذا فى شبابه وتولو ستوى فى شبابه انتخبه رفاقه منظماً لهم وزميلاً دائماً .

وعندما نما ودخل فى دور الرجولة كانت مهمته أن يجمع بين هوايتين متقابلتين ، فهو يجمع بين الشهامة والشاعرية ، كما أراد أن يكون محارباً وكاتباً وأن يكون جندياً يحمى أبناء وطنه وموسيقياً ليدخل عليهم البهجة ، وقد أعجب على الأخص بجماعة التروبادور أولئك الذين كانوا يرتلون أناشيد الحب الشعرية الفرنسية ، وقد جابوا البلاد حتى حولوا أقاليم أوربا الجنوبية إلى غناء شعرى ، وتعلقت عاطفته بهذا الشعر التروبادورى حتى ألصق به اسم الفرنسى الصغير ، فكانوا يقولون فرنسيسكو الفرنسى الصغير - ويقال إن أمه كانت سمته جون ، ولكن قبل أن ينمو ويدخل فى دور المراهقة كان اسمه الذى ألصق به قد غلب على اسمه الحقيقى ، وحتى هذا الوقت كان اسمه « الأسيزى » معروفاً بالاسم الفرنسى الشعرى الذى ألصق به « فرانسيسكو - القديس فرانسيس - موسيقىّ الله المتجول » .

* * *

كان روح المغنى اللطيف ، وقلب المحارب الشجاع يجتمعان فيه ، إنه قبل أن يعلّم أُمّته لَابُدَّ أن يحارب أولاً لأجلهم ، وكانت مدينته قد انغمست فى حرب لا نهاية لها من حروب العصر الوسيط ضد مدينة بيروجيا - مدينة منافسة لأسيزى فى إيطاليا .

كانت الإمبراطورية الرومانية القديمة قد تقسمت إلى مقاطعات . كل مقاطعة مكونة من مدن مسورة يحكمها لورد من الإقطاعيين ، وكل لورد من

هؤلاء كان مشغولاً مع جيرانه فى سلسلة من تنازع المدن التى على الحدود ، وهى متبادلة بينهم ، وكان الرومانيون الذين اعتمدوا على السيف وبذلوا أقصى ما لديهم من جهد ليوحدوا العالم كله قد نجحوا فقط فى تقسيمه ، وكانت حروبهم الغبية الكبرى قد استسلمت إلى حرب غبية صغرى ، واستبدلت بالاغتيالات الكبرى العامة اغتيالات فردية انتقامية ، كل مدينة كانت مستعدة متأهبة للحرب ضد كل مدينة أخرى .— فينسيا ضد فلورنسا .— فلونسا ضد برجيا ، وبرجيا ضد أسيزى ، وأسيزى ضد فينسيا وهكذا وهكذا كل الطريق خلال أوربا . وآلاف من القياصرة الصغار قد ورثوا الطموح والطمع ، ولكن من غير أن يتصوروا ما كان عليه القيْصر الأول ، وقد ضاعت حضارة العصور الوسطى فى هذه الحروب المؤسفة المتبادلة والتى لا تنتهى بين مدينة ومدينة .

دفعت شجاعة الشباب لزمن ما . هذا الشاب فرنسيس — إلى تيار المعارك الحربية ، فأدرج نفسه تحت راية مدينته ، ولكن بعد حملات ووقائع قليلة أفاق من غفلته وتيقظ إلى أن هذه الحروب ليست إلا قتل الشخص أخاه ، وأنها لا تزيد على أن الإيطاليين يقتل بعضهم بعضاً ، وفى إحدى هذه المعارك أُخِذَ هو أسيراً وسجن ، ووجد فى سجنه الذى لبث فيه أكثر من عام فرصة ليدرس هذه الحال الأقل جمالاً ومتعة أو على العكس الجانب الوحشى فى هذه الحروب فى العصور الوسطى وحالات السجن فيها ، وخرج من سجنه وقد صمم أن ينظر فيما إذا كان يستطيع أن يجد آلة غير السيف يمكن أن يقضى بها على هذه الحروب . ولكن بحثه عن الآلة الخفية التى تقر السلام انقطع عندما وقع فى مرض شديد نتيجة للصعوبات التى عاناها فى سجنه الحربى . وكان إبلاله من هذا المرض غير متوقع ، ولكنه أخيراً استطاع أن يتغلب على الأزمة وواتاه الشفاء .

وأثناء استلقائه على ظهره وهو فى دور نقاهته استطاع أن يدرس الحياة

من زاوية جديدة ، السماء والأرض ، والطيور والأشجار – ثم المضايقات والمجاعات التى يعانيها أبناء الشارع ، والذين – يا للعجب – يسمون إخوته وأخواته فى الجنس الإنسانى وأخذت الحياة فى نظره معانى جديدة حين نظر إلى هؤلاء المساكين من خلال نظرة أفقية . وظهر له هذا الوضع الأفقى من خلال تأمل هادىء عميق .

رأى أنه يوجد بين الناس لغط شديد كثير حول لا شىء ، يوجد لهث شديد وجرى وراء أشياء لا تستحق شيئاً ولا قيمة لها توجد أيضاً حروب ومعارك عنيفة وراء أشياء أحقر من الأشياء التى لا تستحق شيئاً : من الحق إذن – وقد قرر ذلك – أن يخلى هذه الحياة الغبية وأعمال الناس الضَالَّة ليعيش هو عيشته الخاصة . لقد وجد الآلة الخفية الصوفية التى كان ينشدها ، وهى السلاح القوى المتين الذى يمكن أن ينشر السلام بين الناس . إذا استطاع فقط أن يحصل على الذين يستعملون هذا السلاح – هذا السلاح هو تبادل المودة وتمكن المحبة فى القلوب . الحب الخالص – هذا هو السلاح الذى اهتدى إليه ! إخاء بين جميع الناس وإذا استطاع الشخص أن يمد أخاه بما يحتاج إليه ، فإن فى استطاعته أن يمون نفسه ويمدها بحاجتها .

ولم يمض وقت طويل قبل أن يستطيع فرانسيس أن يضع سره المستكشف– أو على الأصح أن يضع السر الذى أعيد كشفه ، تحت الاختبار ، ففى يوم من الأيام بينما كان يتجول بجواده فى حقول أمبريا قابل شخصاً أبرص على قارعة الطريق .

كان فرنسيس طول حياته ينزعج ويتأذى لمرأى هؤلاء المعوقين . كان شاعراً حسَّاساً ، يقشعر بدنه ، عندما يشعر أو يتذكر حال هؤلاء المرضى ، تشمئز نفسه لكل ألم بدنى . وينفر من كل شىء قبيح المنظر ،– ولكن خلال مرضه صار قريباً جداً ومصاحباً للانزعاج والشكوى وقبح الأمراض ، وبذا لم يعد ينفر من هذه المناظر بل يشعر بالرحمة والأسى للشاكين والمرضى .

عندما رأى هذا الأبرص قادماً إليه أسرع بالنزول من فوق جواده – ليس فقط ليعطيه نقوداً ، بل ليعطيه نفسه . ألقى بنفسه على هذا الأخ الحزين ، طرح ذراعيه فوق كتفى الأبرص وأخذ يحادثه كما يحادث الصديق صديقه ، وأحس بسرور وغبطة فى لقائه ، ومن الآن فصاعداً تعود شيئاً أهدأ ولكنه أعمق سعادة ، وهو البحث عن المنبوذين ومصاحبتهم .

إن هؤلاء الذين أذلتهم الأقدام وقست عليهم – مثل جميع المخلوقين الذين عاشوا – وعانوا وتألموا ثم ماتوا – ليسوا فقط أقرباء إليه ، ولكنهم فى الواقع جزء منه .

خرير الماء المستمر المتحد فى المحيط ، وأجزاء البدن المتضامة التى يلبسها روح واحد ، والحياة الأبدية المستمرة التى لاتنقطع فى شتى مظاهرها ، كل هذه أجزاء متضامة تكون شيئاً واحداً ، ونحن أيضاً فى مجتمعنا أجزاء متضامة لا يجوز أن يستبعد منها شيء .

تقدم بهذه المشاعر إلى الأبرص قائلاً : « إنك أكثر من أخ لى ، إنك عضو مؤلم من جسمى ، من لحمى ومن دمى ، آلامك هى آلامى . ومسراتك مسراتى » .

حين تقدم فرنسيس هكذا إلى الرجل الأبرص . كان فى الواقع راجعاً إلى نفسه ، ولهذا ترك المحظوظين المنعّمين – الأعضاء غيرُ المريضة فى وحدة المجتمع ، ووقف نفسه على خدمة التعساء سُيئى الحظ ، واتجه قلبه خصوصاً إلى الفاشلين ، الذين لا يلائمون الحياة ، ولا تناسبهم حياة الناس ، الذين لم يستطيعوا المضى فى طريق الحياة ، الضعفاء الذين لا يقبل أحد أنْ يكل إليهم عملاً ، وبالغ المتحدثون عنه فقالوا عبارات نابيَة ، قالوا إنه كان يستمع إلى الذين لن يستمع الله إليهم[1] – ولكن فرانسيس كان مسيحياً تقياً على

(١) العبارة مجازية إما بمعنى لن يصحوا من أمراضهم ، أو الذين أذنبوا حتى غضب الله عليهم ، ومعنى استماع الله – كما هو معروف . هو الاستجابة .

استعداد أن يمد هؤلاء المرضى والعاجزين ، وكان يقول : إنها إرادة الله أن أستمع إلى هؤلاء الشاكين ، كان فرنسيس مسيحياً تقياً ، ولكنه – كما كان عيسى من قبله – لم يكن يطيع الكنيسة طاعة عمياء ، وهكذا كان سلوكه مع أبيه ، كان يعمل كل شيء وفق إرادته هو ووَفْق اقتناعه ، كان تفكيره يبعثه دائماً إلى أن يطيع ما يمليه عليه قلبه لا أن يتبع أوامر رؤسائه ، وكان قلبه يقوده إلى الحق أكثر مما يدعو إليه رؤساؤه – وقد حدث مرة أنه أراد أن يحصل على مال ليحقق عملاً خيرياً أراده ، فباع جواده وإضبارة من أقمشة أبيه لذلك ، وغضب أبوه وقال إنه لص سرق ما ليس له ، وأخذ يلقى عليه محاضرة طويلة عن حقوق الوالدين وما يجب لهما من قداسة ، وعن عقوق الأبناء وعدم تقديرهم الوالدين ، إن كل شيء يمتلكه فرنسيس حتى ملابسه التى فوق جسده هو مدين به لفضل والديه وكرمهما ، ولم يسع فرنسيس إلا أن يخلع ملابسه ويرمى بها فى وجه أبيه ، وقرر من ذلك الوقت ألا يقبل مساعدة من أى شخص آخر ، وعلى الأخص عندما يتخذ الناس أى خدش يمسه وسيلة إلى تذكيره بحاجته إليهم أو إحسانهم إليه .
وألقى عباءته الرثة البالية على كتفيه ومضى إلى الغابة ليأوى إلى منزل بها ، كان الوقت شتاء ، ولكنه – فيما يقال – أخذ يغنى أثناء مشيه ، لقد تخلى عن جميع ممتلكاته ، ومشى كأى سائل مسكين لا قميص له ، ولكنه كان يشعر بسعادة غامرة ، لأنه خلص نفسه نهائياً من عبء الملكية ، وإذا كان حقاً ما يقال من أن الرجل الغنى حقاً هو الذى يقنع بما لديه من القليل ، فإن فرنسيس كان أسعد الناس ، لأنه كان أكثر قناعة من أى شخص بما عنده ، ولم يكن هذا مجرد وضع من جانبه ولم تكن رغبة منه أن يؤدى دور الشهيد ، لقد كان حقاً ناسكاً ولكن لم يكن ذا رغبة فى أن يعذب نفسه قرباناً إلى الله ، لقد أنكر ذاته ليس لمجرد الرغبة فى جزاء الآخرة ، وكذا لم تكن قناعته فى هذه الدنيا لهذا الغرض ولكنه كان يشعر أنه من العار أن يعيش فى حالة مالية حسنة

وصحة جيدة بينما حوله إخوانه يعانون الأمراض ، وأن يأكل ويشرب بينما هم يشكون المجاعة ، ولذلك بدلاً من أن يذهب إلى الصحراء كما يذهب الرهبان ، أخذ يتجول بين الأحياء الفقيرة ، بحثاً عن الفقراء والمرضى ليحيي نفوسهم ، فكان يطعم الجائعين ، ويحاول إزالة الشكوى من الشاكين ، وكانت سعادته كبيرة لأنه نظر قليلاً إلى نفسه وكثيراً إلى الآخرين ، عندما كان يحصل على طعام كان يحتفظ لنفسه بالقليل الأدنى الخشن ، ويجنب الباقى ، وبالنسبة للملابس ، كان يلف نفسه سواء فى الصيف أو الشتاء فى ملابسه الرثة يربطها بحبل حول وسطه وصارت هذه الملابس بعده هى ملابس المنتمين إلى جماعة الفرنسيسكان . وكانوا جنوداً لا سيوف لهم ولا سلاح ، هم جنود المسيح الذين قادهم فرنسيس للشفاء والرحمة .

* * *

وجد فرنسيس فى أول أمره تابِعَيْنِ اثنين فقط ، فبنى ثلاثتهم لأنفسهم كوخاً بجانب مستعمرة البرص ، وخصّصوا أنفسهم لخدمة هؤلاء المرضى ، كأنهم رسل الحياة لهؤلاء الذين تركوا الحياة ليعيشوا مع مرض دائم ، وفى خلال ثلاثة أعوام نمت الأخوة الصغيرة التى كونها فصار عدد أبنائها اثنى عشر رجلاً ، ثم قرروا الحج إلى البابا فى روما ، وكانوا يريدون أن يحصلوا منه على إذن لهذه الجماعة أن تستمر فى عملها أو بعبارة أخرى أن يعترف بها ، ومنحهم البابا إذنه ولكنه اشترط ألا يتدخلوا فى قواعد الكنيسة[1] .

واكتفت الجماعة بهذا من البابا ، فقرر فرانسيس فى الحال أن يقوموا برحلة أخرى إلى بلاد المسلمين ، ومقابلة زعيمهم ، وكانت الحملة الصليبية الخامسة يومئذ فى قمتها ، وهكذا أحضر فرنسيس نفسه مجرداً من السلاح

---

(١) انظر جماعة الفرنسيسكان فى كتابنا « الإرساليات التبشيرية » .

أمام سلطان المسلمين ، وابتسم السلطان إليه ابتسامة الساخر ولكنه استمع إليه ، وقال فرنسيس : هنا أيها السلطان نوع جديد من جنود المسيحين ، عدد قليل ذو حيوية من أبناء إيطاليا ، ذو عباءات رثة قديمة ، لكل منهم عينان متوقدتان تنمان عن حب الصداقة والمودة ، ولهم فيض من العبارات الفصيحة اللينة ، شخص يريد أن يغزوك بالملاطفة لأنه يرى أنها أفضل من الركل والضرب !

واستمع السلطان إلى توسلات هذا السفير العجيب ، إنه يطلب وقف العداوة سريعاً ! باسم الله أبينا جميعاً ، ووعد السلطان أن يراجع رجاءه ، ولكنه نسيها بمجرد أن فارق فرنسيس مجلسه ، أو بمجرد أن غاب عن بصره[1] .

استمر المسلمون والصليبيون فى حروبهم ، ورجع وزير الله وسفيره إلى مطلبه ورجائه صحة عقل الإنسانية فى عالم الصحة الذى أنشأه هو .

* * *

كان لدى القديس فرنسيس حظ ضئيل من الثقافة ، ولذلك آمن بعقيدة طفل ، وأحب ببساطة طفل ، وبأصالة حبه ، وشغل الحب كل قلبه ، وعلى شاكلة الشعراء الأقدمين الأوائل القائلين بوحدة الوجود . ولعله لم يكن يعرف ذلك ولا يقصده ، كانت الحياة شاملة فى نظره وكل شىء لديه حىّ ، وهناك صلة داخلية تربط شريط جميع المخلوقات ، تماماً كما ينظر الطفل إلى الطيّور على أنها أخوات صغار له ، وإلى الرياح والشمس كإخوة ، وإلى

(١) انظر كيف يريد الكاتب أن يلصق إثم الحروب الصليبية بالمسلمين ، والمسلمون لم يبدءوها ، ولا هجموا على بلاد المسيحيين . وكان فرنسيس يريد إدخال المسلمين المسيحية ، ولم يأبه به أحد .

الأرض كأنها أم حية لكل هذه الكائنات .. ونحن نجد كل هذه الأفكار متطابقة عند هوميروس ، وفى قصائده الأولى نجده يضفى الحياة على كل شيء . ويُحيِّى الأرض على أنها أم لبنى الإنسان وزوجة للسماء ذات النجوم السواطع .

ولنذكر مثالاً من نتاج العصور القديمة الأولى . وأيضاً من إقليم آخر ، نجده لدى الشاعر« بَوْنِى الهندى » Pawnee The Indian – فقد غنى للشمس والد الكون ، واستمع إلى صوت الأم – أم الجميع – التى تهب الحياة .

وفى شعر بونى الهندى ، وربما فى شعر هوميروس ، وبكل تأكيد لدى القديس فرنسيس معرفة الصلات القريبة بين جميع الكائنات الحية ، وأيضاً غير الحية أكثر من مجرد قوالب شعرية أو كلام خيالى ، إنه شيء جميل حقاً وإن كان خيالاً طفلياً أن نجمع الوجود كله فى أسرة واحدة أسرة الإنسان .

لم يكن فرنسيس يتحدث فقط عن أخواته الصغار . وهى الطيور – بل كان يخاطبها ويكلمها .

وعندما كان راجعاً من رحلته إلى أرض المسلمين – وقد حاول إقناعهم بصحة المسيحية وإدخالهم فيهَا . قابل سرباً من الطيور فى طريقه – وببساطة الطفل وإخلاصه ، حاول أن يقنع الطيور وأن يدخلها المسيحية ، ولشغفه بالموسيقى خيل إليه أن أخواته الصغار يُحيِّينه بها من خلال رفرفة أجنحتهن وأصواتهن المغردة ، وأحس أن لديه أيضاً موسيقى وغناء أفضل مما لديهن ، وبها يستطيع أن يحتفى بها أيضاً ، وصاح بصوته الرقيق :

« أيتها الأخوَات الصغار ، إذا كنتن الآن قد قلتن أُغنياتكن ، وأنا استمعت ، فهذا الوقت لى لأسمعكن أيضاً » ثم تقدم ليلقى خطبته إلى هذا الجمع المجنح آملاً أن ينقذ أرواحها الصغيرة بتعريفها المسيحية .

إذا كان هذا الموقف يبدو للقارىء الحديث شيئاً سخيفاً ، فإنا نورد نوعاً آخر من ابتهالات فرنسيس إلى أخيه الأكبر النار التى هى حقاً فى أسمى منزلة .

فقد فرنسيس بصره ، وقال له الأطباء إنه لكى ينقذ على الأقل إحدى عينيه وينجو من العمى الكامل لابد من كىّ إحدى العينين ، وذلك يكون بواسطة إحماء قضيب من الحديد . وعندما أخْرَجُوا القضيب أحمر يتلهب من محماه . وقف فرنسيس فى حركة رشيقة وأخذ يخاطب النار كما لو كان يخاطب شيئاً حياً أو رفيقاً محبوباً قام ليؤدى عملاً غير محبوب فقال : أيتها الأخت الحبيبة أيتها النار ، إن الله سبحانه قد خلقك جميلة وقوية جداً ونافعة إننى أرجوك أن تكونى صديقة لى وملاطفة .

وربما كانت الملاطفة هى السمة الدائمة فى أخلاق فرنسيس ، فقد عامل أصغر المخلوقات بالدرجة التى عامل بها أعظمها وكان مستعداً أن يعتذر للسائل المسكين وليس مستعداً أن ينحنى أمام إمبراطور . وبهذا الاعتبار ربما مر عليه وقت خفض فيه صوته أمام الأشجار والورود حتى لا يزعج نومها ، ولم يكن تواضعه هذا تواضع نفس ذليلة ، ولكنه تواضع شخص ليس له غرض ولا مصلحة فى هذه الحياة . وببساطة لم يكن لديه وقت لكى يهتم بشئون نفسه ، ولكنه يجد متعة وسروراً فى اهتمامه بغيره ، وكانت الدنيا كلها لديه دنيا ملوك ، وكان هو الخادم المطيع لهم جميعاً .

* * *

لم يُرَ القديس فرنسيس غاضباً يتكلم بلهجة شديدة إلّا مرَّةً واحدة غضب فيها على رفاقه — كان عائداً من رحلته الصليبية إلى الشرق ، تلك الرحلة التى أمل فيها أن يضع أسس السلام ، واستقبله رفاقه فرحين وأحاطوا به فى بهجة وسرور ، ثم أخبروه أنهم أثناء غيابه بنوا قصراً فاخراً للإرسالية فى بولونيا Bologna ، ولكنه رفع يديه إلى السماء ، وأبطل احتفاءهم ،

وقال : « أخبرونى يا رفاق ، يا إخوان الفقر . منذ متى وجدتم أنه من الضرورى أن تُهِينُوا أخاكم الفقر ببناء قصر فاخر » .

* * *

وهكذا مضى يتجول على وجه الأرض – هذا الأخ الصغير للفقر ، وقد وقف عواطفه كلها على أن يعمل خيراً يقدمه لمخلوقات الله ، وأخيراً خارت قواه وأسنّ ورجع إلى بلده لقد أصبح رجلاً كهلاً خائراً – ولكن مؤرخيه قدروا تقديراً أنه كان فى الرابعة والأربعين من عمره ، وهى تقدر بمئات السنين إذا نحن قدرنا الأعمار بما فيها من الأعمال النبيلة ، وعلى الرغم من فشله البصرى مضى قدماً فى طريقه جندياً من جنود الله مغنياً سعيداً أثناء مشيه حتى نهاية الطريق وكانت بدايته هى نهاية مدينة أسيزى ، وكان يقول : إذا ذهبتَ إلى طريق أو أى مكان أو قمت برحلة حج ... عد ثانياً إلى وطنك ، لأنه بيت الله المقدس . وفى بيت الله المقدس هذا ألقى بنفسه على الأرض لكى يموت ، كان فراشه هى الأرض العارية ، – والأرض هى أمه الحبيبة ، وكان شهود موته بعد السهر الطويل حفنة من أبناء الفرنسيسكان ، وعدد كبير من إخوته الصغار – الطيور – وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فتح عينيه الكليلتين وباركهم جميعاً : « بارك أولادك يا ربى ... سعداء أولئك الذين يعيشون فى سلام ... .

يا ربى بارك هؤلاء لأجل حياة إخوتنا الذكور وموت أخواتنا الإناث سعداء حقاً أولئك الذين يجدون عند ساعة الموت طاعة إلى الوصايا المقدسة .. وقال للحاضرين ليحب كل منكم الآخر .

ومع مرور هذه الكلمات على شفتيه استغرق فى النوم الأبدى .

وقد كتب جلبرت . ك . تشسترتون . إن هذه لم تكن سعادة غير مضطربة ولا مختلطة ، إنها سخرية محزنة إن الرجل الذى أنفق حياته كلها

داعياً إلى اتفاق الناس بعضهم مع بعض يموت بين قوم يزيد ويشتد بينهم الخلاف . لقد تعاهد مع الفقر والفقر الشديد ، مأخوذاً بالشيوعية التى كانت لدى المسيحيين الأولين . لقد حذر إخوته الفرنسيسكان من تملك أى مال ، ومن شرور الملكيات الخاصة . وكان يقول لهم : إذا كان لنا أى ممتلكات فسنحتاج إلى الأسلحة ... لكى نحميها بها : إن مُغَنِّى الله وحواريه يجب ألا يمتلك شيئاً إلاّ قيثارته . ولكنه عاش ورأى أديرة ثرية تؤسس باسمه .

ونسى جماعة الفرنسيسكان عهودهم مع الفقر فى جدالهم الحاد حول الممتلكات الكنيسية ، ومال كثيرِ الآن لدى هذه الجماعة جُمِعَ لروح القديس فرنسيس داعية الفقر .

* * *

□ جون هس □

John Huss

١٣٦٩ – ١٤١٥

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى بوهيميا سنة ١٣٦٩
كان محاضراً فى جامعة براغ سنة ١٣٩٨
انتخب رئيساً للكلية الفلسفية سنة ١٤٠٠
انتخب وكيلاً للجامعة سنة ١٤٠٢
اتهم بتبنى عقيدة غير أرثوذوكسية سنة ١٤٠٨

منع من ممارسة أعمال القسس سنة ١٤٠٨
فحصت دروسه وحقق معه سنة ١٤٠٩
حرم من عضوية الكنيسة سنة ١٤٠٩
استدعى للمحاكمة فى كونستانس سنة ١٤١٣
أحرق على خابور أو وتد سنة ١٤١٥

* * *

ولد جون هس من والدين فقيرين فى قرية هو زينتس ، فى جنوب بوهيميا ، وحينا صار قادراً على القراءة فى مدرسة براج ، كان تلميذاً يجمع الصدقات للكنيسة ، وأحب الكتب القديمة ، وأثناء جلوسه أمام المدفأة قرأ

قصص الصدّيقين والشهداء من رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وقد وقف مرة أمام المدفأة ومد يديه فى لهب النار ، ولما اجتذبته أمه بعنف بعيداً عن النار ، نظر إليها بعينين واسعتين حادتى النظر ، وقال : « كنت فقط أحاول أن أعرف أى عذاب لاقاه الشهداء ، فربما عانيته أنا أيضاً »..

وفى الاحتفالات الدينية فى المدرسة كان يغنى غناء جيداً ، وكان يغنى أيضاً تراتيل دينية وهو يمشى فى الشارع ، وكان تلميذاً متميزاً بين رفاقه ، وفى القرن الخامس عشر كان بين شبان بوهيميا نوع من المساواة فى الثقافة ، وكان من الممكن لشاب وضيع النّسب أن يجلس مع المثقفين فى الكنيسة ، وأن يهيء نفسه لوظائفها ، ولهذا سمح لجون هس أن يهيء نفسه ليكون قسيساً ، واعتبرت هذه من ديمقراطية الكاثوليكية .

وقد دخل جامعة براج وحصل على درجة ماجستير فى الآداب ، ثم التحق بالكلية نفسها وعمل فيها بدرجة الماجستير – أى مدرساً – وكانت محاضراته ممتازة ومفيدة ، ثم تقبل رسامة الكنيسة لـه قسيساً ، ثم عين وكيلاً للجامعة ، وكتب مقالات دينية أعجب بها المثقفون ، وفى الرابعة والثلاثين من عمره كان قد تبوأ قمة ما يطمح إليه رجل عصامى مثله ، كون نفسه بنفسه ، ماذا عسى أن يكون قد بقى له غير أنْ يستمتع بما انتهى إليه ، فزين ملابسه الجامعية ، وحضر الولائم والحفلات الكبيرة ، وألقى الخطب ، واستمتع بمجالسته رفاقه المثقفين . ومع كل ذلك كان متواضعاً ، لم ينس قط أنه إنسان وأنه جاء من أبوين فقيرين .

إن الروح الإنسانية فى أحسن حالاتها تكون متجانسة مع الآخرين ، وتحوى أجناساً من الصفات ، ففى هذا التواضع الإنسانى يدخل جسم الإنسان نوع من النبل والكبرياء يأتى من أبواب شتى واسعة ، ومن أجيال

سابقة قد تكون مجهولة ، إن جون هس ، ولا نكولن[1] . كلاهما تعلم الكتابة بجانب المدفأة فى كوخ فلاح ، وكلاهما نال مجد السماء فى شهرة شهيد ممتاز . تعلما فى ضوء نار متواضعة واشتهرا فى ضوء نار لامعه .

* * *

من خلال بعض التجار الأثرياء فى براج عين جون هس مشرفاً على كنيسة بيت لحم[2] حيث كانت حركة إصلاح دينية جارية فى هذا الوقت ، وكان العباد فى هذه الكنيسة لا يقرأون المقدسات باللغة اللاتينية ، وإنما كانوا يقرأونها بلغتهم المحلية لغة بوهيميا ، لأن الرؤساء هناك كانوا شديدى الحماس لكمال قوميتهم ، وكانوا يرددون دائماً « إننا لابد أن نقدم أنفسنا إلى الله بلغة بلدنا » . وكان الوطنيون البوهيميون يحضرون إلى كنيسة « بيت لحم » مدفوعين بروح الوطنية ، أو بشعور جماعة أبناء الشارع حين يحضرون اجتماع المدينة ، وكانوا جماعة وطنية أكثر منهم جماعة دينية ، وكانوا عندما ينحنون فى صلاتهم ينطقون عبارات دينية تطلب من الله الاستقلال .

وكانت صلاة بسيطة موجهة إلى الله – الآب – فى علاه ، وكانوا لا يفهمون لماذا يدفعُون أموالهم إلى صندوق البابا فى روما ، وروما تبعد عنهم مئات الأميال ، وكانت هذه الأفكار التى تملأ مشاعرهم تجعل عبادتهم شيئاً مادياً فارغاً من المشاعر الروحية ، وكان « هَسّ » عندما يخطب فى كنيسته الصغيرة – كنيسة بيت لحم – كان يعلن أن هذا النظام الاقتصادى الذى يجرون عليه إنما هو هجرة من قواعد المسيحية المبسطة إلى عمل دنيوى بحت .

---

(١) هو إبراهام لانكولن محرر العبيد فى أمريكا .

(٢) كنيسة فى بلده سميت بهذا الاسم .

ومن كلامه : إن الكثيرين من أعضاء المجلس الكنسى يعيشون حياة مترفة ، ويمتلكون مقاطعات واسعة ، ويصدرون الأمر بجمع الضرائب القاسية . حتى إن الشعب ليبيع قميصه الذى فوق ظهره ليسدد الضريبة . وذلك لنهم القسس وأطماعهم الدنيوية ، ورجال الكنيسة هؤلاء يلقنون ضحاياهم أن أرواح الموتى تعبر الأعراف . بين الجنة والنار – لتدخل الجنة بوسوسة النقود التى تدفع من الأحياء للحصول على الإذن بهذا العبور ، إن ثلاثة من القسس قد اشتروا حصولهم على مركز البابوية ، وهذا مثار لكل سخرية ، ومع ذلك هم يعلنون بكثير من التكبر والفخار أنهم قسس المسيح الحقيقيين ، ليست البابوية إلاّ غابة من الزواحف يطلقون على أنفسهم اسم القسيس أو هداة الناس .

ولكن فى وسط هذه الغابة المليئة بالأفاعى وجد « هَسّ » عقلاً يمشى باعتدال ومنطق وقد غير هذا الكشفُ نظام تفكيره وحياته الداخلية . كان ذلك من كتابات جون ويكلف التى وصلت أخيراً إلى براغ ، و ويكلف كان أستاذ الدراسات اللاهوتية فى جامعة أوكسفورد ، وكان يعانى سمعة سيئة من الكنيسة ، وقد طردته من حظيرتها متهمة إياه بالكفر ، وكان هس يتهمه بذلك أيضاً ، وأخذ مرة يقرأ كتبه بشىء من الأسف ليرى ما بها فكان كلما قرأ أحس بميل وإنصاف له . إنه لا كفر فى كتبه ، وإنه يقرر أفكاراً كالتي يقررها هو ، هذه الأفكار قد تغضب الكنيسة ولكنها ترضى الله ، وحقاً لم يحدث بين ويكلف وبين الكنيسة عراك ، أو مناقشة ، وإنما كان النزاع بينه وبين رجال فاسدين عينتهم الكنيسة ممثلين لها . إن ويكلف يأخذ على رجال الدين بيعهم الدين بدنياهم . ويقول بحق عن رجال الإيكلوروس : إنهم يتظاهرون بالروحانيات للحصول على الثراء وعلى المكانة الموقوتة الزائفة ولذا طالبهم أن يتخلوا عن أملاكهم كى يعودوا إلى عالم الروح ، واقترح أن يعتمد الناس على كلمة الكتاب المقدس لا على كلمة القسيس ، فكلمة

الكتاب المقدس – مرشدةً إلى الأخلاق وحسن السلوك لا تسقط – ولذلك طلب أن يترجم الكاب المقدس إلى لغات العالم الكاثوليكى كله ، وبهذه الترجمة يستطيع كل واحد أن يقرأ رسالة الله ، وأن يتلقى بنفسه روح المسيح .

وما كاد هس يفرغ من قراءته كُتُبَ ويكلف حتى كان ذهنه قد تصفى ، وبحماسة الحوارى الذى تعرف على النبى الحقيقى أحضر كتب الفيلسوف الإنجليزى وأخذ يقرؤها جهاراً علناً على أعضاء مجتمعة وعلى تلاميذه فى الجامعة ، وقال إن ما عمله ويكلف هو ما عمله السيد المسيح حين طرد الصيارفة من المعبد ، ما زاد على أن رغب فى تطهير الكنائس وإخلاص العبادة لله وأنا أيضاً سأكرس نفسى لهذا العمل .

* * *

وسريعاً ظهرت الأزمة ، فرئيس القسس فى براج أمر أن ترمى كتب ويكلف كلها فى النار . ودهش الأستاذ المبشر البوهيمى لهذا الأمر ، وقال إنه إهانة لحرية التدريس فى المعاهد التى أنشئت واعترف بها أنها أعظم مركز لحرية التفكير وبث الإنارة العقلية . إن رجالاً من مُختلف الأنحاء قد تجمعوا هنا ليتعلموا الحقيقة الكاملة وغير المتحيزة من هذا العالم .

وكانت هذه فائدة وميزة جاءت متأخرة عند انبثاق فجر القرن الخامس عشر ، ولكن هذا الفجر طمس ثانياً بقرار رئيس القسس الصارم ، غير أنّه ما كان يستطيع إرجاع الليل المظلم إذ استطاع هس أن يعارضه ،. ولذا قرر الجهاد ضد هذا القرار وضد رئيس الكنيسة ، وأعلن من فوق المنبر أضرار القرار الكنسى ، وأنه قرار بإحراق أفكار إنسانية ، وعندما اجتمع ممثلو البابوية حول النار التى أعدت لإحراق الكتب ليوقعوا تنفيذ القرار

البابوى ، حضر هس ضمن الحاضرين وأخذ يصيح : أيتها النار ياصديقتى لا تقضى على الحقائق . إنها دائماً علامة العقول الصغيرة أن تنفجر ساخطة على الأحياء ، والأشياء التى لا ضرر منها ، هذه الكتب التىَ تحرقينها اليوم إنما هى خسارة للأمم كلها ، وحرمان للأجيال القادمة منها .

نعم إنها خسارة حقاً ثم خسارة ، ذلك أن هذه الكتب التى تحرق إنما هى الصلة التى تربط أطراف الحزب الجديد ، والتى بها كانت أجزاؤه ملتحمة ، إنه حزب نهض ليعيد بناء الكنيسة .

وقد كان هس يمثل صوت هذا الحزب وقلبه .

واجتمع حشد كبير من أبناء بوهيميا ليسمعوا عظة زميلهم ابن بلدهم . وكان بين مستمعيه بعض من أثرى اللوردات وأشدهم قوة فى المملكة ، وانفعالاً ببلاغته الخطابية جلس تحت أقدامه هؤلاء الكبار حتى الملك والملكة .. ولكن سرعان ما جاء ضغط من روما : يتحامل على الأسرة المالكة ، واضطر الملك والملكة والكبراء أن يسحبوا تأييدهم ومساعدتهم من الأستاذ الوقح الذى لا يحترم الكنيسة . ولكن هس أصر على جرأته ووقاحته .

وفى أحد أيام الآحاد سبب ثلاثة من تلاميذه اضطراباً فى إحدى الكنائس البابوية فى براج ، فقد قاطعوا القسيس أثناء خطبته صائحين : هذا كذب ، وفى الحال قبض عليهم وأرسلوا إلى السجن ، وتوسل آل التلاميذ إلى هس أن يتدخل لدى أولى الأمر ليبقوا على حياتهم ، وتردد هس فى أول الأمر ، ولكن قلبه كان مأخوذاً بشجاعتهم وشبابهم ، فذهب إلى أولى الأمر يستعطفهم ويرجو أن يكونوا رحماء بهم ، ورداً على رجائه أرسل إليه مأمور المدينة بطاقة كتب فيها : « إننا دهشون جداً لتجرؤ أستاذ من الجامعة على التدخل فى عمل من أعمالها ، وأن يتكلم لصالح أشخاص تمردوا جهاراً » —

ولكنهم مع هذا وَعَدُوا أن يكونوا رفيقين بالشبان المتمردين .

تجمع الناس حول المحكمة مطالبين بإطلاق سراح الشبان ، ولكن الحكام طاردوا المتظاهرين وطهروا الشوارع منهم ، ثم قادوا الشبان المتظاهرين خلال ممر خلفى ، ثم نفذوا فيهم حكم الإعدام . وألقى جون هس خطبة الجنازة عليهم ، وكانت مؤثرة حتى أحنى الحاضرون رءوسهم وانخرطوا فى البكاء ، ونهاهم « هس » أن يفكروا فى عمل عنف أو عدوان على الحكام الذين اقترفوا جريمة إعدام الطلبة ، وقال دعوهم ليحاكموا فى المحكمة العليا .

وأحس هس أن وجوده فى براج قد يثير ثورات أخرى بها يعدم بعض الثائرين فآثر الانسحاب منها إلى إحدى الضواحى التى كان بها أيام طفولته .– ولم يكن لديه ميل ولا نزعة للجدال بالسيف لإطفاء ثورات دينية ، إنه إنسان بسيط ، مدرس منفعل بكلمات الله ، منزعج خائف من وحشية الإنسان . وتنقل من قرية إلى قرية يلقى خطبه التبشيرية ووظيفته الأولى هى قتل الكراهة والأحقاد بين الناس بواسطة الكلمة الطيبة ، ولكنه غالباً كان يحب أن يكتب فى غرفة الدراسة الخاصة به بعيداً ومنعزلاً عن الناس ، كان يفتح نافذة مكتبه واسعة ، وينهل من هواء بلده الطيب ثم يُتْقن المقال الذى يريد كتابته ، وكان يقول إن كتب الهرطقة والكفر لابد أن تقرأ وأن تمتحن لَا أَنْ تحرق ، وبغير ذلك كيف نستطيع أن نصل إلى الحقيقة ؟

وأخيرا بدأت طريقته المتقنة للوصول إلى الحق تقلق البابا وقال ممثلوه فى براج : أى نوع من الناس هذا البوهيميى المثير ، إن طريقته خشنة كالحة ، « أخلاقه جامدة كالحة ، حياته وسلوكه وعمله تقوم على إنكار الذات ، ومنذ سحبت منه الوكالة لا يستطيع أحد أن يجد شيئا ضده ، لونه الشاحب وملامحه الباهتة ، قوامه الطويل النحيل ، استعداده الفطرى للمواساة ، حبه للمساعدة حتى إلى أصغر الناس ... كل هذه الصفات تجتذب

الناس إليه وتكون له أتباعاً أكثر من بلاغته ومقدرته الخطابية ، وقد اتخذه أغبياء الناس قديساً ، وبقدر ما هو مضطهد محارب لا يخدع ولا يخدع .

هذا كاف :

إن القديس الغشاش المخادع لابد أن تذهب قداسته ، ويسحب منه لقبه .

وجاء مرسوم من رُومَا بحرمانه وطرده من الكنيسة ، وجاء فيه : إنه محرم على الشعوب أن يقيمُوا قُدَّاساً أو يعمدوا أطفالهم ، أو حتى أن يدفنوا موتاهم فى أى مكان يشرف عليه أو يحضره جون هس .

والآن وقد أصبح مطروداً رسمياً من الكنيسة رجاه أصدقاؤه أن يكف عن الخطابة وعن الكتابة ، ولكنه أزاحهم عنه قائلاً : هذا غير معقول : قال إنه غمس يده فى اللهب مرة اختباراً لشجاعته ، والآن لابد أن يستمر فى خطابته وتبشيره حتى ولو قضى عليه بالإحراق . ثم ظهرت فى خطابته نغمة جديدة — نغمة التهكم الساخر المحقر لأعمال البابوات . لقد عاقبوا قادة الكنيسة العميان ، ورجموا الأنبياء حتى ماتوا ، ثم عادوا يرفعون الأنصاب التذكارية تخليداً لذكراهم — إنهم الذين يعبدون الموتى ويضطهدون الأحياء .

ومرة ثانية حذره أصدقاؤه طالبين أن يكف عن خطابته ، ولكنه أجابهم : « إننى أكون خائناً فى يوم القيامة إذا سكت و لم أخطب فى الدنيا !

وأخيراً وقعت الواقعة : جاء أمر يقضى بحضوره أمام مجلس الكنيسة العام فى سويسرا فى مدينة قنستانس ، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه هرطوق ملحد ، ولا شيء أشد إثارة لأحزان الحكومة الشرعية فى الكنيسة من هذا .

وتغير لون أصدقائه من الخوف عليه ، وقالوا : « من المؤكد أنه سيسافر كل هذا الطريق الطويل إلى مدينة قنستانس كى يسلم نفسه إلى معسكر

أعدائه » – وفى منزله فى بوهيميا – كان محاطاً برعاية شجعان من أشجع الفرسان – الحاصلين على لقب فارس – وليس أشجع الفرسان فى المدينة ، بل فى المملكة كلها . وكانوا على أتم استعداد أن يحموه بآخر قطرة من دمائهم ، وقالوا له : أقم ههنا ودعهم يأتون هنا ليأخذوك . إن استطاعوا – ولن يستطيعوا ! – ولكن هس قال لهم سأذهب إلى مدينة قنستانس لأ دافع عن عقيدتى .

* * *

وأعلن الإمبراطور سيجسموند هذا القرار : « بنعمة الله تعالى وفضله قد اختير سيجسموند إمبراطوراً لروما .. لقد تعهدنا بإيجاد مأوى وحماية مِنْ لدينا ومن الإمبراطورية المقدسة لأنبل شخص فى الناس ولأكثر الناس استقامة « البروفسورجون هس » إننا نوصيكم جماعات وأفراداً أن تحموه عندما يأتى إليكم ، وأن تستقبلوه بكرم ، وأن تحتفوا به بشرف ونبل ، وأن تساعدوه بكل ما يمكن أن يعجل رحلته إلينا أو يعيده سالماً . سواء كانت رحلته براً أو بحراً ... وإذا دعا الأمر فلابد أن يمد بحرس خاص ، وذلك لمكانتنا وشرفنا » .

شرع هس فى رحلته إلى قنستانس مسلحاً بضمان السلامة من الإمبراطور ، وفى حراسة هيئة مكونة من اثنين من الفرسان على خيولهم .

كتب هذا هس إلى رفاقه فى بوهيميا ليسرهم ويضحكهم .

وفى كل مكان فى الطريق كان يقابل باستقبال مخلص وتعظيم لأن سمعته كانت قد سبقته ، « إننى لا أجد أنه من الضرورى أن أسافر مرة متنكراً » – كتب ذلك إلى رفاقه القلقين عليه فى براج – « لقد ركبت جوادى بحرية ، وبدون أى تنكر خلال المدن التى مررت بها»، قال إنه شرب مع كبار الحكام

وكسر الخبز مع الناس فى كل بلد دخله ، وقال لمن قابلوه « أنا جون هس الذى سمعتم - دون شك - عنه كثيراً من أعمال الشرور والآثام ، وتستطيعون الآن أن تحكموا إذا كان ذلك حقاً أو باطلاً !

وعندما وصل إلى مدينة ڤنستانز دوّت فى أذنيه صيحات الفلاحين البسطاء : « حقاً ستعود من هذه المحاكمة مجللاً بأردية الشرف » .

ومكث بضعة أيام ينتظر اجتماع المجلس ، وهو فى أماكن مريحة ، لأن الإمبراطور لم يكن قد وصل بعد ، وأراد أن يخرج إلى الشارع ليعظ الناس - ولكنه تلقى أمراً صارماً أن يظل فى مكانه ، وطبقاً لحرمانه من الكنيسة لابد أن يكف عن مخاطبة الشعب ، وألّا يقرأ قداساً ، ومنع حتى من حضور الكنيسة إلا إذا كان مُتخفّياً فى ملابس رجل الشارع . ولكن عندما يحضر الإمبراطور ستكون لديه الفرصة ليدافع عن نفسه بحرية تامة » .

وبعد ليال قليلة كان جالساً على مائدة العشاء مع أحد النّبلاء الحراس له ،- وهو لورد كلوم « The Lord of Clum - وإذا بنائب رئيس القسس فى « أوجسبرج » وعمدة المدينة يطلبانه ، وقالا : إن البابا وبعض رفاقه من الكردينالات قد اجتمعوا لمحادثة غير رسمية ، وسيكونون مسرورين باستماعهم إلى « ماجستر هس » ليشرح لهم وجهة نظره الدينية أو يُقدم خلاصة لها ، فى لقاء غير رسمى كما يتحدث الصديق إلى أصدقائه : فهل يتفضل بترك المائدة ويترك الصديق ويتبعهم ؟ .

إن الإمبراطور لما يصل بعد إلى المدينة والمجلس لما يُدْعَ بعدُ إلى الاجتماع .

وقال هس : إننى لم أشعر فى حياتى بأى رغبة فى أن أبرر أعمالى أمام مستمعين خاصين ، وقد جئت هنا لأتكلم فى محاكمة مفتوحة عامة ،

طبقاً لطبيعتى التى تجعلنى أثق دائماً بأن الله لن يتخلى عنى ... وعلى الرغم من هذا سأتبعكم :

وذهب إلى من سيستمعون إليه ، وما كاد يصل حتى قبض عليه وزج به فى السجن !

وعندما علم لورد « كلوم » أن صاحبه قد دبرت خيانة ضده ، وأنه سجن ، ثار ثائره ، وانفجر فى حجرة المجلس صارخاً مهدداً بينما كان الكاردينالات لا يزالون فى الجلسة ، وأخرج سيفه ورفعه بيده طالباً استرجاعاً سريعاً لسلامة الأمر الذى تسلمه هس من الإمبراطور وصاح فيهم هائجاً : بأى حق جرؤتم على كسر الأمر الإمبراطورى ؟.

ولم يزد الكردينالات على أن نظروا إليه باستخفاف وأن ابتسموا ، وفى حركة يائسة أسرع اللورد « كلوم » إلى الشارع ليجمع الناس وليحدثهم عن هذه الخيانة لكن الشوارع كانت خالية من أى شخص ، ولم يأت أى أحد ليستمع إليه .

وسريعاً بعد ظهر هذا اليوم تهامس الكردينالات بقصة لفقوها للتأثير على الشعب ، قالوا : إن جون هس خوفاً من وقوفه للمحاكمة على هرطقته وكفره أخفى نفسه فى عربة من العربات التى يجرها الثيران وانسحب بعيداً أثناء الليل ، وأن البحث جار عنه ، ونتيجة لهذه القصة هدأ الشعب وترك حماسه حول قضية « هس » .

إنه الصنم الذى عبدوه ، وقد تبينوا الآن أنه ليس لديه فقط أقدام من الطين بل لديه أيضاً قلب من التراب .

وذهب اللورد إلى بيته فحل سيفه وأدرج نفسه متعباً فى فراشه ولكنه لم يصدق قصة الكرادلة ، ولم يترك الجهاد لإنقاذ صديقه ، ففى صباح اليوم

التالى كتب رسالة إلى الإمبراطور ، وكان قد وصل إلى ڤنستانز ثم كتب أيضاً إلى الملك وإلى الملكة فى بوهيميا ، وظل لمدة يومين يذرع شوارع المدينة ذهاباً وإياباً عارضاً الوثيقة الممهورة بتوقيع الإمبراطور التى تضمن لهس السلامة والأمان . وكتب عدداً من الرسائل إلى سكان المدينة والمعروفين فيها مطالباً الإمبراطور سيجسموند أن يحفظ كلمة الإمبراطورية .

ولكن الإمبراطور كان قد سقط نهائياً تحت تأثير الكرادلة ، كل طلب أو رجاء قدم إليه كان يبوء بالفشل ، كانوا يطلبون إليه أن يحفظ كلمته ويفى بوعده ، وكان بكل بساطة يهز كتفيه ويقُول : « جون هس » هرطوقى كافر ، ثم أعلن أن الإمبراطور لا يستطيع بعد أن يحمى رجلاً به كل هذه الوقاحة ، وقد حملته وقاحته أن يكتب » إن أوامر البابوات ، والأباطرة والملوك ، والبرنسين وغيرهم من ذوى الشخصيات العليا لا تُطاع إلّا إذا كانت قائمة على أدلة وأسباب » – وكان هذا يعنى من قبل الإمبراطور ، أن مرسومه لا يمثل إلّا الرمى النهائى لكل الأوامر والتعليمات التى تصدرها السلطة ، وأنه لن يحمى هس ولا يقدم له أى ضمان ، وماذا كان يحدث لو أنه أصدر مرسوماً بحمايته ؟. إنه لا ينفذ لأنه وعْدٌ أُبرِمَ لهرطوقى ، والهراطقة لا حماية لهم .

وكتب لورد كلوم لأصحابه فى بوهيميا متهكماً ساخراً : « بين هؤلاء القديسين قد يظهر صديقنا هس فى صورة شيطان !

ورأى الكرادلة أنه ليس من الحكمة أن يبقى هس فى سجن المدينة ، فهو قريب من الشعب ، وقد يكتسب قلوب الناس مرة ثانية ، ولهذا نقلوه سراً إلى دير الدومينكان . على شاطىء البحيرة فى كونستانس . وهناك نقلوه من الدير أيضاً إلى مخزن رطب مشبع برطوبة الماء وبه الأمراض والأوبئة . ولذا الهبت الحمى جسده ، وعندما عُرف أنه قريب من الموت ، أرسل

القسس اثنين منهم إليه ، فقالوا له : إن الوقت المحدد لمحاكمته قد حان ، وأنه يجب أن يُعِدَّ نفسه للدفاع عن نفسه ! ونظر السجين المسكين إليهما من فراشه – وهو شيء من القش القذر – نظرة باهتة ، فقد كانت عيناه حمراوين من أثر الحمى ، وجسمه قد ضعف وذوى : ثم قال لهم : أنتم ترون الحالة التى أنا بها أيها الآباء المحترمون ! احكموا أنتم هل أنا فى هذه الحالة أستطيع أن أدافع عن نفسى ؟ ولكن بقوة الله القدير أنا مستعد أن أمثل للمحاكمة إذا أنتم ضمنتم لى دفاعاً !.

ورجع المندوبان إلى المجلس فنقلا إليه رجاء السجين ، وكان من المقرر لديهم أن هذا السجين لا يمكن أن يعطى فرصة للدفاع عن نفسه ، لأنه هرطوق ، والمناقشة والكلام مع الهرطوقيين ممنوعة نهائياً . ولكنهم نقلوه إلى سجن أنظف ، وبعثوا إليه بطبيب ليعمل له ما يحفظ حياته حتى يصدر الحكم عليه ، إن العدالة لابد أن تراعى قبْلَ أن يغتَال الموت فريسته .

ولابد أن نلاحظ أن هذا الحقد ليس من مبادىء الكنيسة ولا من بذورها ، ولكنه من الطفيليات التى تنبت فى الصدور ، وهو من عمل الذين أساءوا تمثيلها ، حتى هس نفسه – عندما كان طريح الأرض فى سجنه – برّأ العقيدة الكاثوليكية من هذا ومن جميع المسئوليات عن تعذيبه وشكاواه ، وقد كتب : « هذا التعذيب الذى يصبه علىّ هؤلاء القساة دليل وبرهان على أنهم لا يستحقون هذه العقيدة » .

* * *

أصر هس على موقفه ، ولم يفقد أمله ، وقال لأصدقائه الذين جاءوا لمواساته : إن الله منحنى الحق وقضى أننى أكون مُدَّخَراً لوطنى من غير أى خدش أو جرح لضميرى . ولكن بمرور الزمن وقرب محاكمته كتب إلى

حواريه – حين سمح حارسه أن يمده بما يكتب به : « صلوا من أجلى يا إخوتى البوهيميين الأعزاء ، إننى أعانى ما أعانى من أجل كلمة الله » .

وأخيراً نقل من حجرته المظلمة إلى بعض الأماكن المضيئة فى فصل الربيع . ووضع فى خيمة منعشة فى الأطراف ، حيث هيء له شيء من الراحة الزائفة من عمل مجلس الكرادلة . وكان إذن مستعداً أن يتكلم .

وأعشى الضوء عينيه فقد أَلِفَتَا ظلام الليل والنهار .

ووقف أمامه ثلاثة من البوهيميين يمثلون اتِّهامه ، ثلاثة كانوا جيرانه وكانوا أصدقاءه المخلصين وكانوا من الرفاق المبشرين بأفكاره ، ولكن المال اشترى ضمائرهم ، وذوو المكانات العليا أوعزوا إليهم . وقد أخلصوا له فيما سبق ، ولكنهم الآن يقفون أمامه مستعدين لأن يكونوا أدلة عليه ، وأن يعيدوا كلماته الحقيقية التى قالها لهم ، وهى برهان قوى يثبت هرطقته .

وفى هذا المشهد العام لهذه القسوة الواضحة لم تتوفر أدلة قاطعة على أنه حاول تكفير هؤلاء الثلاثة الأصدقاء .

قرأ الدكاترة المدعون تهمته ، وهى أنه علم الشعب البوهيمى كثيراً من الأخطاء والآثام التى نسخها من كتب جون ويكلف التى حرقت وحكم بإزالتها وتحريمها . وزيادة على ذلك أنه حين كان أستاذاً فى جامعة براج ، قاد حركة تدعو إلى فَصْل الجامعة من الإدارة الألمانية نهائياً وجعلها جامعة بوهيمية وطنية . وأخيراً حوَّل الشعب الزيخى وأثاره ضد حكامه وسادته ، لقد أقام ثورة مدنية فى بوهيميا .

ونظر هس إلى متهميه مبتسماً وقال : أيها الآباء المحترمون ، لم تكن ثورة مدنية تلك الوصايا التى أوصيت بها ، ولكنها تجديد روحى ، مجرد دعوة من عبادة الجماهير الساذجة إلى الحق الذى يمليه ضمير الفرد ، ثم أضاف

فى شيء من الهدوء والوقار : أرونى أى شيء أفضل أو أكثر قداسة من المبادىء التى علمتُها ، ثم إننى إذن على أتم استعداد لأتراجع .

– لقد أنكرت سلطتنا نهائياً ، فبأى سلطة إذن أنت تُعلِّم قوانين الله ؟.

– بسلطة ضميرى !

– ولكن مائة من المثقفين الكبار يقولون إن تعاليمك ووصاياك غير صحيحة ! فهل تنكر حقهم فى تصحيح ما تقول ؟ هل تجرؤ أن تقول إنك وحدك أعقل وأحكم من مجلس الكنيسة كله ؟

وكانت حلقة من الأسنة قد أحاطت به . ونهض الحشد ينظر إليه باحتقار وغضب .

وأجاب هو ببساطة :

– ليس الأمر بكثرة العدد وإنى أركن إلى الله وإلى ضميرى ، إذا كنتم حقاً أكثر عدداً مما أنتم ، فإننى سأحترم ضميرى وأركن إلى شهادته أكثر وأكثر .

كان يصيح بصوت مرتفع ، وانقلب الجمع الذى يستمع إلى جمع ساخر ساخط . وتقدم الحراس فقادوه ثانياً إلى زنزانته .

وزاره بعض حوارييه ليلاً ، فحدثهم عن رؤيا رآها : لقد رأيت فى نومى أنهم حطموا كل ممثلى الكنيسة فى بيت لحم ، ولكن فى صباح اليوم التالى عندما قمت رأيت عدداً من رجال الطلاء الرسامين يرسمون رسوماً أدق ، وصوراً أكثر بهاء وروعة . وقال الطَّلَّاءُونَ للجموع التى حولهم : دعوا كبار رجال الكنيسة والقسس يأتون الآن ، ودعوهم يحطمون هذه التصميمات . وفى نهاية الحلم كنت ضَاحكاً . كنتِ ضَاحكاً !!.

قال ذلك والدموع تترقرق فى عينيه وتلمع فى ضوء الصباح .

فى اليوم التالى قادوه ثانياً إلى قاعة المجلس . كان الإمبراطور هناك . وأومأ إلى هس وقال له وصوته تمتزج فيه الرحمة والازدراء :– جون هس ، إنى سأقدم لك هذه النصيحة الأخوية ، اخضع لرأى المجلس اعترف بخطيئتك وإثم تعليمك . وسأنظر إلى مسألتك وأعتبر أنك طردت لسبب يمكن أن تكفر عنه . أما إذا رفضت هذا الإقرار فإن آباء الكنيسة سيعرفون كيف يعاملونك .

واستمع المعلم المتهم لهذا الكلام فى صمت . وبسرعة جداً اندفع أمام الجمع رجل مهيب واقترب من هَس ، وانحنى على الأرض وقال له : أيها السيد ، ضَحِّ بحياتك قبل أن تفارق الحقيقة إلى الأبد ، وكان هذا الرجل هو لورد كلون ، ذلك الفارس الذى أحضره إلى قنستانز ، والذى عمل مع يأسه على استخلاصه ، ورفع المعلم عينيه فى صمت وابتسم ، ونظر باحترام إلى ملامح الإمبراطور الباهتة ووجهه الشاحب ، ثم استدار فى هدوء إلى الوراء ليواجه الجموع وأشار إلى أنه يرغب أن يقاد من جديد إلى سجنه ، فقادوه إليه !

وجاء إليه فى سجنه عدد كبير منهم . استحثوه . ورجوه ، وهددوه ونصحوه أن يرجع عن رأيه ووعدوه بالثراء الكثير البالغ ، والعفو عن كل ما قال أو عمل ، وبوظيفة عالية فى الكنيسة ، وأرْوَاب ثمينة ... إذا كتب لأتباعه . وهم عدد كبير – أنه كان يدرس خطأً وضلالاً ، وأنه مقدم الآن على تصحيح أخطائه . ثم رسموا له عدداً من صور الاعترافات ، وحاولوا عدداً من الصيغ الكلامية ، لكل ذلك ليصوغوا عبارات لا تمس كبرياءه . ولا تضر بسمعته ، ولكنه قابل ذلك كله بابتسامة كابتسام الوالد أمام أطفاله السذج ، وهم ينحنون على عمل من أعمال الشعوذة ، أو يرتبون حروف الهجاء ، وهم يعتقدون أنهم يرتبون الحقائق ويضحون فى سبيلها بأنفسهم ، هؤلاء أيضاً يقلبون الحقيقة وهم يعتقدون أنهم يصححونها « يا أبى الذى فى

السماء ، سامح هؤلاء فإنهم لايعرفون ماذا يعملون » .

ونظر إلى الكلمات التى رتبوها ليوقع عليها واستحثوه أن يقبلها ملحقات باسمه « أنه لم يكن يحارب ضد الكنيسة . ولا من أجل أن تضع تصحيحات فنية فى شرح النصوص بل من أجل عنصر عظم يستحق أن يضحى الشهداء من أجله بحياتهم ،- وهو حرية العبادة . حرية التسامح الدينى ، هناك رجال عاشوا مستحقى الحياة لا لشىء ، إلا لأنهم قد يموتون وهم مستحقو الموت ، ليس الموت إلّا ثمناً زهيداً يدفع لأجل هذه الوصية الجديدة فى قلبه .

وقال هو فى نفسه : « إنكم لن تستطيعوا أن تمنعوا أى شخص من أن يُفسر تعاليم الله بطريقته الخاصة » .

وعندما وقف ليتلقى الحكم عليه من المجلس ، نظر إلى مجموعة من الرجال كانوا قد وقفوا قريباً منه ، لا يفصلهم عنه فقط بضعة أقدام ، بل تفصلهم مسافة واسعة من القرون . حقاً ، كان يبدو أنهم يعيشون ويتجادلون ويعملون فى هذه الدنيا ، وكلهم يختلفون عنه وعن طريقته . كانت أذنه الخارجية – أُذنُ اللحم والدم هى التى سمعتهم ينطقون بالحكم عليه ، أما قلبه فكان وراء ذلك .

نزعوا ثيابه الخارجية ، حلقوا رأسه بطريقة ترسم عليه الصليب ، وألبسوه طاقية من الورق زينت بصورة ثلاثة شياطين . وأحس نفسه يهمس بكلمات من وراء إدراكه : لقد كان تاج الشوك . الذى ألبسوه المسيح . أثقل حملاً وأكثر إيلاماً » ثم إلى فترة من الزمن كان يتيه فى عالم غير حقيقى من هذا الوجود . لقد قادوه إلى وتد خشبي ، وشدوه إليه بسلسلة حديد ثقيلة ثم جمعوا حوله كومة كبيرة من الخشب والوقود ... وكانت هذه نهاية

مطافه .

لقد مد السلاسل التى تحيط به إلى نهاية مصيرهم .

وجثا على ركبتيه وصلى بينما كان اللهب قد وصل إلى قلبه .

* * *

□ مارتن لوثر □

Martien Luther

١٥٤٦ - ١٤٨٣

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى أيسلين من سكسونيا ١٤٨٣

دخل جامعة رفيرت ١٥٠١

حصل على الشهادة الجامعية « م ١٠ » ١٥٠٥

دخل الدير الأوغسطسى فى إيرفورت ١٥٠٥

نصب قسيساً ١٥٠٧

عين أستاذاً للفلسفة فى جامعة وتنبرج ١٥٠٨

قام برحلة إلى روما ١٥١٠

نشر ٥٩ بحثاً ضد عقيدة الكاثوليك ١٥١٧

عقد مناظرته المشهورة مع «إك» ١٥١٩

صدر قرار حرمانه من الكنيسة ١٥٢٠

أحرقت كتبه ١٥٢٠

ذهب للمحاكمة فى « וורמס » ١٥٢١

هرب إلى ورنبرج ، وترجم العهد الجديد إلى اللغة الجرمانية ١٥٢١

تزوج من كاترين فون بورا ١٥٢٥

أعد صلاة كنسة جديدة ١٥٢٩

ترجم العهد القديم إلى الألمانية ١٥٣٢

توفى سنة ١٥٤٦ فى آيزلبن

* * *

كان الفلاحون فى ذلك الوقت يلبسون دروعاً كالملوك ، ولكنها كانت دروعاً رخيصة يصنعها لهم الحدادون ، أوصناع تخصصوا لها لديهم معادن تصلح لذلك ، وكان والد مارتن لوثر عامل منجم فى إقليم تورنجيا ، وقد وضع على منزله المتواضع شعاراً كان يتخذه الناس فى العصور الوسطى ، وهذا الشعار مطرقة ثقيلة موضوعة فوق قطعة من الجرانيت ، وهو رمز للإله ثور الذى كان يعبد فى العصور الوسطى فى الغابة الألمانية ، وهو إله البرق والرعد ، وكذلك فعل مستخرج المعادن الفقير فرفع هذا الشعار فوق بيته أو كوخه .

فى هذا المنزل المتواضع ولد سيجفريد جديد[1] .

وسمى الوليد مارتن .

والرمز الذى كان على البيت يعنى أنه عندما تدق المطرقة على الصخرة بعنف ينفجر البرق والرعد ، وكان مولد مارتن لوثر إيذاناً بانبثاق نور فى حياة قومه .

كان القوم يعيشون فى غابة مظلمة ، وكانت حياتهم – حياة العصور الوسطى – أيضاً غابة مظلمة ، وكانت تترقب العاصفة التى تغير حياتها .

قضى مارتن لوثر أيام طفولته محروماً من أى جمال أو بهجة أو حب ،

---

(١) سيجفريد كلمة تعنى انتصار السلام ، وهى من سيج بمعنى انتصار ، وفريد أو فريدو بمعنى السلام ، والاسم يطلق على شخص أسطورى يعارض عند الألمان أخيُل اليونانى وقد غمسته أمه فى نهر الحياة ، فكان جسمه لا يتأثر بالرماح ، عدا نقطة فى ظهره تشبه رجل أخيل الذى أمسكت أمه بكعبه حين غمسته فى معمودية الحياة ، فكان كعبه الذى لم يمسه الماء هو نقطة الضعف فيه ، كذلك سيجفريد لصقت ورقة توت على ظهره فأصاب ماء الحياة جسمه كله عدا هذه النقطة ، فكانت هى التى قتل منها ، والمؤلف هنايعنى أنه فى هذا الكوخ ولد داعية للسلام أو شخص انتصر السلام على يديه .

لم يكن لدى والده وقت للعواطف الرقيقة فكان طوال يومه مشغولاً باستخراج المعادن فى منجمه ، أما أمه فكانت أيضاً مشغولة ، وقليلاً ما ترى ضوء الشمس . فهى طول النهار مشغولة بالآنية وأدوات المنزل ، وقد حدث أن سرق الطفل بندقة[1] ، فضربته أمه حتى سال الدم من جسمه ، وبهذا عاش الطفل فى غابة حقيرة ، وفى غاية الجهل والخرافات الكبيرة ، ولم يستطع أن يجد طريقه خارج أى منهما .

والحق أنه طوال خمسة عشر قرناً لم يستطع أحد أن يجد طريقاً للخروج من هذه الغابة . وقد كانت مليئة بالظلمات والخرافات والمخاوف . وحمل مارتن مخاوفه التى لصقت به ولا تفارقه فوق ظهره ، ولم يستطع أن يقاوم شيئاً من هذه الوساوس لأن أحداً لم يُرِهِ هذا الطريق ، وربما وجدت فى هذه الحياة المظلمة ظلال باهتة ، وقد اتخذ مارتن هذه الظلال على أنها هى الحقائق أو الأشجار ، وكان عندما يَسألُ عن شىء مما يختمر فى ذهنه لا يجد جواباً ، لأن النساء كنّ يشغلن عنه بأعمالهن ويخوفنه من الشياطين ، وكل شىء حوله أو حولهن إنْ هو إلّا ظلال الشياطين ، حتى الخروج من منزله كان رهيباً . فكل شجرة فى الغابة تمثل شيطاناً يقبض على الصغار الذين يبعدون عن مساكنهم ، وكانت أمه تحدثه بأحاديث خرافية يدق لها قلبه خوفاً . ثم ترسله إلى خارج البيت ليغنِّى عند الجيران وينالَ بغنائه قوته .

حياة قاسية رهيبة ، لكن حياة القرون الوسطى كانت هكذا حبيسة فى أكواخ داخل الغابات يترقبون من يطرد الشياطين من الغابات كى يأمنوا على أنفسهم إذا خرجوا .

واستطاع مارتن على أى حال أن يغنى وأن يكتسب من وراء غنائه

---

(١) فاكهة النقل المعروفة .

مالاً قليلاً . وفى مدرسة القرية حصل على شيء من اللاتينية ، ثم دخل الجامعة فى « إيزناخ » فدرس القانون ، ولكنه لم يشعر إلا بقليل من السعادة ، وقد حصل من هذه الدراسة على إجابات لبعض الأسئلة التى كانت تجول بفكره ، لقد وصل إلى الموازنة والعدالة فيما بين بعض الناس وبعض ، ولكنه للآن لم يصل إلى معرفة العلاقة بين الناس وبين الله ، ومرة كان يمشى فى الغابة مع بعض أصدقائه ، وفجأة خَرَّ صاحبه على الأرض صريعاً ميتاً ، لأن صاعقة برقية أصابته ، وكان يتحدث إليه فلم يكمل الجملة التى يتكلمها ، وأزعج لوثر وبرزت فى ذهنه فى الحال تلك الأقاصيص التى حدثه بها عجائز النساء فى طفولته ولكنه لجأ إلى دراساته ، درس جديد لابد من تعلمه وسر جديد لابد أن يفسر بين ممارسة القانون ومشاكل الدين . من ثم لجأ إلى دراسة المقدسات ودخل دير أوغسطين فى إيرفورث .

* * *

قضى عشرين عاماً فى الدير وهو بين رفاقه كالدليل المرشد ، كان كأضواء المنار فى أرجاء الدير ، كان رجلاً لكل عمل ، وكان حقاً يعمل كل شيء ، فهو يغسل الحجرات وينظفها ، ويفتح أبواب الكنيسة لصلاة الصباح وصلاة المساء ، ويدق الساعة للوقت المطلوب ، ويغسل النوافذ ، ويجمع الصدقات للدير وهكذا ومع هذا الجدّ والإخلاص ظل يشعر أنه غير سعيد . لأن روحه لم تجد السلام الذى تنشده .

وفى أحد الأيام عجز عن القيام والخروج من حجرته ، ودهش رفاقه لتأخره فذهبوا إليه ودقوا عليه الباب ولكن لا إجابة ، واضطروا إلى كسر الباب ودخلوا عليه فإذ هو ملقى على الأرض ، وكان يبدو أنه قريب من موته . ورأى أحد الأصدقاء قيثارته التى كان مغرماً بالضرب عليها ملقاه على

الأرض قريباً منه فتناولها ، وأخذ والدموع تملأ عينيه يعزف لحناً من الألحان التى كان لوثر قد ألفها بنفسه ، وحينئذ بدأ لوثر يستفيق . وتدريجياً رجع إلى الحياة .

ولكنه لم يكن سعيداً .

ومرة فى ساعة من ساعات الليل الصامتة الرهيبة ، أخذ طريقه إلى مخدع الدكتور ستوبتس – Stopets وهو الرئيس الدينى العام للدير و اعترف أمامه بأنه راهب لا عقيدة له فى محبة الله وأنه يعرف فقط إله الغضب وإله الانتقام ، ولا يعرف إله الحب وقال إن الإله يقف منا موقف المخيف الرهيب ! من الذى يستطيع أن يصلى له وهو ينشر الفزع والرعب فيما حوله .

وأجاب القسيس الكبير فى أناة وصبر : يا بنى ، تعلَّم أن تعمل بحكم أدق وأجْوَدَ تجاه الله » إذا هو لم يفعل مثل ذلك كيف إذن يقهر الأقوياء المعاندين والذين يصممون على ما يريدون ؟ إنه لابد أن يراقب الأشجار الطويلة حتى لا تخْترق السماء .

استمع مارتن إلى هذا وخاف أن يكون قد خرج عن المسيحية ، لأنه لا عقيدة له فى كلام الإله الأعلى . ليست المسألة بسيطة إلى هذا الحد ، لابد من تفكير أعمق .

وفى سنة ١٥١٠ م أرسل إلى روما برسالة تخص الدير . وهنا كان محطم الأصنام يقف وجهاً لوجه أمام الأصنام – أصنام الكنيسة فى روما . لم ير فى الكنيسة إلا زانية فاجرة قد أزينت لتبيع جمالها وفتنتها لأمهر دلال ، إن هذه القداسة لم تخلع على ما يليق بها ، إن الكنيسة مقر للصلاة والصيام ولكنها ليست مقراً للعقيدة . وشعر بصدمة عنيفة تهزه ، لقد جاء إلى أعظم مركز مسيحى ، ولكنه ، وآسفاه . لم يجد مسيحية به .

ورجع إلى ألمانيا . ولكن سرّعان ما جاءه تعيين بالأستاذية فى جامعه وتنبرج ، وشعر بارتياح لهذه الوظيفة لأنها أحلته من قيود الدير البالغة الشدة ، ولأنه سيجد فى هذه الوظيفة وقتاً كافياً للتفكير . وقرر أن أفكاره كانت مركزة على نفسه وأنه كان لديه من الأنانية مالا يليق بعابد مسيحى ، إنه لم يأبه بما حوله من حياة الناس ولم يفكر فى تغيير نظام الحياة من حوله . كان حقاً صلباً فى تفكيره . ولكن كان همه محصوراً فى تخليص نفسه ، إنه رجل ذكى حقاً ، وهو تلميذ الحياة ، درسها وفهمها ، وقد انتهت به دراسته إلى نتيجة آمن بها ، وهى أن الإنسان لا يكون مسيحياً بميلاده ، ولكن بالتحول إلى المسيحية ، ورغب حينئذ أن يرتد إلى المسيحية ، ولكن كيف يرتد إليها وهو يدين بها ؟ إنه يرتد إلى دين المسيح ، إلى حقيقة المسيحية ، لا أن يكون مقلداً يكرر أفكاراً تلقاها من آبائه أو من القسس ، هذه فيما قرر هى أصالة الأغبياء ، جهدهم أن يحافظوا على حرفية النصوص ، ولا يعرفون أنه يجب أن تكون للشخص ذاتيته الدينية التى يقف حياته عليها ، وهذا ما جعل هؤلاء المفكرين معارضين دائما للنظم السائدة فى أيامهم ، وما جعل الناس يسمونهم المخربين . وإذن فقد ظهر الآن فى جامعة وتنبرج نبىٌ له احترامه وتقديره ، ولكن بعض السياح المتجولين تصدى له وتحداه حتى اهتز العالم لهما .

كيف حدث هذا ؟

كان مندوبو البابا يطوفون خلال المملكة المسيحية ليجمعوا باسم البابا ذخيرة من المال لإصلاح كنيسة القديس بطرس .. وبهذا المال الذى يدفعه الناس يشترون صكوك الغفران وهذه تضمن لهم مسامحة الله ورحمته ، وبها ينالون القوة التى تعبر بهم من الأعراف إلى الجنة .

وذهب أحد هؤلاء الطوافين مندوبى البابا إلى جامعة وتنبرج . وتقدم إلى مكتب الرئيس لكى يشرح قواعد هذه الرحلة السموية في الدار الآخرة ، وكيف ينجو الناس من الجحيم أو الأعراف إلى الجنة . وأحس لوثر فى الحال أن هذا واجبه الأول . وواجبه الوحيد هو أن يحذر الناس من هذه الأضاليل ، وأن ينقذهم من الانقياد إلى هذه الحماقة ، وذهب يعلن مذهبه :

إننى أعلن أولاً فى هدوء ولطف أن هذه الصكوك التى يشتريها الناس فى هذه الدنيا لن تنجى أرواحهم فى الآخرة . وعليهم للحصول على هذا الخلاص أن يتوبوا ويصلحوا ما بينهم وبين الله ، وإنِّى أعلن أن كل روح تندم على سيئاتها ستنجو بدون صكوك غفران ، وإنى أؤكد للناس جميعاً أنه لا توجد قوة بابوية ، فى هذه الدنيا تستطيع أن تؤكد خلاص الإنسان فى الآخرة .

ثم ذهب إلى كنيسة وتنبرج فسمّر على بابها (٩٥) خمسة وتسعين بحثاً تؤيد ما دعا إليه وتصد عن إجابة مندوبى البابا .

والآن فيما رأى — اهتدَى إلى جواب الحيرة التى كانت تثير مشاعره وتعتلج فى صدره . إن المسيحية لابد أن تصلح بعقيدة جديدة — عقيدة تنبت وتنبعث بالاستغفار والتوبة النابعة من القلب وليس بصحائف الكنيسة وكتبها المقدسة . وبإعلان هذه المبادىء أثار الأستاذ الجامعى فى مدينة وتنبرج الصغيرة ثائرة العالم كله ، وأقام ثورة كان لها ما وراءها .

* * *

دهش العالم المسيحى كله لهذا الإعلان وبدأ الناس يتصايحون : بأى وجه أو بأى حق يحاول هذا الرجل العديم الأصل محدث النعمة أن يزعزع أركان كنيسة استقرت منذ خمسة عشر قرناً وعرفت كيف تدير شئونها ،

أى وقاحة سكسونية يبديها هذا الرجل ؟ لابد أن رأسه قد دار من كثرة ما شرب ، وكتب رجال الحكم فى المدينة رسالة سريعة أو عدة رسائل إلى قداسة الإمبراطور الرومانى « تشارلس » لينظر فى هذه المسألة التى نشأت من إهمال الكنيسة .

وسرعان ما صدر القرار الإمبراطورى بأنه شاب خطر ذو مزاج غير معتدل وكان المألوف المتبع أن يحاكم الشخص الخارج على الكنيسة فى صمت ومكان لا يحضره إلّا رجال الإكليروس أو أن يعاقب جهاراً ولكن ظهر بعض أشخاص من الأغنياء يناصرونه . وظهر أنه عثر على بعض الأدلة التى تؤيد فكرته ولذا انتشرت الفكرة ، وشاعت فى الناس كالأخطبوط ذى الرءوس الثمانية أو كالحيوان الخرافى ذى الرءوس العديدة التى تبلغ الآلاف – وهذا عجيب فى هذه البقعه ، لا يكاد يقضى على مسألة هرطوقية واحدة ، حتى تظهر مسألتان فى مكانها ، ماذا عسى أن يمكن عمله مع هذا السكسونى الذى ركب الشيطان رأسه .

وأرسلوا إليه كلمة أنه ليس معتبراً من الرعايا الرومانين . وعليه على أقل تقدير أن يلتزم الصمت ، إنه لا يملك أى حق فى أن يقهر العالم كله ليقتنع بفكرته الغبية . وقالوا إنهم لايشكون فى أن أعمالاً من الفساد تزاول بكثرة فيما حوله ، ولكن أى جماعة سلمت من هذا ، وأى جماعة تتمتع بشرف خالص ؟ ألأنّ بعض الأشخاص الكنسيين كان بهم بعض النقص يوجد سبب لقلب الدستور الذى قام عليه العالم منذ أكثر من خمسة عشر قرناً ؟ هذا الدستور الذى حمى أوروبا وأنشأ لها وحدة دينية كل هذه المدة ؟! يوجد فقط بعض أشخاص من الأغبياء المأفونين يظنون أنهم وحدهم يعرفون ما هو الجيد الحسن للإنسانية ، وما هم إلا مخدوعون إنهم يفترضون أنهم يحملون مسئولية الجنس البشرى كله منذ شبابهم حتى يصلوا إلى سِنٍّ

الخمسين ، ثم يشعرون بالشكر العميق الكثير إذا هم نجحوا فى التحكم فى شئونهم الخاصة .

كانت هذه – وأمثالها هى الأفكار التى تراودهم والروح التى حاولوا أن يعاملوا بها مارتن لوثر ، والتى حددوا بها فكره وطريقته حسبما أملى عليهم موقفهم . ثم كانت مناظراتهم على هذه الشاكلة .

– هل تظن – يا مارتن – أن أميراً سيرفع سلاحاً للدفاع عنك ؟– طبعاً لا أحد ! ولكن إذا أصررت على إثارة هذا الشغب ففى أى مكان ستعيش سالماً ؟

– أعيش تحت السماء ، وأحصل على قوتى من نشر هذه البحوث :

كان الشعب الألمانى قد بدأ يستفيق من سكر الخدائع التى خدعه بها القسس ، ومن هذا الهرج الذى أثير هنا وهناك . وأقبل بقوة ونشاط على هذه النشرات التى أخرجها مارتن ، حتى إنهم عرَّضوا أنفسهم لعقوبات غير قانونية ، وكانت نشراته تنْساب باستمرار فى أسلوب جدلى يحتقر كل ما صدر عن الكنيسة .

واهتز رجال الكنيسة لهذا الموقف وروعتهم كلمات لوثر الخارجة عن قانونهم ، إنه رجل يقامر بحياته ، وفزعت ألمانيا كلها متجهة إلى روما ، الأمراء والنبلاء والنواب وكبار الدولة كانوا جميعاً منساقين مع موجة عارمة من الشعور الوطنى ، ففى نورمبرج واستراسبورج ومانْيس كان يوجد نضال مستمر لأجل منشوراته ولو لأدنى شىء يكتبه ، ومع أن منشوراته كانت محرَّمة ومقاطعة ، كانت تخرج فى خفاء ثم تمر من شخص لآخر ، ومن مكتبة لأخرى . وكانت الطلبات توجه إليه لإلقاء المحاضرات فى جميع المقاطعات الألمانية وكان الطلبة المسلحون يحمون عربته أثناء تنقلاته من بلد إلى آخر .

وحينئذ أصدر البابا حكمه القاطع ضده ، إذ أعلن أن مارتن لوثر مطرود نهائياً من الكنيسة .

لم يشعر لوثر بأى كراهة لأى أحد ، ولكنه كان يشعر بالفراغ العظيم !

عندما هبط رئيس الملائكة من السماء لم يشعر كما شعر هو بهذا الفراغ لم يشعر بفراغ فى هذا الفضاء البعيد الذى قطعه هابطاً من الجنة العليا .

أى جرأة فى هذا الرجل الذى لا يخاف ولا يرهب ، وهو يرى نفسه وحيداً ويدعى القوة البالغة فى هذه الدنيا وسوف يقبل العالم تحديه ثم يقهره قهراً أن يعود إلى الحق أو أن يكون بحق وحيداً فى العقوبة التى يلقاها !

وكان هو يقابل كل ذلك بالاستهانة والشكوك .

كم كلفنى موقفى من الآلام بالرغم أن معى الكتاب المقدس فى جانبى يعضد ما أقول ؟ هذا ما يمنحنى الجرأة أن أقف ضد البابا وجهاً لوجه ! كم من مرة تحاشيت أن أسائل نفسى . مع الشعور بالمرارة — هذا السؤال نفسه . هل أنا الوحيد العاقل بين هذا العالم ؟ هل يستطيع كل شخص آخر أن يكون فى مثل موقفى . ولِمَ لَمْ تفعل ذلك الأجيال الماضية ؟ وماذا عسى أن يكون الأمر إذا تبين بعد هذا كله أننى مخطىء ؟ .

أما من جانب الذين طردوه من الكنيسة ، فهم علماء أصيلون فى الكنيسة ، ذوو عَدلٍ ، وُجَهَاءُ ، لهم مناصب عالية ، لديهم قوة ولهم قداسة وذوو خوارق ... وفى الجانب الآخر يوجد قبول ومصادقة من أجيال عديدة مضت ، ويوجد نبلاء من الشهداء أكاديميون ، لهم مجالس ،. وقسس كبار وأحبار ، ... يوجد أمثال ويكلف ولورتز ، وفَلاّ.. وبعد كل هذا لوثر مخلوق فقير ، ورجل حديث ، شخص وحيد مع قلة من الأصدقاء .

إنه معزول من الكنيسة . إنه آت من قوم ذوى خشونة وصلابة قد أمضوا قروناً عديدة يحرثون الأرض فى أعماق المناجم – إنهم أيضاً مطرودون من تحت الشمس . إنهم خلقوا ليعملوا لا ليفكروا .

دع قرار الطرد من الكنيسة يمضى إلى الجحيم ، أحرقه فى خياله ، ومن ثم شعر بالقوة وانفرجت شفتاه عن ابتسامة احتقار كأن شفتيه ملئتا بالأقذار .

فى هذه النار الملتهبة وجد ضياء ، إن إله النار والمعادن فولكان Vulcan . قد طرق أسلحته الرقيقة بنوره وناره ، ثم وجد مكاناً بواسطة الآلهة الأخرى .

« هل حقاً أن مارتن لوثر لم يعد بعد قسيساً ؟. » .

كان قلبه كأنه كير الحداد الذى ينفخ اللهب فينبعث من شفتيه .

كلنا قسس ، كل شخص مِنّا مع كتابه المقدس . والجزاء على الأعمال من الله وحده وفى البوتقة العظمى سوف يحمى على الظالمين .

* * *

استدعى الإمبراطور لوثر إلى مدينة « وورمس » ليحاكم على ارتكابه الكفر ، وقال له : إنى أعدك أنه لن يتخذ أى عنف أو إهانة لجسمك أو شخصك طوال المدة التى ستقيمها بها . ولكن إلى أى حد يمكن أن يوثق بوعود الأباطرة .

ومع ذلك أعد لوثر عربته وأخذ موسيقاه وأخذ يعزف طول الطريق آملاً أن تخفف الموسيقى ما كان يشعر به من آلام فى معدته ، فقد كان فى هذا الوقت يعانى آلام قرحة معدية موسمية تأتيه فى هذا الوقت من كل عام – واستراح لموسيقاه وقال إن الموسيقى كانت فنَ الأنبياء من قبل .

وظل يتنقل من مدينة لأخرى على عربته كأنه بطل من الغزاة ، واحتفى به الناس ، فأنشد الفلاحين أناشيده الدينية العذبة ، وشرب البيرة مع ممثلي الشّعب ووجهاء البلاد ، وتلقى التحيات من الأمراء ، وكل الناس الأحرار حَيَّوْا هذا الرجل الحر التّفكير المصر على عقيدته ، وظل طوال الطريق يقابل بهذه الحفاوة .

وفى صباح أحد الأيام كان يعظ فى مدينة إيرفورت ، وكانت كنيسة البلد الصغيرة قد اكتظت وازدحمت بالناس من قبل أن يصل . ولكن الآم معدته كانت قد اشتدت عليه ، وفى بلدة إيزيناخ قرر أن يرجع ليستريح فى فراشه ، ولكن آلام معدته كانت تزداد عليه إلحاحاً . وظل كذلك بضعة أيام ، ولكن رجال الإمبراطور هجموا عليه ليأخذوه ، وذهب معهم ، وسلمه بعض المعجبين به صورة الشهيد . سافونارولا . صاحب الأنشودة الشّهيرة فى العصور الوسطى فأخذ يقبلها بحماس ومحبة[1] ومر فى الطريق بأحد الفلاحين يغرس شجرة على جانب الطريق فدعا له وباركه – ولمحت عيناه الجبال العالية ، ومن ورائها أبراج المدينة ، فقال فى نفسه أى قلاع حصينة ! وانقدح الوحى فى ذهنه وهاجت أفكاره فانفجر مغنياً أناشيد التحدى ، التى تحوّلت إلى صياح معركة لإعادة التشكيل الدينى ،– الله أيضاً . قلعة حصينة – وبهذا الغناء ، أحس بهدوء الآلام فى معدته .

ودخل مدينة وورمس – فقاده الحراس من طريق خلفى ليتفادوا زحام الناس الذين كانوا قد ملأوا الطريق الرئيسى . وعلى الرغم من تحذيرات الحكومة كانت توجد أعداد هائلة عند أبواب الصالة الكبرى فى المدينة ، كل هؤلاء تجمعوا ليروا الدكتور مارتن الذى جرؤ على تحدى البابا ! .

والآن واجه الإمبراطور تشارلس وجهاً لوجه . فلما دخل عليه أبى أن يركع كما يركع الرهبان جميعاً أمامه حتى الذين قضى بطردهم من

---

(١) « سافونا رولا » جاء بعد موقعة بلاط الشهداء التى انتصر فيها شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقى بأكثر من مائة عام ، وأنشأ أنشودته تغنياً بنصر هذه الموقعة ، فشاعت فى أوربا .

الكنيسة ! ووقف أمام الإمبراطور ثابتاً لا تطرف له عين . بينما كانت قاعة المحكمة صامتة صمت القبور .

ومن حوله كان يوجد عدد كبير من كبراء الأمراء فى الدولة المسيحية ، وقد أمسكوا بمقابض سيوفهم الثقيلة يترقبون أن ينطق مارتن بكلمة كفر صغيرة ! وطلبوا إليه أن يتراجع ، وأن ينكر أقواله التى أشاعها أو يعدل عنْها ، ولكنه طلب أن يمهل بعض الوقت ليفكر فى الأمر الذى وجه إليه . وليعد الإجابة التى يجيب بها ، وبعد قليل وقف ثانياً مواجهاً الإمبراطور ، إنها لحظة حرجة ، كلمة زجر من الإمبراطور قد تكون هى النهاية القاضية عليه .

وأخيراً وقف بكل ثبات وخاطبه : حيث أن صاحب الجلالة الإمبراطورية يطلب إجابة مختصرة واضحة ، فإنى أقول : « إننى ما لم أحاجَجْ بشهادة الكتاب المقدس أو بأسباب واضحة مفهومة ، فإنى لن أتراجع عن كلمة واحدة من كلامى ، لأنه من السيء ومن الأمورُ الخطيرة أن أعمل بعكس ما يأمرنى به ضميرى »— وبينما رجع الإمبراطور إلى الوراء متكئاً على ظهر كرسيه صامتاً لأنه كان يتوقع شيئاً آخر غير ما سمع – كان يتوقع عبارة اعتذار وليس هذا الإقرار الصريح عن عقيدة شخصية – قال مارتن : هأنذا ، لا أستطيع أن أعمل غير هذا ساعدنى ياربى ... آمين .

إن الإمبراطور قد وعده معاملة سلمية ، واعتماداً على هذا الوعد اعتبر لوثر المحاكمة منتهية وأمر بإعداد عربته ورجع ثانياً إلى وتنبرج ... ولكن الإمبراطور تشارلس أصدر مرسوماً إمبراطورياً يقضى بإعدام أى شخص يقدّم مأوى لمارتن لوثر بدءاً من اليوم حيث قد انتهت مدة تأمينه ... ومن الآن جميع أفراد الشّعب مأمورون أن يراقبوه وأن يحاصروه ، وأن يضعوه تحت حراسة تحميه حتى تقضى العدالة بما يجب أن يعامل به » .

وفى طريقه مر بالغابة الكثيفة .. وفى أشد أجزائها كثافة كان يوجد عدد من الفرسان مخالفين قرار الإمبراطور – وكانوا هم أصدقاء مارتن ومحبيه . وكانوا قد أعدوا أنفسهم لاختطافه وحمايته . وكان ذلك بتدبير نائب سكسونى .

* * *

قضى مارتن لوثر فصول الصيف والخريف والشتاء فى قلعة وتنبرج ضيفاً على نائب المقاطعة ، وكل هذه المدة لم يشعر به أحد ، وخيل للحزب الرومانى وللعالم كله أن الظلام قد ابتلعه نهائياً وأنه لن يظهر بعد ذلك .

أما هو فكان آمناً فى قلعة وتنبرج ، يعزف موسيقاه ، وينشد مزامير داود باللغة الألمانية . ويجد كل يوم على مائدته ألوان الطعام من الطيور واللحوم والفاكهة والحلوى والنبيذ الخاص الذى كان يحبه . ولكنه مع ذلك كان مشغول الفكر يخيل إليه أن الصمت المخيم حوله يخاطبه ، وأن أثاث الحجرة يتكلم معه ، وكتب مرة إلى بعض أصدقائه أنه فى إحدى الأمسيات أوى إلى فراشه وأطفأ النور ، فخيل إليه فى الحال أن الحياة انبعثت فى كل ما فى الحجرة ، وكان على المائدة بعض من ثمار البندق والجوز فخيل إليه أنها حية تعيش وتتكلم ، وأنها تثب وتقفز ويضرب بعضها بعضاً بعنف ، ثم دنت منه وأحدثت أصواتاً :– كل شىء فى الحجرة عجيب يثير الدهشة .

وكتب مرة أخرى يقول : من الفضاء المكشوف وتحت السماء الجميلة وبين زقزقه الطيور ، وفوق الخضرة الفاتنة ،... إننى أجد سحر « مارلن » ولكنه السحر الذى يهدد بتحطيم العالم كله نهائياً .

ماذا كان يعنى بهذا وذاك مما كتب ؟ لا يعرف أحد ولكنها اضطرابات نتيجة تفكير ظهرت سريعاً بوادره .

فى هذا الوقت أقدم على عمل خطير كان الأول من نوعه . أخذ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية ، وكان لا يقوى على قراءته إلا المثقفون الكبار ، فأخذ يترجمه إلى اللغة الألمانية الدارجة – وقال : دعوا الشعب العامى يقرأ كلام الله بنفسه ، فهذا ما يجعله يفكر بنفسه ، إن الإنسان لا يدفع شيئاً لعمل يهديه إليه عقله ، ولابد أن يكون التفكير حراً .

إن مارتن لوثر الذى ولد كاتباً وخطيباً قد أنشأ ما يملك به قلوب الناس ، إذ أخرج كتيباً سماه : « نداء إلى رجل الشارع » بلغته الوطنية ،– وقال : كل إنسان أمير فى نفسه ، وكل شخص ابن لله .

وبعد أيام نمى إلى سمعه أن كلمة « كل شخص أمير فى نفسه » أحدثت انقلاباً خطيراً . لقد حطم الناس نوافذ الكنائس الكاثوليكية ، وهشموا الصور والتماثيل التى بها ، بل زادوا أن ضربوا القسس بالعصى ، ثم انغمسوا فى أعمال اللهو البذىء ، من الرقص والشرب وأعمال الفوضى كأنما يحتفون بعيد زحل فى الأيام القديمة ، وباسم الحرية ، أراقوا الدماء واغتال بعضهم بعضاً ، وأحزنه ذلك ، فكتب رسائل مع بعض رفاقه يرجو وقف هذه الأعمال ، وقَطْعَ هذا العنف ،.. وأخيراً أيقن أنه لن يقضى على هذه الأشياء إلّا حضوُره بنفسه ، وفى خفية وبدون استئذان حُمَاته أو إخبارهم ترك المدينة ، وخلع عن جسده ملابس المنزل أو ملابس الإحرام ، وأخذ سياط الفرسان ، لأنه عائد ثانياً إلى دنيا العنف والقسوة ، ليؤدب طائفة من الناس لم يدركوا بعد معنى المعارك الروحية . ولكنه على غير شعور منه فجر سيلاً من عدم الرضا والقناعة ، إن القوى التى أطلقتها فلسفته قد خرجت نهائياً من كل يد ، ولا يستطيع أحد ما أن يسيطر عليها ، والثورة ضد البابا قد انتشرت من ألمانيا إلى الأراضى المنخفضة وتمشت خلال معظم الأراضى الشمالية ، حتى إن الوجهاء ، بين الناس والنبلاء على السواء أعدوا أسلحتهم

ضد الكنيسة ، وماذا عسى أن تكون ثورة زو نجلى أو أرزمس إزاء هذا الفيلق من المحاربين الذين تملكهم الجنون حتى القديسون شاركوا فى هذه الثورة .

لقد بدت الدنيا كلها متجهة إلى حرب مدنية ، ولكن كيف استطاعت أناشيد لوثر على أنغام موسيقاه أن تثير كل هذه الجموع وأن تقود الجيوش للبحث عن قيصر جديد ؟ إن ما انبعث من روح هذا المنشد الدينى كان مجرد أشعار ، ولم يكنّ قط تخطيطاً لثورة أو عمل .

وجاء رفاقه إليه يطلبون منه أن ينظم قيام كنيسة جديدة ، ولكنه لم يستجب ابتسم إليهم أو قطب طبقاً لطبيعته ، ماذا عسى أن تكون العقيدة التى دعا إليها ؟ إن الله يريدنا أن نأكل ونشرب ونُسرّ ونَمْرح ،.. وهو يسألنا فقط أن نعرفه لأنه ربنا وسيدنا والمنعم علينا ، ولابد أن نشكره على نعمائه ! إن تحطيم هذه الأصنام ، والتمسك بتوافه الأمور ليس بذى جدوى ، إنه لا يعدو أن يكون مثل الدخان أو البخار ، ولابد من إصلاح جدّى .

هؤلاء القوم الذين يتحدَّوْنه ماذا يريدون منه وماذا يتوقعون أن يعمل ؟ .

ولأى شىء هذا التحدّى ؟ هل يريدونه أن يبنى مؤسسة جديدة عالمية ، إنه يريد فقط إصلاح هذه الكاثوليكية التى نبت وشذت عن تعاليم الكتاب المقدس .

كان مغرماً ببناء فى عالم الروح !

بما كان من نشاطه هذا وعزمه واتجاهه ، رسم الأرض التى تقوم عليها الكنيسة البروتستانتية ، لم يكن راغباً فى أن يؤسس كنيسة موحدة ذات عقيدة رسمية ، لم يكن مغرماً أن يقيم امتداداً للعبادات الزائفة التى عليها الكنيسة ، ولكنه كان يريد الشعب الألمانى أن يفهم الكتاب بنفسه .

« دعوا الأناشيد الدينية ترتل باللغة الألمانية ... دعوا القسس

ينسحبون من الشعب ... كل الناس سيتعلمون ويعلمون كلمة الله : لماذا هى حكر على طائفة معينة ، إذا درس الشعب الألمانى الكتاب بلغته ، فقد يكون منه ربانيون ، وقد يعمد وقد يسقى النبيذ المقدس ويطعم الخبز وظل هكذا فى هذه الدعوة .

* * *

وانتشرت دعوته بسرعة بين الناس ، وكثرت الخطب بين الجرمانيين كأطعمة يوم الجمعة ! وبسرعة جداً بدت أمور ذات طبيعة ثورية ، فإن الأمراء البروتستانت أخذوا يصادرون ممتلكات الكنيسة ، وخرجوا أيضاً على نظامها ، فتزوج الرهبان من الراهبات ، وكذلك خرج الراهبات من صوامعهن واتخذن أزواجاً . واندمج الرهبان والراهبات بالجموع المحتشدة التى كانت تنشد فقط حماية مارتن لوثر والحفاظ على حياته .

« قابلت بالأمس تسعاً من الراهبات اللائى فَررن من سجن الدير ، كن كالأسارى الذين أطلق سراحهم » .

« ودوقة مَونتسبرج ومن معها ، خرجن من بيوتهن غالباً – بأعجوبة أو معجزة من الحصار الذى كان يقيدهن ، وهى الآن فى منزلى ، ومعها أيضاً بنتان ! « و إليزابث السيئةُ الحظ التى طردت من المدرسة اللاهوتية فى « التنبرج » ليس لديها الآن شىء ، تعيش عليه ، وقدْ قَدَّمت نفسها إلىّ قائلة : إننى ذات تفكير عميق حصيف فى أعمالى » .

لقد بدا الآن واضحاً أن التغيير لم يعد مجرد تغيير دينى بسيط ، ولكنه تحول إلى ثورة اجتماعية ، الفلاحون الألمان الذين رزحوا مدة طويلة تحت نير الإقطاعيين سمعوا الآن من الأمراء كلامهم عن الحرية ، كما سمعوا من المثقفين حديثهم عن حقوق الفلاحين والفقراء والعمال . فانتهى إليهم شىء لم يكن

مقرراً أن يمتد حتى يصل إليهم ، ولكن ظلم الإقطاعيين والسنْيُورين لم يفرض عليهم إلّا بنفوذ الكنيسة الرومانية .. بنفوذها رفع هؤلاء أحذيتهم على رؤوس الفلاحين وكان شعار الثوار هو الهتاف بسقوط الكنيسة ، ودعوا إلى شن حرب على النبلاء ، وانطلقت الهتافات بسقوط ضريبة العشور والضرائب الأخرى .

وبسقوط قانون الصيد ، وبحياة النظام الجديد .

كل عامل لابد أن يحصل على أجر ما عمل ، فلتسحق السلطات الزائفة .

لقد أنقذ عيسى بدمائه الزكية دماء الناس جميعاً بدون استثناء .
الراعى فى حقله ند للإمبراطور على كرسيه .

وذهب زعماء الزرّاع إلى مارتن لوثر يسألونه أن يعضد ثورتهم ، ويزكى أسبابها ، ولكنه نصحهم أن يرجعوا إلى المفاوضة والنقاش السلمى — ثم كتب رسالة وجهها إلى النبلاء جاء فيها : إنها جرائمكم يوشك الله أن ينزل عليكم نقمته بسببها ، وإلى الفلاحين قائلاً لا عنف ولا ثورة . ورجا الناس بكلامه البليغ أن يهدأوا ، يا إخوانى ويا أصدقائى إننى أسألكم : كيف حدث أنه لا الإمبراطور ولا البابا استطاع أن يثير شيئاً ضدى ؟ إننى لم أسل السيف قط ،! .

ولكن كلماته ذهبت أدراج الرياح ، لأن القوم فى ثورتهم لا يصغون إلى النصائح ، إنه ليس وقت الاستماع إلى الأستاذ .

كان السذج الثائرون يحلمون ببناء عالم جديد على المحبة ، ويرون أن الكنيسة والأمراء وأصحاب الإقطاعيات هم المانع من هذا البناء .

ولكن النبلاء من جانبهم لجأوا إلى انتقام عنيف ، وضربوا الفلاحين بأيد حديدية . ولم يكن النبلاء هم الذين وجه إليهم مارتن لوثر دعوته ،

أو أثار عليهم الجماهير ، كان قد وضع ثقته فى الفلاحين والعمال الحراث فى أرض الغابة السوداء وأيضاً فى عوام الناس ، غرس فيهم معانى المثل العليا ، حاول أن يفهمهم ميلاد المثاليات وموتها ، ولحمها ودمها ، وكانت تعاليمه أكبر من عقلياتهم ، الآن انقلبت محبته إلى كراهة باردة لا تصدق ، كراهة محب خانه حبيبه ، لم يستَطع لوثر أبداً أن ينسى أو يتسامح فى ثورة هؤلاء الرعاع ، ذوى الطبقة الدنيا الذين تملكتهم فكرة كل امرىء أمير : إن عقل المحب يقوم عادة على تعصب غير متزن . والأحقاد والآلام التى كانت فى قلوب هؤلاء قد طوحت بجميع الأسباب وسدت منافذ التفكير ، لقد تملكهم الجنون .

إن لوثر قد مهد أرض الغابة السوداء ، ولكن أين الشمس التى تضىء .

* * *

هناك نوعان من الشموس ، إحداهما هذا النجم الذى يسطع فى السماء ويلقى ضوءه على العوالم والأحداث ، والآخر هذا الإشعاع الذى يؤثر على مساحات لا تحد ، ولكنه ينصب على عالم خاص من الناس ، نعم عالم خاص ، عالم شخصين يجمعهما الحب . إنه يغمر الكوخ الحقير بالضياء فيضىء باطنه حين تكون الأمطار هطالة خارج الأبواب ، وقد تلقى مارتن لوثر فى رحلته الأخيرة من سنواته حظاً طيباً من الشمس الثانية ، وبها صار كوخه مضيئاً متألقاً ، ذلك بسبب كفره السامى الذى أضاء كل شىء فى نفسه ! .

لقد مزق مارتن ثيابه الكهنوتية التى كان يلبسها ، وارتدى بدلاً منها أسمى ملابس القداسة .

اتخذ زوجة من مثله ، كان هو راهباً مطروداً من الكنيسة ، وهى أيضاً راهبة هاربة !.

كلاهما تركا الدير ليبنيا بيتاً من المحبة ، وعاش أخيراً حياة طبيعية مألوفة ، تعلم تجارة الميكانيكيات ، وصنع الساعات ، وزرع الحدائق ، وصار مع هذا فقيراً جداً ، وفى أغلب الأحيان كان أطفاله يعانون المرض ، ولكنه رغم فقره عاش عيشة سعيدة ، كان يجلس على رأس المائدة فيقطع اللحم ، ويمازح أصحابه ويضاحكهم ، ويبارك زوجته ، ويتلقى كل ما تأتى به الحياة من خير أو شر بدون أى تأثر ، وكثيرون من أصدقائه خصوصاً الذين كانوا يطمحون إلى مكانته ، ويعشقون مذهبه الدينى كانوا يشعرون بكثير من الأسى لحالة الضعف التى تردى إليها فى سنواته الأخيرة ، وكانوا يقولون فيما بينهم : لقد شحب لونه وضمر وجهه حتى بدا نصفه الأدنى أكبر من نصفه الأعلى ،– وزاد خجله حتى أصبح يرتعش ويضطرب عندما يسوق النكتة التى يحلى بها حديثه ويطرف بها أصدقاءه ،– وصار بعد كل هذا رفيقاً عادياً ، جداً .

وشكا أصدقاؤه أنه لم يعد بعد صلباً أمام أعدائه ، وقد علموا من أسراره ما لم يعلموا ، هنا يبدو سيفان متعارضان ، وأتباعه القديسون لم يستطيعوا أن يقرروا بعد من الذى ستكون له السيطرة على الشعوب فى المستقبل .

ومر على مارتن زمن لم يكن فى جيبه نقد ، ولكنه كان لديه حب نام فى قلبه يكنه للناس جميعاً ، وعندما انفجر الوباء فى مدينة وتنبرج ، كان بيته المتواضع مستشفى عاماً لكل الشاكين الذين لا بيت لهم .

وقد مرضت ابنته الصغيرة « إيزابيلا » حتى عجزت عن الكلام ، لأنها طوال الاثنى عشرة ساعة الأخيرة من حياتها لم تأكل لقمة واحدة !.

لم يبق له إذن أى وقت ليقرأ أو يكتب أو حتى أن يعمل أى شيء !
يا الله . ساعد أعداء حركة التجديد واهدهم !

هنا راهب « أوغسطينانى » راكع بجانب جسد ابنته الطفلة التى تحتضر ، إنه يبكى مر البكاء حصاده الدموع والشكوى من هؤلاء الخلق ، إنهم من دمه ولحمه ، وقد ناصبوه العداء ولكنه يدعو الله لهم ! .

هذه قمة الانتصار للروح الإنسانى ! إنها الاستشهاد الذى ولدت فيه الأفكار الكبيرة الجديدة .

لقد تخلى لوثر عن مواصلة الجهاد ، وانسحب من ميدانه ، وأعلن أنه لم يعد بعد إنساناً يصلح للعمل . ولكن هل هذا شيء ضد السمو والارتفاع ، أو هل هذا دليل الفشل ؟ .

عندما تحالف الأمراء ، الذين فى المملكة البروتستانتية ، ودبروا الاستعداد للحرب ضد الأرثوذكسية ، قال لهم لوثر كلمة واحدة لم يفهموها بسهولة ، وهى كلمة مغتالون –، ولم يكن لها وقع قوى فى آذانهم . هذا لأنهم لم يخلقوا مرة مثلاً أعلى لأنفسهم ، ولذلك ليس لديهم أى تردد فى اغتيال المثل العليا لجيرانهم ، إنهم مستعدون أن يسقطوا عرش البابوية المقدس ، وأن يقيموا على أنقاضه وفى مكانه عرش الملوك إنهم على استعداد أن يمزقوا العالم بحروب تستمر نصف قرن ، حروب دينية واغتيالات باسم الدين .

ولا عجب إذن أن رأينا مارتن لوثر يحتفظ لديه بكميات كبيرة من النبيذ القوى الحاد ، لأن النبيذ يبعث المزاح والضحك ويطرد الأحزان ، وهو ذو علم ودراية بما فى هذا الوجود من متناقضات ! .

وهكذا كانت نهاية القديس الثائر الحكيم .

* * *

□ اجنيتس لويولا [1] □

Saint Ignatus Of Layolg

١٤٩١ - ١٥٥٦

○ **الأحداث الهامة فى حياته :**

١٤٩١ ولد فى جويبوزكو بأسبانيا
١٥٢١ جرح فى حصار بامبليونا
١٥٢٢ قام برحلة دينية حيث حج إلى مونتسرات
١٥٢٣ حج إلى الأراضى المقدسة
١٥٢٤ بدأ دراسة اللغة اللاتينية
١٥٢٨ دخل جامعة باريس
١٥٣٤ حصل على درجة فى الدراسات الدينية

١٥٣٤ أسس جمعية المسيح
١٥٤٠ حصلت الجمعية على تصديق البابا بولس الثالث
١٥٤١ اختير أول رئيس عام للجمعية
١٥٤٨ أكمل كتابه المشهور « ممارسات روحية »
١٥٥١ أسس الكلية الرومانية
١٥٥٢ أسس الكلية الجرمانية
توفى فى ١٥٥٦

* * *

(١) ليس هذا اسمه الحقيقى ولكنه الاسم الذى اشتهر به . واسمه الأصلى هو أنيجو لوبيزدى ريكالد Anigo Lopez De Recald .

جاء فى كتابة الأب « جونزالز » أنه فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٥٥٣ – وكان يوم وقفة العيد للقديسة سنوز Snows . وبينما كان القديس اجنيتس فى الحديقة ، بدأت أقدم إليه قصة حياتى ، وبعد ساعة . أو ساعتين ذهبنا لتناول العشاء . وبينما كنت أنا ومستر بولانكس مع إجناتس على المائدة . قال اجناتيس إن مستر « ناتاليس » ورفقة آخرين من الجمعية سألوهُ غير مرة أن يكتب موجزاً لحياته ، ولكنه أبداً لم يقرر أن يفعل ذلك . ولكن تدريجياً أنار الله قلب مؤسس جمعية عيسى ، فبدأ أخيراً يميل إلى أن يملى ترجمته الشخصية . وفى شهر سبتمبر التالى نادانى – ثم بدأ يروى لى قصة حياته بوضوح تام مع كل الظروف والملابسات التى أحاطت به ، وكان الآب ناتاليس مغموراً بالسرور حيث ظهرت بداية الترجمة ، وطلب منى أن أستحثه على إكمالها ، وكان يردد على كثيراً أننى لا أجد عملاً أحيى به الجمعية خيراً من هذا . وبعد ذلك فى الشهر نفسه نادانى القديس ثلاث مرات أو أربع وقص على تاريخ حياته حتى ذلك الوقت الذى كان يقيم فيه فى مانرزا Manresa . ولمدة عامين كان يملى تاريخ حياته على « جونزالز » وكانت توجد مقاطعات كثيرة تقفه عن الإملاء ، ومرة بعد أخرى ، وبعد أن أملى معظم الحديث ، ذهب إليه ليسأله إن كان الوقت ملائماً لإكمال الحديث ، ولكن البابا كان قد مرض وتوقف الإملاء حتى يتم انتخاب البابا الجديد ، وتم الانتخاب ومات اجنيتس بعده مباشرة فى الصيف نفسه . ولاحظ جونزالز فى كثير من الأسى أن الترجمة الذاتية لم تكمل إذ لم تتقدم فى سرد قصة الصيف ، وفى فصل الشتاء لابد أن يؤسس المدارس الخاصة بالجمعية ، ولابد أن يستقبل بها السفراء .

ولكن حيث نال الجوارى من سيده بعض اللحظات الثمينة من وقت الفراغ الذى أملى عليه فيه ما أملى كان يشعر أنه حصل على مكافأة مزدوجة

خليقة أن تغمره بالشعور بالنجاح ، إن الطريقة التى سيجرى عليها بعد موت اجنيتس واضحة لدرجة أنه وضع أمام الأعين أدلة حية من الماضى ، ولم يكن ثم حاجة إلى سؤاله عن أى شىء إذ لم يكن أى شىء ذى أهمية غائباً .

وقال جونزالز : عندما كنت أسجل هذه الملاحظات كنت أحاول أن أرى ما يعبر عنه وجهه ، وظللت أدنو منه ، استوضحه واستزيده .

* * *

كان ذلك فى عهد فرديناند وإيزابلا . أصبحت النّبالة الأسبانية نصلاً لامعاً يحيط به جراب من الفروسية العالمية ، لأن انتصار الأسبان أشعرهم بكثير من الزهو والتعالى .

لا تدعهم يخدعوك بوجوههم النحيلة البيضاء كالورق الملفوف ، إن فى عروقهم دماء تغلى ، وقلوبهم كالبوتقة المحماة ، كل مادة تلقى فيها تتحول إلى روحانية من عبادتهم ، لأن حروبهم كانت دينية ، وهم ينادون بحب المحبة ، ولا يخافون الموت . من سرورهم بالأجواء الرومانسية تحت أضواء النجوم اللامعة يذهبون بدون أى تردد إلى انتقام مزدوج فى ساحة المحكمة .

هناك يقفون إلى لحظات مغمورين بالنشوة أمام تمثال العذراء ، وتمثال المسيح معلقاً على الصليب مستعدين لحمل السيف ضد العالم كله ، وللموت بأى وجه وفى أى مكان لخدمة السيدة العذراء .

أمام هذه المشاعر الدينية الفيّاضة . لا نعجب من قصة جندى محارب يتحول إلى قديس،إن ميزان الطبيعة الأسبانية فى هذا الوقت من السهل جداً أن يحَول الشخص من حالة شيطانٍ إلى حالة روحانية خالصة ، أو ملائكية .

كان اجنيتس فى بيته ملازماً فراشه بسبب إصابة نالته فى ميدان الحرب ، فإن رصاصة فرنسية أصابته واستقرت فى فخذه ، وأعاد الأطباء فخذه المحطم إلى وضعه الطبيعى ، فتحمل آلامه بدون أى صوت أو إبداء ألم . إنه من نبلاء الأسبان ، وأخلاق المحاربين تجرى فى دمائه وفى دماء أسرته كلها ، وهى تطهرهم من الشكوى مهما اشتدت الآلام .

ولذا كان يبدو بدون أى ألم يحلم بأيام أفضل ، عندما يطلع بعرجته إلى القصر الملكى حاملاً على ذبابة سيفه قصيدة من الشعر تعبر عن محبته وبتلقى القبلات على خديه لقد حارب أجداده المراكشيين وشاركوا فى إجلاء المسلمين من أسبانيا ، وله أخ قدَّم حياته فى معركة ليست بعيدة عن المعركة التى أصيب هو فيها .

لقد اقتفى اجنيتس طريق أسلافه المحاربين لأجل المحبة . ولهم من قديم صلات بالقصر الملكى ، وعندما كان صغيراً ذهب به والداه ليتعلم تحت إشراف الأمين العام للخزينة الملكية ، وعندما عُمِّدَ كانت تضاء حوله مصابيح الفروسية ، وهو الآن قد أصاب فخذه جرح فى سبيل أخلاق الفروسية ، وخطوة بعد خطوة يقدم نفسه لمعركة من أجل إلهة الحب ، وعندما يكل من ملاطفتها يذهب للصلاة عند قبر جندى شهيد .

أصلح الأطباء رجله الجريحة ، وعندما كان فى دور النقاهة فى قلعته سأل عن كتاب معين يقرؤه – وكان كتاباً يروى قصة خلع ملك وإبعاده . ولم يكن فى متناول الأيدى فى هذا الوقت ، وبدلاً منه أحضروا له كتاباً بعيداً عن موضوع الكتاب الأول ، وهو كتاب « زهرة القديسين » Flower of The Saints – وفتح الكتاب ونظر فى صفحاته الأولى ساخراً ، ! قديسون ؟ وبدت ابتسامة الهزؤ والاستهانة على شفتيه ! لماذا يُضِيعُ وقته فى القراءة عن قوم أضنوا أجسامهم فى العبادة ، أما كان الأجدر والأولى أن ينهكوها فى الحرب ؟! ولكنه أخذ يقرأ الكتاب فاستمر فى قراءته

حتى نهايته ، وتدريجياً وجد نفسه شريكاً لهؤلاء القديسين فى حربهم إنها حروب دينية من أجل السيد المسيح ،.. وعندما أتم قراءة الصفحة الأخيرة استلقى على ظهره واستغرق فى التأمل ، أحس أن هؤلاء القديسين كانوا أيضاً محاربين مثله ، كانوا يحاربون فى جميع الميادين ، لا يحاربون الفرنسيين فقط ، بل حاربوا نزعات الشر ، ولهم آثارهم فى إصلاح الجنود وقطع النزعات الشريرة وثوراتها فى دمائهم . إنهم أيضاً فزعوا لمناظر الدماء ، وللأصوات التى أثارت دماء الجنود ، إنهم التماع الأضواء السماوية ، وملائكتها الذين يزورون الأرض ، إنهم زئير المدافع الإلهية التى تمثل نداء الله وصوته فى أعماق الضمير ، هؤلاء هم الذين يوقظون الأرواح .

وأغلق عينيه واستسلم للأحلام ، رأى نفسه فى الجانب الغربى من الأرض ، أرض قاحلة ورياح عاصفة ، ومعجزات إلهية ، تمثال للعذراء ، وصليب للمسيح مصنوُع من الورود ، وعندئذ تأكد أن حبه وعواطفه متجهة إلى امرأة واحدة فقط ، فهذا الصليب من الورد الذى عليه صورة السيد المسيح . لم يكن إلا الأم مريم . إنها وحدها حبيبته هى التى احتضنته .

* * *

عندما فارق اجنيتس المستشفى كانت أسرته ترى أن شيئاً غريباً قد طرأ عليه ، وعندما أخبرهم أنه لن يعود إلى خدمة الجيش شعروا بكثير من الضيّق ، ورجوه ألّا يتصرف تصرفاً لا يليق بأسرته العريقة ، ولكنه هز رأسه ولم يجب بشىء ، لأنه لم يكن يرى أنه سيعمل شيئاً لا يناسب الأسرة ، لأنه سيتبع الأناجيل وهى شرف لايذرى بكرامة شخص ما . إن كثيرين من الذين لونوا التاريخ قبله بزمن بعيد قد اهتدوا بنور الإنجيل ، وفى رأس هؤلاء يذكر اسم القديس فرانسيس ، وقد قدم ملابسه الثمينة لسائل فقير ، ومن

هنا بدأ اجنيتس تجولاته الدينية .

ذهب إلى مانريزا – Manresa – وهى مدينة صغيرة فى الطريق إلى برشلونه . فاتجه تواً إلى المستشفى ليرعى المرضى . ويؤدى طقوس الموتى ، وفى أحد الكهوف أخذ يصلى ويفحص نفسه بعمق ، صام واستغرق فى التأمل ، ورأى أنه من الحتم أن يهزل جسمه وينهكه فى سبيل إيقاظ روحانيته ، وكان ضيئل الجسم لا يزيد طوله عن ثلاثة أقدام فبدأ هزاله بسرعة ، وبهذا النّظام الصارم الذى أخذ نفسه به زادت نحافته ونُحولُ قوامه ، ولكن بعض الآباء العقلاء نصحوه أو رجوه أن يقلل من عزوفه عن الطعام ومن انقطاعه للتعبد وأن يأخذ بحظ من شئون الدنيا ، وأصغى لنصائحهم ، فأكل وشرب وتحسنت صحته وحالته الجسمية ثانياً .

كان قد دخل كهفاً مظلماً فى حضن بعض الجبال فى مانرزا ، وترهب يرجو لقاء الله فى وحدته . وامتلأت نفسه بأنه فى حضرة الله ، مع الاعتقاد بأن عليه أن يعلم الناس ، ويدرب أتباعه ، وبصفاته العسكرية الجانحة إلى سرعة التنفيذ أسرع إلى الاندراج فى ملابس القديسين ، وبذا صار قديساً . ولاحظ فى نفسه أنه لم ينقص شيئاً من شدته العسكرية ، وأن رياضاته الروحية لم تكن أكثر من إنحافه جسده ، وحرمانه مما يشتهى من الأطعمة ، وهى أعمال شخص حارب وتدرب تحت إرادة تعودت النظام .

من هنا بدأ يكتب تعاليمه ، التى يمكن أن يجد بها كل ناشىء طريقه إلى الله ، رجال الجيش والآثمون ومزاولو الأعمال الحقيرة والشريرون ، وغير هؤلاء كل من السهل أن يجد طريقه إلى الله ، وسمى كتابه « دفتر التمرين » Manual of Exercise . وكما أن الخطوات البطيئة والمشى والجرى كلها تمارين بدنية جسدية ، كذلك هناك تمارين روحية بها تضمن الروح خلاصها .

ولم يقتصر فى كتابه هذا على وصف الأوضاع الذهنية والفكرية ، ولكنه وصف أيضاً أوضاع الجسد . وحدد عدد مرات العبادة وطرق الخلوة للتأمل .

لم تكن رغبته أن يجعل مركز الأخوة الذى أنشأه مليئاً بالكسالى ممتلئى الأجسام ، فالكنيسة مليئة بهذا النوع ، ولكنه يريد إخوة ذوى نشاط وإخلاص ضمير ، وكان هو نفسه نحيفاً وأعرج بين العرج ، وفارساً نشيطاً يجيد ركوب الخيل ويحسن الإسراع بها ، وكان غيوراً ذا حماس وكان يحمل على صدره علامة الغيرة والحماس وهى : « درب نفسك على الفضائل » .

* * *

كان من مزايا اجناتيس أنه لم يجنح إلى إثارة ضجة جوفاء ، بل رغب أن تكون دعوته مبنية على ثقافة ، لأن طباع الفارس الواقعى كانت ممثلة فيه ، ولكى يفهم الكتاب المقدس فهماً واعياً قرر أن يتعلم اللغتين اللاتينية والإغريقية ، ربما لأنه كان يريد أن يحصل على لقب دكتور ، ثم ليكون مبشراً ناجحاً . ولكنه بدأ أولاً بالحج إلى بيت المقدس ثم رجع إلى أسبانيا فالتحق بكلية جامعية ليبدأ رحلته الثقافية ، ولم يستطع أن يتقبل حياة الهدوء والانقطاع للدرس ، فطبيعته العسكرية وإلفه الحركة والعمل لا تسمحان له بهذا الهدوء ، فتحت سماء برشلونة الباردة كانت دماؤه تغلى رغبة فى عمل إيجابى ، وللدعوة إلى نداء الصليب ، لذلك تخطى حواجز الجامعة ، وترك فصل الدراسة إلى الأسواق والشوارع وراح يستجدى كل من يقابله أن يعيره لحظة من وقته ، أو يتصدق عليه بالسماع منه ، وقد صادف فى هذا المسلك بعض المتاعب والشذوذات ، اقتحم على بعض الناس بُيوتهم وصادف بعض المقيمين الذين لا يسلكون سلوكاً حسناً ، وكان دخوله على الناس أشبه شىء باقتحام الحشرة على الآمنين ، فكان يقطع على الناس هدوءهم ليعظهم

ويبشرهم ، وقد تحدث فى مذكراته أنه كان يحس المسيح يطيف به و بالناس لإصلاح حالهم كما تفعل الزوجة المسنة الحكيمة فى إصلاح بيتها ، وقد علمته رؤياه كيف يجتذب انتباه الناس وكيف يمشى فى الداخل والخارج بين الجموع والأسر ، يسأل أسئلته ويهيىء للراحة وإزالة المتاعب التى يعانيها الناس .

كل هذا وهو لا يزال ينتمى إلى الجامعة ، ولذا ضاق به الأساتذة ، ووجد الطلبة الناشئون أن فى عمله هذا معرة لهم وإهانة لكرامة الجامعة ، وقالوا إنه خطر على الجامعة والكنيسة ، فهو بعد لم يصر قسيساً . فبأى حق ينصب نفسه واعظاً ومبشراً ، ومن الذى خوّل له أن يدعى لنفسه صفة المصلح ؟!

فى مثل هذه الحالة كان لدى الجامعة مجلس خاص يستطلع الأنْباء لها لتحمى نفسها ، وكان أعضاء هذا المجلس يندسون فى كل مكان ويتعمقون فى حياة النّاس ليستخرجوا أى سم كامنٍ يضر بالدّين أو ينفث سمومه فى جسمه ، وكان للكنيسة سلطانها ، وبه استطاعت أن تقبض على اجنيتيس وتلقى به فى السجن . وأرسلت الجامعة بعض مندوبيها لزيارة ومعرفة حال الشاب المخاطر الذى دفعته جرأته أن يتحدث بغير حق عن الشئود الروحية . وذهب الزائر وعاد ، فالتصق بأحد أصدقائه ، ووضع فمه على أذنه ، وهمس بحيث لا يستطيع أن يسمعه أحد وقال له : هل رأيت اجنيتس ؟- إننى قد رأيته رأيت القديس بولس فى سلاسله وقيوده ! إن اجنيتس قديس لا يفترق عن بولس[1] !

وأخيراً أُطْلِقَ سراح هذا المشاغب الذى لا يزيد فى طوله عن طفل ، وتركه القوم يأخذ طريقه ، ولكن طريقه قاده إلى باريس ثم إلى جامعة السوربون ذات الشهرة وقد تمنّاها من قبل وتمنى أن يحصل فيها على العلم

---

(١) هذا كلام الزائر .

الذى ينشده ، وهناك جمع كتبه بحرص كما يجمع البائع المتجول بضاعته التى يحصل منها على ما يمسك به رمقه ، وحمل كل ما يتعلم منه على ظهره ومشى منحنياً حافى القدمين ، كل ما ينشده هو الحصول على حظ من المعلومات ، وكانت رحلة طويلة شاقة ، وكانت إقامته أيضاً شاقة ، إنه أسبانى يعيش بين أعداء بلاده . إذ كانت الحرب بين هاتين الدولتين قد دخلت مرحلة لا آخر لها . ومن هنا بدأ البائع الصغير المتجول . بائع الرحمة والإصلاح يعمل عمله ، ولم يعد لديه أى اهتمام أو عاطفة نحو قوة الجيش أو انتصاراته . كان يتناول طعامه وشرابه من أرخص الأماكن ، وبدأ يتألف الفقراء الضّعاف ، وأخيراً بعد آلاف المرات من الزيارات والمحادثات وصل إلى القرار والقدر الذى كان يريده ، ووجد بعض الأعوان !.

وجلس مرة أمام أستاذ علامة فارسى فأثارت محاضرته كوامن الشجن فى نفسه ، وسرعان ما شعر بالوخز والإثارة ليعمل ، وثارت سجيته العسكرية فى نفسه ، ومضى على طريقته فأزعج جامعة باريس كما أزعج جامعة أسبانيا من قبل ، وترك صالة الدراسة ومجالس الجامعيين ، ومشى مع الإخوة المتسولين فى الشوارع ، ومرة ثانية حكم عليه بالسجن .

كان فاتن الصوت وقد فتن الناس حقاً ، ولم تكن عباراته محكمة من ناحية القواعد النّحوية ، ولكن الناس أغضوا عن ذلك وأحبوا سماعه . وفتن الرجال بمنظر عينيه وما فيهما من وحى ذهن حربى ، وأغرم النساء أيضاً بأفكاره وآرائه ، والتف الناس حوله ، وعشق الوثنيون المسيحية من أجله ، إن ألف كتاب ونشرة من الأساتذة الجامعيين– أولئك الذين تبرأوا منه – لا تعدل خطبة واحدة من خطبه ، وعدد الذين يعتنقون المسيحية بخطبة واحدة منه لا يستهوى نصْفهم أو أقل من نصفهم خطبُ الأساتذة الكبار ولا كتبهم ونشراتهم ، لقد كان حقاك فناناً خلاقاً .

واقترب شابان من الأسر الثرية والطبقات العالية منه ، وكانوا على شاكلته ذوى نشاط مستعدين للتضحية والجهاد من أجل الصليب المقدس . وكانوا بسبب خطبه يشعرون بالقلق وعدم الراحة إن لم يعملوا شيئاً ضد الأمراض التى تنتشر جراثيمها حولهم ، وبها شاع انحلال العزائم وتحطم القلوب .

وبشعور فطْرى تجمعوا حول إجنيتيس ثم كوّنوا جماعة صغيرة . كانت هذه الجماعة شديدة التأثر بندائه الروحى . إنه أول نداء شريف يُصدِر أوامر وتعليمات نبيلة ، لقد أعاد إلى ذاكرتهم أعمالاً لأفزاد قليلين من هذا الدم ، بها كونوا عشيرة صغيرة وقفت ضد أعداء كثيرين . إنهم يرون انشقاقاً كبيراً فى الأرواح . ولابد لها من الالتئام ، وقد رأوا فى أنفسهم الجزيرة الخضراء فى البحر الواسع الذى لا حياة فيه ، وذهبوا إلى كنيسة « نوتردام » فى مونتمرتر ، وأقسموا على الإخلاص والطاعة ، وبذا وضعت نواة الجماعة « جماعة الجزويت »[١] .

كان ذلك فى منتصف شهر أغسطس سنة ١٥٣٤ - وكانوا سبعة أشخاص[٢] ؟! فماذا عساهم يفعلون ؟. إنهم لن يستطيعوا تغيير الأوضاع التى حولهم ، ولكنهم يشعرون بأصوات قدسية تدوى فى ضمائرهم إنهم لابد أن يفعلوا شيئاً ! فماذا يفعلون وإلى أين يتجهون ؟.

فى يوم من الأيام بينما كان اجنيتس راكعاً فى صلاته ، تراءى له خيال السيد المسيح ، وقال له : اتجهوا إلى روما . وحينئذ جمع فرقته الصغيرة ،

---

(١) نِسبة إلى عيسى Jesus .

(٢) يختلف عددهم فى بعض كتب التاريخ عن بعض وانظر حديث هذه الجماعة فى كتاب « الإرساليات التبشيرية » .

واتجهوا جميعاً إلى المدينة الخالدة انقياداً لأوامر السيد المخلص .

* * *

فى منتصف الطريق إلى المدينة المقدسة الخالدة التمعت الفكرة فى رأس إجناتيوس بصدمة دوّت فى أعماقه ، لقد قرر مصيره ، ورسم نموذجاً عالمياً لأعماله ، لقد صمم مرات من قبل على أن يقوم لهذا الدين بدور المنظف ، كالمغسلة التى تضرب بها الملابس للنظافة والتطهير ، وفى هذه اللحظة تمثلت فى خياله معركة كبيرة . إن دستور البابوية المقدس قد اهتز من أعماقه بثورة مارتن لوثر ، وإن قداسة البابا الأكبر أصبح فى مسيس الحاجة للمساعدة إذا قدر له أن يظل حياً . وهذه المساعدة لا تأتى من هدوئه وتواضعه ، ولكنها تأتى من أبنائه المحاربين ، إن العصر لم يعد عصر التواضع والكلام ، ولكنه عصرُ الفيالق المسلحة – والجيوشُ المتحركة ، والجماعات القديمة من الفرنسيسكان وأتباع أوغسطين والقرطاجيين . لم تكن منظمات محاربة لإقامة الأخلاق والمبادىء ، لقد أتوا البيت من خلفه ، ولكن إجناتيس رسم خطة لتكوين مجموعة جديدة من الرهبان لتحارب فى الصف الأول لخدمة البابا وتنفيذ وصاياه إنهم سيكونون فيالق محاربة فى أوسع ميادين الحرب الروحية .

وقدم إلى البابا بول الثالث التماساً أن يأذن بتسجيل أتباعه المتطوعين ، وأن تعترف بهم الكنيسة تحت اسم « جمعية يسوع » – وقال : إن هذه الجماعة الناشئة لن تكون من القاعدين ، لتقود حياة الكسل والبطالة فى الأديرة ، ولن ترضى بالإقامة لمجرد التأمل وإقامة الصلاة بل إنها ستقف على قدم وساق متأهبة للانطلاق للعمل السريع ، إنها ستطوف وتتجول فى أنحاء العالم كله لتنفذ أوامر البابا وتعاليمه ، إنهم حقاً خدام البابا « بول الثالث » وستكون مسئوليتهم موكولة إليه وحده ، إنهم حرسه الخاص وحماته ،

ووظيفتهم الأولى هى نشر الكاثوليكية بين الوثنيين فى أى مكان كانوا ، وأن يؤسسوا العقيدة فى أى مكان ضعفت أو تبددت فيه . وتدريجياً أخذت فكرة تكوين روما الجديدة شكلاً خاصاً فى ذهن إجناتيس وهو لا يزال بعيداً عن روما ، ووجد أنه بهذه الطريقة لابد أن يسجل فرقته فى الكنيسة فرقة صليبية جديدة تخدم السيد المسيح ، ولتكن فرقة كشافة تخدم هذا العالم المشتعل ، إن الكشافين ليسوا أقل خدمة فى الحرب من الجنود المحاربين ، وليسوا أقل أثراً من المهندسين الذين يدسون الألغام تحت الأرض ليحطموا قوى الأعداء .. وقال فى نفسه : إننى أرى أن رجالى على قلتهم قد كوَّنوا من أنفسهم قوة لتقاوم الأعداء ، وليهجموا عليهم ثم يعودوا سالمين ، وليس لهم ميدان معين ، بل إنهم يحاربون يوماً هنا ويوماً هناك ، إنهم حملة لأقوى الأسلحة . وهى التعليم والتبشير . إنهم أول فرقة محاربة حقاً لخدمة المسيح ، لأنهم حيثما وجدت الوثنية وُجدوا ونشطوا لحربها . وحيثما وجد الكفر وجدت فيالق المسيح . من القسس والمبشرين . إنها فيالق متحررة من قيود الأوطان والسياسة . فقط يجمعهم رباط « تقاسموا عليه وهو تحمل الفاقة والعذاب . تقاسموا على الذلة والمسكنة . وعلى العزلة وعدم إعلان أسمائهم ، تقاسموا على المخاطرة ، وتحمل المعاناة والحرب ليكونوا فيلقاً عالمياً يعمل للعقيدة فقط .

وعند البابا ليو الثالث عرض اجناتيس كل ما فى رأسه عن نظام جماعته وعملها ، ولكن البابا ومستشاريه استمعوا إليه فى أدب وهدوء بينما كان يبدو عليهم التشكك والتردد فى قبول هذه الجماعة ، لأن كثيرين من الجماعات الذين قبلتهم الكنيسة من قبل ، قد تغيروا ولم يقفوا عند حدود الكاثوليكية ، بل أصبحوا أدوات وأسلحة لأفكار مارتن لوثر وبعضها ارتكب فضائح ومقابح اتخذها لوثر دعاية ضد الكنيسة الكاثوليكية ، وبذا أفسحوا الطريق

لجماعات جديدة متحللة ، إن قيام جماعة جديدة لابد أن يكون خاضعاً لقياس مثالى دقيق محكم .

واشتد الشك فى نفس البابا حول إمكانيات هذه الجماعة إنها لابد أن تقيم لها كنيسة وليس ثمت إمكانيات . إن المواد التى لابد منها لإقامة بناء عزيزة فى هذا الوقت ، سواء فى ذلك الأخشاب أو مواد البناء الأخرى . وزعيم الجماعة لم يسبق له تجربة بنائية حتى ولا مأوى فلاح يقيه عصف الرياح أو ضربة الشمس .. ونظر البابا إلى إجناتيس نظرة مرتابة مترددة ، ولكن اجناتيس بسرعة جداً ، استطاع أن يزيل كل ما دار بخاطره من شكوك . وبشىء من الحذر أذن البابا لهذا الطائش أن يعلن جماعته وأن يهيىء المكان لبناء كنيسته . وقال ليولا إنه لا شىء متكلف ، إنها كنيسة من طابق واحد متواضع ، والأعضاء سيكونون ستّين شخصاً لا أكثر .

وفى ٢٧ سبتمبر سنة ١٥٤٠ – تناول البابا بول الثالث قلمه ووقع على الالتماس الذى قدمه ليولا ، وكان ذلك ميلاد جمعية المسيح .

* * *

بعد ستة عشر عاماً تولى القيصرية فى روما قيصر جديد يختلف عن القياصرة السابقين كان بيده شئون الجيش وتصريف المواقع ، ولكنه كان يريد إمبراطورية متماسكة صلبة بقطع النظر عن مساحة أراضيها . ولم يجر فى توليه عرش روما على قواعد الذين سبقوه ، حتى لم يعنه أن يحتفى بتقليده تاج الملك ، وقد وضع البابا على رأسه التاج وأعلن القُسسُ أنه قائدهم وتقبل كل التقاليد التى أجروها بتواضع لم يؤلف من الرومان ، وكان أمام البابا كصبى المطبخ . ومع ذلك لم تقف الدولة الرومانية بثبات وصلابة خلف حاكمها كما وقفت « جمعية يسوع » من ورائه . ومضى قسس يسوع – كما سماهم أعداؤهم تهكماً وسخرية – قدماً تحت شعار خاص بهم هو « من الحتم أن تكون مطيعاً وليس من

الحتم أن تعيش » وقد نجح « لويولا » أن يغرس فى نفوس كتائِبه المثل الأعلى للجندى المطيع وأن يكون متميزاً عن الآخرين بالطاعة العامة علْماً وفَناً .

وفى بداية الأمر هيىء أتباعه لرحلة حج إلى أورشليم ولكن كان فى الشرق حروب مخيفة قد سدت الطريق ، ووجد أن هناك حرباً صليبية أكبر بكثير يجب عليه وعلى قومه أن يخوضوها .. لقد أغلقت السماء أبواب فلسطين لتفتح أمامهم أبواب الكون . لقد غير البابا أوامره وكسر القيود وجعل الدعوة فى حجم جمعيته ، ثم إن أتباعه قد زادوا وكثروا ، ومضوا للإمام مشواراً واسعاً للحرب وأصبحوا مستعدين لشن ثورات وغارات ضد اللوثريين – وأرسل لويولا أتباعه إلى سويسرا وبولاندا وأيرلاندا وألمانيا ليقفوا فى وجه البروتستانتية ، وفى كل مكان كان هذان الخصمان تحت شعار الكتاب المقدس ، والأيقونات المقدسة ، مستعدين جميعاً للمبارزة .

إن لدى البابا والأمراء الكاثوليك جيوشاً قوية يمكن أن تنهى الموقف بالسيف إذا دعا الأمر ، ولكن فى مواقف كثيرة تكون الكلمة أقوى من السيف . ولذا استطاع أتباع « الجزويت » أن يتسللوا إلى قلاع الأعداء ، وأن يبثوا دعاياتهم ، وبذا مهدوا الطريق إلى الهجوم الأخير – إن الكلمة قد تهز الجيش وتكسب المعركة ، والحرب النفسية قد تأخذ قارة بأكملها ، وكان لويولا استاذاً فى هذه الحرب النفسية ، وأُخِذَت العهود على الأتباع وأقسم كل قسيس أن يخدم خطة لويولا من جذورها إلى فروعها ، وكانت الخطة من ذهن شخص واحد ، ومن تفكير فرد بنفسه ، وليست من تخطيط جماعة .

وأقسم كل عضو جزويتى على أنه ليس مِلْكاً لنفسه بقسم معروف لديهم : « أقسم أننى لست ملكاً لنفسى وأننى فقط ملك لخالقى ، الذى أنشأنى ، وهو فى مكانه يحكمنى ويسيرنى ويصورنى كمادة الشمع اللينة التى

توضع فى قالبها » .

وفى المقام الأول لابد أن أجعل نفسى كالجسد الميت الذى ليس له إرادة ولا حس ، وثانياً كالصورة التى تحمل المسيح مصلوباً Crucifix – يحركها المحرك كيف يشاء من جهة إلى أخرى ، وثالثاً أكون كالعصا الصلبة فى يد الرجل المسن يضعها فى المكان الذى يريده ، وبذا يمكن أن تكون خير عون ومساعد له ، ويستعين بها على خير وجه .

ثم إن حكومة الجزويت لم تكن حكومة مستبدة ، ولم تكن طاعة أبنائها طاعة تحمل عليها القوة ، كما كان الحال فى العهد القيصرى الأول ، ولكنها ليست كطاعة العبد لسيده وإنما هو إخلاص متبادل بين الجميع .

لقد وضع اجناتيوس دستور الجماعة وفيه حد وتحديد لسلطان الرئيس كما وضع احتياطاً وحذراً لدى قوة الأعضاء . وبوجه عام كان يوجد صنفان أو درجتان فى الجماعة ، « الأكليروسيون » « والنظاميون » ، ومن الإكليروسيين فقط يختار عدد قليل للرهبنة ومقابلة البابا ويقسمون أمامه قسماً خاصاً ، وبعده يخصصون أنفسهم لأعمال أشق . ولإدخال الوثنيين فى المسيحية ، وأما الأعضاء الآخرون فيخصصون أنفسهم لأعمال تعليمية أقل خطراً ، ولكن الجميع – أولئك وهؤلاء يتبعون غرضاً واحداً – فى هذه المدرسة نحن جميعاً تعلمنا أن نحصل على الفقر العفيف ، والعبودية المتحررة ، والتواضع الذى ينم عن العظمة .

ومع وجود نظام الطبقات بينهم كان يوجد شعور حاد بالديمقراطية والمساواة ، وأنه لا يوجد شخص أقل أهمية من الآخر ، لقد أقسموا جميعاً على العفة والفقر وألّا يدَّخِرَ واحد منهم نفعاً لنفسه ، إنهم لا ينتظرون أى مكافأة أو جزاء على أعمالهم ، وهم يرفضون أى شىء يقدم لهم فى هذه

الدنيا ويدخرون جزاءهم للحياة الأخرى . وعلى عكس الجماعات الدينية الأخرى ليس لهم ملابس معينة ولا زى موحد كى يتميزوا به عن غيرهم . هذا لأنهم باندماجهم فى الناس وعدم الظهور بأنهم من طائفة معينة يستطيعون أداء رسالتهم على وجه أكمل ، وكانت الميزة التى يحملونها فى باطنهم ميزة أخلاقية قوامها الطاعة والخضوع للإله ذى الجلال الأعظم .

فى هذا الوقت كانت الحاجة ماسة إلى من يذكر بجلال الله ، وقد فقدت التقوى عند كثيرين من إخوانهم فى الفرق الأخرى معانيها الحقيقية . صارت التقوى بحوثاً وكلاماً والصلاة مراءاة وتظاهراً ، وصارت الزكاة دليل الثروة وبرهان الثراء .

كان هذا عجيباً حقاً ! وما ظن لوثر وأتباعه الذين انشقوا على الكنيسة ؟.

هل سدت أبواب الجنة أمام الذين لا مال لديهم ؟

أجاب الجزويت على هذا عملاً لا كلاماً ، بشروا برحمة الله فى كل مكان ، وجالوا فى كل بقعة لم تعرف تحت السماء من قبل ليحيوا فيها العقيدة المسيحية ، وليحيوا فيها الآمال الميتة ، وكان مشهدهم مشهد أناس وملائكة معاً . ورئيسهم العام يجلس معهم ومع مساعديه البنائين فى حديقة بيته ، ومن حوله ألوان الطبيعة فى إيطاليا ، تلك الألوان التى كان رفائيل فى ذلك الوقت يرسم منها لوحاته الفنية الرائعة ، لتبقى مع الزمن .

كان إجناتيس يحس أن عينيه لا تبصران أكثر مما يبصر رجل الشارع ، وأنه ليس فناناً وإنما هو صانع . مجرد صانع للعقيدة ! وهل يستطيع هو أن يكون مثل الرسام الإلهى الذى يظهر فى صورة إنسان يرسم قطعاً فنية تبقى على مر السنين ؟.

وليته استطاع أن يتنبأ بما قيل عنه وعن جماعته بعد ثلاثة قرون من بعض أعدائه البروتستانتيين ، وعلى الأخص هذا المؤرخ العظيم ماكولاى Maculay الذى قال : إنه على الرغم من وجود المحيط الزاخر الواسع ، والصحراء البعيدة ... على الرغم من كثرة الجواسيس وشدة العقوبة ، وصرامة القوانيين .. وقلاع السجون والأحجار ... على الرغم من ذلك كله وغيره سيوجد أعضاء وأبناء الجزويت تحت ستار الأقنعة فى كل قطر ومدرسة – أساتذة وأطباء وتجاراً ، وعمالاً ... وفى الأقطار المعادية لهم . فى القصور الملكية فى السويد ، وفى بيوت ملاك الأراضى الكبار ، وبين زرائب الحيوانات ، ستجدهم فى كل هذه الأمكنة ، بنائين ، متحدثين مجادلين باحثين . باعثين للنشاط فى كيان المتراخين الكسالى ، حاملين تمثال المسيح أمام أعين المحْتضرين ... » .

وهكذا أعلن ماكولاى عن نشاطهم وإخلاصهم !

ولكن اجناتيس لم يكن يحفل بالثناء ، وكان كل ما يهمه هو الخدمة التى يستطيع أداءها .

* * *

وصلت رسالة إجناتيس إلى أربعة أركان الأرض منبعثة من حديقة صغيرة فى إيطاليا حيث كان يجلس ليرسم الخطط لمعاركه كى يفتح أبواب الرحمة وينقذ الغافلين ، واتسعت رسالته جداً وظهرت فى كل مكان ، فى المدن الصينية وفى جزر اليابان ومقاطعات أسبانيا ، وفى شمال أمريكا ومستعمرات السود ، وقرطاجنة ، وفى أنْحاء الهند وبأراجواى ، والمكسيك والبرازيل ، وفى مستنقعات إفريقية ، وسهول الهندستان ، وعبر جبال الهمالايا . وفى مرتفعات التبت المتجمدة ، وطول القارة الأوربية وعرضها .

« لقد جئنا لنُحارب من أجل العقيدة ضد الذين لا يؤمنون . نحن نعْتمد فقط على العقل ونستعمل أسلحة الروح .

وكانوا يسخرون من الأوربيين ويصفونهم بأنهم مقلدون بغير تفكير ، ويقولون إنهم معسكرات رومانية للتعلم » ولكننا جامعات تعلم الكاثوليكية .

لقد علموا آلافاً وآلافاً ، لقَّنُوهم أسرار المعرفة بدءا من مبادىء القواعد الأولية البسيطة إلى أعلى الدراسات اللاهوتية ، وكانت مدارس الجزويت هى الأرض الأولى التى يتدرب عليها الكاردينالات ، والأباطرة ، والآباء ثم تعلم فيها أيضاً رُوائيون كبار ، وفلاسفة وعلماء (فى الطبيعة والكيمياء) .

وجنُود ...، ومن هؤلاء موليير وديسكارت . ويوزويت ، ومونتسكيو وجاليليو ، وبوفن ، وولن ستون ... وهؤلاء قلة من كثرة .

كل هذه الثمار التى جنى العالم فوائدها من غرس كانت أخطاؤه فى القواعد النحوية « كأخطاء القديس الذى يتوقع عفو الله ومسامحته إما فى هذه الدنيا أو فى الدار الآخرة » .

هذا الرجل الذى لم يكن علامة مثقفاً ، كان أباً لذوى العلم والثّقافة .

لقد جاء لإنقاذ الكنيسة فى وقت كانت فيه على حافة الأنهيار ، لقد بث أنفاس الحياة فى معهد كان مهدداً بسموم الفساد بالتحايل على الأحكام الشرعية والرشوة .

وقد نجحت دعوته لأنه بث فى نفوس أتباعه فكرة السلامة : إن الطموح والرغبة فى التميز وحب المال هى أم الشرور .

وقد أخذ أصحابه مبادئه لا لمجرد الاعتقاد بصحتها ولكن ليحيوها ويعملوا بها .

* * *

□ جين كالفن □

Jean Calvin

○ الأحداث الهامة فى حياته :

ولد فى نُويون ١٥٠٩

عين قسيساً ملحقاً فى كاتدرائية نيون ١٥٢١

دخل كلية لامارش فى باريس ١٥٢٣

بدأ دراسة القانون ١٥٢٨

عين خبيراً متدرباً ١٥٣٣

نشر قوانين المسيحية ١٥٣٦

ذهب إلى جنيف ١٥٣٦

طرد من جنيف ١٥٣٨

تزوج « إديليت » ١٥٤٠

عاد إلى جنيف ١٥٤١

حوكم من أجل موت سرفيتس ١٥٥٣

أكمل مراجعة قوانينه ١٥٥٩

ألقى خطبته الأخيرة فى فبراير ١٥٦٤

مات فى ٢٧ مايو ١٥٦٤

* * *

كان والده من رجال القانون ومن رجال الأعمال طموحاً مغامراً محباً للظهور بين الناس ، وقد حملته مطامعه أن يهجر قريته الصغيرة بونت ليفيك Pont L'eu eveque إلى الإقامة فى مدينة كبيرة زاخرة بالأعمال وهى مدينة « نويون » وأمل أنه يستطيع أن يكون نفسه ويحقق مطامعه فيها . وهناك نال فعلاً شهرة واسعة ، رمى بنفسه فى خضم الأعمال. وكون أصدقاء ومعارف ، ثم تزوج من فتاة ثرية سعد بها كان أبوها مديرا لفندق فى

كامبراى .

وطبقاً لما كان يتّصف به من قوة العزيمة وشدة الطموح ، وهو رجل برجوازى يريد أن تكون له مكانة فى مجتمعه صار فعلاً رجلاً مدنياً موفقاً مرموقاً ، عمل أولاً موثقاً فى محكمة الحى ، ثم سكرتيراً للأسقفية ، وكان ناجحاً موفقاً فى كل أعماله ، وهيأ ابنه - جين - وهو ما يزال رقيقاً غضاً إلى سبل المغامرة وأذكى فيه روح الطموح والمنافسة ليكون على شاكلة أبيه ، فلم يكن يتهيب أن ينافس من هم أقوى منه معرفة بالأمور التى يخُوضها معهم أو ينافسهم فيها .

علمه بين أبناء أسرة من النّبلاء ، كى يكون مطمئناً على مستقبله وتكوين عقله ، وبدت نجابته وهو ما يزال فى سن طفولته حين عين وهو فى سن الثانية عشرة من عمره راعياً وخادماً لكنيسة الحى ، ولكن طبقاً للقواعد الكنسية التى كان معمولاً بها فى ذلك الوقت لم يكن مخولاً له أن يقوم بأعمال الكنيسة ذات القداسة حتى يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ولذا لم تمنحه الكنيسة راتباً ، وفى خلال هذه المدة كان يحصل على دخل ليس بالقليل ، كان يحصل على نحو أربعة وعشرين جالوناً من القمح فى العام ، وكان له محصول عشرين حقلاً من مزارع الحبوب ، ولم يقبل الشاب الثرى الذكى أن يعيش متبطلاً بغير عمل اعتماداً على هذا الدخل ورغب فى المزيد من التعلم وأدخله أبوه جامعة باريس ليستكمل دراسته الإكليروسية ، ولينال تدريباً أوسع .

وفى باريس عاش جين مع عمه جاكويس Jacques ، وكان حداداً متواضعاً ، وفى الجامعة تعلم اللاتينية ، وأحس لأول مرة مرارة التعلم وقسوة المعلمين ، وكانت هذه الحالة القاسية هى التصرف المألوف لكل تلميذ يعد نفسه للحياة أو لحياة أفضل ، وكان منهج التربية فى هذا الوقت يرى

أن القسوة والشدة هى التى تكون الناشئين ، فكانت الكدمات والجراح ترى على الأجسام كأنها وصفات طبية تدل على أن صاحبها نال حظاً من التربية والتعليم ، وبوجه عام لم تكن المدارس فى تلك الأيام خيراً من السجون ، لم يكن المعلمون يعنون بجلوس التلميذ معتدلاً ، ولا بكيفية قراءته أثناء الليل ، وكل عنايتهم كانت مُنصبة على الشدة والعقاب ، حتى أن التلاميذ فى السنة الأولى من كلياتهم كانوا يصابون بالعاهات والأمراض ، حتى الشبان الممتازون الذين تبشر حالهم بمستقبل مرموق ، كانوا يخرجون عمياناً أو عرجاناً أو مصابين بالجرب والبرص ، هذا إذا لم يموتوا ، وقد وصف العالم إرزمس Erasmus — من بارزى رجال المذهب الإنسانى . والذى كان يحضر جامعة باريس فى هذه الأيام حياة الجامعة فجاء فى كلامه أن العميد لكى يعلمنا الصيام كان يحرمنا من أكل اللحوم نهائياً ، ويطعمنا الأطعمة الرديئة ، وقد أكلت البيض الفاسد غير مرة .

لهذا لا نعجب إذا رأينا الكثير من التلاميذ للحصول على درجاتهم العلمية يفْقَدون نضارة الوجوه وحيوية الأجسام . ومع كل هذه المشاق ظل جين كالفن -- مع ما كان عليه من نحافة الجسم وضعف الصحة مثابراً حتى حصل على درجته العلمية .

كان فى سِنّ الرابعة عشرة يعرف كثيراً من اللاتينية ، ثم كان ناقداً لاذع النَّقد لمن هُمْ أقَلُ مهارة وحُنكة منه ، وكان زملاؤه فى الفصل يمنحونه لقب السؤول الملح ، والحق أن عقله وتفكيره لم يكن يستريح أو ينى أبداً ، كان كالنحلة التى لا تكف عن التحليق والحوم حول الأزهار ، أو كحشرة العنكبوت التى لا تمل غزل المصايد التى تقع فيها الحشرات ، فهو أيضاً كان دائماً يتصيد الحقائق الطائرة ، ويترصد لاقتناصها عقلية نهمة لا تشبع ، قوية تهضم كل ما تتصيده .

والطعام الذى كان يشتهيه ويعيش عليه هو قوة الإرادة وتصميم العزم

على اصطياد الأفكار ، تلك الإرادة التى راضت جسمه منذ طفولته ، وأزالت عنه كل أنواع الضعف ليكون مؤمناً حقاً خاضعاً فى إيمانه إلى العقل وحده .

لم يكن جين يشعر أبداً أنه ناشىء حديث فى بدنه ، لأنه منذ سِنِّ الطفولة كان يشعر أنه رجل كبير ، ومن مبادئه أنه عندما يظل الضعف البدنى ، أو الجسم المنهك يعيش على حِمْية القوة الروحية ، فإن هذه قوة يجب أن يقدم الشكر لله عليها ، إنه باسم الله وبالإخلاص له يجب التّبرؤ من أى خلط نقص أو عيب فى التفكير العقلى ، أو أى نقص فى مشاعر الإنسان ونقائه الروحى ... دع كل إنسان ينقب ويتعمق فى كنوزه الروحية حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم جسده لأنه سيجد فى خبايا عقله وكهوف ضميره المادة الحقيقية لوصايا الله للإنسان ، ولأن الإنسان لن يجد الله فى القلاع التى يبنيها خياله ، ولكن القوى الروحية وحدها هى التى تهدى إلى معرفة الله .

* * *

عندما كان جين كالفن فى باريس انفجرت الحرب بين أقوى شخصيتين فى العالم ، وكانا معاً يتمتعان بقوة الشباب ، فرانسيس الأول فى فرنسا وقداسة الإمبراطور تشارلس الخامس فى روما ، كان فرنسيس لا يزال دون الثلاثين من عمره ، وكان تشارلس قد ناهز سنَّ الرجولة أو بلغها حديثاً ، وأغرى نزق الشباب هذين الشابين بطرح أصول المدنية ، فمضيا يجوبان القارة الأوربية بآلاتهما الحربية ، فأسرفا فى القتل والنّهب والإحراق مثل طفلين مفتونين بلعبة شيطانية ، وأخيراً سَقَطَ الملك الفرنسى أسيراً فى يد خصمه ، أسِرَ فى مدينة « بافيا » الإيطالية ، وبذا توقع الناس أن تنقطع مخاطر الحرب الدولية ، وأن تكون هذه المعارك قد أتت إلى نهايتها .

كان الشعب الفرنسى دهشاً شديد الدهشة لدى هذه الأنباء لأن

الفرنسيين كانوا يعتقدون أن العناية الإلهية هى التى اختارت مليكهم ، ولذا فهو قائدهم الإلهى ، ووقوعه أسيراً يعنى أن الشعب الفرنسى قد ارتكب آثاماً عظيمة ، وأن أسره إنذار من الله بغضبه ، ولكن التّيس الهارب لابد أن يسترجع ليتلقى عقوبته ، وتمثله بينهم طائفة من المجرمين لابد أن يعاقبوا كى يرضى الله القدير ، ولا توجد مجموعة من الناس تستحق أن تلقى عليها هذه التهمة غير جماعة البروتستانت ، لأنهم هم الذين ضللوا الناس وسخروا من العقيدة الكاثوليكية فهم وحدهم المسئولون عما حل بفرنسا من هزيمة ومعاناة ! ولذا صبت عليهم اللعنات وأثيرت ضدهم الكراهية فأهينوا وضربوا وأحرقت ممتلكاتهم ، وسيموا الذلة والصغار .

وفى باريس حيث كان جين يدرس فلسفة الدين أزعجه أن يرى الدين يحرق حرقاً ، ويعانى ما يعانى فى السجون ، إن روح الدين قد اختفت نهائياً ، ولم يرق كلامه رفاقه ، فأمطروه باللوم وباللعنات ،– كان يكره كثرة الجدال حول الذات الإلهية ، وشعر بالضيق والألم فى كليته وبدا الخلاف بينه وبين رفاقه واسعاً ، وفى هذه الظروف تلقى رسالة من أبيه تأمره أن يغير خطة دراسته ، وأن يترك دراسة الدين إلى دراسة القانون ، وكان أبوه – كما رأينا قبل – يَعْنيه الحصول على المال ، ويرى أن المال هو قوام الحياة ، فكتب لابنه أنه فى هذا العصر المضطرب الكثير المنازعات ، لن يجد حياة هانئة ثرية فى الكنيسة ، ولكنه يجَدها فى المحكمة ، ووجد جين ارتياحاً لتركه حياة الجدل الدينى ، واتجه إلى جامعة « أورليان » ليدرس قواعد وأسس القانون الفرنسى ، وكانت تعتبر ملحقاً مكملاً لقانون السماء الأخلاقى . ولكنه لم يكن مستريحا لهذه الدراسة أيضاً ولا مقتنعاً بها ، فلم يكن مما يعنيه أن يكسب القضايا فى المحاكم .

ولكن يعنيه التعرف على الأسباب والمسببات . فقد كانت عنايته

بحقوق الإنسان المادية هينة ضئيلة ، ولكن عنايته الكبرى كانت متجهة إلى حقوق الله على الأرواح .

ولأنه متعلق من قبل بمشاكل الروح أضاف إلى دراسته دراسة الفلسفة ، وكتب فى هذه الأثناء شرحاً لفلسفة « سنيكا » وهاجم الفلسفة الرومانية القديمة كلها لفصلها بين العقل والدين ، وأخذ على سنَيكا أنه رواقى النزعة وأنه يرى للمسألة الواحدة عدداً من الوجوه ، ولا يستقر العقل معه على حال ، وهؤلاء الرواقيون والرومان القدامى تبدو فلسفتهم خالية من الشعور العاطفى . كتمثال الرخام يبدو جميلاً ولكنه لا حياة به ، وقال إنهم تمردوا على الفكر السليم تمرد المتعصبين ، وقرر أن الإنسان لا يكون صالحاً من غير أن تكون له عاطفة ، وقال إنه يحار أمام هؤلاء العلماء الفلاسفة ، إنهم غارقون باسم الفلسفة والعقل فى ظلمات الجهل ، وإنه لا يعرف هل هم عقلاء أم ليسوا بآدميين أصلاً .

وهكذا واصل رحلته الفكرية للوصول إلى الله ، وإلى وصاياه للإنسان التى من أجلها يجب أن يحارب ، وأن يحيا وأن يموت ، ثم اتصل بمجموعة من البرتستانتيين الذين كان يطلق عليهم اسم الهرطوقيين – الكفار – واطلع على مبادئهم التى من أجلها ضحى آلاف منهم بأرواحهم ، كان قد اعتاد أن يتمشى معهم تحت سماء أورليانز مستمتعين بشمسها الهادئة الجميلة ، وهم يحدثونه عن الإنارة الداخلية وأن الشخص الذى يتجه دائماً إلى الجانب المظلم المادى فى الضّمير لا يستطيع أن يَقبس من أضواء عدالة الدين والعقيدة الصحيحة .

وفى هذه الأثناء كان يواصل بإقبال ونَهَمٍ دراسته حتى حصل على شهادة الدكتوراة فى القانون ،– وهى الشهادة التى كان والده يتطلع إليها من قبل ، ولكنه أرسل إلى والده رسالة كان لها وقعها فى نفسه ونفس ذويه ،

كأنها قنبلة انفجرت فى قعر بيته ، قال إنه أصبح بروتستانتياً .

* * *

كان من المصادفات أن أحد أصدقاء جين عين وكيلاً لكلية السوربون ، وكان عليه أن يلقى خطبة لهذه المناسبة ، وعهد إلى جين بإعداد الخطبه ، وكلية السوربون هى الجامعة الكاثوليكية فى أوربا كلها ، وهى مركز مقاومة البروتستانت ، ولكن الخطبة كانت على العكس مما تعود المستمعون أن يسمعوه فى هذا المعهد ، ولم يكن الخطيب قد درس الخطة جيداً ، وقد أثارت السامعين ، فهاجوا وماجوا ، لأن الأفعوان البروتستانتى قد حرك رأسه ، واستطاع أن يتسلل إلى حرم الجامعة المقدس . وبوجه عام كان انفجار الثورة ضد كاتب الخطبة والذى ألقاها معاً ، ولم يستطع كالفن أن يواجه هذه الثورة العارمة ، فانسل من النافذة ولاذ بالفرار ، ولكنه يعلم أنه لن ينجو إن عثر عليه !، فاختفى عند حائك أخفاه فى بيته ، ثم لبس ملابس فلاح ، وعمل جهده على إتقان تنكره ، فحمل الرَّفْش والمعول على كتفيه ، ومشى بين الناس فلم يعرفه أحد فأخذ طريقه إلى مدينة نويون ثم انتقل إلى مقاطعة أنجوليم Angoulem وهناك حَبس نفسه مع كتبه يقرأ ويكتب ، هذا لأن البروتستانتيين كانوا يريدون تأييد مذهبهم با لعلم والتفكير ولم يلجأوا إلى مجرد التعصب والتمسك بمبدأ لجأوا إليه ، فالبروتستانتية قامت على الدرس الجيد للكتاب المقدس ولهذا كان أتباعها من أبرز الجامعيين فى عصرهم وكانت الزيادة فى مذهب مارتن لوثر وإقامة العدل على العقيدة كما رآها فى نظرهم تعنى زيادة التفكير والتعمق والتخطيط لإضافة الجديد للمذهب كى يقوى وينتصر ، وكان عليه لذلك أن يتخذ أسلحته التى يحارب بها من الفكر والعلم ، مؤمناً أن الأيام ستظهر قيمة هذه الأسلحة الماضية ، ومند إلقاء خطبته – التى كتبها – فى السوربون أصبح شخصاً محارباً مُزْدرًى

من الكاثوليك وعرضة للخطر ، ولكن هذا الموقف أذاقه حقاً لذة الحياة وحب الجهاد ، فعمل بنشاط أكثر ، قرأ وكتب وفكر وهو أمام هذا الخطر المميت ، وتنقل من بلد لآخر لا باحثاً عن مخبأ وحماية كما يفعل الهاربون ، ولكن باحثاً عن الحرية وعن أتباع لدعوته ، إنه رجل خارج على القانون ، خارج على نظام الأساتذة ، يوزع الثورة العلمية والفكر الثائر ، مداده كالدم المسفوح ومقالاته تنفجر كالقذائف ، وتخطيطه قائم على نور الكتاب المقدس ، ولكنه ألبسه ثوباً جديداً وأبرزه فى لون جديد ، إنه رجل كبير عظيم يحمل فى رأسه أفكاراً جديدة ، وله الآن اسم لامع بين رفاقه كابتسامة زحل ، وذهنه ذو حدة ونفاذ كحد الشفرة ، أفق واسع وقوة خارقة ، ولا يمكن أن يناظره إلّا رجل فى مثل قوته وفى حجمه العقلى ، ولكن فى أى مكان فى أوربا فى ذلك الوقت كان يمكن أن يوجد من له مثل اطلاعه وفكره وعقله ؟. كل جنود الملك وأعوانه فى فرنسا لن تتغلب عليه ولن تقف أمامه ، إن لديه عاطفة كعاطفة المقامر الذى يحشد كل قواه وحيله الحربية لغرض واحد ، وكان غرضه هو الحقيقة الإلهية ، ويعتقد أنه ما دام الله معه فلن يغلبه أحد .

كان يجمع رفاقه البروتستانتيين فى الكهوف سالكاً فى ذلك طريق المسيحين الأوائل ، وكان يقف أمامهم مثل الملاك المنذر ، له لحيته السوداء الدقيقة وعلى رأسه طاقية حريرية ، وفى وجهه النّحيف الهادىء سمات ليس من اليسير أن تتبين منها ما إذا كان فرحاً أو محزوناً ، فقد كان الحزن والبهجة يمتزجان فيه فى عاطفة واحدة تبشر وتنذر وعلى الأخص عندما يرفع يديه إلى السماء أو يرتل أنغام صلواته .

« لابد أن يتخلى الإنسان عن شئون الآدمين - فهم ماديون فقط - أو يعمل على إقامتهم إلى الطريق الصحيح ، ولو بالقوة ، إن عبادة الله ليست لعب أطفال ، وليست مجرد متعة ولذة ، إنها عمل شاق ، خال من المتعة ،

كان يقف أمام مستمعيه - تمثالاً مشخصاً لعاطفته ولرسالته - لا يعلق الصليب حول عنقه ، ولا يعد التماثيل والصور للمسيح أو العذراء ، ليبعث فى الناس الشعور بقداسته وأعماله ، وكان يكتفى بالشارة البيضاء ، والخاتم الذهبى فى أصبعه ليجتذب الأنظار نحوه ، إن شهوات الدنيا ومادياتها ، وألوان بهجتها كلها زيف وضلال - إننى سوف أحطم بابل ؟ ما تحتاجه الدنيا الآن هو مدينة نموذجية مجددة تقوم على حكومة عامة روحية ، وبدون التجديد الروحى لا حياة !.

وفى بحث هذا النّبى الجديد عن بابل التقليدية التى يود تحطيمها وإقامة بابل جديدة بدلاً منها ، وجد الطريق إلى ما كان يبتغى . استطاع أن يتخطى الحدود الفرنسية وأن يَدْخُل سويسرا .

كان فى سويسرا مئات من البروتستانت المنفيين ، وكانوا قد تجمعوا معا وكونوا طائفة مرموقة مميزة ، وقد ذهب جون أولاً إلى سوق التجارة العالمية فى جنيف ، وجنيف هى مفترق الطرق إلى أوربا كلها ، وكانت ظاهرة طبيعية عجيبة فى عالم هذا الوقت ، وكانت قد ناضلت من قبل طويلاً ، ثم رمى مواطنوها طاعة الكنيسة وسيادتها نهائياً ، وأقاموا لهم بدلاً من حكومتها حكومة لهم خاصة .

كانت تتمتع بالرخاء والرفاهية والازدهار ، وبنُوها مجموعات من التجار والبارونات وحملة الألقاب العليا ، وأيضاً من ذوى المادة والشهوات ، وفى نظر كالفن أنها تواجه قلة وفقراً فى الرّقة والرفق والإنسانية ، وكل شىء فيها يتسم بالجفاف ، بين منزل وثان فندق ، وفى الفنادق ترتكب الموبقات . حتى إن النساء كن يمشين فى الشوارع ومعهن أدوات الدفاع يخفينها تحت ملابسهن .

وعندما وصل كالفن إلى جنيف وجد مؤسسى البروتستانتية يعملون

بجد ، وتدريجياً ، وبين الرءوس المليئة بأفكار السوء ، نمت جماعة من البروتستانتيين وكونوا حزباً كبيراً ، ووجد عدداً من الذين كافحوا وأصابتهم الجراح فخورين بما على أجسادهم من سمات العذاب لأنها شارات جهاد وعلامات إخلاص ، وكان زعيم الجماعة وقائدها هو « وليم فارل » W . Farel وهو حقاً ذو شجاعة نادرة ، لا يعرف الخوف ، ولكنه يبثه فى قلوب الآخرين ، حتى الكاتب الكبير أرزمس الذى أرهب بكتابته البطارقة والملوك – كان يرتعد ويذبل أمام فارل .. وكان يقول عنه إننى لم أر قط فى حياتى رجلاً صلباً قوياً مثله .

كان قد توطن جنيف معتمداً على قوته ومواهبه مصمماً على تحويل أرْضِها إلى سماء وجحيمها إلى جنة !، وساعة قابل كالفن ابتهج به وسُرَّ – لمعت عيناه بالسرور ، وغمرت البهجة وجهه ، لأنه وجد فيه الشخص الذى سيحمل بجدارة معه عبء الدعوة .

لقد جاء اليوم الذى تعلن فيه المعرفة والحقيقة ، وصبحُ يوم الدّينونة قد أسفر . إن جهاده من الآن سيؤتِى ثمرته المرجوة .

* * *

كما كون أفلاطون مدينته الفاضلة أو جمهوريته من فلسفته ، كون كالفن له جمهورية من مذهبه الدينى ، وكانت عقيدته قد تكونت وازدهرت مما عاناه أثناء طرده فى فرنسا ، والآن قد اكتملت واستقلت وأصبحت ثابتة الساق وارفة الفروع والظلال . وكانت ذات سمات أساسية يتكون منها الرأس . والقلب والأطراف ، فقط ثلاثة مبادىء هى :–

(١) مملكة الله المطلقة التى لا يشاركه فيها أحد .

(٢) ضعف الإنسانية المطلق ، وفقرها الكامل لله وحده .

(٣) الخلاص لمن يختارهم الله .

وأضاف كالفن فى حديثه أنه شاعر غبى هذا الذى يقول أن الله بحاجة إلى من يوضح طريقه للناس ، فطريقه لا يحكم عليه أو يسأل عنه بواسطة – المخلوقين ، فالمخلوقون ليسوا إلا ذرة ضئيلة فى عين الخالق العظيم ، ولا يوجد قانون ثابت للخير والشر يتقيد الله به ، كما جنح إلى ذلك بعض الفلاسفة ، ولكن كل شىء أحبه الله فهو خير وحق ، لا لشىء إلا لأن الله أحبه ، ولذلك عندما يسأل : لماذا فعل الله ذلك لابد أن تكون الإجابة لأنه أحب أن يفعله ، وهو لا يحب إلا الخير .

إن الإنسان فى عجز مطلق عن نفع نفسه بشىء لأنه مخلوق من الشر ومن الطينة السفلى ، وقد تولد الشر من الإرادة الحرة للإنسان الأول ، وهو آدم الذى اختار الطريق المنحرف الآثم عندما كان فى جنة عدن ، وقد صار الشر سجية فى بنيه لا يمكن تحاشيه فهو ميراث ثابت له ، ولأن الشر طبيعة فى بنى البشر لا يعمل الفرد شيئاً من الخير إلا بتوفيق الله ومعونته ، وكل البشر يستحقون أن يقذف بهم فى النار ، والأغلبية العظمى الساحقة منهم ستأوى إلى قعر جهنم ، وإنما رحمة الله وإحسانه وفضله تُدْخل قلة ضئيلة من الناس الجنة ، وليس دخولهم الجنة بأعمالهم ولكنه بفضل الله ومنه ، وهؤلاء الذين يدخلون الجنة قد اختارتهم حكمة الله منذ الأزل ، ولم يكونوا بعد قد ولدوا ، هذا حظهم السعيد ، أن يستمتعوا بنعيم الجنة خالدين فيها أبداً ، وليس هناك أى فضل يرجع لأعمالهم ، ولكن مع أن إرادة الله وحده هى التى تختار النعيم لقوم والعذاب لآخرين يأمر كالفن أتباعه أن يحذروا الوقوع فى الإثم ، إن النعيم والشقاء يرجيان إلى شىء خارج عن إرادة الإنسان وقدرته ، ولكن هذا لا يعنى أن يقعد مغلول اليدين عن أعمال الخير منتظراً يومه الأخير ، ليس هناك مكان لا للملاطفة والسرور ولا لليأس من

رحمة الله ، ولا يعرف الإنسان إن كان من المختارين المرضى عنهم أو من المطرودين المغضوب عليهم ، وإنما يكون ذلك بالإنارة الباطنية وهى علامة من الله ، وكل شخص يأمل أن تكون له هذه العلامة وإذن فلابد من عمل الخير .

هذا هو الوازع الدافع إلى العمل وإلى إحياء الأمل فى الإنارة الباطنية . ولا يرغب أى إنسان أن يحيا حياة أثيمة وبها يقدم أدلة زائدة على أنّه من الملعونين .

وهكذا يمضى كالفن فى تقديم عديد من الأدلة والأسباب التى تقضى بوجوب عمل الخير من كل شخص ، مع جهله المطلق بمصيره .

كان حقاً معلماً يعتمد على الواقع والأعمال ، وليس كالفلاسفة الذين يعتمدون على النظريات . كان محامياً ورجل قانون يعتمد على الأدلة الملموسة ، ولذا لا يجد أدلة يعتمد عليها تُبّينُ أن الشخص من المختارين ، ولكنه لابد أن يعمل لأن ذوى الحياة المنحرفة لا يمكن أن يكونوا من المختارين ، وهكذا كان كالفن مصراً كل الإصرار على دفع أتباعه إلى المزيد من أفعال الخير ، ومن كلامه : « لابد أن تُخضِعَ نفسك للإرادة العليا ، وبذا قد تُدرِك أنك من المختارين للجنة ومرضاة الله » .

هذا التصور القاسى الجاف لموقف الله من الإنسان إنما هو رد فعل مغال من البروتستانتيين ضد ما كان يفعله الكاثوليك . وهو أيضاً يرجع إلى نزعة دينية تسبق الكاثوليك ، وهى قوانينُ الديانة الموسوية ، وبها رفض اليهود إله المسيحيين إله المحبة ، واتجهوا إلى « جهوفا » إله الغضب والانتقام . وقد رفض كالفن غفران البابوات ، واتجه إلى بابا آخر لا ينسى شيئاً أبداً ، إنه لم يستق وحيه الدينى من خطبة المسيح التى ألقاها من فوق الجبل ، ولكنه استقاها من الوصايا العشر التى تلقاها موسى ، وقد مجد فى حديثه الوصية الثالثة وعنى

باتباعها ، وألحق بها أيضاً شيئاً من الوصية الرابعة : « لا يكن لك آلهة أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ... »[1] .

وفكرة كالفن عند الصالحين المختارين تحتذى فكرة العهد القديم عن الشعب المختار ، فهى مجرد تبديل من الشعب المختار من الله ، إلى الإله المحبوب أو الذى هو محبة ، وقد قرر أيضاً أن العين بالعين والسّنَ بالسّنِ ، والمسّرة فى مقابلة المسرة . وقد قال الله للشعب الإسرائيلى : إنى لن أختار شعباً آخر أقدمه عليكم . ولكن فى المقابلة قال لا تختاروا آلهة أخرى أمامى .

إن عيسى إله الرحمة الإلهية قد مجد بنى الإنسان جميعاً ، وكالفن نبى العدالة الإلهية — لعن جميع الناس ، ماعدا قلةً مختارة ، وهى تقابل الشعب المختار .

ولكن برغم ما فى عقيدة كالفن من شدة ونفور هى عقيدة عدالة وأخلاق ، إنها تمثل فلسفة عالية المستوى والأخلاق فى عصر كان يتصف بالنقص .

إنّ النبل يقهر الناس على صالح الأعمال .

ونبالة الأخلاق التى يتسم بها المختارون لابد أنْ تُمدَّ الدِّماء بقوى حديدية ، وأن تبث فى القلوب شجاعة قوية .

كانت هذه هى الصلابة فى قواعد المذهب الذى دعا إليه كالفن ،

(١) الوصايا كما فى الإصحاح الخامس من سفر التثنية :
لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور ... لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرّىء من نطق باسمه باطلاً .

وكانت المنهج الذى تمكن به كروموبل من التغلب على الاستبداد والتزمت ، وأن يقيم مجتمعاً جديداً فى أمريكا ذات الوحشية والشذوذ .

* * *

لم ينظر نواب جنيف ولاكبراؤها نظرة ارتياح إلى هذا الرجل الذى نصب نفسه مدعياً عمومياً يطالب بحقوق الله ويحاسب المذنبين على ما يرتكبون ، وقالوا فيما بينهم : من الذى خوّله هذا الحق ؟. وتجرأ مرة أحد البروتستانتيين فقال له فى شيء من اللطف والأدب : إنك رجل حاد الطبع .

وبعد بضعة أعوام من تحمل هذه الحماقة قرر ذوو الرأى فى جنيف أن يتخلصوا منه ، وطردوه فعلاً من بلدهم ! فذهب إلى استراسبورج وتركهم ، وفى استراسبورج عكف من جديد على الدرس فى شراهة وعنْف ودقة ، ولكى يتدرب تدريباً أقوى وأنجح ليهيىء نفسه لوظيفة القانونى المشرِّع للمذهب البروتستانتى ذهب يتجول بين أتباع مارتن لوثر فى أنحاء ألمانيا ، وقد أخذ عليهم جميعاً تراخيهم وتكاسلهم عن أداء الواجب الدينى ، بل إن مذهب لوثر ومبادئه اللينة السهلة هزته من أعماقه ، إذ كان يتوقعها أشد من ذلك وأعنف ، وبطبيعة الحال وطبيعته هو كان يقيس المواقف بمقياس حماسه ، وقد ملّه الألمان بدورهم وأطلقوا عليه اسم « الفرنسى المتَعصّب مثير الشغب » ، لأنه كان يتدخل فى كل شيء حتى فى شئون الناس الخاصة ، فحذروه من دس أنفه فيما لا يعنيه من شئون الناس ، وفى هذه الأثناء تزوج من أرملة لها ولدان ، فإن المذهب البروتستانتى على عكس الكاثوليكية يبيح ذلك ،[1] ولم يمض طويل وقت حتى كان الشعب الجينيفى السريع التّقلب قد فاء إلى أفكار كالفن ، بل اشتد شغفه وحنينه إلى مدرسة معلمه العظيم

(١) لا يبيح المذهب الكاثوليكى للأرملة أن تتزوج ثانياً .

الذى لم يُقدَّر ، وأثناء غيابه قرروا رجعته إليهم ، ثم ذهبوا إليه يرجونه أن يعود إلى جنيف ، فرجع فى الوقت المناسب .

فى هذه المرة سلك معهم طريقاً صلباً عنيفاً، وأقام بينهم ثلاثة وعشرين عاماً حتى وافته منيته ، كان دكتاتورا يملى إرادته ، فرض عليهم قوانينه بأشد مما كان البابوات والأباطرة فى روما ما يفرضون إرادتهم ، ولكنها كانت إمبريالية تعتمد على تعاليم الكتاب المقدس . وفى كل مكان كان الناس يقولون : كالفن فى جنيف مثل البابا فى روما ، فرض نفسه على التاريخ وأصبح حقيقة تاريخية .

فرض على جميع السكان فى جنيف أن يقسموا قسم الطاعة والولاء للمذهب البروتستانتى ، وحتم لبس شارة المذهب والتخلق بأخلاقه ، ولم تكن ثم مسامحة أو تهاون فى أى شيء ، وكان الرقباء يذهبون من بيت إلى آخر ليكتبوا التقارير عن سلوك السكان وعاداتهم ، وذلك ليكونوا جميعاً على ثقة من أن المذهب قائم التعاليم . وليقتنع أولئك وهؤلاء بقيامه .

وقد عوقب الكثيرون عقوبات صارمة على ارتكابهم ممنوعات تافهة ، واعتبر ذلك تنفيذاً لقوانين الكتاب ، حَكَمَ على ثلاثة بالسجن لأنهم ضحكوا أثناء إلقاء خطبة من أحد البروتستانتيين فى جنيف ، وأنب شخصاً تأنيباً رسمياً قاسياً لأنه قال إنه يفضل الخطيب السابق على الخطيب الجديد ، ومنع الرقص نهائياً ، وأغلقت الحانات ، وفى الساعات التى كان يقدم فيها النبيذ – وهى عادة تمتد حتى الساعة التاسعة مساء ، كان يفرض على الشراب مظهراً خاصًّا ، وفى بيوت الإنعاش – التى يقدم فيها الشراب المنعش المرطب – كان يفرض على الشارب أن يحمد الله قبل الشراب وبعده ، بل قبل ارتشاف أى كوبةٍ وبعده .

ولم يستمر هذا النظام الصارم أكثر من ثلاثة شهور ، ثم وجدت الحكومة نفسها مضطرة أن تعيد فتح الحانات ، ثم قام صخب عام ، ومطالبة بإعادة ما ألفوه من حالات الشراب .

وبالإضافة إلى العقوبة على الجرائم الكبرى من القتل والزنا ، والتخلف عن حضور الكنيسة فى أيام الأربعاء والخميس ، كان الشخص يعاقب لمحاولته الانتحار ، أو إحرازه نسخة – من الكتب المحرمة ، أو قول الزوجة لزوجها الميت عند قبره : نم بسلام ! لأن هذه العبارة تؤذن بأن لا جنة بعد الموت ولا عقاب ! كذلك فرضت العقوبات على الذين يعقدون عقد الزواج بين امرأة مسنة وشاب ناشىء . امرأة فى سن السبعين أو الستين ، وشاب فى سن الخامسة والعشرين ! إن هذا لأنه يحرم الأمّة من النسل .

ولكى يقبل هذا النظام القاسى العنيف فرضت العقوبات أيضاً على من لا يقبله . ففرضت عقوبات لمن يعترض على إعدام شخص لمخالفته أمراً دينياً ، أو من ينتقد أو يعيب عقيدة انتخاب ذوى النعيم من الله ، أو من يقول إن البابا رجل صالح أو جيد حسن ، أو من ينشد نشيداً مما يعيب كالفن أو يهجوه .

وقد كثر الذين أُوخذوا بخطاياهم حتى كانت تزدحم بهم ساحات المحاكم ، وساحة القصر الملكى ، ولكن قلما يفلت واحد منهم من غير حكم ، وكان ممن يزجون فى السجون أعضاء الجمعية النسّوية ، بل أعضاء المجلس الحكومى ، ورجال الكنيسة .. كل واحد فى جنيف كان عرضة لدخول السجن فى وقت أو آخر .

كان رجال الحكومة يراقَبُونَ وتحصى أعمالهم وطريقة سلوكهم كما يعامل المحكمون ! ومرة فى كل ثلاثة شهور كان يجتمع المشرعون رجال القانون الدينى فى مظهر يدل على المحبة ، والإحسان – ليعترف كل واحد منهم بآثامه أمام الآخرين ، وليعلن خضوعه واحترامه للقانون . وبهذا تحوّلت المدينة ذات الوحشية ، بل أضرى مدينة فى العالم مدينة الشيطان – إلى أرق وألطف مدينة ، صارت مدينة الله . ولكن المدنيين . وخصوصاً ذوى

الثراء – لم يستسلموا و لم يتركوا تصاريحهم القديمة ولا ما انغمسوا فيه من الترف بدون مقاومة . فقد كانوا يسمون كالفن فيما بينهم التمساح ، وكانوا يطلقون اسمه على كلابهم .

وفى إحدى المناسبات قرر جماعة العبيد العتقاء – ذوو السلوك المنحرف أن يتخلصوا منه نهائياً وأن يعيدوا الحكومة إلى رشدها القديم ، ولكن قادة المذهب كانوا قد أحاطوا بهذا التدبير ، وكانوا على علم بأساليب المكيدة ، فكان جزاء هؤلاء المتآمرين أن قطعوا إرباً إرباً ووزعت لحومهم على الميادين الكبرى ليراهم الآخرون ويتعظوا بهم .

أصبحت جنيف بذلك مدينة مقدسة ، بل لا قداسة لمدينة سواها .

لم يمض إلا قليل من الزمن بعد تطهير كالفن بيوت المدينة وفرضه الطهارة على الناس حتى وجد نفسه مغموراً بأشنع الدنايا ، كان بيته ملوثاً وهو لا يشعر ،– فقد اتهمت زوجة أخيه بارتكاب الفاحشة مع خادمه الأحدب ، واتهمت ابنة زوجته بالجريمة نفسها ، وإذن فقد جلله عار لايطاق ، و لم يسعه إلا الفرار من جنيف . ولكنه بعد قليل وبعد أن هدأت الشناعة عليه بعض الهدوء عاد إليها يتابع رسالته وكانت أشق وأعظم من موقف أى أسرة حالفها سوء الحظ ، لم تعد سعادة أى أسرة أو شقاؤها ليغشه أو يخدعه ، اصطنع القسوة البالغة فلا أحد من أقاربه الذين هم من لحمه ودمه ، هذا فضلاً عن الأجنبى يمكن أن يتوقع رحمة أو عفواً منه ،– لا رحمة أصلاً إذا وقفت الرحمة فى سبيل الواجب ، « إذا قاد الواجب إلى الموت فلابد من الموت » .

وسلك هذا المسلك مع العالم الكبير – ميخائيل سرفيتوس **Michael Servetus** . هذا الأستاذ الجامعى الذى تحدث عن الدورة الدموية فى الجسم قبل أن يتحدث عنها هارفى **Harvey** – بخمسة وسبعين عاماً . وكانت

جريمته أنه احتفى بمناسبة دينية من احتفاءات المذاهب التى تخالف المذهب البروتستانتى ، وقد اجتمع مجلس القسس فى جنيف وقرر أن هذا الهرطوقى الكافر لابد أن يشوى ويحرق على السيخ (السفود) وقد طلب كالفن من المجلس أن تكون عقوبة سرفيتوس أخف من ذلك ولكن المجلس أصر على رأيه ونفذت العقوبة كما أصر لقد كان من الشاق المحزن أن يُقتَل سرفيتوس هذه القتلة الشنيعة على إثم هين ، ولكن كان أشق على كالفن أن يستمر حياً . ولم يبال أن حرم الناس من علمه وفكره .

وفى السنوات الأخيرة من عمره كان يعانى مرض الموت الثقيل ، فكان يشكو صداعاً لايكاد يحتمله ، وكان يبصق كميات كثيرة من الدم . كان يذبل وينحل تدريجياً ، والحمىَّ الروماتزمية وآلام المفاصل تناله بالآلام الشديدة .

وما الذى أبقاه حيّاً ، ولأى شىء يبقى ؟

إنه لا يعيش لمجرد فكر فلسفى ، ولا لفكاهة يستمتع بها : كان يعيش فقط ليقتل الناس الذين يخالفون عقيدته !.

ثم مات : مات المستبد ، الظالم باسم العدالة ، والمنتقم باسم الدين .

* * *

جلس كالفن فى مكتبته الأنيقة فى بيته الصغير ، متجهاً بظهره إلى جبال الألب الشاهقة ، مشغول الذهن برسالته يسائل نفسه أى جزء أو مبدأ من مبادىء عقيدته سيبقى ؟ إنه لا يريد بقاء الأسياخ التى تشوى عليها اللحوم ، ولا الآلات التى تطبق على الأجسام ، إنها نتيجة موجات من الغضب ، وسيذهب الغضب وينسى مع أمواج الزمن ، فالزمن بَحْرٌ زاخرٌ متلَاحق الأمواج لا يهدأ هديره . لقد حدد الطريق لمجموعة من الناس . ووضح لهم المسلك الجديد .

فى القرن السادس عشر كانت الطبقة الوسطى من الشعب قد ارتقت إلى كراسى الحكم ، ووصل ذووها إلى أمكنة بارزة ينظر إليها التاريخ ، ولعبوا دوراً ليس قليل الأهمية ، ويكفى كالفن أنه قدم لهذه الطبقات الكادحة ديناً خفف عنهم قسوة ما كانوا يعانون ، وبث فيهم روح التضامن حتى صاروا كياناً حياً قوياً يستطيع الكفاح الجاد ليتبوأ مكان القيادة فى مجتمعه ، كما أنه قدم لهم تبريراً خلقياً يستحقون به الخلاص ، ويعوض ما عانوه من الجوع المادى . الصُّناع ورجال الأعمال والعمال قد استمتعوا بما قدم لهم . حياة ناعمة ، وتفكير عال ، وثقافة رفيعة ، وتعود على العمل الدائب .

اقتصاد جيد حسن ، رزانة وعفة ، سعة فى الإنفاق ، توفير وثراء ، أعمال صناعية .

حقاً إن المال يأتى بالمال ، والدولار يلد الدولار !.

هكذا استعرض كالفن أعماله المجيدة ، وهى براهين على أنه أتى بما لم تفكر فيه الكنيسة الكاثوليكية ، لقد مَنَّى أتباعه بالرخاء المادى ، وأباح لهم قبول الفائدة على المال ، وبذا لعب دوراً ليس قليل الأهمية فى نمو الرأسمالية فى سنوات نموها وظهورها . دع قديسى الكنيسة الكاثوليكية يحلمون بنعيم السماء فإن القديسين أتباع كنيسة كالفن يعنيهم أن يقفوا بثبات على الأرض ، إن العامل الكادح الذى يجهد نفسه ليبُذَّ جيرانه ، وليحصل على برهان أنه من المختارين ، يستطيع بصعوبة أو لا يستطيع أن يواجه الأغنياء ليثبت معاناته ، إن تمثال المجد يمنحه الله للعاملين ، وليس للوارثين .

لقد كان كالفن باعثاً حثيثاً للطبقة الوسطى ، وعاملاً حياً على استقلالها ، وقد منح المذهب الكالفنى البروتستانتيين الفرنسيين عاطفة التأمل والمضاربة ، كما منح الآخرين الأمريكان محبتهم بناء السفن والمضاربة فى الأسواق والأعمال التجارية ، وقد شجع هذا المذهب أحد أبناء جنيف —

وكان يحمل اسم كالفن – على منافسة الولايات المتحدة للحصول على جوائز كبيرة ولم يكن لمثله أن يقف هذا الموقف .

وقد امتدت فروع المذهب الكالفنى وتوزعت فى أطراف البلاد بينما كان هو جالساً فى بيته يكتب الرسائل إلى المجاهدين الفدائيين وإلى الملوك .

ومع أن كالفن كان دكتاتوراً فى جنيف وحاكماً مطلقاً ينفذ ما يشاء ، كان له أثر كبير فى التوجيه إلى قيام حكومات دستورية فى العالم الغربى كله .

« إذا أساء أى حاكم فى حكمه فقد أضاع حقه فى الحكم » .

وقد صاغ تلاميذه عقيدة « المملكة الشعبية » فى صيغ دستورية وواجهوا بها الملوك . وأعلنوا أنهم لا يحكمون بقانون الحق الإلهى ، وأن الحكم عَقْدٌ بينهم وبين الشعب ، وأن الشعب وحده يعطى حق الحكم ، ويحدد واجبات الحاكم ، وللشعب وحده تحديد نوع الحكم الذى يحكم به .

كان فى جنيف كثيرون جداً من البروتستانت الذين طردوا من بلادهم ، وقد بحثوا عن مأوى لهم فلم يجدوا فى غيرها ، وأخيراً وبعد انتصار المذهب رجعوا إلى مواطنهم ، لم يرجعوا مجرد مواطنين . ولكن رجعوا دعاة يبشرون بالمذهب الكالفنى ، مذهب الانتخاب من الله للجنة ، لا من البابا ، ودعوا إلى بناء الرأسمالية للطبقة المتوسطة ، والديمقراطية الحقة وتسهيل الطريق أمام المتسلقين المتنافسين سواء فى ذلك تسلقهم للمجد المادى فى الدنيا أو إلى رحمة الله والجنة فى الدار الآخرة ، بشّروا بإنجيل كالفن الذى يدعو إلى شيوعية التعليم وعالمية المعرفة والتعلم .

وقد كان من آثار المذهب الكالفنى فى جنيف أن الأتباع المحدثين ، والذين يعرفون باسم المتطهرين من أبناء مذهبه ، عندما رجعوا إلى نيوانجلاند شرعوا

فى التوّ عقب بناء منازلهم الأولى فى بنَاء الجامعة اللاتينية فى بوسطن ، وبناء جامعة هارفارد .

كان أعداء المذهب الكالفنى يترقبون فناءه بفارغ الصبر ، ويرون أنه مذهب ملحد لا ينبغى أن يبقى ، ولكن كالفن لم يمت ، ظل حياً فى دعوته وفى أتباعه ، تحدى عناصر الحياة الضرورية ونافسها فى البقاء ، ولم يكن بقاؤه يمثل مهمازاً يستحث به الناس ، ولكنه كان النور الذى يرعى كواكب السماء ، ويحفظها ويسَدّ مَسدَّها إذا غابت وليحفظ قوانين السماء الموروثة قوية جديدة .



□ جورج فوكس □

George Fox

١٦٢٤ - ١٦٩١

○ الأحداث الهامة فى حياته :

١٦٢٤ ولد فى درايتون - ليسترشاير Leisces tershire
١٦٤٤ انقطع عن الذهاب إلى الكنيسة
١٦٤٧ بدأ إرسالية السلام
١٦٤٩ سجن بتهمة الكفر
١٦٥٠ ألحق به اسم كويكر
١٦٥٥ قابل كرومويل
١٦٦١ بداية الاضطهاد ضد الكويكريين
١٦٦٩ تزوج مارجريت فِل
١٦٧١ أبحر إلى أمريكا فى إرسالية لجماعة الكويكر
١٦٧٣ عاد إلى إنجلترا
١٦٧٧ رحلته مع إرسالية إلى هولاندا وألمانيا
١٦٩١ مات فى ١٣ يناير

* * *

فى شهر يوليه سنة ١٦٤٣ غادر الشاب ابن العشرين محل الأحذية الذى كان يتدرب فيه ، ثم غادر قريته ، قرية فنى دايتون فى مقاطعة ليستر شاير ، ومضى يتجول هنا وهناك باحثاً عن الحقيقة ، سلك طريق الأنبياء من قبله -

موسى وعيسى وبوذا ، وغيرهم .

كان اسم هذا الناسك المتعبد المخاطر جورج فوكس ، شاب عناه منذ صغره أن يبحث عن الحق ، كان يشعر بخيبة الأمل فى حياته ، وكانت بيئته تدفع إلى البحث عن الإصلاح .

كان والده من الأتقياء يتمثل مراقبة الله له فى كل عمل ، أما أمه فكانت تنحدر من سلالة المجاهدين ، ومن هنا ورث هو نزعته الدينية ، وجد نفسه فى عالم لا يناسبه ، وفى دنيا لا صلاح فيها ، لم يستطع أن يهضم النظم الدينية ولا الاجتماعية من حوله ، لم يفهم سبب الوحشية السائدة ولا سبب المعاناة التى يشقى بها الناس . ففى البلاد الأوروبية كانت حرب الثلاثين قائمة على أشدها ، وفى انجلترا كان الملك تشارلس الأول ينتقم من أعدائه بطريقة وحشية ، كان يقتلهم ويضع رؤوسهم على شعفات القضبان الحديدية فى سور قصره ، حتى ضج البرلمان وصخب مطالباً برأسه هو .

وكان هناك رجال لا تذوق لهم ولا فهم للشئون السياسية قد انتزعوا من بين أسرهم وأقحموا على مراكز عليا فى الحرب الأهلية ، أما الذين بقوا فى بيوتهم ، ولم ينالوا مثل هذه المناصب فقد أرهقتهم الضرائب إرهاقاً ، نهبت دخولهم نهباً لتقدم لمحصلى الضرائب ، ولم يكن ثم قانون لفرض الضرائب ولا لتحصيلها ، فعندما لا تدفع على وجه السرعة ، كان محصلوها مخولين أن يدفعوا بهؤلاء الآثمين إلى السجون ، وأن يصادروا ما فى بيوتهم من فراش أو مقتنيات ، ومما يروى أنه فى بعض المناسبات اقتحم نواب الملك أحد المنازل ، فأفرغوا إناء كان به طعام طفل ، ثم أخذوا الإناء وخرجوا به !

من كل هذه الأعمال كانت الإنسانية التى تعانى ما تعانى من معلميها ومن ملوكها تبدو كالجسم المعلول الذى تنتابه الأوبئة العديدة، والذى بدأ

يتقيح ويذوى منحدراً تدريجياً إلى الموت .

كان هذا الشاب الحذَّاء جورج فوكس يمس كل هذه الانحرافات بل الأمراض ، ولم يطق الصبر على استمرارها ، وكان فى العشرين من عمره شاباً قوياً ، وكان ذا نفس حساسة ، فترك مهنته وأزمع الرحيل متجولاً باحثاً عن دواء لهذه الأمراض التى انتابت العالم كله .

ذهب إلى القسس الذين يدعون أنهم يعرفون الطرق التى تؤدى إلى الله ، ويعرفون حاجات الإنسان . عرض عليهم مطلبه ووضح موقفه ، وطلب إليهم أن يساعدوه وأن يرشدوه إلى طريق النجاة ، ولكنهم سخروا منه واتخذوه أضحوكة ، قال له أحدهم يجب أن تتزوج وقال له آخر يجب أن تنخرط فى سلك الجندية ، وأن تدع ما فى رأسك من اضطراب وهوس إلى ما فى الحرب من اضطرابات أوسع وأهم ، وقال ثالث موضحاً ومسهلاً ما يعتقده إن هذا الحذّاء ،– يجب أن يتخلى عما أعرب عنه من متاعبه نحو الإنسانية بتعاطى بعض الأدوية ومزاولة بعض الأعمال الرياضية ، ومن بين الأدوية التى وصفت له أن يدخن ، وأن يكثر من إنشاد المزامير ، وهكذا لم يستطع واحد من هؤلاء التجار الدينيين – على حد تعبيره – أن يفهمه ولم يكلف واحد منهم نفسه أن يفكر معه أو يفكر فيما شغله وما آسف إخوانه فى الوطن أو فى الإنسانية . ووصفهم هو بأنهم كأعجاز النخل الخاوية ، أو الطبول ، ليس لديهم إلا الأصوات العالية وقلوبهم هواء ، وأصواتهم لا تتعالى إلا بالنفاق ، « إن أرواح القسس الأرضية نغصت حياتى ، وعندما أسمع أصوات النواقيس تجلجل ليجتمع الناس أحس أنها تقرع كيانى وتزلزل حياتى ، لأنها لا تختلف عن نواقيس الأسواق التى تدق لأجل البيع . اجتمعوا أيها الناس اجتمعوا فإن القسيس سيعرض بضاعته » .

أما إنه يوجد خطأ كبير ، وواضح أن هذا الخطأ من هؤلاء

الدنيويين ، من هذه التعاليم الدنيوية التى تسمى دينية ، إن الرجل المثقف – فيما لاحظ – ليس من الحتم أن يكون مفكراً . ومنذ ذلك الحين لم يكن لديه شيء إلا التفكير فى هذا الغباء المتعدد المظاهر ، سواء من المعلمين أو من المبشرين الدينيين . وطبقاً لهذا اليقين فى نفسه قرر طبقاً لوصايا الله أن يقطع نهائياً صلاته بكل أولئك شباناً كانوا أم شيوخاً ، لأنهم ليسوا إلا مفسدين ، وحبس نفسه على الاتصال بالشعب فقط ليعلمه ويرشده ، وبعد أربعةأعوام من هذه العزلة وهذا التفكير وجد الإجابة لهذه الحيرة التى أتعبته وكدت عقله . وجد أن متاعب العالم ترجع إلى ثلاثة أسباب أو عناصر رئيسية ، ورتبها كما يلى :–

أولاً : أن الأمم المسيحية لا تعرف إلا قليلاً عن المسيحية .

ثانياً : يوجد كثير جداً من التكبر والوقاحة من زعماء الناس وكبرائهم ومقابل ذلك كثير جداً من الخضوع والامتهان من جانب الأتباع والمقودين .

ثالثاً – أن الإنسانية كانت كالجسم الذى ألحت عليه الأمراض ، فهى تنحدر إلى الفناء بسبب الحروب التى تستنزف حيويتها وتريق دماءها وتذهب بمالها .

ولكن على الرغم من أن العالم يعانى أمراضاً مميته ، فإنها ليست مستحيلة الشفاء « إنى أرى محيطاً واسعاً من الظلام والموت ، ولكنى أرى محيطاً لا نهاية له من النور والمحبة ، يطغى ويغمر كل هذا الظلام » !– وبهذا التفكير صمم جورج – إذا كان ذلك ممكناً له – أن يقود العالم فيستنقذه من بحر الظلمات والموت إلى بحر النور والحياة !

بما له من خبرة فى صناعة الجلود صنع لنفسه حلة من الجلد ، وكذلك قبعة كبيرة وضعها على رأسه ، لتقيه من الرياح والمطر والثلوج ، ولعل هذا

كان فى نظره نوعاً من الاقتصاد ، ثم مضى يعلم الناس طريق السلام وخلاص العالم الغبى من هذه الحروب .

وقد كتب كارلايل فى بعض كتبه : « قد يكون أهم حادث فى التاريخ الحديث هو هذا الذى أغمض عنه المؤرخون أعينهم ، ليس هو موقعة أوسترلايز ، ولا موقعة واترلو ، ولا بيترلو ... ولا أى موقعة أخرى ، ولكنه حادث صغير مر على معظم المؤرخين من غير أن يعيروه اهتماماً . وربما قوبل بشىء من السخرية من آخرين ، أعنى به ما صنعه جورج فوكس لنفسه من حلة من الجلد – هذا الرجل مؤسس جماعة الكويكر The Quakers – الذى لم يكن إلا صانع أحذية ، والذى كان خامة ساذجة لم تهذب ، بل صورة تحت التهذيب أو تحت التكوين ، كان فكرة إلهية عالمية تعرض نفسها على الغافلين ... وهو لذلك بحق يعد نبياً يحيطه الله ويمده بعلمه ،.. حتى أن محل الأحذية فى ليستر كان مكاناً أكثر قداسة من الفاتيكان ، « استمر فى صنعتك يا جورج ، أيها الرجل النبيل ، فكل « غرزة » تغرزها بآلتك الدقيقة الصغيرة إنما هى طعنة فى قلب العبودية ، إن عبادة الدنيا واتخاذ الشيطان إلهاً ... هى العمل المتبع ، يوجد فى أوربا كلها شخص واحد حر ، وأنت هو هذا الشخص » .

هذا النبى ذو السراويل الجلدية الذى ، كان فى أكثر أحيانه ينام خلف كومة من القش ، فى الحقول الرطبة ، واضطر لمدة أعوام أن ينام على الأرض الرطبة فى أعماق السجون ، هو مؤسس وقائد أعظم حزب وأكبر جيش فى العالم يدافع عن السلام .

كانت جماعة الكويكر فى عهد جورج فوكس أكبر جماعة محاربة لأجل السلام ، وجهادها على شدته كان سلاماً ، هؤلاء الفوضويون الدينيون الذين كرهوا الحكومات وعارضوها كانوا صانعى السلام فى القرن السابع عشر ،

كانوا أشجع الجنود التى حاربت لحرية الإنسان فى العالم كله على الإطلاق ، ثم نالوا النصر النهائى أخيراً من غير أن يريقوا قطرة دم .

* * *

وفى خلال ست سنوات بعد ذلك ذهب إلى الخارج مع فرقته المسالمة متجولاً بين المسيحين ليحولهم إلى المسيحية الصحيحة ، وقد استطاع حينئذ أن يجمع حوله مجموعة من الأتقياء رجالاً ونساء ، عرفوا حينئذ باسم « الستون الأبطال ، **Valiont Sixity** » . وبعد عامين فقط نما أتباعه حتى صاروا خمسين ألفاً كانوا حقاً الجيش المسالم . وسموا أنفسهم أبناء النور ، أو جماعة الأصدقاء وفيما بعد أطلق عليهم اسم الكويكر **Quakers** — بمعنى المهتزين أو المرتجفين،وهو لقب أراد به خصومهم السخرية منهم ، لأن واحداً من البارزين بينهم أعلن أن فوكس جعل أعداءه يرتجفون ويضطربون لسماعهم كلمة الله .

كانت جماعة الكويكر تنتقص عادة بأنها الجماعة المخنثة القذرة — ذلك بأنهم رفضوا أن يسهموا بنشاط فى الحياة ، وكانوا دائماً يتحاشون الحرب ويخافونها ، وفى الواقع قصة الكويكر من أشد قصص المغامرات إثارة ، فجورج فوكس وأتباعه الذين خرجوا على القوانين المتبعة لم يهربوا من تيَّار الحياة ، بل على العكس من ذلك واجهوا الحياة بتصميم وثبات وحاولوا بمجهود عظيم أن يجعلوا الدنيا مكاناً أفضل وأرق ليمكن العيش فيها بسلام ، لم يكونوا على العكس مما افترض فيهم يؤمنون بالمقاومة السلبية للشيطان . لقد برروا وزكوا بالحجة أعظم نوع من المقاومة ، مقاومة اللسان الذى رفض أن يسكت عن الحق ، لم يرهبهم انتقاص الآخرين ولا السجن ولا استعمال العنف معهم حتى الموت نفسه لم يرهبهم ولم يقف نشاطهم ، يكفى أنهم أظهروا احتقارهم للمدافع الملكية إذ رفضوا أن يخلعوا قبعاتهم أمام الملك ، ومن كلامهم

« إنه توجد نفحة إلهية فى كل إنسان ، ولا ينفع الإنسان أن تحتقر نفسه أمام أخيه الإنسان » طلبوا من السادة المالكين أن يطلقوا سراح العبيد المسترقين تحت أيديهم ، عابوا على القسس تكبرهم وبخوهم عليه ، قرّعوا القضاة على حيدهم عن العدالة . وكانوا دائماً على استعداد أن يواجهوا الموت إذا كان موتهم يمحو الباطل ويعيد الحق إلى نصابه . وكان من أخطائهم فى نظر خصومهم أنهم قبلوا ملابسهم التى اختاروها بدون مبالاة بالنقد ، وعندما صُك جورج على وجهه وسال عليه الدم لأنه طلب من الناس أن يكونوا إنسانيين كان فى استطاعته أن يمسح دمه ، وأن يكف عن الكلام ، ولكنه لم يفعل و لم يتراجع قط ، إن لديه أسلحة أقوى وأشد بكثير مما لدى أعدائه وبأسلحته هو يستطيع أن يخوض معركته ، إنها أسلحة المنطق التى يكافح بها فى سبيل الحق والعدالة .

فى إحدى المناسبات ركلته الأرجل وطرح على الأرض ، وأشبع ضرباً وركلاً حتى أغمى عليه . ولكنه عندما استعاد شعوره نهض واقفاً ناشراً يديه ، وقال لخصومه : اضربونى ثانياً ، هذا رأسى ، وهاتان يداى ، وهذا وجهى ، اصفعوا خدى بما تستطيعون من قوى — وكان هناك بعض من البنائين الأحرار ، فأخذوه بكلامه وضربوه ثانياً بعصاه الغليظة التى كان يتوكأ عليها ، ومع كل ذلك رفض أن يتخذ ضدهم إجراء قانونياً ، إنه لا يريد معركة شخصية ولا انتقاماً لنفسه ، إن حياته هو لا تعنى شيئاً فى معركته المستمرة لأجل حرية العالم ، ومن كلامه : إذا الله سامح مهاجمى وأعدائى فلأى شىء أشق على نفسى فى محاسبتهم ، لماذا لا أسامحهم كما يسامحهم الله .

ما كاد جورج يتسلم رسالته — رسالة السلام — حتى زج به فى السجن ، وكان سبب سجنه كما قصه على طريقته الساخرة أنه قال للناس عارضوا السيد المسيح واتبعونى ، ذلك ما اتهموه به — ومنذ أن قبض عليه

وسيق للسجن أول مرة حتى نهاية حياته كان وقته مقسماً بين التبشير بمذهبه وبين الإقامة فى السجون ، وفى الجريدة التى كان يصدرها كتب وصفاً لبعض « الزنزانات » التى ألجىء إليها لأجل جريمته وهى محبة رفاقه ، مكان قذر تنبعث منه الرائحة الكريهة ، وكان المسجونون يلبسون ملابس رثة مليئة بالحشرات حتى إن إحدى السجينات كانت تشكو لدغات القمل حتى قضى عليها منه فماتت . ولم يكن القسم الذى هو فيه أردأ الأقسام ، فقد كان الدخان ينعقد على الجدران كما تنعقد شابورة الندى ، وكان سجنه فى الطابق السفلى يعلوه طابقان ، وكان محكم الإغلاق ، وكان الذين فى السجن الأسفل عندما يتكاثف الدخان يستطيعون بصعوبة أن يصعدوا إلى سجن غير مغلق ، وذلك خوفاً من الدخان ، ولذلك كان مقيداً بهذا الدخان الكثيف .

ويضيف جورج فى فكاهاته وصراحته ، أن مأمور السجن فى يوم من الأيام جاء إليه فى سجنه ، وكانت زنزانته تعبق بالدخان حتى أن المأمور بصعوبة جداً تلمس طريقه للخروج ، ولأنه كان بابوياً كاثوليكياً قال له جورج هذه هى الأعراف التى وضعونى فيها ، يريد أنها بداية الجحيم ، أو المطهر الذى يتطهر فيه المذنبون . أعراف من الدخان والقذارة .

وتحدث مراراً عن سجنه فقال : إن الأمطار كانت تتساقط على فراشه وتبلله ، وعندما كان يخرج لعمل شىء يمنع هذا المطر فى فصل الشتاء القارس البرد كان قميصه يبدو مبللاً ومتسخاً مما يتساقط عليه من الماء القذر ، ويقول : « على هذه الحالة كنت أبيت وأضع جنبى طوال هذا الوقت ، شتاء بارد قارس ، وتساقط أمطار ، وقاسيت ذلك كله ، حتى تجمد جسدى ، وتورمت بعض أعضائى ، وخدرت أطرافى » .

لم يكن هذا كله إلا صورة مبسطة من السجون العديدة فى الدولة ، ولم يكن الذين يعانون هذا العذاب فى سجن جورج أقل من ستين شخصاً ،

وقد أمضى فى هذه السجون نصف حياته .

لقد كان الذين يخشون الله من الإنجليز فى القرن السابع عشر يعنون بكلابهم أكثر مما يعنون بالمساجين ، وقد عرض كثيرون من أتباع جماعة الكويكر أن يضحوا بحرياتهم ، وأن يدفع بهم إلى السجن طول حياتهم فى مقابل إطلاق سراح جورج ، ومنحه حريته ! وكان الحكام ورؤساء السجون ينظرون إليه على أنه شخص خطر على المجتمع .

لقد كان يريد السلام للدنيا ، ولكنه لذلك اعتبر كافراً وخائناً وأثيماً ، ولهذا أبقوه فى السجن ، وعاملوه على أنه يعوق فكرة السلام وقالوا إنه يضرب السلام على رأسه بهرواته الغليظة .

كانوا كلما ظنوا أنه قد شفى من دائه وعدل عن دعوته أطلقوا سراحه ولكنهم لدهشتهم البالغة يجدونه قد خيب ظنهم ، وأنه مصر فى عناد بالغ على دعوته لخير الإنسان الطبيعى الذى خلقه الله له ، فيعيدونه إلى سجنه ، ثم يعاودون الكرة نفسها ، وهكذا دواليك : وعلى الرغم من قوة بنيته استطاع السجانون أخيراً أن يوهنوا قوته ، وأن تنال أعمالهم من صحته ولكن لم يستطع أحد أن يضعف روح الجهاد وقوة العزيمة التى كان عليها . إن بذور نزعته العقلية ، واتجاهه الحاد إلى تحقيق حرية الإنسان قد نبتت وازدهرت تحت أكوام السبخ وظلمات السجن الإنجليزى .

ويجد زائر السجن — فى زنزانة الموت التى كان بها جورج — مكتوباً على الجدار وصفاً موجزاً فى عبارة قصيرة كتبها رئيس الكويكر ، وهى « إننى لم أكن قط فى سجن ، لأن سجنى لم يكن إلّا وسيلة لإخراج الجموع الكثيرة من سجنها .

* * *

ما هذا الذى جعله يحتفظ بشجاعته طوال هذه المعاناة التى عاناها ؟ .

لقد أجاب جورج فوكس نفسه على هذا السؤال .، قال : لقد قيل لى (فى الرؤيا) إن الله لديه أعمال كثيرة مدخرة لى لأعملها من أجله قبل أن يقبضنى إليه ، ولكنه من خلال عمله لله وجهت إليه التهمة أنه يعمل ضد وطنه ، وعندما كان أوليفر كرومويل يحكم انجلترا بطريقته الدكتاتورية ، اتهم جورج فوكس بإقامة ثورة وبالعمل على الإطاحة به ، وفى الإجابة على هذه التهمة أرسل خطاباً إلى كرومويل قال عنه :

« لقد قلت له فى هذا الخطاب ما توقعت أنه يبرئنى ، أنكرت أننى حملت أو أشرت بحمل سلاح مادى ضده أو ضد أى إنسان كائناً من كان ، ذلك أننى مرسل من الله لأقف شاهداً ضد أى عمل من أعمال العنف ، وأن أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولأحول بينهم وبين أسباب الحرب والشجار لأقودهم إلى الإنجيل الذى يدعو للسلام .

وعجب كرومويل لهذا الإنسان الغريب فى تصرفاته . فطلب حضوره إليه ، واقتيد جورج إلى القصر الكبير فى الساعة السادسة صباحاً ، وكان الدكتاتور لا يزال فى حجرة نومه وفى نصف ملابسه ، فحياه بالتحية التى تجرى عليها جماعة الكويكر ، « السلام على هذا المنزل » وابتسم كرومويل ابتسامة باهتة تنم عن أسى فى نفسه ورد التحية .

دار الحديث بين رجل السيف ورجل الدين عن مسائل كثيرة ، من الدين والسياسة والحرب ، وكان كل منهما دهشاً مما يجده لدى الآخر من تواضع ومواساة ، كلاهما من الثوار وإن كانت الثورتان مختلفتين ، كلاهما يهدفان إلى غرض واحد ،– كل منهما يدعو للتحرير ، كامل العقل يقظ – وكانت مظاهر الصداقة وروابطها تبدو عليهما معاً – ولكن كان يوجد فارق جذرى فى طريقتيهما ، كان كرومويل يستحث العالم إلى الشعور بالعدالة ،

بينما كان فوكس شغوفاً أن يملأها بمشاعر الرحمة ، وقد كان قائد جماعة الكويكر فى بعض تصرفاته ومن بعض الاعتبارات « كروموبل » آخر ، ولكنه كان كروموبل بريئاً من الإجرام ، ولم يلوث بشيء من دماء وطنه .

ولما انتهيا من حديثهما وهم فوكس بالخروج أمسك كروموبل بيده ، وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وقال له : عد ثانياً إلى بيتى ، لأننا لو اجتمعنا معاً كل يوم ولو ساعة واحدة ، فإننا سنقترب كل منا من الآخر وأضاف أيضاً إننى لا أود تعباً لك أكثر مما أود لنفسى ..- وأجاب فوكس على الفور : إذا أنت فعلت هذا فإنك لن تظلمنى ولن تسبب لروحى متاعب ، وفى إنذار أو تنبيه أخير قال له إنه يجب أن يخلص قلبه من الظلام الذى يوشك أن يغمره نهائياً ، وخرج النبى صانع الأحذية من حضرة النبى ذى الجنود والحرب .

ولقد نسى كروموبل بسرعة نصيحة - قائد « الكويكر » - ولم يكن فى بيته أى سلام ، حتى عظامه بعد موته لم يقدر لها الاستقرار فى قبره ، وكان قد دفن فى الآبى ، ولكنه أخرج منه ، أخرجه الشعب الغاضب عليه ، وسحب فى حبل وقطع جسده أوصالاً ثم دفن فى حقل من حقول الطين الذى يصنع منه الفخار .

وهكذا كانت نهاية الدكتاتور الذى أراد أن يحصل لنفسه على مجد خالد ، وأن يمتع أمته بالحرية ، واتخذ السيف وحده وسيلة لما أراد . انتهت ثورته إلى الموت ، ولكن ثورة السلام التى قادها فوكس كتب لها ولاسمه الخلود والقوة فى أنحاء العالم .

* * *

تغير الحكم فى انجلترا ، وجلس على عرش الدولة الملك شارل الثانى ،

ولكن جماعة الكويكر الذين اتهموا من كرومويل بأنهم يدبرون المكايد ضد الجمهور أصبحوا الآن متهمين بأنهم يدبرون المكايد ضد التاج . وكان اضطهادهم جارياً بين الناس كأنه لعبة من لعب الرياضة التى يمارسها التلاميذ . اضطهدهم رجل الدين ورجل السياسة ورجل الحكم ، وزجوا فى السجون لسبب ولغير سبب ، وبين حين وآخر كان يوجد فى السجن نحو خمسة عشر ألفاً ،– وكان الكثيرون منهم أقل طاقة وجلداً من فوكس ، ولذا أصابتهم الأمراض ونالت منهم السجون ولكن شجاعتهم وصبرهم على ما يلاقونه فى السجن ، جعل السجانين ومضطهديهم ينظرون إليهم بنوع من الرعب الخرافى . فقد غالبوا سوء الحظ ، وبدا لأعدائهم أنهم شىء شاذ ، فكان تعسفهم يقابلونه بالمقاومة العنيفة مع الكلمة اللينة ، وبالإهانة البالغة والابتسامة الرقيقة ، وبدا فى بعض الأحيان انهم سحرة جاءوا من العالم الأعلى ، وقد حدث مرة أنه بينما كان جورج سجيناً ، وضعوا حارساً بجانب المدفأة كى يمنعه من الإفلات أو الطيران من المدفأة .

وأكبر عدد من الحراس شجاعة فوكس وأعجبوا بها ، وتأثروا جداً بشخصيته ، بل عرضوا عليه رياسة الحرس إذ هو انتظم فى سلكهم ، وقد بذلوا كل ما لديهم من القوى ليتحول إلى جماعتهم فلم يفلحوا ، ولكن على العكس من ذلك نجح فوكس فى تحويل عدد من الجنود إلى جماعة الكويكر ، ومن بين كبار الإنجليز المشهورين الذين حولهم فوكس إلى جماعته . وليام بن **W . Penn** – حوله فى هدوء من قوة السيف إلى قوة الروح .

كان وليام ابناً لأدميرال بريطانى ، وكان نحيفاً رقيق المظهر ، ولكنه كان فخوراً بغمد سيفه البراق . اتخذه دائماً حلية تذكره بأيامه الحربية ، ولكنه تدريجياً كان منفعلاً بمذهب الكويكر وما فيه من رقة وحب للمساواة . وبدأ يتشكك وينبو عن حليته العسكرية ، ثم توسل إلى جورج ليقدم إليه

بعض النصائح فيما يختص بهذا المظهر ، وقال له جورج : البس سيفك بقدر ما تستطيع . وبعد بضعة أسابيع قابله فى الطريق فوجده لا يحمل سيفه ، فقال له مبتسماً : أين سيفك ، وأجاب وليم : لقد لبسته بقدر ما أستطيع !

* * *

فى ١٨ أكتوبر سنة ١٦٦٩ تزوج فوكس من مارجريت فِلّ . M. Fell – وهى أرملة القاضى فل ، وكا جورج يعرف أسرة فل من نحو سبعة عشر عاماً وكانت مارجريت – وهى أم لثمانية أولاد – عضواً فى جمعية الأصدقاء ، وقد فتحت منزلها الواسع لاجتماعات الكويكر ، ولها من قبل معهم ماض مشكور .

سبق للسيدة فل أن توسطت لإطلاق سراح المسجونين من أبناء الكويكر ، ودخلت السجن من أجلهم مرتين أو ثلاثاً ، وهى سيدة نبيلة بالوراثة من أسرة ذات مكانة وثراء ، وكانت جذابة الحديث ، مثقفة ، ناجحة موفقة إلى درجة عالية .

كانت رئيسة جمعية نَسوية ، وضيفاً كريماً ذا مكانة فى القصر الملكى ، ولكنها ضحت بهذا كله من أجل جماعة « فوكس » التى كانت فى نظرها لا تقبل جدالاً حول صلاحيتها واتجاهها السليم ، وقدرت أتباعه الفقراء ، ذوى الملابس الرثة والتشرد فى أنحاء البلاد .

كان عمرها عندما تزوجت فكوس خمساً وخمسين سنة ، ولكنها كانت لاتزال تتمتع بجمالها ، أما هو فكان عمره ستاً وأربعين سنة ، وكان واضحاً أن زواجهما لأجل التعاون على الجهاد ، وقد قدم الملك لهما هدية الزواج أمراً بسجنهما .

كان زواجهما – ربما – أعجب زواج فى التاريخ ، كان إلى درجة

كبيرة زواجاً بالمراسلة – فهما عندما لم يكونا مسجونين ، كانا متفرقين فى جولاتهما للتبشير بإنجيل السلام ، وعاشا زوجين اثنين وعشرين عاماً – لم تكمل مدة اجتماعهما فيها إلّا أقل من خمسة أعوام ، ولكن كان يوجد بينهما مشاعر عميقة ومحبة ، وتدل الرسائل المتبادلة بينهما على أن تفكير كل واحد منهما الأول كان يتجه إلى راحة الآخر وسعادته . وفى يوم من الأيام تسلم منها مبلغاً من المال ، وطلبت أن يشترى به معطفاً ثقيلاً ليستدفىء به ، ولكنه فى الحال ذهب فاشترى وشاحاً قرمزياً جميلاً لها ، وقال إن عزيزتى وحبيبة قلبى فى حاجة إليه أكثر مما أنا فى حاجة إلى المعطف .

كان دائما يكتب إليها فى رسائله عزيزتى حبيبة قلبى .

ومرات كثيرة عندما كان يبدو منهكاً مستنفذ القوى ، كانت زوجته تستحثه أن يقيم فى قصرها قليلاً للراحة ، ولكنه لم يكن ليخلد إلى الراحة طالما كان أمامه اقناعات يجب أن تنفذ ، أو ظلم يجب أن يصحح .

وفى إحدى المناسبات عندما كان – وكانت السِّنُّ قد تقدمت به ، سمع أن مجتمعاً للقضاة منعقد فى بلدة تبعد عنه ثمانية أميال ، وكان اجتماعهم للنظر فى أجور العمال والخدم ، فصمم على الذهاب إليهم ، ولم يكن ذا قدرة على استئجار جواد يرحل به ، فأخذ – على كبره يجرى إلى هناك – وتقدم إلى القضاة يخاطبهم فى لغة أنيقة مهذبة ، يرجوهم ويستحثهم ألا يرهقوا العمال والخدم بأجر ضئيل ، كذلك اتجه إلى العمال يستحثهم على أداء واجبهم وإتقان عملهم . وهكذا ظل ما عاش يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم للدعوة إلى السلام .

وفى سنة ١٦٧٠ – سمع أن جماعة من الكويكر فى أمريكا يعانون مشقة ومعاملة خشنة ، فصمم على الإبحار إليهم ، وكان سفره إلى القارة

الجديدة فى مركب شراعى أشبه بالقصعة ، وكانت قصعته تسمى اندسترى Industry (الصناعة) .

كانت السفينة شراعية تنضح الماء مما اضطر ملاحها ومعاونيه أن يستمروا فى ضخ الماء منها ليلاً ونهاراً خوفاً عليها من الغرق . يضاف إلى هذه المتاعب أخطار الرياح والأمواج ، ولصوص البحار ، وظلت السفينة . إن جاز أن تسمى سفينة – لعدة أيام مطاردة من القرصان ، ولكن السفينة بمهارة الملاحين نجت من العواصف ، وأفلتت من القرصان ، – وقال جورج : إن الله أرانا أن قوته وحمايته كانت تحول بيننا وبين السفينة التى كانت تطاردنا ، وبعد ستين يوماً فى هذه المتاعب وصلت السفينة إلى الشاطىء ، ووصل نبى « الكويكر » إلى مدينة « باربادوس » على ساحل البرازيل الغربى الإنجليزى .

عانى فوكس فى هذه الرحلة كثيراً ، كانت حمى الروماتزم تضايقه طوال أيام الرحلة وحتى بعد أن وصل إلى الشاطىء ، ولكنه لم يلق بالاً إلى هذه الآلام الجسدية ، واعتبرها شيئاً هيناً فى سبيل رسالته . ولقد كان مواظباً على عمله أثناء إقامته فى السفينة وظل محافظاً عليه حتى ألقت مراسيها ، وغادرها إلى البر ، كان يدعو رفاقه المسافرين ويعرفهم بإنجيل السلام ، وحالماً خرج من السفينة شرع فى بناء منزل لجماعة الكويكر فى إقليم الأنديز الغربى ، وأعلن استقلال العبيد السود هناك . وكان هذا الإعلان ذا أهمية كبيرة ، فهو أثر كبير فى وقف الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ ، وجعل العالم كله ينصت لجورج فوكس سنة ١٦٧١ .

واصل بعد ذلك رحلته إلى أمريكا الشمالية الأرض الرئيسية للقارة الأمريكية .

كانت المستعمرات الأمريكية فى مسيس الحاجة إلى مجىء فوكس ،

فقد كانوا ذوى حماس بالغ أن يجعلوا القارة الجديدة خالصة للدينيين الأطهار المتشردين ، ولكن الآباء الأولين الذين هاجروا إليها جعلوها غير ملائمة بوجه ما إلى دعوة الكويكر ولا تتوفر فيها لهم السلامة ، ففى بوسطن المدينة الدامية الملعونة شنق أربعة من دعاتهم . هم :

وليام روبنسون ، مارمادوك ستيفنسون ، وليم لدرا ، ومارى داير .

ولم يكن لهم أى ذنب إلا أنهم دخلوا مدينة ماساتشوستس Massa Chusetts بدون موافقة حاكمها ، وعلى غير هوى منه ، وفى المدينة نفسها ألقى فى السجن رجال ونساء لما اتهموه به من التهور الطائش الأحمق ، وكان كل تهورهم أنهم قدموا كوبة من اللبن لأحد المنتمين إلى جماعة الكويكر . وفى دوفر (الأمريكية) حكم على ثلاث من النساء ، أن يربطن فى مؤخرة عربة تجرها الخيول ، فيسحبن على الجليد ، وتطوف بهم العربة خلال تسع مدن إنجليزية جديدة ، وأمر رجال البوليس فى هذه المدن أن يسوطوا أن يستوقفوا هؤلاء المشردين وأن يضربوهم بالسياط على ظهورهم ما يزيد على عشرة سياط لكل منهم ، ويفعل بهم ذلك فى كل مدينة ، وأن ينقلوا من يد شخص إلى آخر يوالى عليهم الضرب .

هذا الأمر وقعه العادل الشريف ريتشارد ولدن ، ونفذت بواسطة المبجل مستر راينور .

وعندما وصل فوكس إلى أمريكا ، استطاع أن يعمل أشياء هينة يسكن بها قلوب المحافظين من رجال الدين ، ولكنه عمل كثيراً لتشجيع رجال الكويكر ، وليقوى عزائمهم ، وفوق ذلك ثبت فى قلوبهم حكمته ، حكمة الاحتفاظ بعدم الخوف تجاه الأقوياء ، والرحمة والعطف إزاء الضعفاء .

وفى تاريخ الكويكر الطويل لم يعرف أنهم خضعوا لأحد . وفى الجانب

الآخر لم يقهروا أحداً أن يخضع لهم ، وإنه لمن الجميل ومن الحق ، أن نلاحظ الحقيقة أنه خلال الخمسة والسبعين عاماً لسيادة الكويكر فى بنسلفانيا – وهو العهد الذهبى لهدوء المستعمرات الأمريكية ، لم يوجد هندى واحد واجه غشاً أو خديعة من شخص من أتباع الكويكر ، وأيضاً لم يقتل واحد من رجال الكويكر بيد أحد الهنود .

* * *

عندما رجع فوكس من أمريكا استراح لمدة قصيرة ، ثم بدأ من جديد عمله فى سبيل الدعوة التى وقف حياته لها ، مسألة العدالة الاجتماعية والسلام .

سافر إلى هولاندا وإلى ألمانيا ، متقبلاً الإهانات ومحتملاً المشاق على ما تعود فى سبيل ما اقتنع به ، ولم يفتر قط عن العمل المضاعف لنشر رسالته . وكل ما كان يعنيه هو تأسيس التسامح الدينى والسلام العالمى .

وكسب نصف المعركة فى سنة ١٦٨٧ – أربعة أعوام قبل موته ، ذلك أن الملك جيمس Iames الثانى ، نشر إعلاماً ينص على حرية التفكير ، وحرية الخطابة فيما يتعلق بشئون الدين .

أما بالنسبة للنصف الثانى من معركته ، فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع أنه سيحقق أيضاً ولكن بعد وفاته ، لأن الرمال التى يقف عليها قد ذهبت مع تراجع المياه بعامل الجزر .

وفى يوم من أيام الصيف فى سنة ١٦٩١ ، ألقى خطبته عن السلام فى اجتماع عقد فى شارع Grace Chuech – فى لندن ، وعاد بعد انتهاء الاجتماع إلى بيته ، ولكنه شعر بالبرداء ، تهز جسمه وترعد قلبه ، واستلقى على فراشه هادئاً وقال للذين معه : خلال أيام قليلة سأكون صحيحاً ، وكان

يعتقد ذلك ! وحدث رفاقه عما يجب أن يعملوا – مهما حدث لى فإنكم لابد أن تستمروا فى رسالتكم ، انشروا دين الحياة بين إخوانكم فى كل مكان ، عرفوهم أنه لا يوجد فى العالم كله إلا معبد واحد هو قلب الإنسان ، إنه هنا فقط ، لا فى السماء فى الأعلى ، ولا فى الأبراج التى على الأرض ، ستجدون أن الله يستقر فيه ، إن الله فى كل قلب إنسانى ، لأنه بالنسبة للرحمة ، الإلهية جميع الناس متساوون ! وخفت صوته ثم سكت وقد علم تلاميذه من قبل ، أنها عبادة صامتة ، وأن الإنسان فى هذا الصمت يسمع صوتاً خافتاً هو صوت الحق . وعندما ظن الذين حوله أنه استغرق فى نومه ، عاد ثانياً يتكلم ، قال : إن هناك محيطاً واسعاً من الظلمات ، وفيما وراءه محيط أوسع من النور ، وخفتت كلماته حتى لا تسمع إلا بصعوبة ، قال : فى النهاية أنا نقى ، أنا نقى كل النقاء .

وحينئذ علم الواقفون من حوله أن قائدهم وزعيمهم قد اجتاز محيط الظلمات إلى محيط النور .

* * *

□ عمانويل سويدن بورج □

Emenuel Swedenborg

١٧٧٢ - ١٦٨٨

○ الأحداث الهامة فى حياته :

١٦٨٨ ولد فى ستوكهلم

١٧١٠ أكمل تعليمه فى كلية يوباسالا

١٧١٠ سافر إلى انجلترا و هولاندا وفرنسا وألمانيا

١٧١٦ عين مثمناً فى مجلس المناجم

١٧١٨ اخترع ماكينة لحمل القوارب على الأرض

١٧٢٤ رفض توليه كرسى الرياضيات فى جامعة يوباسالا

١٧٣٤ نشر مؤلفات فى الفلسفة فى ثلاثة مجلدات

١٧٤٣ كانت أول رحلة له إلى السماء

١٧٤٥ ترك العلوم الفيزيائية وانتقل إلى ميدان علم النفس

١٧٤٧ استقال من وظيفة المثمن فى مجلس المناجم

١٧٥٦ أكمل بحوثه عن أسرار السماء

١٧٦٨ نشر كتاب « الحب والزواج فى السماء » .

مات فى ٢٩ مارس سنة ١٧٧٢

* * *

ولد هذا العالم الكبير فى بحبوحة النعمة والرخاء ، وقد كان أبوه من

كبار القسس ، كما كان صديقاً لأسرة ملكية فى السويد ، وكان رجلاً ثرياً مثقفاً واسع الأفق العقلى مستنيراً . مرموق المكانة محترماً مبجلاً ، أما أمه فكانت على العكس من ذلك من طبقة متوسطة ليس لها ثراء ولكنها كانت ذكية ذات شخصية ، وكان أبوها مثمناً فى المناجم السويدية ، وكانت امرأة عملية جادة من شأنها أن تترك أثراً فى نفس الذين يشاهدونها أو يكلمونها .

وهكذا ورث سويدنبرج عن أبويه ذكاء وصرامة وإصراراً ممتزجة بالروح الإلهى ، والخلق الدينى الكنسى ، نظر أبوه ساعة ولادته إلى السحب السابحة فى السماء ، وقال إنى أسمى ابنى هذا عمانويل Emanuel . والاسم يعنى : « الله معنا » بينما نظرت أمه إلى حجمه لترى مقدار وزنه .

ولما شب عنى أبوه بتعليمه ، وقد تعلم حقاً تعليماً واسعاً ، ومنذ أيامه الأولى أبدى ذكاء حاداً وقوة شخصية ، وقال عن نفسه فيما بعد : إننى منذ فجر حياتى وفى أيام طفولتى أوحيت إلى والدىّ بما ملأهم دهشة منى وإعجاباً بى لقد كانوا يقولون : لا ريب أن الملائكة تتكلم على لسان هذا الصبى ،— ويقول مؤرخوه إن الملائكة لابد أنها ظلت تتكلم على لسانه فيما بعد ، لأنه فى سِنّ مراهقته صار كالطير المكتمل الريش ، دكتوراً فى الفلسفة ، وحصل على شهادته تلك من جامعة يوبسالا . وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان هذا النضج المبكر خليقاً أن يبعث فى نفسه التعالى والشعور بالتفوق على الأقران ، وهكذا اعتبر نفسه واسع العقل عميق الحكمة بالنسبة لأقرانه ،. وقال إن هذه الجامعة وهذا البلد قدَّما لى قليلاً من الفرص ، ودراساتى ليست مقدرة من هؤلاء القوم ، وكان أولى بهم أن يستحثونى على الاستزادة .

وانفعالاً بهذه الأفكار عبأ كتبه وبدأ فى رحلة نحو الغرب ، فقطع القارة الأوربية فجاب هولاندا وفرنسا وانجلترا . ولقد لاقى كثيراً من العناء

والجهد فى دراسته ، فعقله لا يكف عن التفكير ، ونشاطه الذهنى وطموحه وحبه للعلم – تدفع به إلى خوض التّيارات الفكرية التى كانت سائدة فى عصره . كتب إلى والديه وهو فى لندن إننى أدرس يومياً أعمال نيوتن ، وإنى شديد الشغف أن أراه أو أسمعه وبعد أيام قليلة كتب لهم ثانياً بالنظر إلى الدراسات الفلكية أحرزت فيها تقدماً واسعاً ، واستكشفت أشياء جديدة ستكون ذات فائدة كبيرة فى دراستها ، لقد استكشفت قاعدة لا تقبل النقض ، بها يمكن تعيين خطوط الطول الأرضية بواسطة القمر » .

كان دائماً يتبع الأهداف الأكيدة ، ويعنيه أن يجد جديداً موثوقاً به ، ولهذا كان يغير أماكن إقامته ليكون متمكناً مما يريد ، وقد قال لوالديه : « إننى فى البداية أقمت عند صانع ساعات ، ثم تركته لأقيم عند صانع كابينات ، ولكننى الآن أقيم عند صانع آلات حسابية » .

وقد قابل كبار العلماء والمفكرين فى عصره وترك فى نفوسهم آثاراً عميقة ، ولكنه ترك فى نفس والده انطباعات أكثر وأعمق ، كما سبب له اضطرابات ، فقد كانت أفكار رجل الكنيسة أن هذه العلوم والرياضيات التى شغل ابنه بها نفسه لن تؤدى إلى شيء ذى نفع ، ولا فائدة ترجى من ورائها . شاب مستنير فى الرابعة والعشرين له عقل يتألق بالعبقرية يعانى هذه المتاعب ؟! ولذا قرر رجل الكنيسة أن يرجع ابنه ثانياً إلى السويد ليتولى عملاً شريفاً ، ووظيفة مرموقة تلائم عبقريته . ولكن ابنه مصر على ملاحظة المعرفة !. واهتدى القسيس الكبير إلى طريقة بسيطة سهلة ، وهى أن يقطع عنه رفده المالى كى يضطر إلى العودة ، ونفذ بسرعة ما صمم عليه ، وكان وقعه على ابنه شديداً .

كتب عمانويل إلى أبيه : إننى أعانى الضنك ، ولقد تأخرت فى دراستى بسبب حاجتى إلى المال . أننى أعجب لماذا لا يبدى والدى عناية

بى ، إننى منذ ستة عشر شهراً أعيش على أقل من خمسين جنيهاً فى الشهر ، إنه من الشاق أن أعيش بدون طعام أو شراب أو أعيش عيشة الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون .

لم تكن هذه العيشة الجافة مما يناسب حياة عبقرى اخترع طريقة حديثة لقياس القمر ومعرفة حجمه ،– ومع كل ذلك استمر عمانويل مع مقاييسه وأعماله الميكانيكية . كان عقله شديد السعة لتخيل مشروعات سرعان ما يخرجها إلى حيّز الوجود ثم يزاولها لإظهار فوائدها عملياً .

أما بالنسبة لقرنائه ومعاصريه فكانت تخطيطاته ، ورسومه لاختراعاته الميكانيكية تبدو عمهاً وتخبطاً ، أو هى خيال شاذ وقطع من المعادن أشبع بها خياله ولا يمكن أن تكون لها حقيقة وأما بالنسبة لنا فى عصرنا الحاضر – القرن العشرين – فإننا ندهش ونعجب لما اهتدت إليه هذه العقلية ولمحته بديهة رجل يعيش فى عصر غير علمى ، عصر لم تتضح نهضته العلمية وهو القرن الثامن عشر .

إنه من خلال الموازنات الرياضية استطاع أن يهتدى إلى خطة وترتيب لسفينة يمكن أن تسير بركابها تحت الماء ، وتتجه إلى أى ناحية أو مكان تريده ، ويمكن أن تحطم أساطيل الأعداء ، وهم لا يشعرون إنها فى رسمه وتخطيطه ليست أقل من الغواصة المعاصرة ، ورسم كذلك خططاً أخرى لحمل السفن وتنقلها على الأرض الجافة ، وذلك بواسطة قنوات أو عيون .

خطط أيضاً لعمل بندقية أو مسدس يقذف سبعين طلقة تباعاً من غير أن يعاد ملؤه ، ولعمل سفينة هوائية تنقل الركاب فى الهواء .

هذا الاختراع الأخير بعث به إلى معظم العلماء الفيزيقيين البارزين فى السويد ، ولكنه لم يكن من السهل على العالم المستنير فى هذا الوقت أن

يهضم هذا الخيال ، واعتبره القوم نزقاً ، ولكن عالماً كبيراً عامله معاملة رقيقة ساخرة ، فقال : إن هذا الشاب الطائش الذى يريد الطيران بواسطة وسائل خيالية إنما يحاول شيئاً مستحيلاً ، وليس ما تخيله بأيسر من أن نعمل آلة تدور إلى الأبد ، وبدون توقف ، أو أن نحول القاذورات إلى ذهب ! ثم أرسل له رسالة مطولة فنّد فيها خياله الشاذ وآماله الواسعة التى ليست فى طوق الإنسان ، وقال إنه من الشاذ المستحيل أن تتخيل سفينة تطير فى الهواء .

وهكذا بقى سويدنبورج وحيداً حزيناً مع أحلامه التى لم يشجعه عليها أحد ، وهى فى الحق أحلام واسعة ضخمة تنبيء عن عقلية ضخمة كبيرة ، عقلية رجل من رجال العلوم والرياضيات ، وهبه الله سعة الخيال وقوة التفكير ، وليس لمعاصريه ما لديه .

والشيء الذى يجب ألا ينسى فى هذا المفكر الكبير الذى يعد من القلائل فى التاريخ كله هو أن معرفته العلمية كانت ترتكز على الإيمان والعقيدة . لقد كان مقتنعاً بأن آفاقاً جديدة . وأبعاداً جديدة ، وعوالم جديدة ، لا تزال خفية ، وهى تنتظر أن يكشفها تفكير وإيمان عقل إنسان مؤمن مفكر . كان يشعر شعوراً قوياً أن الحقائق العلمية محوطة بعالم فكرى لما يكشف عنه بعد . إن هناك فجوة بين عالم العلوم وعالم التفكير ، وأن العقل المؤمن الذى يتميز بالعلم والشاعرية هو الذى يستطيع أن يسد الفجوة بين العالمين ، وذلك بتحويل أفكاره إلى حقائق .

وهذا باختصار ما كان سويدن بورج – ابن الدين ورضيع العلوم – يحاول أن يعمله !.

كان بين رسومه للمزاول وأنصاف الدوائر وأجزائها رسوم للكاتدرائيات ، وفى تجاربه ورسومه منشور تنبثق منه الأضواء الملونة فتفيض

على المذبح فتضفى عليه بهاء ، وجلالاً ، ولابد أن تطلعه الشَّديد ورغبته فى تقريب المسافة بين قلوب الناس كانت هى التى أوحت إليه بفكرة السفينة الطائرة . ولكلا العالمَيْنِ هو مدين بفكرة الربط بين الأسر – وكان يقول : إن انفجاراً فى أحد العالمين يعنى خلقاً جديداً فى العالم الآخر .

* * *

عاد التلميذ المتجول أخيراً إلى وطنه ، ولكن السِّنَّ كانت قد تقدمت به ولا يزال بدون وظيفة ، وبذل والده أقصى جهده لِيساعد ابنه المتجول الضائع على الاستقرار والوقوف على قدميه فى الحياة . ولجأ إلى القصر الملكى السويدى ، واستطاع بجهد أن يضع حالة ابنه أمام الملك تشارلس السابع ، وكان أشهر ملك محارب ، وتفضل الملك فمنحه وظيفة فى مكتب المناجم الملكية ، وقبل الشاب الوظيفة .

وفى هذا الوقت حدث أمر كان له أثر عميق فى نفس عمانويل ، لقد وقع فى حب ابنة العالم الكبير السويدى الذى رفض من قبل اختراعه وعابه ، ولكن كبير رجال العلم . على الرغم من نظراته المتشككة فى طبيعة عمانويل المخترعة ، وافق على زواجه من ابنته الكبرى ، ولكن الفتاة لم توافق على رغبة أبيها ولم ترتض وجهة نظره ، ورداً عليها قدمت يدها لشاب آخر كانت تحبه – ولم ينزعج عمانويل لهذا الرفض ، وقال لوالد الفتاة : إنه لا يشعر بأى ضيق ، لأنه فى الواقع كان يحب الابنة الصغرى ، وَسُرَّ الوالد بهذا الموقف ، وفى الحال وضع عقد الزواج أمام ابنته الصغرى ، وكانت بعد لما تكتمل السنة السادسة عشرة من عمرها ، وطلب إليها أن توافق على خطبة عمانويل سويدنبرج ، وبيد مضطربة مرتعشة وقعت العقد بينما كان هواها مع غيره .

ومرت الأيام ، وكان هم عمانويل وهواه أن يقرأ كل يوم هذا العقد

الذى وضع الفتاة قانوناً فى حوزته ، وبعد أيام غير طويلة ذهب ليقرأ العقد كما تعود ولكنه لم يجده ، إنه ورقة ثمينة لديه ولكن كيف يجدها وأين ذهبت ؟ وكانت الحقيقة أن أخا الفتاة المحطمة المحزونة التى وقعت العقد على غير رغبة منها - قد تمكن من سرقة العقد وسلمه لأخته !

وهكذا تبين الشاب الذى استكشف أعماق القوانين الطبيعية أنه غير قادر على أن يستكشف النزعات الأولية فى قلب فتاة ، إنّها لم تكن تحبه ، وكان ينبغى أن يدرك ذلك منذ اللحظ الأولى ، كان الذى لديه من عالم الطبيعات كثيرا جدا ، ولكن ما لديه من عالم النفس قليل جدا . وبعد هذه الصدمة رأى أن يصمم العزم على ألا يقع فى غرام بعد ذلك ، فأقسم قسماً مغلظاً على ذلك وبّربه . وقد ظل مكتئباً لمدة ، حتى دراساته وقراءته لم تستطع إزالة خواطره الحزينة عنه ، ولكن عقله الكبير اتجه إلى حب من نوع آخر ، وخصوصاً عندما ظهر عمل هندسى كبير ، وكان هذا العمل مشروعات واسعة تتضمن تغيير الأروقة الملكية بإزالتها نهائياً وبناء قنوات ، واختبار المعادن المدخرة فى مخازن الدولة ، وبينما كان منغمساً فى التخطيط لهذه الأعمال المتشبعة وفى قمة انشغاله بها ، طرأ عليه شىء جديد ابتلع كل تفكيره ، وكان ذلك خطة جديدة جعلته يصمم على كتابة أشياء هامة عن فلسفة الكون .

فى هذا الوقت نفسه حظى أبوه - القس الكبير - بمقعد فى مجلس النبلاء ، وهو شرف كان يحلم به كل شخص ذى مكانة ، وهو شرف للابن أيضاً ولكن هذا الشرف السياسى لم ينجح فى إغراء ، عمانويل ويجعله يبتهج به ، فظل كما هو تلميذاً متواضعاً ، ومثمناً للمعدنيات بدون اسم لامع أو لقب ، ووجد أن من الأفضل له أن يخرج كتباً عن اللانهائية بدلاً من شغل نفسه بِعَدِّ أصوات الناخبين والنبلاء ، وبين حين وحين كان يتوسل إلى

الحكومة أن تمنحه إذناً بالتغيب عن عمله ليسافر إلى الخارج ، وعرضت جامعة يوبسالا منصب أستاذ بها عليه ولكنه لم يقبله ، لأنه كان يفضل أن يعمل حراً ، وأن يختار ميدان عمله ، بينما استاذيته الجامعة تقيده بمناهج وأعمال خاصة .

لم يكن عقله يقبل التقيد بقيود الفصول الدراسية ، إن معارفه وعقله مما يتسع للعالم كله !.

كان يبدو أنه يريد أن يكون شخصية ممتازة من بين شخصيات النهضة ، يريد أن يكون مثل ليوناردو دافِنْسى Lenardo Davinci – ولهذا شغل نفسه بكل شيء حوله . وحيثما ذهب كان يزور المكتبات والمتاحف ، وأروقة الرسوم والصور ، والكنائس . والأديرة والمصحات العقلية والمسارح ... » وكان المسرح فى نظره له قداسة كقداسة الكنيسة ، وأحب أعمال الشعراء بقدر ما أحب كلام الله .

كان عمانويل فى هذا الوقت يتمتع بصحة لا يتمتع بها معاصر له ، وكان كثير العطف والمواساة للآخرين ، ولم يكن تفاؤله ورجاؤه فى المستقبل أقل سعة من عطفه ومواساته ، وهكذا كان شديد الإيمان بوجوب بث الآمال والتفاؤل بين الناس . وكان له صلة وصداقة بمجموعة من ذوى الفلسفة والتشكك من الذين لا عقيدة لهم . ولكنه كان يؤمن بكل ما له من قوة إيمان ، وبكل رجولته بأن عقل الإنسان ذو طاقة لا نهاية لها ، ومن كلامه : « لا حدود نهائية أصلاً لمغامرات الإنسان وتقدمه ، عندما غامر كولب وعبر المحيط لم يكن ذلك بمساعدة الرياح والماء ، وليست الرياح هى التى أوصلته إلى القارة الجديدة ، ولكنها رياح ومياه إرادته وعقله الطموح .

وإلى هنا كان هذا العالم الفيلسوف قد وصل إلى نصف الطريق من

مغامراته ، ومن هنا بدأ ينظر إلى العلوم Science . نظرة ساخرة واعتبرها بعد كل الذى نال منها أعمالاً هزلية ، لم يَكن ذلك كله إلا خطوات أولية طبيعية لهذا النبى المخترع ، كانت أعمالاً مادية تتعلق بالمعادن وما إليها وعليه الآن أن يفكر فى اختراع علمى أسمى ، إنها علوم وراء هذه العلوم التى شغل بها من قبل .

بدأ الآن يخطط ويرسم لبحوث فيما سماه « اقتصاد مملكة الحيوان ، ثم فى دراسة شاملة مستقصية للجسم الإنسانى ، أسلوب بحثى وتحليلى لكل ما عرفه علماء التشريح ، وما أجروه من بحوث على الأعصاب والعضلات والعظام والدم ... ، ولكنه كان رجلاً فوق الرجال ، إنه لن يقف عند هذا الحد ، إنه ليس عالماً يصف ما فعل العلماء فهذا ليس فى نظره بحثاً ، ولكنه لابدّ أن يشرح ويفسر ويلتمس الأسباب والمسببات ، وكل ذلك يجب عمله من أجل مقصد أسمى ، وقال حينئذ « إننى صممت على أن أختبر – فيزيقيّاً ، وفلسفياً – جميع التشريحات فى الجسم ... ولكن المقصد الذى أريده من وراء ذلك هو الروح » – صمم على أن يستكشف حركة الروح وأثرها فى الأجسام على نحو ما فعل هارفى فى كشفه عن الدورة الدموية – وكل البحوث التى أجراها العلماء الطبيعيون من قبله لم تكن إلّا إعداداً لبحث أعظم !.

« إن الزمن فى أيدينا عندما نغادر الميناء ونوجه سفننا إلى عرض البحر » .

وجاء فى كتابه « عندما نبحث عن علل الأشياء وأسبابها ، ولنعرف أين تكمن القوى التى يعيش بها الإنسان ... لا أجد حيرة ولا تضليلاً ، ليس لدى العلماء إلا الاصطلاحات العلمية ، ولكن الرسالة الحقيقية لدى الباحثين فى علم الروح .

وربما أضحك العلماء ما هو عليه من تكبر وتعال إزاءهم !.

وقد كان من الخطير المهلك فى عهد البابا ألكسندر أن يتكلم شخص ما عن الروح الإنسانى .

وفى مقدمة كتاب لعمانويل هذا القسيس العالم الرياضى – اقتبس بكثير من الرغبة والشغف من الفلاسفة السابقين ، اقتبس من زينون الفيلسوف الرواق ، ومن سينكا .

إنه ولد ليخدم ولكن لا يستفيد منه إلا القليلون من معاصريه ، إنه فكر فى الشعوب التى كانت فى عهده ، ولكن آلافاً من السنين ، وآلافاً من أجيال البشر ستأتى بعده لتستفيد من نظراته وتفكيره وفلسفته .

* * *

نحن الآن أمام حادث من أعجب الأحداث وأغربها فى تاريخ الخبرات والتجارب البشرية ، فجأة تفتحت عقلية سويدن بورج عن أشياء جديدة غريبة لم تكن تحسب فى منهجه ، كما تنشق البيضة عن كائن حى لم يكن مرئياً ، كما ينبثق نور الشمس من وراء الأفق ، تحدّث إلى أصدقائه بأنه دخل ملكوت الروح ، وأنه خاض عالم ما بعد الموت ! فأثار دهشتهم .

كان حينئذ قد تجاوز الخمسين سنة أو فى منتصف الخمسينات ، وأصبح واحداً من علماء الفيزيقيا والرياضيات الملحوظين الممتازين فى عصره ، كان الناس ينظرون بدهشة إلى وجهه البرىء الطاهر ، وكانوا يرون فى عينيه نجماً لامعاً ، لابد أن سيكون له أثر فى الحياة ، ولكن إزاء تصريحاته العجيبة بدأوا يتساءلون ، هل هذا العالم الكبير فى حالة صحية مكتملة هل يقول هذا الكلام مخلصاً وفى صحة عقلية ؟ استمعوا إلى ما يقوله عالم الطبيعة وعالم العقليات لقد انتقلت تجاربه إلى مواد الحياة الصلبة. إنه يقول : لقد استطعت أن أرى وأسمع أشياء فى الحياة الأخرى ، إنّها أشياء مدهشة حقاً ، إنها معلومات لم تصل قبل إلى ذهن عالم أو أى إنسان !، إنها أشياء مذهلة عجيبة ؛ ولكنها متدرجة !.

لإعداده الروحى استغرق ثلاثة أعوام أليمة مذهلة ولكنها لم تخل من

نشوة وابتهاج ، خلال هذه المدة كانت تطرأ عليه أوقات شاذة يعتريه فيها النوم العميق ، والأحلام المزعجة أو السارة ، وفى مفكرته قدم لنا قصة بسيطة عن التغيرات التى طرأت على عقله ، قال : لقد رفعت إلى السماء تدريجياً وبنسبة محدودة ، وحال صعودى كانت مداركى وقدرتى على الفهم والإدراك تنمو تدريجياً أيضاً ، ولهذا تمكنت تدريجياً لأن أفهم أشياء لم أكن فهمتها من قبل ؛ كذلك استطعت أن أصل إلى الإجابة على غوامض لم أكن أتبيّنها ، عرفت حال الروح بعد الموت .

كان يبدو فى نظر الكثيرين أنه يُعانى حالة انفصام الشخصية ، ولكنه فى مظهره الخارجى ظل هادئاً عملياً ، محافظاً على عاداته ، كان يحمل مسدساً ، ويذر الذرور على شعره ، ويمشى وفى يده عصاً مذهبة ، ولكن فى حالته الداخلية كان قد تغير إلى بحر فياض من الأفكار ، وكانت أفكاره وتصوراته كأنما تنبثق من عقل منوم تنويماً مغناطيسياً ! ولكنه عقل مهذب مخلص ، يسمو به خياله إلى شعاف القمم الشعرية ، لم يعد الآن رجل العلوم ، ولكنه رجل روحانى ، وكان الناس يتحدثون بأنه يرى بمشاعره وبصيرته وأعين داخلية له .

وانسحب عمانويل من وظيفة مثمن فى المناجم ، ورجع من جديد إلى كتبه ومخطوطاته وأسفاره ، فكان يسافر ويتنقل بين أقطار أوربا ومعاهدها العلمية ، وأيضاً فى عالم الروح ، ودَوَّنَ نتائج رحلاته الروحية ، فى كتُب مثيرة ، وقال إن كتابته من توجيه الله .

وفى سن الخامسة والثمانين ، رجع أخيراً إلى بيته ، هذا البيت الحقيقى الذى تربَّتْ فيه عاطفته ونمت طموحاته .

* * *

أخذ سويدنبرج يعلن فى كلا العالمين – الشرق والغربى – فلسفة جديدة عن الروح وعن عالم الأرواح ، وقال إن الجسم الإنسانى فضلاً عن أنه شيء غير حقيقى ، إنما هو تمثال للروح ، أو هو على تشبيه أصح ثوب مادى لفكرة كامنة فى ذهن المثال الذى يصنع هذه الأجسام وهو الخالق – سبحانه – والجسم الإنسانى يشبه بائع اللعب ، والروح هى التى تحركه . وهو فى حدوده المادية ، طوله وقصره وامتلاؤه ونحافته . وغيرها – إنما يعرض ملامح وقسمات للروح ، وهو فى تغيره واعتلاله وفنائه يبين ضعف المشاعر الإنسانية . إنه لهذا السبب بث الله روحه فى جسم الإنسان المادى ، وبها تحول إلى إنسان ليعرف الإنسان أنه يحمل روح الله ، أو أنه إله .

ولأن الإنسان يتّصل فى كل شيء بالروح فإنه من السهل على الإنسان الواعى الخير أن يفهم ما هو الروح الحقيقى الذى يسيطر على الكون كله ، لأنه لا شيء موجود إلا وهو يمثل أصله أو الروح الذى به وجوده ، كل جزء من الجسم الحى ، سواء من ألْيافه وخيوطه أو من عضلاته أو غيرها إنما هو مثال لمادة روحية سواء فى الألياف والخيوط أو العضلات أو غيرها ، أو بعبارة أخرى كل شيء فى حياتنا هذه إنما هو انعكاس لمماثل روحى فى دنيا الأرواح ، كل التصورات والأفكار فى هذا العالم إنما مثلتها حقائق مادية ، كل الأشياء صورت من أصول روحية أبرزتها إلى هذا العالم ، وهى بالشّبه الروحى نفسه تبدو لنا .

وذهب عمانويل يضرب لأفكاره الأمثلة ويوضحها ، قال : إنه فى بذرة الشجرة توجد صورة الغابة ، وفى الدورة الدموية – فى جسم أى كائن حى – توجد العناصر الكونية للحياة !

وفى الحركة الدائبة من الولادة والموت ، والفناء والتجدد دلالة على ذلك . كل شيء فى نفسه صورة متقنة لصورة كلية عامة لهذا الوجود ،

القطرة من الماء تحتوى صورة ومادة للمحيط ،- وفى التفسيرات التى أوضحها أتباع عقيدة سويدنبرج ، اعتبر أمرسون أن الفكرة تتجمد حتى تصير فى لون بهيج يستحق التصوير ، وقال إن الوحدة الإنسانية فى كل شخص إنما هى عديد من الصور العُضوية المصغرة جداً ، فوحدات اللسان فى المخلوقات ، هى ألسُنٌ مصغرة ، ووحداته المعدات وحدات مصغرة لمعدات كبيرة ، والقلوب صور مصغرة ، وهذه الفكرة المثمرة المفيدة مفتاح لكل سر ... الإنسان مثال لكل شيء دقيق فى السماء والله إنما هو إنسان كبير : وهذه الفكرة هى كلمة السر للصورة العليا للكون !.

لقد وحدت الطبيعة من أصغر وأقل عناصرها ، نحن حقاً نعيش هنا ونحيا ، نمشى هنا وهناك وكل منا يمثل كوناً صغيراً ، فنحن أكوان عديدة ، ونحْمل كل العالمين ، السماء والأرض ونتيجة لذلك مملكة الله ، ليست إلا أنفسنا وحياتنا .

ولكن حتى إذا لم يكن عالمنا المادى هذا قد وجد ليكون دليلاً على وجود الخالق ، فإن خلق الكون مستمر ، وعالم الأرواح الذى هوَ فى توالد وتقدم مستمر ، لا يتوقف على هذا العالم المادى ! إن أرواح الأفراد وأرواح العالم تظل متحدة اتحاداً دائما بواسطة الحكمة والمحبة ، ولو قُدِّر لنا أن نستطيع رؤية الروح لرأينا أن الحكمة والمحبة هى الأعمدة الحقيقة التى يقوم عليها الوجود . وأن مواد هذه الحياة ليست إلا سحباً تكونت من البخار الذى يخرج من المدخنة – هذه حقيقة الحياة !.

وهكذا حمل الفيلسوف الحر الفكر جسده ، ومضى يتجول فى شتى الطرق بحثاً عن الحقيقة .

* * *

ترك عمانويل البحث فى علم الميتافيزيقا فى هذا الكون وتحول إلى البحث فى علم اللاهوت – انتقل من الأرض إلى السماء ، وكتب سلسلة من الكتب جعلت صورة المسيح أكثر بهاء ولمعاناً فى ذهن الإنسان ! وقد قرر أن الله زاره فى صورة من صوره العديده وأمره أن يعيد تفسير كلماته المدونة فى الكتاب المقدس ، ولهذا قام بهذا العمل بناء على أمر الله له . فعندما فتح النور الروحى عينيه ، شرع فيه !

« إن الكتاب المقدس يحمل معانى روحية كما يحمل معانى حرفية ، هذا لأنه يعامل عالم الروح كما يعامل عالم الأجسام !. وفيما سبق أخذت الكنيسة تعاليمها ومواقيتها من التفسير الحرفى ! ولكن القصص التى بالكتاب المقدس – وهى كما هى مكونة من الماديات الجسدية ، والفضاء والأرض والنّار ... ليست إلا طريقة الله فى التعبير عن الحقيقة الخالدة التى ليست بمادية ، وهى الروح ! وعلى سبيل المثال قصة سفر التكوين ، إنما هى مجرد مثال مادى للتعبير عن فكرة ، فالستة الأيام التى خلق الله فيها الكون تمثل ست مراحل ، أو درجات فالإنسان الذى لم يولد من أبوين جسديين ، نال المعرفة والمحبة ثم صار صورة كاملة لله على الأرض .

أول ما خلق بيد الله كانت الأسماك والطيور ، وهذه المخلوقات ، تمثل أول درجة من الحياة الروحية ، التى سادت فيها العقيدة والإيمان !، والحيوانات التى جاءت بعد ذلك تمثل وجه الحياة الروحية الذى تتمثل فيه المحبة والقوى الروحية ، وأخيراً جاء الإنسان تاج الوجود المسيطر على الكائنات الأخرى ، الروح المتجددة التى تحتضِنُ العقيدة فقط ، بل أيضاً لها القدرة على الفهم !.

والشجرة التى فى جنة عدن – التى أكل منها آدم – لا يجوز أن تفهم على معناها الحرفى ، فهى تمثل المعرفة الدنيوية ، والشعور بالفرح والبهجة .

« هذا النوع من الطعام خطر جداً على حياة الإنسان العليا » .

لابد أن تخضع العقائد التى فى الكنيسة لمثل هذا التفسير الجديد ! وبهذا الحماس أراد أن يعيد الدين إلى بساطته الفطرية ،– وقد طال جِدَاله على الأخص فى عقيدة التثليث الحرفية .

قال إن عيسى بعيد جداً عن أن يكون ابناً لله ، أو الأقنوم الثانى فى الثالوث المقدس ، ولكنه هو الله نفسه ، هو الله وحده فقط ، وبشخصه يُعبر عن الثالوث كله .

وقد أعلن مخالفته لما قاله كالفن عن القدر ، وقال إن خلاص الإنسان لا يرجع إلى عقيدته ، ولكنه يرجع إلى شخصيته وشغفه أن يعمل أعمالاً حسنة ، وليست الحياة التى تقود إلى الجنة هى حياة التخلى من أعمال الدنيا ، ولكنها حياة العمل فيها » وحياةُ الرحمة وحدها من غير بذل الصدقة ومساعدة الآخرين لا تقود إلى الجنة كما يعتقد الكثيرون ، ولكنها تقود إلى البعد عنها ، إن من واجب الشخص أن يحيا حياة اجتماعية ، وأن يعمل ما ينفع المجتمع ، لا أن يعيش حياة اعتكاف من أجل الصلاة .

إن المعارف العامة لا تصلح أن تكون صلة بين الله وبين العبد ، فليست هذه الصلة عملاً درامياً يبهر بألوانه الزاهية ، ويؤدى فى وقت معين وزمن معين ، ولكنها تنشأ من تداخل الروح الإنسانى مع الله – أو بعبارة أخرى هى إخلاص الأعمال لله ، ولكن الله لا يجتذب الإنسان إلى الأعلى أو يرفعه إلى السماء – هذه المعلومات والأفكار العامة ليست إلّا قصة أطفال كقصص الجن ، وإن حال الحياة الداخلية للإنسان هو الذى يصنع له جنته ، إن الجنة فى داخلنا وليست خارجة عنا ، ولن يدخل الجنة شخص لم يُدْخل الجنة فى قلبه ، وباختصار فإن الجنة هى امتداد لأعمال المحبة ، الحياة هى الحب ، والحب هو الحياة – الحب هو الحياة الحقيقية لكل شخص ،– هذا

النوع من (الحب الحياة) يظل حياً لا يقبل التحطيم حتى بعد الموت ، كما أن الشمس المتألقة على بيئة أخرى تحفظ حياة السحب فى بيئتنا الصغيرة ، ونظل نراها إلى وقت ما، إن أجسامنا حية لأنها تواجه الشمس– وهى المحبة، وتدور معها كما يدور عباد الشمس لمواجهتها ، كل ثوب للإنسان أو كم للزهر ، أو إطار يحفظ بذور الحياة يتجه تلقائياً نحو النور حتى يذبل أو يندثر أخيراً – هذا الغطاء الخارجى يمحى بحرارة الزمن والوقت ، لأنه لا يحتملها ، ثم من تحت هذه القشور تظهر الثمار الناضجة – كأنها حبات القمح الذهبى ، ولكن حبوب أو بذور الروح تحيا فى حقل لا زمن له ، ولا تتحطم بفعل الرياح أو الأمطار أو شدة الحر .

وهكذا استمر سويدن بورج يغمس يراعته فى بئر من الحساسية والفكر حتى بدأ يصف حياة ما بعد الموت – حياة ما بعد الحياة – حياة الخلود والبقاء للروح الإنسانية .

يقول عمانويل : إنه ظل لعدة أعوام على صلة بأرواح الماضين ومخاطبتهم ومخالطتهم كما نجلس نحن الأحياء على مائدة واحدة . وأكثر من هذا أنه كون صداقات مع معظم الصور للموتى الأحياء ، وكانوا يخبرونه بما هم عليه من حياة بعد الموت ، ويعرفونه أنهم ما زالوا يوالون حياتهم .

الموت ليس إلّا استمراراً للحياة ، وليس كما يظن الناس أنه عكس الحياة أو توقفها . إنه بكل بساطة استمرار لحياتنا الحاضرة ،– حقاً إنه من وجوه كثيرة يختلف عن نشاطاتنا الأرضية .

وقد قص فى أسلوب ووصف أنيق جذاب ، كيف كان تعجب أصدقائه – الأرواح – عندما قال لهم هو إنه يوجد كثير من الناس على الأرض يتشككون فى وجود مستقبل ، وقد كانت الأرواح شديدة الدهشة إزاء ما

قلت ، ولكنهم استرجعوا ذاكرتهم وقالوا إنهم أيضاً كانوا من المتشككين عندما كانوا فى عالم الحياة الجسدية .

« ما كان أشد غباءنا ، وحماقة طفولتنا ألّا نتحقق وألّا نعرف حتمية الحياة بعد الموت » .

واستمر سويدن بورج يقدم أوصافاً تفصيلية للحياة بعد الموت !.

لا يوجد ثم فاصل بين الحياتين ، ولكنها مسافة قصيرة ، أيام معدودة بين اضمحلال الجسم ومرضه والدخول فى الحياة الثّانية – حالما يموت الجسم الإنسانى ، يقاد إلى حالة خاصة وسط بين النوم واليقظة ، ولكنه وهو فى هذه الحالة لا يعرف إلّا أنه مستيقظ كل حواسه ومشاعره تكون متيقظة واعية كما تكون فى أكمل يقظة لها فى حياة الجسم ، وهكذا الرؤية والسماع واللمس – ويا للعجب – تكون أكثر بهاء مما كانت عليه فى حياة الجسم – ثم تأتى الروح الجديدة ، وبالتدريج يتعود على ما حوله ، ثم يزاول حياته مع كثير من الدهشة فى أول الأمر – ولكن الحياة التى يجد نفسه فيها تختلف قليلاً عن الحياة التى غادرها منذ قليل ، حتى إن كثيرين يرفضون الاعتراف أو الإيمان بأنهم ماتوا أصلاً .

والروح التى تصل حديثاً ، تجد نفسها قد لفت بجسد مثل الجسد الذى خلفته ، وهى تقابل نوعاً من المخلوقات كالذى تركته تماماً ، وكذلك يجد الشخص الميت حوله أشياء كالتى تركها ، ومناظر كالتى ألفها على الأرض من قبل ، وهو يتمتع هناك بمخلوقات أساسية للحياة .

بقى بعد كل ذلك فرق جوهرى لا يغفل ، إن حواسه أكثر يقظة وأقوى إدراكاً بل أكثر حياة مما كانت فى الدنيا . ومما يجب التنبيه إليه أننا لا ينبغى أن نخطىء فنظن أن الأرواح ليس لها هناك مشاعر وإحساسات أفخم

وأعظم بكثير مما لها فى هذه الدنيا وأثناء حياة أجسادها فهى هناك لا تملك فقط القدرة على الرؤية ، ولكنها تعيش فى ضوء باهر لا يمكن أن يقارن به ضوء الشّمس فى منتصف النهار ، وهى تتمتع أيضاً بقوة السماع ، ولها حينئذ من القوى والبهاء ، والفخامة مالا يقاس به ما كان لها على الأرض وهى حبيسة فى أجسادها الأولى ، والأمر كذلك فى رغبات الأرواح وتأثيراتها ، لا وجه لمقارنته بما كان لها من قبل . وفى كلمة لا يفقد الشخص شيئاً بالموت ، بل يظل شخصاً حياً بكل الاعتبارات ، ولكنه أكثر جودة وقوى مما كان .

ولا يصطحب الشّخص معه ما كان له من حواس ومشاعر فقط ، بل يأخذ معه أيضاً أفكاره وعواطفه وعاداته وتربيته النفسية ، وأخلاقه التى كانت معه ، وعلى سبيل المثال هناك أرواح تطلعت إلى مناظرة العلماء ، والحكماء الكبار من أبناء الأجيال الماضية ، وعلى الأخص فيما يختص بسعادة السماء ، وقد أوتُوا ما تطلعوا إليه ، فَقُدِّموا إلى الفلاسفة والحكماء والعلماء من مختلف الأمم والأجيال ، وناقشوهم وطال بينهم الجدال – وهم فرحون مسرورن – حتى أعيوا وكلوا ثم اعتذروا عن المناقشة وأرواح أخرى كثيرة من الأتقياء اقتيدت إلى الحياة الأرضية حيث رأوا أن الاجتماعات الدينية مازالت تمارس ، وأن إحياء أيام السبت ما زال مستمراً ، بل أكثر من هذا أن هذه الأرواح دخلت المعابد وأدت الشّعائر الدينية ، واستمرت هناك بقدر ما شاء لها سرورها . وفى أول الأمر كانت هذه الأرواح فى حالة نشوة وابتهاج ، ولكن بعد مدة طويلة من ممارسة العبادة وأعمال التقوى ، بدأ حماسها يفتر ، بَعضٌ خامره النوم وهز جسده ، وبعض استغرق فيه . وبعض تثاءب . أو صاح طلباً للخلاص والرجوع ، وكلها أنهكت وكلت من فرط ما بذلت من الجهد فى أعمال العبادة والتقوى .

وأخيراً أدركت الأرواح ما هى الطبيعة الحقيقية للجنة : إنها البهجة

والسرور من عمل شيء يفيدها ويفيد غيرها .

ولاحظ سويدن برج – بين حين وآخر – بعض الأرواح وسمعها وهي تصيح في شيء من الحيرة : أليس هذا هو العمل الرئيسي للإنسان الذي به يمجد الله ويسره سرور أبدياً ؟. ثم سمع أصوات الملائكة تجيب على هذا الاستفسار ، حقاً إن العبادة تقرب إلى الله : ولكن تعظيم الله وتمجيده شيء فوق ذلك : إن ترتيل الأناشيد وقراءة المزامير ليست إلا إحضار الثمار المرجوة من الحب أو إعداداً لها :

إن المؤمن حقاً – يجب أن يثابر وأن يكد ويجتهد في أداء العمل العبادي ، ففي هذا العمل محبة الله ، ومحبة الجيران ، وهذا هو قوام المجتمع وصلاحه .

كل هذه التشريفات للروح الوافدة حديثاً – فيما لاحظ سويدن برج – كانت في موقف بين الجنة والنار ، لأن الشخص لابد أن يقدم حساباً وأن يحكم عليه قبل أن يذهب به إلى أحد الجانبين .

ووصف موقف الحساب الذي تعاني فيه الروح محاكمتها ، ليس هناك محقق يستجوب الشخص ، ولا توجد قاعة محكمة ولا جلسة فيها قاض أو قضاه ، ولا بوليس يحفظ الأمن ويقود المحاكم ، ولكنها صحائف مدون فيها أعمال الشخص في الحياة تحضر أمامه فإذا هي تحوى كل ما عمل في حياته الأولى ، ثم بإطلاعه عليها يكون هو القاضي وهو الشاهد ، وهو الذي يقرر بنفسه المكان الذي يقضي فيه أيامه الآتية . وأن الله لا يقذف بأحد في جهنم . ولكن الأرواح التي قدمت ترى أعمالها السيئة تنجذب تلقائياً إلى النار ، وهي بنفسها تميل إلى هذا الاتجاه ، وهناك تجد مجتمعات تلائمها .

وفي أحيان كثيرة يسمح للروح الأثيمة أن تدخل الجنة إذا هي رغبت ،

ولكنها هناك لا تحتمل طهارتها . فتجد نفسها تلقائياً متجهة إلى جهنم .

وذكر شيئاً آخر ذا أهمية ، وهو أن الأرواح الشريرة لا تعاقب فى الآخرة على أعمالها السيئة فى الدنيا ، ولكن عقابها يأتى منها ، ذلك أنها حين تُبصَّر بسوء سلوكها وسوء أعمالها ، وحين تعرّف العمل الطيب والسلوك الجيد ، وحين تختار بنفسها حياتها المستقبلة ، وتشعر أنها لازالت منغمسة فى آثامها ، تكون هذه عقوبتها . وليس لدى الله ملائكة للعذاب ، لأنه – كما عرف – لا يرسل أحداً إلى جهنم ، أو يرغب أن يخرج من فيها ، وهو لا يدعو إلى العذاب ، ولكن لأن الروح الشريرة ترمى بنفسها فى جهنم يحول الله العقوبة والعذاب إلى شىء حسن .

وعذاب الأرواح أو نعيمها يحدث طبقاً للقانون الإلهى ، والرحمة الإلهية ، لأن رحمة الله تتسع لكل شىء، إنه ينظر بعين الرحمة إلى الشّخص الذى أذن بعقوبته ، كما ينظر بها إلى الشخص الذى أذن له بالسعادة والنعيم ، لأن الناس جميعاً مخلوقات ضعيفة بقطع النظر عما يبدو منهم فى إقامتهم المحدودة المؤقته فى الدنيا .. والملائكة لا تشير حتى بالأصبع لاحتقار شخص كان أثيماً ، ولكنه يتمتم حين ينظر إلى الحفرة التى سيلقى الأثيم نفسه فيها : « إننى لست هنا لشىء إلا لرحمة الله » وهو يذهب حتى أبعد من حدود الرحمة ،– وعندما يعذب الشخص السيىء الحظ تكون هناك ملائكة لتوجهه إلى الدرجة التى يستحقها ، ولتخفف الآلام عنه .

ويستمر الفيلسوف الصوفى السويدى فى وصف يشبه لمسات المسيح التى كانت تشفى وتبارك فيقول : كل شرير له حد معين . حتى فى جهنم ، حتى الشياطين وهى فى جهنم إلى الأبد ، تمنع من اقتحامها أعماقاً أكثر مما تستحق ، لأن القانون الإلهى يقضى ألّا يعاقب شخص بأكثر مما عمل ، وألا يكون فى وضع من الآخره أسوأ مما تستحق أعماله السيئة .

ويقتضى الحديث أن نمضى من غير أن يكون هناك قول ، أن هذا القديس « فرانسيس » السويدى[1] قد أوجد مكاناً فى الجنة لجميع الناس ذوى الضمائر والأعمال الطيبة سواء كانوا مسيحين أو غير مسيحين ، هذا لأنه لا توجد كلمة واحدة فى الكتاب المقدس تنص على التّفرقة بين شخص وآخر . ولا بين أُمّةٍ وأُمَّة ،– ولذا تفسح الملائكة للجميع فى الجنة طبقاً لأعمالهم ، والملائكة لا تفرق ولا تحفل بشخصية إبراهيم أو إسحق أو يعقوب ... ولا ترى أى فارق بين يهودى وأُمِمّى ، ولكن الفروق ترجع إلى صفات الناس وشخصياتهم .

والأطفال جميعاً – سواء عُمِدّوا أو لم يَعَمَّدوا – يساقون تُوّاً عقب موتهم إلى الجنة ، هنالك تقوم الملائكة على تربيتهم وأداء حاجتهم ، وبعد فترة التربية الروحية ، يذهب الصالحون والصالحات إلى الأماكن التى باركها الله ، بانجذاب تلقائىّ .

ويصف سويدن بورج مناظر الجنة وصف شاهد عيان ، ويقول : « لقد أذن لى أربع مرات أو خمساً أن أدخل الجنة – إن الجنة بكامل شكلها وهيئتها إنما هى شخص واحد ،– هو الإله –. كل مجموعة من الملائكة .. فى أعمالها ووظائفها تكون جزءاً من جسمه ، تماماً كما يعمل القلب والكُلى ، وعروقُ الدم والعضلات ... يؤدى كل منها وظيفته حفاظاً على الجسم الحيوانى ولبقائه حياً وصحيحاً .

حقاً إن الذى قدمه سويدن برج للناس إن هو إلا جسم سماوى ، جسم سماوى إنسانى إلى درجة كبيرة .

تدخل الأرواح الوافدة حديثاً الجنة – وهذه آخر وأسمى مرحلة لها ؛

---

(١) أى عمانويل الذى يسبه القديس فرانسيس .

إنها أسمى المشاعر وأطهر الرغبات ! وتدل قسمات الوجوه ومظاهر الجسد على ما فى العقل من براءة وطهر ، وحالما يدخل الشخص الجنة يقابل بالدهشات السارة واحدة بعد الأخرى لما يرى من أنواع النّعم والمسرات ! لا يجد فقط الحب الزوجى متبادلاً بين الذكور والإناث من الملائكة ، بل إن الزوج والزوجة – اللذين أحب كل منهما الآخر فى الدنيا ، يتجدد حبهما فى الحياة الأخرى فى الجنة ، والحب الجنسى هو أطهر نشاط فى الحياة الأخرى ، والمحبون فى عناقهم يكونون فى حالة ملائكية ، حين يتعانق الزوجان المحبان يكونان مَلاكاً واحداً ، وإذا كان الزوجان غير متحابين فى الدنيا ، فإنه يسمح لهما أن يتجولا فى جنبات الجنة ليجد كل منهما رفيقاً ملائماً له ، وفى الجنة الواسعة والجموع الحاشدة فيها لابد أن يجد كل منهما قريناً يندمج به ، لأن الأرواح المتشابهة ينجذب بعضها إلى بعض ، ويجد كلٌّ مشابهاً له فى الشكل والملامح وأيضاً فى القلوب والصفات . وأى شىء فكر فيه الشخص فى الجنة يجده أمامه ، وبكل صفاته ، ظاهره وباطنه ، وإنه من المستحيل أن يخفى القلب الطاهر أو الرأس الشريف لساناً وقحاً .

فى هذه الأرض الجديدة النّقية التى تتمناها القلوب لا تنتهى المحبة بين المقيمين بها ، ولا تقاس الحياة هناك بتوالى الفصول ومرور السنين ، أو بما يظن أنه يظهر على الوجوه من التجاعيد ! فالذين يدخلون الجنة لا يشعرون بالزمن ، ولكن فقط تتغير الأوضاع والمناظر ! الفصول هناك لا تقاس بالزمن . ولكنها تقاس بحالات القلب ، فعندما يكون الشخص مسروراً ، فهذا فصل الربيع والفجر ، وعندما يكون محزوناً فهذا فصل الشتاء والليل ، وكذلك لا يوجد هناك مسافات ولا فضاء ، وعندما يرتحل شخص من مكان إلى آخر يستطيع أن يصل بسرعة إذا هو أراد وعلى مهل إذا هو أراد – إن الرغبة فى قلب المحب تحضر حبيبه إلى جانبه . الحب هناك هو المحور الذى

تدور حوله نجوم الجنة الخالدة – لا يكبر أحد هناك حتى يصير عجوزاً ، أو على الأصح أن الشخص هناك حيث يصير مسناً يصير بالعكس أكثر شباباً – كل شخص وكل جسم يتقدم باستمرار إلى وقت الربيع من شبابه ، ولهذا تبدو أكبر الملائكة سناً أكثرهم شباباً ، والنساء اللائى يمتن عجائز قد انهكتهن السنون .. ولكنهن كن يقدمن الإحسان للجيران فى الدنيا .. يعدن إلى سن الشباب المزدهر ، وإلى جمال يزيد عن كل ما يتصوره من جمال فى الدنيا .

هذه صورة الجنة التى انعكست على مرآة سويدن برج ، والتى اعتقدها وآمن بها والتى يقول عنها إنه لا يوجد أبداً .. أبداً .. أرض تماثلها .

هل كانت هذه الجنة حلماً رآه ؟.

ولم لا يكون ذلك ؟ ومن الذى يستطيع أن يقول على سبيل التأكيد أنه لا توجد أرض مثل التى رآها ؟ .

إن الشخص فى أحلامه جنة أو سماء ، ولا ريب أن سويدن برج ، وقد أعماه الضوء – ضوء الأحلام – وضع يراعته وصور أحلامه .

* * *

عندما انفجرت هذه القنبلة من رجل يتصف بالإنسانية ، كان انفجارها على عقيدة متحجرة فى القرن الثامن عشر ، وقد أصم معظمُ الناس آذانهم عنها ، وأغلقوا قلوبهم دونها ، إنها عقيدة تصور التسامح العام الكلى ، وتسمح حتى للبوذيين والمسلمين واليهود أن يتمتعوا بنعيم الجنة .. إنها ينبوع خطر على كل روح مسلح فضلاً عن أرواح غير مسلحة ، خطر حتى على القديسين .

وقد وزع سويدن بورج كتاباته على النّاس فى أنحاء القارة الأوربية

كلها ، وطلب تفسيرها مرات متتالية ، ولم يسمع أى صوت يجيب – فيما ذكر ، لقد جرؤ أن يتخطى سلطان الله ليقول : إن الشيطان فى أسوأ ما يعمل – لم يكن إلا بشراً .

وبالتدريج وصلت آثار هذا الانفجار كبار المفكرين والكتاب : إمرسون ، هوثورن – كارلايل – نورو ، كوليردج ، ديكونسى ، جوث ، ماترينك ... إلخ وكذلك وصلت إلى شعراء كبار وفلاسفة وصوفيين ورجال أديرة .. وأخيراً استطاعت قوة الخيال من هذا الفيلسوف العالم أن تصدع ما كان سائداً من تحامل ، وأن تفيض على العالم كضوء الشمس ، إنه ضوء فكر جديد ! وعقول تجمعت فى ألوان من العبادة .

يوجد فقط – نوعان من الشعر التى يتحدث عن الحياة والموت – الكوميديا الالهية التى كتبها دانتى Dante ، وقد رسمت فى ألوان زاهية من النار والحرارة فتنت عقول الناس ، ورؤيا سويدن بورج ، وهذه رؤيا عن السماء وعن الجنة وقد مست قلوب الناس ، لأن هذا الشّعر رسم بفرجون الرحمة على أقمشة من الدموع !.

* * *

□ جون ويزلى □

John Wesley

١٧٠٣ – ١٧٩١

○ الأحداث الهامة فى حياته :

١٧٠٣ ولـــد فى امبروث – لنكوليشاير

١٧٢٤ حصل على درجتــــه الجامعية – (أكسفورد)

١٧٢٨ حصل على درجة قسيس

١٧٣٥ أبحر للتَّبشيرِ فى جورجيا

١٧٣٨ رجع إلى انجلترا

١٧٣٨ انقلب إلى عقيدة (المسيح هوَ المخلص)

١٧٣٨ أسس جماعة النظاميين Methodist . Society

١٧٤٧ أول رحلة إرسالية إلى أيرلاند

١٧٥١ أول زيارة إرسالية إلى اسكوتلاند

١٧٥١ تزوج مارى فيزيل

١٧٧٤ نشر مجموعة أعماله فى ٣٢ مجلداً

١٧٨٠ أسس مجلة النظاميين وقد سماهـا أولاً المجلـة الأرمينيـــة (Arminian Magazine)

١٧٩١ ألقى آخر خطبة تبشيرية له فى ٢٣ فبراير

١٧٩١ مات فى ٢ مارس

* * *

ولد جون ويزلى لأم متشددة قاسية ، بل لعلها من أشد الأمهات

الإنجليزيات تشدداً وعنفاً ، وكانت بنتاً لقسيس منشق مخالف للكنيسة ، ولكن الحياة الروحية وتقاليد الدين كانت غالبة عليها ، وكان لها تسعة عشر ولداً عنيت بتربيتهم تربية روحية ، وفى سبيل إذكاء الجانب الروحى فيهم لم تبق على أجسامهم . ولم يعنها الجانب الصحى أو التربية البدنية لهم ، كان موقفها بينهم موقف الجنرال العسكرى بين مجموعة محدودة من العساكر المسيحين ، ولم تكن المعركة التى تخوضها فى سبيل تنشئتهم على الطريقة التى تريدها شاقة أمامها .

وتمتاز أسرتها بكثرة النسل . فقد كانت هى الولد الخامس والعشرين لوالدها ، وكانت دءوباً على القراءة والعمل ، وقد تعلمت دستور المسيحية الذى يوضح تعاليم الحياة الباقية الدائمة ، وحيث أصبحت أماً تشرف على عدد من الأولاد مارست تعاليمها معهم ، كان الولد من أولادها حين يبلغ سنة واحدة من عمره – وربما قبلها بقليل يعرف ما هى العصا ويخافها ، كما كانوا جميعاً يُعَلّمون ألا يرفعوا أصواتهم بالصياح والبكاء ، ولهذا كان من النادر جداً أن يسمع صوت ناب فى البيت .

وكل طفل عندما يبلغ الخامسة من عمره ، كان يمنح يوماً يتعلم فيه حروف الهجاء ، ثم يعلم كيف يقرأ الفصل الأول من سفر التكوين : فى البداية خلق الله السموات والأرض ...

وكان هذا أول موضوع من تعليمهم العقلى والأخلاق .

وفى السنة السادسة من أعمارهم ، كان الواحد يقضى ست ساعات يومياً فى فصل الدراسة ليتعلم العقيدة المسيحية .

وفى كل أسبوع كان لها خلوة أو مؤتمر مع كل واحد من الأطفال على انفراد ، وقد يكون من الشاق الصعب أن تصدق أنها كانت فى كل ربع عام – كل ثلاثة شهور – تنظر فيما تعلمه الطفل ومقدار ما حصل عليه

من المعلومات ، ولكن طاقة الأطفال ، وما كان لهم من جودة الصحة كانت تسمح بتَقدمهم الدراسى تقدماً مستمراً .

كان جون هو الابن الخامس عشر من أولادها - وهم كلهم جامعيون ، وكانوا إذا صلوا دعوا الله أن يحفظهم لخدمة الدين والنّجاة من النار ، أما جون فكان يرى أنه نجا من النار ، ويريد الدخول فى جنات النعيم ، ويرجع ذلك إلى حادث حدث له أثناء طفولته ، ذلك أن ناراً شبت فى مبنى الأبروشية ، فهرع الذين بها إلى الخارج وخرج إخوة جون سالمين خارج المبنى ولم يخرج ولما أحاط بهم من الذعر والارتباك نسوا جون فى الداخل ، ومرت لحظات قبل أن يتذكروه ، ولكن القسيس رمى بنفسه وسط اللهب فأخرجه سالماً ، واعتبر جون نفسه بهذا قد نجا من نار الآخرة ولم ينس أبداً أنه فى هذه اللحظات كان بين ذراعى الشيطان ، وأن خلاصه من النار فى هذا الحادث خلاص أبدى .

* * *

فى سنّ العاشرة دخل مدرسة دينية ، ولكنه وقف نفسه لدراسة جادة ، دراسة شاب قوى ذكى ، أبوه كان رئيس كنيسة ، وأمه تعرف اللاتينية واليونانية ، وإذن فعليه أن يتابع هذه الرسالة العلمية ، وخيل إليه أنه يحمل على كتفيه الصغيرين ذنوب البشر جميعاً - ولم يكن هذا الشعور يعنى أن رفاقه فى المدرسة الذين أقل منه فى طهارة أرواحهم - كانوا يقضون مرحلة طفولتهم فى هذه المدرسة وهم خليو البال ، قليلو الأعمال فى هذه المدرسة ، ولكنه حمل نفسه فوق ما كانوا يحملون ، فهو ابن سوزانا ويزلى ، وكان يشعر أن سنواته العشر كانت إضافة إلى مسئوليات البشرية التى جمعتها آلاف السنين ، وكما يرث الوليد من آبائه دمامة الخلقة وبشاعة المنظر ، كان جون يحس أنه ورث عن البشرية منذ آدم سوء الأخلاق واعوجاج السلوك ، وعدم

الإحسان للآخرين .

ولم تكن له فترة طفولة أصلاً ، فهو عند السابعة عشرة من عمره كان يشعر شعور الرجل المسنّ – دخل وهو فى هذه السن كنيسة المسيح Christ Church . فى أكسفورد ووقف نفسه على العبادة والقربى إلى الله بكل أنواعها ، وكتب إلى أمه عن جدول أعماله اليومية من التأمل والعبادة ، وقد وضع إذ ذاك قانوناً ذهبياً : هو « اعمل لله كما تحب أن يعمل الله لك » .

وحصل على درجته الكنسية ، ودخل كلية لينكون (Lincoln) على أنه أحد المواطنين الذين لهم حق دخول الكلية ، وكرجل دين . واتباعاً لخطوات أبيه قبل أن يعمل قسيساً راعياً لأبروشية فى الأقاليم . ولكنه ما لبث إلاّ قليلاً حتى مل هذه الوظيفة ، إذ تبين من نفسه أنه لا يصلح لرعاية الجماهير ، ووازن فى نفسه بين منهج الدراسة الشاق الذى كان يقوم به فى أكسفورد ، وأعمال العبادة والتأمل التى كان يؤديها فى معتكفاته ، وبين الحياة البسيطة التى يعملها قسيساً فى قرية فوجد أنه يضيع وقته فى حياة بطالة وحطة لا تناسب مثله ، ولذا صمم على العودة إلى أكسفورد ليعكف فقط على النّسك والعبادة ، ونفذ ما أراد .

لم يكن ثم من يصلح رفيقاً له فى عمله غير الله ، إنه شاب جامعى طموح قوى الجسد لا يمل العمل ليلاً ونهاراً . وانقطع عن الدنيا نهائياً ، وكانت رغبته ألّا يتصل بأحد ولا يخاطب أحداً غير خالق العالم .

وفى يوم من الأيام طرقت أذنه كلمة عارضة ، مجرد كلمة بسيطة من أحد رفاقه القليلين . قال له : « مستر ويزلى ، يبدو لى أن خدمة الله لا تكون بمثل هذا الانعزال وحياة الوحدة ، بل لابد من وجود قرناء تبشرهم وتعرفهم الطريق إلى الله ، ليس فى الكتاب المقدس شىء عن دين العزلة والانفراد » !

ملاحظة بسيطة كالنسيج الذى لم يهذب ، ولكنها نالت من نفسه .

وشىء آخر يستحق أن يلاحظ . وهو أنه فى هذا اليوم ، ولد القديس الإنجليزى فرانسيس .

* * *

فى رحلة قام بها ويزلى إلى لندن ، هيأت له المقادير أن يعد أول إرسالية له تقوم بتبشير الجماهير ، ذلك أنه قابل أحد رجال الجيش فى مارلبورو ، وكان يدعى جون أو جلثورب J . Oglethorpe . وكان هذا الرجل ذا ذكاء حاد وكان شعوره الاجتماعى وألمعيته نحو الإصلاح كحد سيفه . فاقترح على ويزلى أن يؤسس مستعمرة جورجيا فى الدنيا الجديدة ، وأن يقيم بها مبشراً ، وألا يفكر أصلاً فى العالم القديم ،– نصف الكرة الأرضية الشرقى – وقال له : إن هناك كثيرين يودون الإقامة فى مكان بعيد عن هذا العالم ، وعلى سبيل المثال . المدينون الذين أثقلتهم الديون وزحموا السجون القذرة ، والبروتستانتيون الذين غضب عليهم الآباء الكاثوليك وطردوهم من سالزبورج ، وكانوا حقاً كثيرين ، طردوا من ألمانيا ، والصبيان الناشئون اللقطاء الذين بالملاجىء . وأمثال هؤلاء .

طلب من ويزلى أن يؤسس هناك أبروشية وأن يكون هو راعيها ، ويمكنه أيضاً أن يقوم بالتبشير بين الهنود الحمر فى أمريكا ، وصادفت الفكرة هوى من جون ويزلى فقبلها فى الحال ، وشرع توًّا ، فى تنفيذها ، وسافر فى سفينة استغرقت فى رحلتها مائة يوم ، وكانت رحلة طيبة لها جمالها الرومانتيكى الفاتن ومظهرها الدينى المؤثر الإيجابى ، ومن أجمل ما فيها أن الفتيات الناشئات على الأخص كُن يكثرن من الصلاة مأخوذات بمظهر هذا الشاب الجامعى الأنيق الذى يقوم بالرعوية،ولديه هذا الحماس والإخلاص الدينى، وكثيرات

منهن استهوتهم الدعوة لهذا الكمال المسيحى . فشغفن بها حبا .

وفى أمريكا أيضاً تحولت أعماله الجادة إلى عكس ما يريد ، كأنها رواية خيالية ، أو عمل سحرى وقف له بالمرصاد ، فقد وقع فى غرام فتاة فاتنة تدعى صوفيا هوبكى ، وكانت بنت أخ لحاكم المستعمرة ، وكان ويزلى يلقى عليها كل يوم درسا فى اللغة الفرنسية والدين ، وكان يود لو يطول هذا المنهج وأن يكون به أيضاً دروس فى الحب ، وفى إحدى الأمسيات ، مشى معها إلى بيت عمها ليرعاها فى الطريق ، وجلسا معاً فى الظلال الرقيقة وتحدثا طويلاً ، وفى شىء من الحياء والتردد رسم أمامها المستقبل الذى يرجوه ، ولم يكن حتى هذا الوقت قد أعَدّ نفسه ، ولا اكتسب من الجرأة ، ما يشرح به عواطفه ، أو أن يعبر عن نفسه .

كان يعرف الكثير عن شئون الدين وثبات المؤمنين عليه ، ولكنه لا يعرف إلا القليل عن الشئون الأرضية وعدم ثباتها ، واستغرق وقتاً يجمع فيه شتات شجاعته ليخاطب حبيبته الحسناء عن الزواج ، فكانت هى قد ارتبطت بشاب آخر وتزوجا ، وشعر بالحسرة والأسى يفرى نياط قلبه ، لطالما رتل عليها المزامير الغزلية عندما كانت تشتاق إلى أغانى الحب .

وفى موقف من مواقف التقلب العاطفى التى كانت تعتريها ، بدر منها ما جعله يقرر طردها من خدمة الكنيسة وصمم زوجها على الانتقام منه فأخذ يثير أبناء لأبروشية ضده ، ويحرضهم على طرده ، وكان من السهل القريب أن يثأر أبناء جورجيا من هذا الراعى ، إن ثمار المذهب الإنجليكانى الذى دعا إليه قد جاءت بثمار مرة المذاق لديهم ، وقد كانت أولى أعماله الرسمية أن عاكسهم ووقف حائلاً دون ما يشتهون !. فهو قد فرض خدمة شاقة فى الكنيسة ، وعاقب الذين يهملون تعليماته أو يكسرون شيئاً من أوامره ، ونفذ تعليماته بقوة وعنف . وبدأ رعاياه ذوو العشاء الربانى يتذمرون ، وقالوا إن اختناق السجون التى كانوا بها كان أهون من هذا السجن

الرّبانى سجن الخلاص فى الكنيسة ، وقالوا إن هذا المبشر الشاب يتدخل فى شئوننا الخاصة ، فهو لا يتحدث فقط فى الشئون الروحية ، ولكنه يوشك أن يدخل جيوب الناس ويعد ما فيها من النقُود ،- وكان المحور الرئيسى الذى تدور أعمال الأمريكان الجنوبين عليه والمنبع الرئيسى لأرباحهم هو تجارة الرقيق ، ولكن ويزلى بغَيْرةٍ بالغةٍ وحماس ثائر حارب هذه التجارة ، وبمعارضته هذه عكر السلام فى المنطقة كلها ، وهكذا تهامس الناس وتحدثوا بما سببه لهم من متاعب ثم قرروا أخيراً أن يطردوه ، وقدموه للمحاكمة - أمام هيئة تحكيم كبرى ، وكانت مكونة من رجل فرنسى لا يعرف الإنجليزية ، وكاثوليكى رومانى لا يعرف شيئاً عن المذهب الإنجليكانى -، وشخص متشكك أو كافر ، وثلاثة معمدين ، وستة عشر رجلاً منشقين ، فكانت محكمتهم أقرب شبهاً بمحكمة سقراط .

ولكن جون ويزلى . استطاع قبل أن تنعقد الجلسة أن يفلت ، فهرب ليلاً ، وأبحر فى سفينة متجهة إلى انجلترا .

لقد انقطع حماسه نحو الإرسالية التى أعدها ، وكانت المدة التى قضاها هناك منذ أبحر إلى أمريكا مزوداً بحماس ونشاط عامين ونصف العام ، وكانت مهمته الأولى أن يعلم رفاقه الذين خلصهم من الهوان ، قواعد المسيحية ، وكانوا يحبونه ، وها هو ذا الآن لا يعرفهم ، وانقطعت نهائياً صلته بهم ، وعلى الأخص الفتاة التى أحبها وانفق وقتاً طويلاً فى تعليمها .. فشلت إذن رحلته الإفانجليكانية وصارت شيئاً مثيراً للسخرية ، ولكنها تركت فى مشاعره الروحية آثاراً عميقة ، وإزاء هذه الصدمة التى تلقاها بدأ يتشكك فى حكمة الله إذ خلق مثل هؤلاء القوم ، وكان من حديثه الساخر أن يقول : ذهبت إلى أمريكا لرد الهنود إلى الديانة الصحيحة والمذهب الإفانجليكانى وأنا

الآن بحاجة إلى من يردنى إليه .

* * *

عاد ويزلى إلى انجلترا يائساً محزوناً لما لاقاه من السخرية منه والإعراض عن دعوته ، ولكنه بعد قليل من الزمن ، وقليل من التأمل فى فلسفة الكلبيين ، استفاق من ذهوله ، وصمم على المضى فى دعوته من جديد ، إن الفلسفة الكلبية تدعو إلى عدم المبالاة بالتقاليد والأعراف ، فليأخذ هو منها عدم المبالاة بما لاقى فى جورجيا ، ولذا تبين طريقه السهل البسيط إلى الواجب الذى يجب أن يضطلع به .

وبدأ يندمج مع جماعة ألمانية من جماعة إحياء الدين ، وكانوا يسمون « المورافيين » وهم جماعة يتبعون دعوة المصلح الدينى البروتستانتى هس (Huss) – وقد قال له هؤلاء إنه لا يجب أن ينظر أو يهتم بالعلامات البعيدة التى يرتبها على فشل أو نجاح إرسالية تقوم بالدعوة للعبادة الصحيحة ، وإلى معرفة الله ، فهذه ليست برهاناً فاشلاً أو ناجحاً على قدرة الله ، ولكن البرهان الحقيقى يكمن وراء عقيدة الإنسان ، وأخذت منه هذه القالة مأخذها ، ولفتت ذهنه إلى آخر كلمات قالها أبوه « سام ويزلى » له عند موته !، رجعت هذه الكلمات إلى ذهنه وبعثت فيه اندفاعاً جديداً ، لقد حدثه عن مذاق المسيحية الحقيقى إنما هى الإحساس الباطنى ، وهذا الإحساس هو البرهان الحقيقى ، وبدأ يستهين فى نفسه بكل ما حدث له وآلمه فى جورجيا – وقال إنهم جماعة من نتاج عصر صلب متعصب ، جامد على شكوكه ، عصر جورج الثانى وفولتير ، حتى رجال الدين جروا فى مضمارهم ، إن قسس الكنيسة الإنجليزية ، ليسوا أقل ضلالاً من قسس المدرسة الشكوكية الملحدين الذين لا كنائس لهم . وهم يبرهنون أن العقيدة

الحية فى المسيح قد ذهبت نهائياً ، لقد أصبح الإله عيسى متضمناً من أشياء جميلة لا سبب معقولاً لها . لقد كان وديعاً مسالماً ، كثير المنافع للناس ، واهناً عِنّيناً ، لم يستطع قط أن يلوى أو يؤثر فى الإرادة العنيدة إرادة الجيل الجديد ، جيل الذين استهوتهم العلوم الطبيعية وصاروا عباداً لها .-

كان ويلز قد صار مرهقاً متعباً ، ولكنه كان يحافظ على قداسة الأسرة وطهارتها ، وصارت الدنيا أمامه ، معرضاً تبرز فيه أنواع الرحمة ، ولكنها دائما عابسة له ، بينما هى باسمة راقصة للدنيويين ذوى الأنانية .

إن الأنبياء الذين تحدثوا إلى الناس ، وحاولوا هدايتهم قد ماتوا منذ زمن بعيد ، أما رجال الرياضة العقلية والعلوم ، ورجال التشريع ومن إليهم فهم موسيقيو العهد الجديد الذين يطرب الناس لسماعهم ، لقد مر على الكون زمن طويل منذ تعلم أن يحب الممتازين ذوى النبوة ، ولابد أن تعترى العالم الحيرة والارتباك أن يراهم يعودون ثانياً إلى الوجود ، وقد تكون الربكة أكثر إذا رآهم يعودون أقوياء ذوى حماس ونشاط كما كانوا من قبل ، سَيَدهش العالم كثيراً حين يراهم ولو ليلة – واحدة – فضلا عن أن يراهم دهراً يثبتون عروشهم الأولى .

وها هو ذا جون يريد أن يعيد تلك العهود فماذا عسى أن يلاقى ؟!- إنه يعلم من خلال تجربته أن العالم فى هذا الوقت يسخر كثيراً من رجل يدعو إلى الدين بجد .

فى هذه الأيام أسس مع أخيه تشارلس ما سماه « النادى المقدس » ، وكان هذا النادى يجمع طائفة من الشباب ، اتفقوا على بحث المسائل الروحية ، وأن يضعوا خططاً لإحياء الحماس الدينى بين رفاقهم من الشباب المثقف ، وعلى العكس مما اعتزموا صار ناديهم أضحوكة الجامعة كلها أساتذة

وطلاباً ، وخلعت على أعضائه ألقاب ساخر منفرة ، قالوا إنهم « متعصبو الكتاب المقدس » ، وقالوا إنهم « عُثّ الكتاب المقدس »[1] وهكذا اعتبروا فى نظر الجامعة مفسدين لا مصلحين !.

ومضى الأخوان على الرغم من كل ذلك فى طريقهما قُدُماً . زاروا السجون ليواسوا المسجونين . ووزعوا الصدقات على فقراء لندن وكذلك فعل الآخرون من أبناء النادى .

ومن سلوك الأخوين الخاص ، أنهما كانا يصومان كثيراً ، وينفقان باقتصاد أو تقتير . إن حياة النبى فى مثل هذه السِنِّ لا ينبغى أن تكون حياة نعيم، بل حياة جهاد ، لا ينبغى أن يبيت على الورود ، بل لابد أن يسهر على دعوته ، ولذا كان جون لا يبالى بأى صعوبة تقابله ، وفى إحدى الليالى بينما كان عائداً إلى بيته بعد فراغه من اجتماع دينى فى شارع « أولدرزجيت » — وكان فى وقت ازدهار الربيع فى انجلترا وبعد هروبه من جورجيا بخمسة شهور — وكان الجو جميلاً هادئاً — هبطت عليه روح المسيح — فقرر أن يكرس نفسه لحياة كحياة الأنبياء .

* * *

كان جورج هوايتفيلد Whitefield — من أتباع جون ويزلى ، ومن المتحمسين لدعوته ، وقد اهتدى إلى طريقة الدعوة فى الهواء الطلق ، وعندما امتطى جواده ليلقى خطبه على الناس أخذوا بكلامه كأن كهرباء قد مست أجسادهم ، ولم يكن من المألوف من قبل أن يخطب الخطيب ، بين خمسة آلاف من المستمعين ، وقد كانوا جموعا من القرى التى تبعد أميالاً

---

(١) الحشرات التى تفسده .

عن لندن ، وكانوا رجالاً ونساء وأطفالاً ، يجلسون على سفوح التلال وعلى الأرض أو يقفون أو يعتمدون على جذوع الأشجار وكانوا من القرويين السذج ذوى العقول التى لم تتعود فلسفة التفكير ، أو ذوى الأفئدة الظمأى إلى المعرفة .

وأعجب ويزلى بهذه الطريقة الناجحة ، طريقة هوايتفليد . فصمم على مباراته فيها وقال سألتمس وحى الله فى الهواء الطلق ، فهو خير وأجدى من الهواء الراكد المركوم فى داخل الكنيسة ، وكان لديه فكرة وغرام بالتجول لأجل الوعظ من قبل ، وكان فى جورجيا قد تعود العمل فى الحدائق ، والاستمتاع ببراعم الربيع الغضة ، وبقوامه النّحيل الجيد البناء مضى يعظ ويخطب فى الحدائق ، وكان من الجميل الأخاذ أن ترى هذا الإنسان الضئيل يجمع حوله آلافاً من الناس تحت السماء وفى الحدائق يستمعون إليه فى نهم واشتياق إلى سماعه ، حتى لقد كانوا يوازنون بينه وبين كبار المتكلمين والوعاظ ، فيشبهونه بالسيف الحقيقى ، ويشبهون الآخرين بالغمد أو سيف الشيش الذى يستعمل فى الألعاب .

امتطى جون جواده وذهب لأول مرة إلى عمال المناجم فى كنجس وود Kings Wood قريباً من بريستول Bristol . هناك سكان يقيمون فى أحياء فقيرة قذرة قد لطخها الفحم ولوث جدرانها ، وهم قلما دخل واحد منهم الكنيسة ، ولا فكر أحد فى أن يبنى لهم بيتاً لله ، وقد مضى عليهم زمن طويل وهم يعملون فى الكهوف تحت الأرض حتى لكأنهم لطول عملهم تحت الأرض قد نسوا السماء .

كان جون يترقب بروزهم من المناجم عند غروب الشمس ، وكان يختار من التعاليم الدينية ومن الأناشيد ما يراه مناسباً لهم ، وكان يتوخى من الأناشيد ما هو بسيط سهل الفهم ، فكان هؤلاء المساكين الذين لم يروا غير الظلام يتأثرون بعظاته ، وتنال منهم أناشيده ، فتفيض أعينهم من

الدمع . ثم يترك هؤلاء إلى قرى أخرى أدرك أن سكانها يحتاجون إليه وأنهم على شاكلة هؤلاء بعيدون عن تعاليم الإنجيل ، وظل يتنقل فى الضواحى الإنجليزية ، وأينما حل وتحدث يجتمع الناس حوله ويجدون راحة ومتعة فى أحاديثه .

وغاظ عمله القسس . لأنه غزا أبروشياتهم ، وفرَّغ كنائسهم من روادها الذين هرعوا إليه ليسمعوا تبشيره فى الفضاء . فذهبوا يتساءلون فيما بينهم . بأى حق يعمل هذا العمل ؟- من الذى سوغ له أن يكسر قوانين الكنيسة الإنجليكانية ؟ ومن الذى أعطاه حق الوعظ والتبشير فى أى مكان شاء ؟ - إنه يقول إننى أنظر إلى الدنيا كلها على أنها أبروشيتى ! هذا دون ريب عمل جنونى ! إن هذا الرجل سيدمر الكنيسة نهائياً إذا استطاع - كل أعماله وأخلاقه تؤكد جنونه ، جموع من حوله يبكون ويتصايحون وآخرون يرتمون على الأرض انفعالاً بكلماته :

وجاء فى التقارير التى كتبت عنه أنه فى أحد مواقفه الوعظية أغمى على الناس من حوله ، وسقطوا على الأرض صرعى ، كما لو كانوا موتى : وآخرون ترتعش أجسامهم ويضطرب كل عضو من أعضائهم . كل هذا بينما وقفت فتاة من خدام المنازل شاخصة جامدة كما لو كانت فى غيبوبة ، وظلت كذلك مذهولة غائبة الوعى لمدة أربع عشرة ساعة .. وهكذا كان ذلك شأن هذا المحيى الذى طرح جانباً تقاليد الكنيسة وعمل على إيقاظ الأرواح ، والاشعار بما فى الجانب الروحى من متعة ولذة ، وكان فى كل أعماله كأنما كشف شيئاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل . ولكن هذا كله ليس من عمل الكنيسة الإنجليزية ، إنه شىء مزعج ، مزعج جداً .

ولم يكن جون يجد غضاضة أو يشعر بما يسىء من أعمال مستمعيه ، حتى مع أن بعضاً منهم غلا به شعوره فاصابه ما يشبه الهستريا ، أو فقد شعوره نهائياً ، هذا لأن الأغلبية الساحقة من مستمعيه كانوا يتلقون رسالته

بإخلاص وشغف ، وتستريح إليها قلوبهم كأنها قطرات الماء النقى الصافى العذب يجدونه ، بعد مياه رنقة كدرة كانوا يتلقونها كل يوم أحد من رجال الأبروشية فى كنائسهم .

وفى الوقت نفسه كان خصومه يحاولون أن يورطوه فى متضاربات ومتناقضات فى العقيدة التى يدعو إليها ، هل هو يرى الخلاص فى الإيمان ، أو فى الأعمال الصالحة ، أو فى قلة معينة مختاره من أصحاب القداسة !.

كتبوا لذلك خطابات وزعوها ليخرجوه عن دائرة عمله ، وليحاكموه أو يجادلوه فى عقيدته من الناحية العقلية :– فكانوا يكررون السؤال دائماً : ما هى عقيدة هذا المبشر الخطيب ، واجتمع على حربه اتباع « كالفن » ومُنكرو تعميد الأطفال وغيرهم من أتباع العقائد المختلفة وغيرهم من المدرسين الذين كتبوا المقالات العلمية عن العقائد ، وأخيراً كانت إجابته يسيرة موجزة ، قال : أنتم تتبعون ديناً فلسفياً ، ولا يوجد شىء مثل هذا فى الدين ، الدين أبسط شىء فى هذه الدنيا ، إنه يتلخص فى كلمة هى : نحن نحب الله ، لأنه من قبل أحبنا » .

ثم خطا خطوة أوسع فكون نادى العشاء الربانى ، على نسق النادى المقدس الذى كان أنشأه هو وأخوه فى أكسفورد ، فكان الآلاف من أتباعه يجتمعون فيه ويستمعون إلى خطاباته به ، ثم كانت لجماعته فروع فى جميع أنحاء انجلترا ، وفى آيرلاند وكان أتباعه فى كل مكان من البسطاء السذج ، ومن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، والعمال الغافلين عن دعوة الدين ، وكانوا يجتمعون مرتين فى كل أسبوع ، وكانوا يكتبون التقارير ويتبادلونها عن الشئون الروحية ، ويتواصون بالاستمرار على العمل ، ثم أيضاً يتقاسمون ما معهم من المال – وما أقل ما كان معهم – مع المعوزين والمرضى ، والمقلين منهم ،.. وتغير سلوك هؤلاء الأتباع – فحرموا المسكرات نهائياً ، وأقسم

الذين كانوا يعودون إلى بيوتهم مترنحين من السكر ألا يمسوا شراباً كحولياً بعد ذلك ! لقد أشرق عليهم نور جديد ، فتركوا البطالة وانغمسوا فى الأعمال المنتظمة المفيدة .

وسرعان ما ظهر للذين كانوا يرقبون أعمال ويلز وأتباعه أن هناك لوناً جديداً من الحياة قد ظهر بين الإنجليز وبمجهود هذه الجماعة ، أما المستهزئون الذين كانوا يطلقون على هذه الجماعة اسم النظاميين (Methodists) تهكماً وسخرية ، فقد بدأوا يعدلون أفكارهم ويهونون من سخريتهم ، لأنهم وجدوهم حقاً نظاميين ، كانوا أطلقوا عليهم هذا الاسم بسبب جدهم ومحافظتهم على لقاءاتهم لأجل المحادثات الروحية ، وتقبل ويلز وأصحابه هذه التسمية وأخذوها بجد ، ولكن أعداءهم الساخرين منهم رأوا أنهم يستحقون الاسم بحق لا بسخرية واستهزاء .

لقد كانت الدعوة التى نادى بها ويلز تتسم بالديمقراطية ، وأيضاً بالمساواة ، فكل شخص كان فى استطاعته أن ينضم إلى أى ناد من أندية الجماعة ، وفيه كان يجلس الرجل الوضيع بجانب الشخص الثرى أو المثقف ، ولا يعنى الرجل الذى ينضم إلى الجماعة ولا يميزه إلا أنه يحب المسيح ولم يكن يعنى ويلز مطلقاً أن يحول أى شخص من طائفة إلى طائفة النظاميين ، لأن قاعدته المتبعة أنه « لا سلطان لشخص على آخر ، إذا أنت أحببت الله والناس جميعاً ، فإنى لا أطلب أكثر من ذلك » .

* * *

استمر جون ويزلى فى دعوته ، وكان هذا يعنى أنه استمر فى متاعبه واضطراباته ، هذا لأن جمهور الناس لا يرفقون ، ولا يعنون بأى تصرف لا يفهمونه جيداً ، ودعوة جون كانت جديدة غريبة عليهم .

إن أعمال طائفة « الميثوديستس » التبشيرية ترمى إلى أغراض أخرى غير دينية إنهم يديرون فى الخفاء أموراً خطيرة ، إنهم يعملون لقلب العرش الملكى ليجلسوا فوقه . وإلا فلماذا يتسلل دعاتهم إلى المنازل ليدعوا النساء ، إنهم يوقظوهن عند الساعة الخامسة صباحاً ، ولماذا يرتلون الأناشيد طول النهار ؟ وأرجف المرجفون هنا وهناك أن هؤلاء القوم قد نظموا أنفسهم فى جماعات سرية لا لشىء إلا لقلب المملكة البريطانية ، ولا مجال للشك فى أنهم يعملون لهذا الغرض ، إنهم يوحون إلى الفرنسيين أن يغزوا انجلترا ، وتطايرت الهمسات أن هذا الغزو قد يكون بين ساعة وأخرى ، ويرجع ذلك كله إلى جون ويزلى فقط ، وهكذا – مع ماله من كثرة الأتْباع – وُجِدَ جوٌّ مشحون بعداوته ، فحيثما حل كان يصادف من يرمونه بالطين ، ومن يهدّدونه بأسوأ أنواع التهديد ،.. ولكن فى النّهاية كانت شخصيته الجذابة وخطابته المؤثرة تجتذب أبناء الله الناشئين وتوجههم نحو الله ونحو المحبة قبل أن تلتوى بهم الطريق . وجاء فى مقدمة صحيفته حديث يمثل آلاف الحالات ، وآلاف الشخصيات التى استهواها حديثه .

« عندما وجدتُ الضجيج والصياح يتزايد ويعلو ، ذهبت إلى الصائحين ، ودسست نفسى فى وسطهم ، وضعت منبرى وأخذت أخطبهم . وامتدت رءوس الغوغاء إلى المنبر الذى أخطب من فوقه ، وضربنى أحدهم ضربة شديدة على رأسى ، ولكن القوم ما لبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ، وأخذ الذى ضربنى يهدأ رويداً رويداً ، حتى إنه فى النهاية أخذ يسكن الغوغاء ويدعوهم إلى حسن الاستماع » .

« ومرة رفع أحد الأوغاد يده ليضرب ويزلى ولكنه وضعها فوق رأسه برفق ، وفجأة تحول إلى شخص وديع وهو يتمتم : « أى شعر جميل ناعم يكسو رأس هذا المبشر ! .

وهكذا كان ويزلى دائماً كلما واجه جماعة ثائرة تحولت أسدها الضاربة إلى خراف وديعة » .

وقد كان من سمات هذا القرن أن يختطف الشبان من الشوارع ، ثم يؤخذون قهراً للعمل فى البحرية الملكية ، ولم يكن جون ويزلى بمنجاة من ذلك ، فقد وقع فى أيدى هؤلاء ، المختطفين ، وبصعوبة استطاع مختطفوه أن يقودوه ثلاثة أرباع الميل ليصلوا به إلى مركز العصابة ، ولكن رئيسها نظر فى عينى جون متأثراً به ، ثم قال : إننى أقدم حياتى فداء لهذا المبشر البرىء ، أقدم حياتى لأجل إعادته إلى مكانه سالماً !.

واستأنف ويزلى عمله النظامى ليبنى عالماً خالياً من الحقد والكراهة .

واخيراً – أخيراً جداً – بعد كثير من المعاناة والمرارة ، وبعد عديد من الضربات ، ظفرت جماعة « الميثوديزم » بالتقدير والاحترام وصارت منظمة ذات مكانة . مهّدت الأيام ، زمرور السنين لدعوة جون ، ووطأت حدة نبوته ، ووضّحتها على حقيقتها ، وحينئذ نما جيش الجماعة وأصبح لها مكانة .

تنقل جون فى مختلف الأماكن ، وسافر إلى الأماكن النّائية ، ولم يكن على شاكلة الأنبياء الرحل الذين يقيمون خيامهم حيثما اتفق لهم أن يقيموها ، ثم تهب عليها الرياح فتزيلها ، إن بنّائى الميثوديزم كانوا مستقرين هنا وهناك لمدة طويلة تكفى أن يغرسوا مبادئهم ويبثوا أفكارهم على قواعد ثابتة ، وبهذا أكد جون نجاح نبوته .

ودعنا الآن ننظر إليه فى القيام بأعماله ! إنه بناء لنبوة جديدة لصالح الإنسان !.

لقد كان منذ الصباح إلى غروب الشمس يتنقل من مكان إلى آخر

يجوب الشوارع الموحلة القذرة فى أنحاء بريطانيا ، داعياً لمذهبه ، ناشراً دعوة التّبشير فى كل مدينة تقابله ، يطعم الجياع ، ويطب للمرضى ، ويصلى للأموات .. ، وبالإضافة إلى كل هذه الأعمال الكثيرة العديدة كان عليه أن يراقب المنظمة العظيمة التى تحوى كثيراً من الفروع والأتباع فى أنحاء انجلترا ، وأن يصدر التّعليمات والتوجيهات إلى المبشرين المقيمين ، وأن يكتب إلى الآخرين المتجولين . وأن يخطط ويضع الترتيبات للمؤتمرات التى يعقدونها ... ، وكان هناك مئات من المندوبين الذين يكونون منظمة متماسكة يجتمعون سنوياً بتنظيمه ومشورته وأفكاره .. وكان مع كثرة هذه الأعمال يعرف بدقة كل مبشر ينضم إلى الجماعة على الأخص الذين يدخلون جدداً فى المنظمة ، وكان متوسط المسافات التى يقطعها سنوياً لا يقل عن أربعة آلاف من الأميال ، وقد قام بخمسين رحلة بحرية – عبر بها البحر فيما بين بريطانيا وآيرلاند ليزور جماعته هناك ، وقد طُبِعتْ أقدام جواده أو خيوله على أرض انجلترا ، فى مسافات تبلغ ألفاً ومائتين وعشرين ميلاً ، وكل قراءاته كان يقرؤها وهو على سرج جواده ، وكان فى هذه الرحلات يقتبس ما يراه جميلا مناسباً ، سواء فى ذلك التاريخ أو الفلسفة أو الشعر أو غيرها . كان يفتح كتابه ليقرأ ويختار منه وجوادهُ يركض على الطريق ، وكان جواداً معلماً ، عندما يرخى له عنانه يمشى رويداً ، وينْقاد باطمئنان إلى بلد مألوف آخر .

وعندما بلغ الستين من عمره – أشفق عليه رفاقه من ركوب الجواد – فأحضروا له عربة يجرها الجواد ، فما لبث أن ملأ جوانب العربة بالرفوف ، وملأ الرفوف بالكتب ، فكانت مكتبة متنقلة معه ، وهكذا مع ملء وقته كله بالتفكر والقراءة والتخطيط والعبادة ، وهو على جناح مركبته ، لم يقتصر عمله عل إلقاء ثلاثين ألف خطبة ، بل كتب أيضاً ما يزيد على مائة كتاب .

لم يكن هناك شيء يلفته أو يحوله عن عمله ، حتى المؤامرات الكثيرة التى كانت تحاك ضده ، وحتى عقبات الطريق التى كانت تصادفه ، ربما وصل إلى نهر وليس ثمت قارب يعبر به ، حينئذ يخلع ثيابه ويسبح ليعبر النهر ، وكان رفاقه يضحكون من عمله ويقولون : « ويزلى والرياح يمشيان معاً يداً فى يد » وعندما يكون ذاهباً إلى آيرلاند ، والمركب يمشى ببطء لقلة الهواء ، كان يصعد إلى الأعلى ليقوى أشرعته ، وربما عمل مثل ذلك فى وقت الزوابع ، ولم يكن أحد يعرف فجوات الطبيعة وأوقات الهياج والسكون كما كان يعرفها ، وبهذه المواهب لم يخضع لأى شخص يعوقه عن رسالته ، وجاء فى الصحيفة التى كان يصدرها : « فى صبيحة أحد الأيام جاء إلى الخادم وقال : « لا مجال للرحلة فى هذا اليوم يا سيدى ، لقد تهاطلت الثلوج طول الليل ، وسدت الطرق كلها نهائياً » وقلت له : على الأقل نستطيع أن نمشى عشرين ميلاً فى اليوم . نمشيها والجياد فى أيدينا ولا نمتطيها . وباسم الله شرعنا فى الرحلة رغم تراكم الثلوج ، لقد كانت رياح الشمال الباردة تنزل على أجسامنا كأنها ضربات السيوف ، ولكننا مضينا رغم كل ذلك ، حتى صادفتنا تلال من الثلوج لا يمكن اجتيازها فولينا وجوهنا نحو مدينة أخرى ،– وهكذا نجد صور الجهاد لديه عديدة منوعة .

عندما كان فى السنة الواحدة والخمسين من عمره قسا عليه مرض السل فانحل جسمه حتى كاد يموت ، ونال منه اليأس من الحياة حتى إنه كتب العبارة التى توضع على ضريحه – ولكنه فى الرابعة والسبعين كان يمتطى جواده بقوة ونشاط يجوب جوانب القطر ، وفى الثالثة والثمانين كتب فى مفكرته بشىء من الحياء : إنه لا يستطيع أن يكتب أكثر من خمس عشرة ساعة فى اليوم من غير أن تشعر عيناه بالتعب ، وفى السادسة والثمانين كان يستطيع أن يركض جواده ليأتى فى الوقت المناسب إلى المواعيد التى يرتبط

بها ، وكان شعره مسرحاً مع عدم اهتمامه به ، وكان خداه يتوردان بالحمرة الدالة على الصحة .

وقد حدث وهو فى أسفاره فى جورجيا – حيث كان ينقاد لمغامرات الشباب – أن تورط فى الحب ، وكان حينئذ فى منتصف الطريق من عمره .

وقع فى غرام فتاة فاتنة رائعة الجمال ، وكانت أرملة لبحار اسكوتلاندى توفى فى أمريكا وكانت من حواريه الغيوريين ، بل من أشد أتباعه حماساً وإخلاصاً له ، مرضته عندما مرض حتى استعاد صحته ، بل استعاد بفضلها شبابه ، كانت تفهم حالته الجسدية وحاجته الصحية بأفضل مما يفهمها أى طبيب ماهر ، ولكن لسوء الحظ وقعت فى بعض الأخطاء القذرة الدنسة التى كانت شائعة فى هذا الوقت ، هذا لأنها من طبقة وضيعة ووسط منحط ، وبهذا لم تكن تصلح أن تكون زوجة لنَبى ، وقد خلقت الإشاعات حول زواجهما المتوقع ، والمرتقب حدوثه قريباً ، أحاديث سيئة وسوء سمعة فى محيط أتباعه ، إذ ليس من اللائق أن يتزوج رئيسهم من مثل هذه الفتاة ،: فعملوا من قبلهم أن يحولوا بينَه وبين إتمام هذا الزواج ، ودبروا مكيدة أشاعوا بها أنه سيتزوج بنت واحد من أتباعه الثانويين ، وكان وضع هذا الرجل لا يسبب إساءة للجماعة ، ولكن حتى قبل أن يتبين حقيقة الأمر – عزف عن ثمار هذا الحب ، وتخلى عن أرملته الحبيبة .

ومرة ثانية نجح فى العثور على زوجة ، كانت بنت تاجر إنجليزى ميسور ، ولكنها كانت لا تتناسب معه ولا مع رسالته ، فقد كانت فتاة ساذجة جداً لا تسمو إلى فهم أخلاقه ولا فهم رسالته ، وتورط فى الزواج منها مع هذا الفارق الواسع بينهما . وقد عاشت معه ثلاثين عاماً كانت كلها تنغيصاً ومضايقات ! تَلهَّت ولعبت ونغصته وهددته وملأت بيته صياحاً ، تدخلت فى شئونه الخاصة حتى رسائله الخاصة ، فكانت تمزقها ، وتتلف

البحوث التى يكتبها ، وبذا أنقصته أمام أعدائه ، وعاقت نشاطه فى دعوته ، وبعد أن أنهكت نفسها وأنهكت زوجها إلى أقصى درجة يتحملها إنسان ، مرضت ثم ما لبثت أن ماتت ، وهنا تنفس رفاقه الصعداء ، وحمدوا الله على هذا الخلاص .

والواقع أنه قامر بقلبه ثلاث مرات . وخسر فى مقامرته ، ولكن نشاطه فى سبيل رسالته لم يهن ولم يضعف ، ولم يكن رفاقه لذلك بحاجة إلى الرثاء له والتحسر عليه ، كان الرفيق الذى ظل معه إلى الأبد ، والذى تشبعته عواطفه هو الله وحده .

* * *

ظل زعيم النظاميين ، « الميثودستس » لعدة أعوام لا يشعر أنه كوّن كنيسة جديدة ، كان يرى أنه يتبع الكنيسة الإنجليزية إلا أنه استباح أن يقلد القسس رتبتهم من غير رجوع إلى البابا ، ولم يخطر بباله قط أن المجتمعات التى كونها والأندية التى ميزها بصفات خاصة والمبشرين الذين أرسلهم هنا وهناك ، مما يحدث فجوة بينه وبين الكنيسة الإنجليزية أو مما يفصله وأتباعه عنْها ، إنها الكنيسة التى ولد عليها ، والتى أحبها رغم ما لا حظه عليها من الأخطاء ،. لقد كان يكره كلمة الانفصال وينفر منها فى أى وضع من أوضاعها ، سواء كان ذلك فى الحياة أو الحياة الروحية ، وكان فى السنوات الأخيرة من حياته محزوناً . شديد الحزن من المعاملة السيئة التى كانت انجلترا تعامل بها أبناء مستعمراتها فى أمريكا . وفى سنة ١٧٧٦ م نشر رسالة على الناس فى « نُيوبريتن » **New Britain** ، (بريطانيا الجديدة) فيها صلاة وأدعية لإنهاء هذه الأعمال السيئة القاسية ، ونعَى فيها على قوم من جنس واحد ولسان واحد ودم واحد ولغة واحدة أن يقتل بعضهم بعضاً بكل وسيلة ممكنة وبكل سرعة .

وقد هيأت له المصادفات آن يستفيد من أصدقائه فى الدنيا الجديدة ، وفى ثلاث عشرة مستعمرة هناك كون أتباعه منظمات « ميثودية » ذوات أتباع كثيرين جداً ، وقد كان حزيناً جداً ، وآسفاً عندما أعلنت أمريكا قطع الصلة بينها وبين الكنيسة الإنجليزية ، ولكنه باسمه هو قلد القسس الذين يرأسون الكنائس والمجتمعات « الويزلية » التى كونها .

وهكذا عاش ويزلى – ورأى – ليس فقط انفصال الحكومة الأمريكية عن الحكومة – الإنجليزية – بل رأى أيضاً انفصال الكنيسة وقطع العلاقات الروحية ، بل عاش أيضاً حتى يرى انفصالاً آخر أشد مرارة وقسوة على نفسه ، ذلك أن أخاه – رفيق عمره الطويل ورفيق جهاده – تشارلس قد فارق هذه الدنيا قبله ، وكان أصغر منه سناً وأكبر أتباعه إخلاصاً وأكثرهم جهاداً وشعر جون – وهو فى السادسة والثمانين من سنى حياته – بالوحدة ، ومن فوق المنبر ألقى نشيداً يرثى به أخاه ، وهو نشيد كان تشارلس قد كتبه – ضمن عدد من الآلاف التى كتبها باللغة الإنجليزية :

تعال ، تعال ، أيها المسافر الذى لا يعرف
يامن سأظل أشعر به ولكن لا أراه
لقد ذهب من قبلُ رفاق عديدون لى
وبقيت وحدى معك !

وظل مدة منحنياً تحت عبئه الثقيل ؛ ثم قطع أناشيده وجلس منهكاً محطماً عند مذبح الكنيسة : ثم جمع شتات قواه ، وأزمع الرحلة الأبدية .

* * *

□ بريجهام يانج □

Brigham Young

١٨٠١ - ١٨٧٧

○ الأحداث الهامة فى حياته :

١٨٠١ ولد فى وتنجهام (فرمونت)
١٨٢٩ رحل إلى مندون « نيُويورك »
١٨٣٢ اتصل بكنيسة المورمون[1] (١٤ أبريل)
١٨٣٥ عين رسولاً لكنيسة المورمون
١٨٣٥ قاد المضطهدين من أعضاء الكنيسة إلى اللنيويز
١٨٤٤ عند وفاة يوسف سميث صار رئيس الكنيسة .
١٨٤٦ نظم أشهر هجرة للمورمون
١٨٤٧ وصل إلى وادى البحيرة المالحة العظمى
١٨٥٠ عين حاكماً على إقليم يوتا (من الرئيس فلمور)
١٨٥٤ أعيد تعيينه حاكماً
١٨٧٧ مات فى ٢٩ أغسطس

* * *

هناك فى خلفية الحياة الأمريكية ومنذ مدة تقرب من المائتى عام ،

(١) انظر مذهب المورمون ونظمهم وتاريخهم فى كتاب « الإرساليات التبشيرية » .

ظهرت قبيلة بها أنبياء صغار ، وهى مكونة من جماعات من الزراع ، وقد اتخذوا لهم نحلة خاصة ، فكانوا يقضون ليلهم فى نواح نائية تحت الأشجار ، وكانوا يتبعون قادتهم من الأنبياء والقديسين ، الذين كانوا رواداً أوائل عرفوا أسرار الإله وقد وجدوا أنهم يستطيعون أن يسلموا الكتاب المقدس بسهولة كما يسلمون بندقة أو مسدساً ، كانوا قد عُمّدوا لمحو آثامهم ، وبنوا كنائس ، وحرموا اللعب بالورق ثم قاموا برحلات فى جوانب القطر ليوقظوا جيرانهم وليعرفوهم الطريق إلى الله .

كان من بين الفلاحين الذين طرقت آذانهم دعوة هؤلاء الأنبياء بريجهام يانج ، وكان حينئذ شاباً ذا روح ساذج ، يعتقد أن زمن المعجزات لم ينته بعد ، وثبتت عقيدته على ذلك بالرغم مما كان يقوله سوفسطائيو زمانه ، إنه فيما بين الغابات ووراء المدينة فى نيويورك الشرقية ، توجد معجزة تستحق التقدير ، ذلك أن مجموعات من الزراع استطاعت العيش الهادى ، وجمعت طعاماً كافياً ، وحولت المكان الموحش إلى مكان استقرار ، ثم حولت أماكن إقامتها إلى مدن !.

تلك معجزة ، ولكن فى نظر الرائد لا توجد معجزة حقيقية ، ومعجزاته فيما وراء ذلك !.

كان يانج فى هذا الوقت تلميذاً فى مدرسة ابتدائية لم يمض عليه بها أكثر من أحد عشر يوماً . ولكنه لم يكن صغير السنّ ، بل كان كبيرا يقوم بأعمال كثيرة مجهدة ، فهو يحرث الأرض ويقطع الأخشاب ، ويعمل ما يستطيع لكى يعيش ، وحياته كلها كد وجوع وقناعة .

« لو كان لدى سراويل ألبسه ، حسبتنى أستطيع أن أعمل أفضل ، أو أجد عملاً أفضل ، وعندما نما جسمه ، وصارت قدماه أطول مما كانت ، كان عنده ما يلبسه ويدفئه ، وجلس ليعمل أعمالاً أخرى ، وكان يطلى المنازل ، ويقوم بأعمال النّجارة ...، وأحسَّ أنه بحاجة إلى من يعاونه فتزوج ،

وقال إن الزوجة تساعد فى أعمال النجارة وشق الأخشاب ، وتساعد فى الخبز وعمل الفرش ، وكل هذه أبواب للرزق ومنافذ لاستجلاب الأموال . وفى أيام الحصاد كان يجمع للزراع محصولاتهم لقاء خمسة وسبعين سنتا فى اليوم ، وخلال كل هذه الأعمال وكل هذا الوقت كان يترقب المعجزة ، ويبحث عن الكنز الذهبى الروحى الذى يجلب له الثراء .

كان بريجهام يترقب وتهفو نفسه إلى نوع جديد من الدين ، لا يريد بطاقة أو عنواناً جديداً لعقيدة قديمة ، إنه متعطش إلى رؤيا جديدة أو وحى جديد يهبط عليه ، كان يريد أن يعرف لأى شىء هذه المخدرات التى تسكن الناس باسم الدين ، إنها تعاليم يقوم بها قوم غير مهذبين ، غلاظ ذوو فظاظة يقودون الناس إلى جهالة وفظاظة أيضاً !.[1]

لأى شىء هذه الأبنية العظيمة الضخمة لِمَ كل هذا العناء ، بأى شىء يحلم هؤلاء ؟ لماذا نحن فى حاجة إلى رائد أمريكى ؟ ألم يحن الوقت لأن نتلقى من الله كلمة تقود هذه التخوم المشردة من بنى إسرائيل ؟ ترى إلى أى زمن سيظل هؤلاء يتجولون هنا وهناك بحثاً عن لقمة الخبز قبل أن يستطيعوا الوصول إلى أرض الموعد والمعاد ؟.

كان بعض الناس فى هذا الوقت يظنون أن سكان أمريكا الأصليين جذم من بنى إسرائيل شردوا من أرضهم ، فأبحروا إلى أمريكا ، وتناسلوا بها حتى عرفها الأسبان ! وكانت هذه الأفكار وهذه الأسئلة وأمثالها تجول فى ذهن هكلبرى يانج **Hucklepery Young** – والد بريجهام – كان يتحدث بهذا ، وقد ترك فى نفس ولده آثاراً عميقة .

وقد تكلم بريجهام عن هذه الخواطر بعد عدة أعوام ، ولكنها كانت

(١) أراد بالمخدرات كلام القسس ، وإيهامهم الناس أنهم يملكون شيئاً فى الدار الآخرة .

أكثر صراحة ، قال : إننى أشعر أننى لو استطعت أن أرى وجه نبى لاستطعت أن أجمع الدنيا كلها فى يدى، وبين ركبتى ، أريد أن أرى وجه نبى مثل الذين عاشوا على الأرض من قبل ، نبياً تلقى وحياً ، فتحت له أبواب السماء ، وهو يعرف الله ويعرف صفاته ،- لو رأيته لما أحسست بصعوبة لدى أن أجمع الدنيا ، فقط أبذل الجهد وأعمل ، أود أن أرى شخصاً يعرف ما هو الله وأين يكون ، وما هى صفاته وعاداته وأخلاقه ؟! ومع هذه الحيرة والتّساؤلات كان يريد شيئاً أعمق ، ما هو الخلود وكيف يكون ؟.

وفى هذا الخضم الواسع من الحيرة تعرف على زميل عرف كيف يقدم له الكأس التى يتعطش إليها ، لم يكن واحداً من باعة الأدوية العشبية ، نصف عمله غش وخداع ، ليس على شاكلة القسس المتّجرين بالدين ، إنه نبى حقاً ، إنه جوهرة ساذجة لم تلوثها صنعة المدنية ، كان من بلدة يانكى من « نيوانجلاند » وكان فى هذا الوقت قد أعلن نبوته ، والديانة الجديدة التى جاء بها ، وكان يطلق على مذهبه اسم « مورمون » **Mormonism** - والتسمية مأخوذة من الكلمة الإنجليزية **More** - بمعنى أكثر ومن الكلمة المصرية القديمة « مون » **Mon** - بمعنى جيد أو حسن ، فالكلمة إذن تعنى - الدين الجيد أو الأكثر جدة . وسيأتى لها تفسير غير هذا .

كان لدى هذا النبى كتاب مقدس جديد **New Bible** ، وهى رؤيا نبوة ورسالة من الله !.

كان يعلن أنه آخر نبىّ عينه الله ، وهذا كتابه !.

فكر بريجهام فى هذه المسألة طويلاً ، وقرأ كتاب « المورمون » وتأثّراً به ترك قطع الأخشاب من الغابات نهائياً ، وكان يبيع الربطة بنحو ثمانية عشر سنتاً .

* * *

كان دعاة المورمون يسمون أنفسهم : « قديسى اليوم الآخر » . وقد عمدوا بريجهام فى كنيستهم وعمره ثلاثون سنة ، وعقب تعميده مباشرة شرع فى رحلة تبشيرية جاب بها ولايات أمريكا التبشيرية ، وكان جاداً مخلصاً فى دعوته ، فمنها كانت حال الجو كان يطرق أبواب الفلاحين ليدعوهم إلى هذا المذهب ؛ كان يدخل المنزل فما يكاد يجفف قدميه على مدفأته ، ويشرب قهوتهم ، حتى يأخذ فى سرد قصة يوسف سميث – النبى الجديد – فما قصة هذا النبى ؟.

لقد كان هذا النبى فى سنّ الثامنة عشرة ، شابا مغمورا – عندما جاءه الملاك « مورونى » Moroni . نزل من السماء إليه وهو على فراشه برسالة من الله ، وقال له : إنه فى القرن الرابع (الميلادى) هاجرت القبيلة المفقودة من بنى إسرائيل إلى أمريكا ، وفيها أعدوا الكتاب المقدس للدين الجديد ، ليدرسه الأمريكان فى القرن التاسع عشر ، وهذا الكتاب – كما قال له الملاك – حفرت كلماته باللغة المصرية على ألواح من الذهب ، والآن أوصى الله يوسف سميث – نبى هذا الدين الجديد – أن يستخرج هذا الكتاب من مدفنه فى أعلى جبال كيومورا Cumorah – فى مانشستر (من مقاطعات نيويورك) . وأمره أن يترجمه إلى اللغة الإنجليزية لمساعدة أبناء جيله . وقد وجد يوسف سميث الكتاب فى شعاف الجبل طبقاً لما وصفه له الملاك فى الرؤيا ، ومع الكتاب وجد لوحين ذوى مشهد روحى عجيب ، يسمى أحدها يورم Urim والآخر ثيوميم Thummim ،. وعندما استخرج هذه الكنوز استطاع تلقائياً أن يترجم اللغة المصرية الهيروغليفية إلى اللغة الإنجليزية ، وعندما تمت الترجمة ، أشهد عليها ثمانية أشخاص – شهدوا أنهم رأوا اللوحين الذهبيين على حالتهما الأصلية وأنهما حقاً من الله ؟!.

وقد انضم إلى هذه الدعوة عديد من الناس . كانوا يعتقدون أنهم بقية

السبط المفقود من بنى إسرائيل ، ومنهم تكونت ونمت جماعة – « قديسى اليوم الآخر » .

وقد يأخذنا العجب من نمو هذه الجماعة وانتشارها بكل هذه السرعة ، ولكن الذى حدث أن أعضاء الجماعة الأولين حالما عُمِّدُوا[1] ، انقلبوا دعاة يعمدون الآخرين ، فعمدوا أصدقاءهم ومعارفهم ، وهؤلاء أيضاً تجولوا فى الحقول والأماكن المنقطعة ، وبأيديهم كتاب المورمون ليكتسبوا أصدقاء جدداً ينضمون إليهم ، وبذا نما العدد وكثر جدا ، وليست القصة العجيبة ولا المشهد السحرى لكتاب المورمون وحل رموزه هى العامل الوحيد الذى اجتذب كل هذا العدد الوفير ، ولكن سذاجة القوم ، وما كان فاشياً بينهم من أُمِّيَّةٍ وخرافات ، كانت ذات أثر أكبر ، ففى هذه البرارى يكثر الشعور بالشّياطين والآلهة ، حتى إنه كان من النّادر ألّا تجد واحداً منهم يحدثك أنه رأى الآلهة وسمع أصواتها ، وشعر بخفيف أجنحتها يَرف على وجهه ، ولا ريب أن هؤلاء السكان لم يكونوا قد بلغوا من النضج منزلة يمكن أن يعيشوا بها من غير هذه الأساطير فهم لا يعرفون نقد قصص الأنبياء وتمحيصها ، كانوا فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر ، وكل نبأ يسرهم أو أسطورة تلائم مزاجهم كانوا يعتبرونها حقيقة يصدقونها وينقادون إليها ، وقد أعلن بينهم بريجهام يانج أنه يعرف أن هذا الدين حقيقة لا تقبل الجدال ، قال إننى لشدة إيمانى أكاد أرى بعينى كل هذه الأشياء وألمسها بأطراف أصابعى ، وأحسها بكل حواسى .

لقد وفد عليهم البحث كالبائع المتجول ، يطوف عليهم والكتاب فى يده ، وقد تحمل مشقة التنقل ولكنه وجد كثيرا من الإكرام ، قدم إليه الطعام ووفرت له الإقامة ، وتحدث عن سذاجتهم وتأخر حياتهم ، فجاء من حديثه :

---

(١) حالما عمدهم المعمدون .

قضيت ليلة فى بيت صديقى « أتكنسون » ، وكان يعيش فى منزل كبير قبيح جداً ، أقيم منذ مائة وخمسين عاماً ، وكان عامراً بالبق حتى لم أستطع النوم ، ووصف الأخ . جورج – سميث هذا البق بأنه كان يرقص على أصوات البعوض ، كما لو كانت موسيقى حربية تصدح لتشجيع الغزاة .

وهكذا انبثق دين جديد على جوانب القارة الأمريكية ، وقد أحاط يوسف سميث نبىّ هذا الدين نفسه بمجموعة من الأتباع ، فاختار منهم اثنى عشر نقيباً ، وجعل بريجهام يانج قائدهم والرئيس عليهم ، وانفعالاً بهذه الرؤية ، كون الرسل النقباء ، وأتباعهم مركزهم الرئيسى فى كرتلاند Kirtland ، بجانب أوهيو Ohio ،– ولكن مكيدة دبرت ضدهم ربما كان الغرض منها عوق هذه الدعوة أو وقفها . فلفقت تهمة اختلاس ليوسف سميث وحواريه بريجهام يانج ، فلم يجدا خيراً لهما من الهجرة من هذا المكان ، ولم تكن هجرة تختلف عن هجرة النبى محمد [ﷺ] وصاحبه أبى بكر ، شقوا طريقهم بين صفوف الأعداء ووصلوا شاطىء السلامة .

كونوا مكان إقامة لجماعة المورمون فى ميسّورى ، واستمرت زمناً ، وسمح لهم الجيران بالإقامة وأقبلوا عليهم ، وتقبل الكثيرون من جديد دعوتهم ، ولكن هل كان من السهل أن تنشأ كنيسة وتنمو من غير أن تواجه اضطهادات وعداوة ؟ إن الاستشهاد لصيق ملازم لكل دعوة دينية جديدة ، كما تلازم الرياح الشرقية نيوإنجلاند ، وما قام صاحب دعوة جديدة إلّا قوبل بالمعارضة والعداء ، ولذا لم يمض وقت طويل حتى قام الغوغاء من « ميسورى » بحملاتهم ضد أبناء المورمون ، فسبوهم وسخروا منهم ورموهم بالحجارة ، ثم طلبوا من الحاكم أن يطردهم من البلد نهائيا .

ماذا كانت جنايتهم حينئذ !.

إنّها ليست العقيدة ، ولكنه المنهج الذى جروا عليه ، إنهم حَرَّموا امتلاك العبيد ، بينما كانت ولايات الجنوب كلها تقوم على تجارة العبيد

وامتلاكهم وتسخيرهم ، ولذا كانت صدورهم تغلى بالكراهة والحقد على كل من يدعو لعدم الاسترقاق .

وشيء آخر أثار أحقاد جيرانهم ، وهو نشاطهم وعملهم الدائب ، ليس لديهم وقت للتسكع أو اللهو ، إنهم يقدّرون الزمن ويملأونه بالعمل الجاد ، ونتيجة لذلك أثروا وصاروا فى حالة ازدهار ،- وربما كان أشد من هذا كله عداوة رجال الدين القدامى لهم ، إنَّه شيء من عمل الغرائز أن يكره القُدامَى المحدَثين ، إن أعمالهم ومشاعرهم الدينية تختلف كل الاختلاف عما فى الكنائس التى حولهم ، ولذا كان القسس ورجال الدين دائماً يثيرون العداوة ضدهم ويُغْرون بالتحامل عليهم ، وفى أى مكان حلوا كانوا يواجهون بهذا العداء .

ولم يكن المورمون مستسلمين ولا خاضعين ، فرفضوا أن يتركوا نساءهم وأطفالهم تحت رحمة الغوغاء ثم نظموا جماعة سرية فتاكة ، سموهم الملائكة المحطمين . ونادوا أن العين بالعين والنفس بالنفس ، وزاد ذلك النار اشتعالاً ، فقامت جماعة من الغوغاء ألقت القبض على يوسف سميث ، وتبودلت من أجله الخطابات بين الحكام : بريجادير جنزل دونيفاه .

سيدى . بريجادير جنزال دونيفاه .

خذ يوسف سميث والآخرين المسجونين معه إلى الميدان العام ... ثم اضْربهم جميعاً بالرصاص وليكن ذلك غداً فى الساعة التاسعة صباحاً .

صمويل . د . لوجاس

الجنرال العام

وكان الرد هكذا .

... لا أستطيع تنفيذ ما أمرت به ، إن رئيسى سَيَمُرُّ غَداً الساعة الثامنة ، وإننى سأتحمل مسئولية هذا العمل أمام المحكمة .

ا . و . دونيفان

البريجادير العام

ثم أعلن حاكم ميسورى أمراً يقضى أن يغادر جماعة المورمون ميسورى كلياً ، وبغير ذلك فإنه سيستأصلهم ، أو يتخلون عن دينهم ويعيشون فى الدين الذى عليه كل أهل البلد .

كان بريجهام يانج قد تقلد رئاسة الجماعة بعد سجن يوسف سميث ، وأصبح هو المطلوب إليه أن يتصرف إزاء هذا الأمر ، فأعلن أتباعه أنهم لن يتخلوا عن دينهم ، وكتب إلى الحاكم لا نستطيع أن نوافق يا سيدى ، فهذا الدين هو كل ما قدر لنا أن نناله فى هذه الدنيا .

ولم يبق بعد ذلك إلا أن يرحلوا .

وقاد يانج أتباعه خارج بيوتهم ، وكان منظراً ، بائساً حزيناً . واتجهوا إلى اللينويس Illinois . وكانوا نحو ثلاثة آلاف من المورمون . ثم أدركهم هناك يوسف سميث ، لأنه كان قد استطاع أن يفلت من سجنه ، وهرب ليلحق بهم .

أقاموا هناك على الشاطىء الشرق لنهر المسيسيبى ، وأمَّنوا مدينتهم هناك . ولأن المكان لم يكن صحياً ، ولم يكن يأوى إليه أحد ، كان مناسبا لإقامة هؤلاء المطاردين ، وكان يطلق على المكان اسم كوميرس Commerce – فغيروا اسمه إلى نوفو Nauvoo . وهذا الاسم فى لغة المورمون السرية يعنى المدينة الجميلة .

* * *

ومرة ثانية ازدهرت حياة المورمون ، وتقدمت « أنزل الله على قبيلتنا المن » ولكن البنين والبنات من أبناء إسرائيل الجديدة كانوا لا يزالون فى المنفى ، فنوفو كانت تمثل حواف مصر ، وليست أرض المعاد[1] ، ولذا فإن

(١) لاحظ أن الكلام على التشبيه – وانظر تفاصيل عقيدة المورمون فى كتاب « الإرساليات التبشيرية » .

فرعون هذه الأرض عاد يضطهدهم . فقديسو اليوم الآخر قد نشروا عادات كانت كريهة لدى جيرانهم ، ففضلاً عن محاربتهم الرق أشاعوا عادة تعدد الزوجة ، وقالوا إن القديس يوسف سميث تلقى من الله وصية ذات أهمية كبيرة ، وهى أن عليه أن يعيد عهد إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ويجب أن يتخذ – كما اتخذوا – عدداً من الزوجات وبذا ينجبون عدداً من الأولاد ، وهذا ما لم يكن يقبله جيرانه .

ومما أوحى إليه أن الأرواح لا توجد فى أجساد الموتى عقب موتهم فقط ، ولكنها موجودة حتى من قبل خلق الأجساد وميلاد الأشخاص ، وكل روح تحيا فى جسد إنسانى ، متأهبة لرقيها إلى درجة أعلى بعد موته وتوجد ملايين الأرواح فى السماء مترقبة أن تولد فى جسم إنسانى ، وهى تطلب أن تتقمص جسم ذكر أو أنثى ليحيطها بغلاف جسدى ، وذلك لتنطلق بعد موته إلى نهاية رحلتها إلى الأبدية ، ومنذا الذى يستطيع أن ينكر عليها هذا الحق ؟– إنه من واجب كل شخص مرمونى أن يساعد هذه الأرواح بكثرة إنجابه ، ولا يكون ذلك إلا بتعدد الزوجات والاستكثار منهن بقدر ما يستطيع .

وقد تعشق بريجهام هذه العقيدة ، ورأى أن من واجبه الدينى أن يستكثر من الزوجات حتى ولو كان ذلك فوق طاقته الطبيعية ، وقد تزوج هو ، وهو فى نوقو Nauvoo – ثمانى زوجات ، ثم ظل يستزيد منهن استجابة للتعاليم الدينية ، وقبل موته كان قد تزوج سبعاً وعشرين زوجة ، وكان والداً لستة وخمسين ولداً، وقال إن قدامى الأنبياء ، من بنى إسرائيل كان لديهم أكثر من ذلك ، وعلى الأخص سليمان الذى كان عنده مئات من الزوجات والإماء .

ولم يكن بريجهام يانج شهوانياً ، بل على العكس من ذلك كان عفيفاً

معتدلاً فى غريزته الجنسية ، مثالياً فى سلوكه وكل تصرفاته ، وكان فكهاً مزاجاً ، ولكنه كان بليغاً قوى الحجة حاضر الذهن ، وقد قدم غير مرة إلى محاكم الولايات المتحدة ، بسبب إباحة تعدد الزوجة ، وقال فى المحكمة إنه لا يستبيح ذلك لرغبة جسدية ، ولكنها وصية دينية ، وقال إنه شخصياً كان ضد هذا السلوك ، ويكره تعدد الزوجة ، وقد قرر قبوله بعد طول تردد ، لأنه اقتنع أخيراً بصحة هذا الدين ، ولم يكن القاضى متحيزاً ولا شديد التمسك بحرفية القانون ، فصدقه وبرأه .. ولكن على الرغم من خلاصه من حكم المحكمة ، كان جمهور الناس ضده ، وعندما شاع بين الناس أن مدينة كمدينة « فينوس » قد قامت فى مقاطعة « الليلنويز » انهارت على جماعة المورمون قذائف السب والتشنيع كما ينهار الجليد من الجبال ، وكأنما قامت حرب صليبية تحارب النار بالنار ، ولتقابل فاحشة تعدد الزوجة بعدوان أفحش وأشنع ، وظل هذا التحامل يزداد عليهم حتى أعلن يوسف سميث ترشيح نفسه لرياسة الولايات المتحدة سنة ١٨٤٤ ، حينئذ اشتعلت نار العداوة أكثر وأكثر ، ثم وقعت الواقعة .

كان بريجهام يانج يقوم بحملات الدعاية لرئيسه ويطوف بأنحاء « نيوانجلاند » ، وفى أحد الأيام عندما كان ينتظر مجىء القطار على محطة بوسطن ، جاءت إليه الأنباء بأنه لم يعد تابعاً ولا حوارياً بعد ، ذلك أن السلطة الحكومية فى « الليونس » قد قبضت على رئيسه واقتادته مخفوراً إلى السجن ، ولكن الغوغاء ، من الناس هجموا عليه فى سجنه فقتلوه ، لذا لم يبق مجال للدعاية له » .

رجع يانج فى الحال إلى « نوفو » وبوصفه رئيساً لاثنى عشر رسولاً أعلن نفسه رئيساً للكنيسة المورمونية ، وقد انشق على هذه الكنيسة الجديدة طائفة من الأتباع لم يرضوا قيادة يانج ، فكونوا لهم كنيسة خاصة ، لكن أغلبية

المورمون ظلوا معه ، ونشط هو فى دعايته وقال إذا كان نصف الآلهة قد ذهب ، فإن النصف الثانى قد وصل ، وأضفى اغتيال يوسف سميث عليه صفة الشهيد ، ومن ثم ارتفع اسمه إلى قصة خالدة ، ولذا لم تمت العقيدة الدينية المورمونية بموته ، بل دخلت فى دور تقدمى لا تمكن مقاومته . ثم كان موسى الطائفة المخاطرة هو يانج ، فماذا عمل[1] .

جمع قومه وخطبهم بأنهم مأمورون أن يخرجوا من « اللينويز » وكانوا كبنى إسرائيل إذ خرجوا من مصر ليتيهوا فى الأرض ، وكان خروجهم فى شهر فبراير ١٨٤٦ ، وكان البرد قارساً كئيبا ، وتحملوه وتبعوا قائدهم ، وظلوا فى رحلتهم حتى عبروا نهر المسيسبى ، فاستقروا على جانبه ، وكانت رحلتهم أقرب إلى رحلة الغزاة المحاربين منها إلى رحلة جماعة مطرودة ، طاردها الظلم والفقر ، واستطاع يانج أن يقنعهم بتحمل هذه المشاق فى ارتياح وسرور ، إنهم لا يجتازون صحارى مقفرة ولكنهم يطرقون أبواب السماء ويدلفون إلى الخلود ، وعلى الرغم من البرد والمرض والمشقة غنوا أناشيدهم ورقصوا وابتهجوا ، لأنهم كانوا دائماً يشعرون أنهم فى طاعة الله ، وقد شقوا طريقهم عبْر أراض مهجورة، عشرون ألفا جابوا الولايات الأمريكية الجنوبية ، وكانوا رواد مأثرة تاريخية ، ولكنهم لم يكونوا يعنون بأمر التاريخ ، وإنما كانوا يؤدون عبادة وينفذون أمراً إلٰهياً .

كانت الرحلة شاقة غاية فى المشقة ، ولكنها كانت منظمة تحكمها قواعد دينية .

ربما شاهدت بعض النساء عند مدخل الخيمة يدفعن الذباب عن أطفالهن الذين ماتوا من وهق الرحلة ، وقد تتفتح عيناك على ما لا نهاية له

---

(١) يريد القائد الذى يشبه موسى فى قيادته بنى إسرائيل .

من الأميال فى أراض منخفضة ، أرض ممتدة فارغة لا يقطع فراغها إلا ما تشاهده أحياناً من أحطاب القطن أو أشجار هنا أو هناك ، أو ما يكون من مقابر أقوام قد قطعوا هذه الأرض من قبل ، وكان بريجهام يانج شديد الاهتمام بقومه يرى أنه هو المسئول عنهم ، فهو كثير الحركة لتفقدهم ، يساعد المسنين ويقدم لهم الطعام وما يحتاجون إليه يجالس الشراب ويشرب معهم القهوة التى يعدها النساء لأزواجهن ، وقد يتولى سوق العربة بنفسه إذا كان السائق قد أنهك وكل ، ويعمل لمساعدة الحراس فى القافلة ، فيمر هنا وهناك والنار التى يستضىء بها ترتجف فى يده تحت لفحات الهواء ، ثم هو يضع دائماً التخطيطات النهائية لسير القافلة .

وقدم لهم نظاماً دقيقاً لأوقات الطعام والنوم واللعب والسير ، وكان كل واحد ملزماً أن ينفذ تفاصيل هذا النظام بدقة . ففى صباح كل يوم عند الساعة الخامسة بالضبط يصيح النّفير صيحة واحدة ليستيقظ النوام ، وعند الساعة السابعة يجلسون لطعام الإفطار ، ثم سرعان ما تنظف الآنية ، وتشرع القافلة فى السير ، وعند الساعة الثانية عشرة يتوقف السير للراحة وتناول طعام الغداء ، وتستمر هذه الجلسة لمدة ساعتين فقط ، ثم يستأنفون السير ، وعند الساعة السادسة ينزلون للمبيت ، وينتشرون فى بُقعة خاصة ، فيشعلون نارهم ويوقدون خيامهم فترى الصحراء الخرّبة قد عمرت ، وقامت فيها مدينة ، وعند الساعة الثامنة ينطلق النفير صارخاً مشيراً بأن وقت الراحة قد حان ، ويستغرق وقت الراحة والاستمتاع ساعة واحدة للهو والغناء ، ومن لديهم طاقة بدنية ، بعد هذه الرحلة الشاقة ، يقومون برقصات اجتماعية مرفهة أيضاً ، وعند الساعة التاسعة يذهبون للنوم .

هذا النظام الدقيق لم يكن ينكسر إلّا يوم الأحد ، عندما تستريح القافلة كلها ، وتستجمع قواها للرحلة فى اليوم التالى .

وهكذا كان نظام الرحلة الرتيب الذى لا ينكسر ، قطعوا به فصول الربيع والصيف والخريف ، ولما جاء فصل الشتاء وبدأت الثلوج تتكون لم يكن لهم بد من الإقامة ، واختار يانج عدداً من رفاقه وتشاور معهم فى محل الإقامة الأخير الذى ينشدونه فى أقصى الغرب ، وكل ما كانوا ينشدونه هو البعد عن أعين الرقباء من القسُس ورجال الحكم ومن يثيرون الغوغاء ضدهم ، وحاروا فى البحث عن المكان المناسب .

درس يانج الخرائط واستمع إلى تقارير الذين يعرفون هذه البلاد ، وسأل هنا وهناك ، ثم التقى بكشاف عجوز ، كان يدعى جيم بريدجر Jim . Bridger فحدثه عن وادى البحيرة العظمى المالحة ، وقال له إنها أرض بكر لا يوجد بها سكان ، وفيها يأمن المورمون من الذين يطاردونهم عندما يعمرون الأرض ، وليس هناك حكومات ولا من يحرض عليهم من القسس أو غيرهم . فهم باسم المدنية قد عانوا كثيراً من الاضطهادات ،. وفرح يانج بهذا النبأ وأزمع القوم الرحلة إلى هذا الوادى .

ما كاد الركب يصل إلى وادى البحيرة المرة الكبيرة حتى كانت الحمى الجبلية قد هجمت على يانج ، وظن موسى الجديد أنه مثل سلفه الذى خرج ببنى إسرائيل من مصر فمات فى سيناء ، وقبل أن يصل إلى أبواب الأرض التى كتب الله لهم ، ولكن يانج عاش و لم يمت ، وفى حرارة يولية وبعد أن عبر بقومه نهر المسيسبى ، بسبعة عشر شهراً ، استقر به المقام فى الوادى المبارك ، وقضى وقتاً يستفيق فيه من الحمى التى أضرعته وطالت مدتها معه ، فلم يكن له بد من فترة نقاهة يستفيق فيها ، وكذلك ليستجم قومه وخيوله التى حملتهم خلال القفر والمستنقعات والجبال حتى انتهت بهم إلى الأرض التى كانوا يريدون ، وهناك التقط أنفاسه وأدّى عبادته ، وشعر بالراحة النّفسية . كان من خلفه فى هذا الفضاء الواسع ستارة من الجبال الشاهقة التى تتوّجها

الثلوج ، وكانت تيجانها الثلجية تبدو بيضاء ناصعة كجبال الألب ، وبجانبه كان ساحل البحيرة الملحة يمتد طويلاً أزرق يلمع الضوء على مياهه فى بهاء كالساحل الإيطالى الساحر ، ولكن أرض الوادى أمامه كانت تبدو قاحلة حجرية صلبة صعبة المراس ، وإذن فعَلى أبناء الله أن يعملوا بنشاط وقوة حتى يؤمنوا معبد الجمال الذى أووا إليه ، وعلى الرغم من ملح المياه ومن الجفاف والقحط لابد أن تبذر البذور .

وقام بريجهام يانج من علته ونار الحمى مازالت تلتهب حمرتها فى عينيه ، فقال لرفاقه : هنا تزرع البطاطة التى يمكن أن نعيش عليها ، وأجمعت رأيى على أن نستقر فى هذا المكان ، سوف تجدون هذه الصحراء ترقص فرحاً ، وتزدهر بالخضرة والنماء .

* * *

استقرت جماعة – المورمون مع نبيها فى يوتاه – Utah وبفضل توجيهات يانج زرعوا وأنتجوا ، وقد تمكنوا أن يجتازوا صعوبات ومشاق كثيرة ، الأمراض التى توجد عادة فى مثل هذه الأمكنة . هاجمت الأرض الطفلة البكر ، وأوبئة البعوض التى التهمت محصولاتهم ، والمعارك العديدة مع عوامل الطبيعة التى شلت مجهوداتهم ، ... وهكذا كان لابد من كفاح مرير ، ولكن تدريجياً نمت المستعمرة الطفلة وصارت فى حالة يفاعة ثم نضج ، ذلك كله لأن يانج عرف كيف يعامل أجسامهم وعقولهم وأرواحهم ، لو لم يكن رجلاً مدنياً لكان روائياً يكتب القصص الطويلة الشائقة أو ممثلاً يجلو الحقائق وأحداث التاريخ أمام الناس ، وقد فهم بدقة أرواح قومه ونفسياتهم كما يفهمها النفسانى الدقيق فقط ، وقد أطاعه قومه وانقادوا إليه فى ثقة وفهم متبادل . وهم فى الواقع لم ينظروا إليه على أنه معلمهم ، بل على أنه نبيهم .

لم يكن نبياً شاعراً ، ولكنه كان نبياً ناثراً له كلمات جميلة مأثورة ، ولم يكن يحيط كلامه بهالة من البلاغة ولكنه كان نثراً بسيطاً ، ولم يكن له خيال سام . كان خياله فى خشونة يديه ، وكان محدوداً بما تستطيع يداه أن تعمله ، كان يحتقر النظريات . كان يفخر بأن عقله لم تفسده الكتب ، وكان يقرأ الإنجيل قراءة رائد لم يكن لديه وقت قط أن يحقق ضرورة الأفكار التى به كما يحقق مواد البناء .

« إن التعليم لن يمكِّنَ الشاب الناشىء أن يتزوج أو أن يقم له منزلاً لا يؤويه فى هذه الجبال الصخرية » .

وكذلك نشأ أتباعه على هذه السذاجة لايعنيهم إلّا الانقياد لنبيّهم ، وكان النثر نثر نبيّ ساذج لشعب ساذج . شعب قوى مكافح بسيط جاء من أركان عديدة مظلمة من جوانب العالم ليؤسس له سكنى فى يوتاه ،

وقد عَبَر كِتَابُ المورمون المحيط ليصل إلى قرى الفلاحين فى الدانمارك وإلى عمال المناجم فى بريطانيا ، وهيأ اختلاطَ الدماء من العالم القديم بدماء العالم الجديد ، وكان جماعة من عمال المناجم فى سنة ١٨٤٩ مارين إلى حقول الذهب فى كاليفورنيا ، فمروا بيوتاه وأنِسُوا إلى جماعة المورمون فأهملوا المناجم التى جاءوا إلها واعتنقوا العقيدة المورمونيّة ، وتجمع معهم كثيرون من طبقات العمال . صانعوا العجلات والنّجارون ، والجزارون ، والبناءون ، وقاطعوا الأخشاب والنشارون والحدادون ... ، قوم أقوياء الأجساد أقوياء العضل ، مع قوة العقيدة ، جاءوا جميعاً ليقيموا لهم أكواخا وليمهدوا الطرق ويمارسوا الزراعة فى يوتاه ، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء المهاجرين فقراء ، ومن الطبقات الساذجة قليلة التعليم ، ذلك لأن بريجهام يَانج لم يكن لديه ما يَقدمه للأغنياء ، وكان معظمهم أيضاً من الأميين ، لأنه لم يكن لديه ، مايقدمه للمثقفين .

« إننا نؤوى أفقر الناس الذين نستطيع أن نجمعهم من نواحى الأرض ، ولكننا نعمل على أن ننشىء منهم سيدات ورجالاً محترمين .

نحن نعمل أيضاً على تعليم أطفالهم ، وأن نروضهم ونعلمهم ليجمعوا لأنفسهم راحة العيش ، وليعيشوا حياتهم الإنسانية كما ينبغى أن تعمل الأسرة الإنسانية ، لتكون أيامهم وأسابيعهم وشهورهم سارّة هنيئة .

كان متيقظاً جداً إلى أن مستعمرتهم فى الصحراء لا ينبغى أن تكون مقبرة ساكنة هادئة لعقيدة سلبية ، ولا ينبغى أن تكون أمطارها هى الصلوات والدموع ، قال لسكان قريته إنه لا ينبغى لهم أن يصلوا لله ليصنع لهم معجزات ، ولكن عليهم أن يبنوا وأن يعملوا ما يستطيعون وأن يخططوا وينفذوا بعضلاتهم القوية وعقولهم . إننى لا أرى أن أسأل الله أن يعمل لى ما أستطيع أن أعمله لنفسى .

ونتيجة لهذه النصائح كان المورمون يعتمدون على الله ويثقون فى عونه ولكنهم كانوا يعملون بأيديهم ، تأجروا بنشاط ، ولكن بأمانة وشرف مع الرواد الأوائل الذين كانوا يتقاطرون نحو الغرب ، وقد أنشأوا لهم مصانع وبنوكاً ، ومطابع ...، ولم يقم بينهم وبين الهنود الحمر المجاورين أى اشتباك أو منازعات ، ذلك أنهم كانوا يشفقون عليهم ، ويرون أنه من الأفضل والأيسر أن يطعموهم لا أن يختصموا معهم أو ينازعوهم وقد أخذوا على عاتقهم أن يرووا الجزء الأكبر الهام من الأرض التى أرادوا أن يعمروها . أنشأوا مشروعات تعاونية ، وأنشأوا ملاجىء للعجائز من النساء ، ومقتوا الاسترقاق وعابوه ، وأكثر من هذا أنهم منحوا المال لبناء كنيسة كاثوليكية ومعبد يهودى ، وشرعوا نظام العشر الذى يقوم على أن يخرج كل شخص عشر كسبه لمساعدة الفقراء ، وبعبارة أخرى ، عنيت الكنيسة المورمونية بحياة أتباعها الدنيوية الموقوتة كما عنيت بحياتهم الأبدية فى الدار الآخرة .

إننا ربما سخرنا من كتاب يوسف سميث الذى استكشفه ، ولكننا لا نستطيع أن نسخر من القانون الذهبى الذى وضعه يانج – ويمكن أن نوجز تعاليم المورمون فى أحسن أوصافها فى كلمات بسيطة .

« حاول أن تسد حاجة جيرانك بأكثر مما تشبع به أطماعك » !.

وكان بريجهام يانج يفخر فيقول : « إننى لم أدع شخصاً فقيراً ، ولكننى جعلت آلافا أغنيا » .

وهكذا أنشأ المورمون مدينة مزدهرة ثرية ، وذلك من خلال مبادئهم من التسامح والاستقلال الداخلى .

وانتشرت أنباء المرمون بسرعة خلال الولايات المتحدة ، وكستها قصص بول بونيان Paul Bungion .– هذا القصاص الأمريكى الكبير – روعة واسترعت الأنظار والأسماع نحوها ، إن معجزة هائلة عظيمة من قلب أمريكا وعضلاتها قد تمت فى يوتاه ، ونشأ جيل من العمالقة فى يوتاه ، فى الصحراء الأمريكية .

وأخيراً تقرر أن تكون يوتاه ولاية من الولايات المتحدة ، واندثرت المملكة الدينية التى أسسها يانج ، وقامت مكانها ولاية أمريكية ديمقراطية ، وأجبر المورمون على التخلى عن عادة تعدد الزوجة ، وهكذا قهرت الحكومة الفيدرالية قديسى اليوم الآخر على ترك مبدأ ثمين لديهم[1] .

والآن عندما بدأت هذه الصفحة الجديدة من حياة المورمون لم يبق بريجهام يانج بعد زعيماً لجماعته ، لقد ذهب إلى مقره الأخير ، ذهب مع عقيدته الرصينة الثابتة ، عقيدة شخص كان يتطلع دائماً إلى الهدوء والرزانة وإحياء

(١) لم تنقطع عادة تعدد الزوجة إلى الآن ، ولكنها ليست شائعة وعامة كما كانت .

الصحراء وإنعاشها .

« دعنى استمتع بنوم هنىء حتى يأتى الفجر من يوم البعث » .

* * *

□ ماری بیکر إدّی □

Mary Baker Eddy

١٨٢١ – ١٩١٠

○ الأحداث الهامة فى حياتها :

١٨٢١ ولدت فى هامبشاير فى باو Bow

١٨٤٣ تزوجت المأجور جورج جلوفر

١٨٤٣ مات زوجها بعد ستة شهور من زواجهما وأعقبت منه ولداً واحداً كان يحمل اسمه والده بعد ثلاثة أشهر من موت أبيه

١٨٥٣ تزوجت د . دانيال باترسون

١٨٦٣ هجرها دانيال وتركها

١٨٦٦ استكشفت علماً مسيحياً

١٨٧٥ نشرت أول طبعة من كتابها « العلم والصحة » ألف نسخة فقط .

١٨٧٧ تزوجت آزا Asa – جلبرت إدى

١٨٧٩ نظما معاً أول كنيسة لعلم المسيحية فى بوسطن

١٨٨٣ أسسا مجلة العلم المسيحى

١٨٩٢ أسسا جماعة نشر العلم المسيحى

١٩٠٨ أسسا هيئة مرشد العلم المسيحى

١٩١٠ ماتت فى ٣ ديسمبر فى « تشستنوت هل فى بوسطن Chestnut Hill .

* * *

فى ليلة من ليالى أكتوبر الباردة سنة ١٨٦٧ سمعت مسز مارى وبيستر

طرقاً على باب بيتها ، ومسز وبيسترن الآن هى مارى بيكر إدى فيما بعد .
وكانت فى ذلك الوقت زوجاً لضابط بحرى متقاعد يعيش فى « أمسبرى » -
وقامت السيدة الفاضلة المسنة ففتحت الباب ، وتبيّنت فى ظلام الليل شبح
امرأة ، وكانت امرأة ضئيلة الجسم نحيلة معروقة تبدو التجاعيد على جسمها
الهزيل ، واستأذنت فى استعطاف وصوت رقيق أن تدخل -: هل تسمحين
لى ياسيدتى بالدخول كى أستريح قليلاً ؟.

بكل تأكيد :- تفضلى ، ودخلت فأجلستها وبيستر بجانب المدفأة ،
وقدمت لها كوبة من الشاى ؛ وشكرتها الزائرة ، وشربت الشاى فى صمت
ثم همت بالخروج ، ولكن صاحبة البيت رَجَتْها أن تبقى أكثر لتأنس بها ،
وقالت لها إننى هنا وحدى ، فإن زوجى فى مانشستر وهى ليست قريبة ،
إنه مشرف على مصنع قطن هناك ، ويمكن أن تمكثى معى بقدر ما تحبين ،
وقالت الزائرة : أراك حفية بى وأنت إلى الآن لا تعرفين من أنا ، قالت
مارى : أنت واحدة من مخلوقات الله تعانين - فيما يبدو - بعض المشقة ،
فأنت صديقتى !.

وابتسمت الزائرة ابتسامة تنم عن الشكر والتقدير ، وقالت : سأكون
مسرورة جداً إذا سمحت لى بالبقاء معك ، فأنا - كما ترين - ليس لى
مأوى !.

وطوقتها مسز وبيستر بذراعين حانيتين ، وربتت على كتفيها
النحيلتين ، ولم يكونا كتفى امرأة مسنة ، ولكنهما كانا قبل الأوان قد تقوستا
تحت أثقال العيش والسنين ، أما وجهها فكان ينبىء أنها تخطت منتصف
العمر ، ولكن ما كان ينبغى أن تكون فى مثل هذه الحال !.

ومالت على جسم صاحبة البيت وقالت : إنى كنت فى ظمأ إلى هذا
الحنان الذى لم أكن أتوقعه ، وأنت لا تدرين أى سعادة قدمتها لى .

حسن – وقالت وهى تحاول أن تخفى ما بدا على صوتها من تأثر وحنان اضطرما فى قلبها : هل يضايقك أن أسألك عن اسمك ؟ ولم يكن سؤالاً عارضاً ، بل كان بعد شيء من التفكير :

– مسز – جلوفر ، مارى بيكر جلوفر .

لقد كان هذا المأوى بالنسبة لها مرفأً موقوتاً ، استطاعت أن تأوى إليه عند مسز وبيستر ! وبقيت معها . وفى إحدى الليالى قَدِمَ ابن زوجها من نيويورك ليزور أباه وزوجة أبيه ، فما كاد يدخل حتى بدا عليه الضيّق ، وقال لمسز وبيستر : لا أريد هذا البيت أن يكون مباءة للعاطلين المشردين . وقال للضيفة المسكينة : أنا وليام إليس جئت من نيويورك لزيارة أهلى ، ولا أقبل مثلك فى هذا البيت ، وأمطرها بعاصفة من الألفاظ الشنيعة المهينة ، وبتهور وانفعال قذف بها خارج البيت ، وأغلق الباب .

كان المطر غزيراً ، وكان البرد قارساً ، ووقفت الطريدة بعضاً من الوقت يرتعد جسمها النحيل تحت فيضان الماء وعصف الريح ولسعات البرد ، ثم اتجهت نحو الطريق تنشد مأوى .

* * *

فى منتصف فصل الصيف من سنة ١٨٨٨ ، تحولت السيدة ويبستر إلى السيدة مارى بيكر إدى كان ذلك بسبب زواج متأخر ، وتحولت أيضا إلى داعية إلى مذهب جديد .

كانت واقفة أمام حشد كبير من أتباع مذهبها « علم المسيحية » – وكان هؤلاء علماء المسيحية ،– وليس الاسم مشتقاً من المعرفة ، لكنه من العلوم ذات الأدلة والتجارب Christian Scientist – كانت أمامهم فى شيكاغو – وكانت الصالة مزدحمة حتى أبوابها بالمستمعين ، ولكن كثيرين

منهم كانوا قد جاءوا للسخرية والاستهزاء بهذا المذهب ، أو ربما للسخرية أكثر من التحّية والتقدير وبدأت « السيدة الصغيرة » فتاة الله خطبتها باقتباس من الإصحاح الواحد والتسعين من سفر المزامير .

الساكن فى ستر العلى فى ظل القدير يبيت
أقول للرب أنت ملجأى وحصنى ، إلهى فاتكل عليه
لأنه ينجيك من فخ الصيادين ومن الوباء الخطر

وخيم السكون العميق والصمت على السامعين واتجهت العيون كلها إليها ، وثبتت النظرات على هذا الوجه الصغير الذى يشع – رغم نحوله – بنور التقوى ، وأصْغت للصوت الذى ينفذ إلى القلوب . لقد وهب هذا الروح الطائر المحلق شباباً دائماً من الله ، وكانت الرسالة التى تنبعث من شفاهها البليغة – وهى تتكلم عادة بطلاقة وبدون أى تكلف أو محاولة تنغيم – نفاذة حتى ليخيل لسامعها أنها تصل لجميع عباد الصليب فى مختلف أنحاء الأرض ، وكانت تتكلم عن عدم الموت وعن عدم الآلام وعدم الحاجة إلى الشباب :

« إنه فى مقدورك الشخصى أن تزيل الفقر والمرض والحزن والخوف من الموت » .

كل أنواع المعاناة والشرور ليست إلّا أحلام نائم مزعجة ولا حقيقة لها .

إنها أشياء تُبعد الناس عن الحقائق ، إنها ضلال العقل الإنسانى !.

اطردوا آثام الشر نهائياً . آثام الكراهة والطمع والشهوات ، وحب النفس ، والطموح الذاتى البالغ ، التكبر ، العجرفة ، والتّعالى ، والحسد ، والحقد ... تطهروا من كل هذه الشرور والآثام ، إنها بذور الأمراض

وأسباب الموت .

ارجعوا إلى حقيقة عيسى المصلوب ، إنه العالم السامى ، أسمى العلماء .

استجيبوا إلى الروح الذى معكم ، إنها روح العظمة الحقّة والنور ، روح الجمال والشجاعة ، والاقتناع والثقة ، والأمل ، والمحبة وعاطفة الإخاء والسلام .

هذه وأمثالها هى بذور الصحة والسعادة والحياة الأبدية .

كان السامعون – جلوساً وواقفين – مسحورين مأخوذين بهذه الخطابة . وكتّابُ التقارير ذهلوا فلم يَكتبوا شيئاً !!.

وما كادت تنهى خطبتها حتى اندفع الجميع متزاحمين حول منصة الخطابة ، كان الرجال يقفزون تاركين النّساء والأطفال . كانوا يَتزاحمون ليلمسوا يدها ، أو ملابسها أو حتى الأرض التى وقفت عليها ! أما هى . مسز إدى – فإنها كانت تتلقى تحاياهم وزحامهم بكثير من التواضع ، وقلما تكلمت . ومما جاء فى الصحف المعاصرة هذه العبارات :

« ... ازدحم الناس حولها ، ازدحاماً شديداً يدعون لها ويشكرونها بينما كان الرجال الأقوياء يديرون وجوههم ليخفوا الدموع التى ترقرقت فيها ، كانت دموعَ الشكر والامتنان ، والسكر الذى خدرهم ، والأمل الذى تجدد فيهم ». هذا لأن الذى استمعوا إليه لم يكن مجرد محاضرة من فم إنسان ولكنه كان رسالة من قلب أسمى من الإنسانية .

ترى أى نوع من الناس كانت هذه المرأة العجيبة النحيلة الجسم ، إنها فى خلال إحدى وعشرين سنة ، ارتفعت من العوز والفاقة إلى قديسة إلهية .

دعنا إذن نلخص حياتها .

* * *

ولدت مارى فى قرية باو Bow – فى نيوها مبشاير ، وهى سلالة أسرة اسكوتلاندية ، وكان والدها فلاحاً من ذوى الخير والمبادىء الطيبة ، كان يدعو الناس إلى العدل والمحبة ، والرحمة ، وأن يكونوا طيبين متواضعين أمام الله ، وكانت هى فى صغرها ضئيلة الجسم ، حتى إن جيرانها من القرويين كانوا يقولون عنها « طفلة صغيرة لها اسم طويل » – مارى آن مورس بيكر » .

وقد ماتت أمها فى سنّ مبكرة ، أنهكتها رعاية أسرة كبيرة تتكون من ثلاثة أبناء وثلاث بنات ، وكانوا يعيشون فى بيئة مقفرة وأرض غير خصبة فى نيوانجلاند ، وهى ربيت تحت فهم قوى ، وإرادة حديدية ، فقد كان أبوها يتّسم بالذكاء والعلم وقوة الإرادة وصلابة الرأى ، وقد نشأت مارى حادة المزاج قوية الإرادة ، ونحن نقول إنها نشأت تحاشياً لكلمة نمت ، لأنها لم تنم ، بل كان جسمها صغيراً ضئيلاً ، ولكنها كانت ذكية حتى كان الناس يقولون إنها رأس ولا جسم .

وكانت مولعة بكتابة الرسائل إلى إخوتها الذين هم أكبر منها ، وكانوا قد ذهبوا هنا وهناك بحثاً عن الرزق وطلباً لكسب العيش ، وقد كتبت إلى أخيها سوليفان Sullivan – رسالة جميلة الأسلوب محكمة القواعد ، جاء فيها : لقد ذهبت الأسرة لتشهد السبت الحزين ، وبقيت فى البيت وحدى لأجمع أحداث الماضى .... يوجد شىء واحد لعلى لم أكن أقمت البرهان عليه جيداً ، لقد تعلمت من التجارب الخاصة أن أربح ربما أكثر مما ربحت

من أى شيء آخر ، وذلك يا أخى العزيز أن النصيحة الأخوية ، والتى تأتى عن طريق الصداقة أجدى على الشخص من أى كنز يعثر عليه . وأنت كنت دائماً تتعهدنى بالنصائح الغالية ، وقد قدمت لى من كنوز الحياة الثمينة ماله أكبر الأثر فى حياتى ، ولكن الآن وأنا وحدى مع طعامى المنفرد لا أجد أخاً يشجعنى كما كنت تشجعنى من قبل ، ولا توجد فلسفة تُضجر الدارس وتمله ، إننى لابُدَّ أن أوسع فكرى عن المنفعة والإحسان بأكثر مما تسمح به الأنانية وحب الذات ، وأضيف أن صحتى فى الوقت الحاضر آخذة فى التحسن تدريجياً ، وآمل أن أستعيدها بواسطة الحمية ، والاحتراس لوقت ما .

كانت طفولتها طفولة مرض ووحدة ، وقد خرجت من مرض الطفولة ووحدتها إلى مرض الأنوثة الكاملة ووحدتها ، وحيث عجزت أن تؤدى دوراً إيجابياً فى عالم الماديات ، تحولت إلى التأمل الباطنى ، وإلى البعد والانعزال للتفكير الفلسفى ، وبذا خاطرت أن تجوب عالمها الداخلى ، من خلال عقليتها وتفكيرها .. لقد صورت أحلامها ، وصورتها فى نثر لها كان فِجًّا ركيكاً ،– وكانت فى هذا تصور تطلعها إلى يوم تسمح لها فيه صحتها بنشاط إيجابى وعمل بين الناس ، وذلك تمد فكرة « تفضيل المنفعة العامة على المنفعة الشخصية » – وإذن فقد كانت هذه الفكرة تراودها منذ الصغر ، وفى هذا الوقت تزوجت مرتين ، تزوجت من جورج . و . جلوفر ، ثم من دانيال باترسون . وقد فقدت زوجها الأول بسبب موته ، أما زوجها الثانى فقد تركها وذهب ولم يعد ، وأعقبت ولداً من زوجها الأول – وقد اضطرها مرضها وفقرها أن تسلمه إلى امرأة أجنبية ترعاه ، وكانت هذه الأجنبية رحيمة حنوناً ، أما هى فكانت تتجول عند سفوح الجبال الحجرية فى « نيو انجلاند » للبحث عن مكان تضع فيه رأسها ، ووجدت نفسها أخيراً . وهى

تقاسى هذا العناء – قد بلغت السادسة والأربعين من عمرها . امرأة لا أمل لها ولا هدف ، حطام إنسانى لا يملك شيئاً ! بسرعة جداً أكملت دورة الحياة الإنسانية ، وظلت غامضة فاشلة .

ثم حدث شيء يتنازعه العلميون – رجال العلوم الفيزيقية – ورجال الأديان ، هل كان حقيقة جسدية ، أو كان مجرد شيء خيالى فى عقلها . ذلك أنها رأت أن تسجل الحدث الذى يمر بها ، ثم ترقب نتيجة الفشل ، وما توحى به .

وقع هذا الحادث فى بلدة لين Lynn – (مـاساتشوستس Messachusetts) وكان فى يوم من أيام فصل الشتاء بعد الحرب الأهلية الأمريكية .

بينما كانت تمشى على أرض ملساء زلقة ، سقطت مغمى عليها ، وقد جرح ظهرها ، وأصيب عمودها الفقرى بصدمة دامية ثقيلة ، ونقلت إلى مستشفى لتُجرى لها عمليات العلاج والصحة وكتبت بعد ذلك فى مذكراتها : لقد اتخذت آخر خطوة كان يجب أن اتخذها » وبينما كانت على سريرها فى حالة يأس من الشفاء طلبت نسختها من الكتاب المقدس ، وهيأت لها المعونة الإلهية أن تقع عيناها على الإصحاح التاسع من إنجيل متى ، وفى الفقرة الثانية منه : « وقدموا له مفلوجاً نائماً على فراشه ... فقال له : ثق يا بنى ذنوبك مغفورة لك ،... قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك ، فقام ومضى إلى بيته ، وقام المفلوج ومضى إلى بيته »[1] .

---

(١) هذا ما فى الأصل ، وفى الترجمة العربية : « وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحاً على فراش فلما رأى يسوع إيمانهم قال للمفلوج : ثق يا بنى ، مغفورة لك خطاياك . وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا يجدف ، فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم ...

وقالت مارى بيكر إنها عند هذه الكلمات استكشفت الطب الميثافيزيقى من خلال الطب الإلهى ، وأحضرت لها قراءة هذا الطب الإلهى قوى عظيمة ومن هذه الفقرة اهتدت إلى السر الإلهى الذى يشفى - قالت إنها فى الحال نهضت من فراشها ومشت .

هذا ما يوضح كيف ولد علم المسيحية الحديث .

* * *

ظلت مارى ثلاثة أعوام تُنعِمُ النظر وتفكر فى هذا السر العظيم الذى اهتدت إليه ، وفى طريقة ترجمته إلى لغة الكتاب المقدس الجديد . إنه إنجيل الصحة الشخصية من خلال الحب الكونى - الحب العام لجميع البشر .

وبعد انقطاعها لدراستها ثلاثة أعوام ، رَجَعَت مَرةً ثانية متجولة من جديد . كان السكون واليأس فى نظرها هما باعثى المرارة واليأس ، وبدلاً من ذلك كانت الثقة فى المسيح رائدها الأول ، وخدمة الناس هى القربان المقرب إلى الله ، ولمع فى عينيها بريق الثقة والبركة ومضت لتشفى المرضى وتقدم لهم الأمل والصحة والثقة ، وكان حضورها يشفى كل مريض . وكان مزاجها الذى لم يكن يخلو من انحراف . قد رق ولطف وصار نداء للرحمة ، وكتب أحد معارفها فى هذا الوقت يقول : « لو وجد قط ملاك على الأرض لكان هذه السيدة » .

مع كل هذا ظل طريق معرفتها والاعتراف بها ضيقاً ، وذلك لعدم فهمها من الناس ، وللسخريات التى انطلقت حولها ، وللإشاعات والأقاويل التى روجتها ألسنة الآثمين ، قال خصومها : إنّها امرأة غبية دجالة ، وقال آخرون امرأة أسنت فخرفت ، حتى بين أتباعها وحوارييها كان يوجد أولئك الذين يسخرون ويقولون فشلنا أن نجد لها شيئاً أقل إتقاناً من تمثال مرمرى

لقديسة ، إنها بعيدة كل البعد عن أن تكون رسولاً من السماء .

والواقع أنهم لم يكونوا جميعاً مخطئين ، لأن أعمالها كانت بعيدة عن أن تنطبق على أقوالها وظلت هى تستسلم لانفجارات السخط ، وحالات الحقد الموجبة للحزن ، وللتعالى الغبى ، ثم بدأت تظهر عليها بوادر الغضب الباعث للرثاء – لأولئك الذين يمتلكون الماديات ، وربما كان ذلك ردُّ فعل لما عانته من حرمانها السابق ، وقد كانت تقبل ما يقدم لها من عطايا ثمناً لشفائها الروحى الذى تقوم به ، ولكنها فى هذا التصرف لم تكن قليلة الإخلاص ولا متقلبة أو مستهينة بعملها الخاص وتدريسها ، وقد كان لديها إيمان عميق فى قوة الشفاء وسرعته من علم المسيحية ، وكانت ترى أن هذا العلم لا يمحو فقط توعكات الجسد وآلامه الفيزيقية ، ولكن يشفى أيضاً من النقص الاقتصادى . إن انحراف الصحة ، والجيوب الخالية كلاهما شرور يستحيى منها، ويجب التخلص منها بسرعة . إن الضمان الاقتصادى يأتى من خلال الطرق الشريفة ، وليس هذا مأذوناً به فقط ، ولكنه مطلوب لحفظ السعادة فى الحياة .

و لم تر أى خطأ فى مزاولة تعليم « العلم المسيحى » لقاء أجر ، وكانت أيضاً تستحث حوارييها ليزاولوا هذا العمل .

ثم مضت مع زوجها الثالث آزا . ج إدى **Asa - g - Eddy** ، فذهبا إلى بوسطن فى سنة ١٨٨٢ . وافتتحا هناك كلية ميتافيزيقية ، كان يتدرب فيها الذين يعدون للعلاج المادى والروحى جميعاً ، وقد نشر كتاب لها حديثاً – كان يستعمل لهذا الغرض اسمه : « العلم والصحة » .

كانت هذه الكلية ناجحة منذ البداية ، لأنه كان يوجد فى هذه السيدة ذات الستّين عاماً شىء فاتن سحرى فى شخصيتها ، وقد أحضرت للناس نبعاً

جديداً من الرى ، نبع الشباب الدائم ، وكان اسم الكلية واسم الدين الجديد « العلم المسيحى » به جاذبية وفتنة ، لأنه كان يوحى بمعجزة الدين ، ويربط الأسباب بمسبباتها . ويربط الدين الغَيْبى بالعلم التّجريبى ، « العلم المسيحى هو الطريقة العلمية للطب الإلهى » وقالت هى : إنه النظام الأكيد الحقيقى للعلاج والطب لأنه هو الطريقة الوحيدة التى تعتمد على القانون العلمى للحقيقة وقانون الحقيقة هذا هو الحقيقة الروحية ، وهو يقابل القانون الفيزيقى الجسدى غير الحقيقى . الإنسان ممدود بمجموعتين من المشاعر والأحاسيس المادية من السمع والبصر والحس والشم واللمس . وهى تصلنا بصور كاذبة من الحياة ، والأحاسيس الميتافيزيقية الروحية التى تصُلنا بمشاعر الحياة الحقيقية ، والأولى تعرفنا بامتداد الأشياء الحسية ، وعلى سبيل المثال ، نحن نرى السماء ونلمس المائدة ، ونشم الورود ، .. وهكذا ، ولكن هذه الحواس المادية لا يمكن أن تعرفنا بالمشاعر الداخلية من العواطف والأفكار ، فنحن لا نَرى الأمل ، ولا نلمس السرور ، ولا نشم الحب . إننا نعرفها فقط من طريق الحواس الروحية والميتافيزيقية . وإزاء هاتين المجموعتين يوجد أيضاً نوعان من العلوم ، العلوم الفيزيقية التى تعتمد على المشاعر الفيزيقية ، والعلوم الميتافيزيقية التى تعتمد على حواسها هى ، ثم يبرز تلقائياً سؤال واضح الأهمية ، أىُّ النوعين يعتمد على الحقيقة وأيهما يعتمد على غير الحقائق ، وتجيب السيدة « إدى » على هذا السؤال إجابة قاطعة ، فتقول : إن العلم الحقيقى هو العلم الميتافيزيقى ، لأن الحياة المادية ليست إلا سراباً لابقاء له، أما عالم الروحيات فهو حقيقة خالدة . وهى التى يمكن أن تصل إلى ضمائرنا – ولا يكون ذلك عن طريق العين ، أو الشّم أو اللمس أو أى عضو مادى ، وإنّما هو عن طريق العقل – فالأولى إذن تتصل فقط بالعالم الفانى ، أما الثانية فصلتها بالعالم الباق ، وتجد نفسها تلقائياً أمام عالم الروح ، إنه لا يوجد فى هذه المسألة ذكاء ولا حقيقة ، ولا حياة ولا مادة ، كل هذه عوالم عقل محدود ، ولا شىء غير الله هو الكل فى الكل .

الروح حقيقة خالدة ، والمادة إثم فان .

الروح هى الحق وهى الخلود ، أما المادة فهى عدم الحق وهى الفناء .

الروح هى الله ، والإنسان صورته وعلى شاكلته ، ولهذا ليس الإنسان مادة وإنما هو روح حى .

وهذه الحواس الروحية للإنسان - الذى على صورة الله - والروح هى الجزء الحقيقى فيه - هذه الحواس إله كامل ، وهى المسيطرة على جسده المادى الفانى .

ودعنا نفحص هاتين المجموعتين من جديد ، المادة والروح اللتان طبقاً لتعاليم العلم المسيحى تكونان شخصية كل مخلوق إنسانى .

النفس المادية - أو النفس الزائفة - شيء مألوف معروف ، جزء من كل حى ، منك ومنى ومن الآخرين ، إنها تملك إضافات معينة ، مثل الحجم واللون والشكل والحركة والتعبير ..، ويعترى الجسم العجز والتغير والمرض والفناء . وهى أقرب إلى أن تكون نوعاً من السجن الشجى المحزن ، وهذه النفس محدودة بالجسم ، وخاضعة لتأثيرات البيئة ، إنها قطعة من الطين نشأت ، وتكونت من التراب ، ومقدور عليها بعد وقت قصير أن تعود تراباً .

فلننظر إلى النفس الروحية أو النفس الحقيقية ، إنها شيء خفى داخلى ، وهى كونية ، جزء منك ومنى ومن غيرنا ، إنّها لم تنشأ من مادة ولكنها نشأت من الضمير والتوقان والطموح والعقل ، إنها لا تحد بحدود الجسم ، ولا تخضع لأى تحديد أو أبعاد مادية ، ونشاطها أيضاً لا نهاية له ، إنها تستطيع أن تحتوى الكون كله بفكرة واحدة ، ويمكن أن ترحل وتسافر إلى أبعد المناطق المكانية وأبعد الأزمنة ، ومعطياتها إشعاعات . وبهجة وحرية ، وقوة ومحبة ، وهى ليست حبيسة فى شيء ، ولا تتصف بخطأ فى عمل ،

ولا تعتريها الآلام ، ولكنها فقط ترقب وتشاهد فناء هذه الأشياء ، وهى - طبعاً - لا تحطم ولا تفنى ، ولا ترتكب إثماً ولا يطرأ عليها مرض ولا موت ، هذا لأنها جوهرية ولا تقبل الانفصال من الروح الخالدة ، التى تعمر كل حى .

هذه النفس الروحانية هى روح حياتنا ، وهى التى تحكم وجودنا ، دعونا إذن نخضع لها ، وهى تلقائياً تطرد عنا الآثام ومخاوف الجسد ومتاعبه ، إنها تبعد الكراهية والأحقاد والأمراض ، وتحلل الأعضاء والأمراض ، والحروب ، وكلما ركنّا إلى النفس الروحية بعدنَا عن تأثير الغرائز ونجونا من تضليلات الأهواء .

وعلماء النفس المحدثون - وهذا شيء شائق أن يعرف - يميلون إلى هذه الفكرة الميتافيزيقية ، كما أعلنتها وصرحت بها مسز إدِى .

وهى تقول إن هؤلاء الماديين فى بحثهم عن الحقيقة وجدوا أنه من الضرورى أن ينقحوا ويصفوا هذه الماديات حتى إنهم الآن ينظرون إليها على أنها شيء مكون من فراغ ، والشحن الكهربية تندفع إليه بسرعة عجيبة ، والأشياء المادية التى فى الكون كله تبدو كأنها تتحلل إلى قوى غير مادية .

و « العلم المسيحى » لذلك يعلم سمو الروح على المادة ، وسمو العقل على الجسم ، وهذا التسامى حقيقة ثابتة ترتكز على قانون الله ، قانون الخير ، وهى تفسر وتعلن العنصر الإلهى الذى به يتم التماسك الكونى .

إن الملاءمة والتوافق فى الفرد تعتمد على الكمال الصحى ، أما التوافق والانسجام فى المجتمع فيعتمد على المحبة ، أما إن اليوم الموعود آت فأمر لا ريب فيه ،- ولعله أن يأتى قريباً - وعندئذ يستفيق الذين لم يستفيقوا بعد من غفلتهم ومن كسلهم واسترخائهم ، وهو استرخاء الحياة المادية ،وسوف

يشعرون بالمحبة والخير ، ويحولون كل ما حولهم إلى جمال وسلام وحب لم تكن معروفة من قبل ، وسوف ينسى الجميع أنهم قد مرت بهم الأحلام الوهمية ، مثل الفقر والعناء والفشل والحرمان ... لأنه فى هذا اليوم سوف يكون معلوماً للجميع خلال العالم كله أنه لاموت أصلاً ، بل يوجد خلع الماديات التى لا فائدة منها ، و لم تكن قط ذات فائدة . فى هذا اليوم سوف يكون معروفاً أن الروح وحدها هى المنتصرة ، والكون يتضمن الروح التى تخلق الحياة ، وكل أنواع الخير والجمال والصداقة ، وسوف تفتح حياة لا نهائية ، تختلف فى تكوينها وألوانها وأعمالها .. إلى الأبد .

* * *

هذه باختصار هى العقيدة الروحية التى علمتها مسز إدى إلى تلاميذها ، وكثيرون من هؤلاء التلاميذ أصروا على البقاء عليها ، وليس فقط تلاميذها ، بل أيضاً عبيدها ، الأتقياء الذين عبدوها كانوا يخاطبونها باسم « أمنا » وكانوا يقومون لها بكل ما تحتاج إليه من الأعمال ، يسوون أرض حديقتها ، ويحصدون ما يكون من زرع فيها ، ويصلحون لها أثوابها ، ويعدون طعامها ، وينسخون ما تكتبه من أوراق ، ويقرأون أمامها « البروفات » التحضيرية ...، وكل ما كانوا يرجونه جزاء على هذه الأعمال هو ضمان سعادتها وارتياحها ، وكانوا يقولون : إننا نحن المدينون لك ، ولست أنت المدينة لنا فى شىء ، لأننا فقط قدمنا لك شيئاً من وقتنا الفارغ من العمل ، ولكنك قدمت لنا حياة جديدة .

وفى أحد الأيام ذهب الفيلسوف المرموق – برونسون الكوت Bronson Alcott لزيارتها . أو لَيزوّر « الكلية الميتّافيزيقية » فوجد شاباً – يدعى جورج بارى – كان ينظم الفراش فى حجرة الاستقبال فى بيتها ، ودخل معه الفيلسوف فى مناقشة ، فأعجبه أن الشاب يبدى ذكاء ويقظة عقل وخيالاً

شعرياً – ولما سأله الفيلسوف عن عمره ، أجاب بأن عمره خمسة أعوام فقط – ولما لاحظ اشمئزاز الفيلسوف وعجبه ، قال : إنها خمسة أعوام منذ عرفت مسز إدى ، وما قبل لقائها لا يحسب من العمر .

هكذا كان سحر شخصيتها وتأثيرها قوياً ، حتى إن الذين اختصموا معها لم يستطيعوا بعد أن يمنعوا أنفسهم من عبادتها ، وحدث أن اشتبك معها أحد تلاميذها القدماء فى قضية فى المحكمة ، ولكنه وهو فى أشد حالات ضيقه قال : إنها بعثت فى حياتى أبهى وأعلى أضواء الحقيقة ، وتلميذة من تلاميذها كانت قد طردت من كنيسة « العلم المسيحى » وعند تحرش الكنيسة بها – ومسز إدى نفسها بها – قالت : إننى بسرور أقبل هذا الحرمان لأنه من يد رئيستى العليا ، إنه خطوة أخرى فى طريق تسلقى إلى قائدتنا التى لها مكانة المسيح .

وكان تلاميذها يأتون من هنا وهناك . ليلقوا نظرة على قائدتهم التى تمثل المسيح الجديد ، وكانوا يزدحمون حولها ، ويعبدونها ، ويقدمون لها كميات كبيرة من المال ، لتأييد وتقوية الكنيسة الأم ، وقد كانت الكنيسة الأم أول أمرها معهداً متواضعاً ، أنشىء للأعمال المالية اللازمة لتيسير العبادة ، ولكن هذا المعهد نما بسرعة عجيبة مدهشة سواء فى حجمه أو فى نفوذه وتأثيره .

وفى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٤ أنشىء بناء جديد من أجل الكنيسة الأم ، وخصص ليكون المركز الثقافى فى بوسطن ، وعند « قدس الأقداس » فى هذا المعبد أقيم مزار لمؤسسة وقائدةِ مذهب « الدين للصحة الدائمة » وهو معهد العلم المسيحى . وكان هذا البناء غاية فى الروعة والبهاء ، وندرة وغلاء الأجزاء التى تكون منها ، كان غطاء المدفأة فى هذا المزار من العقيق النقى ، وكانت السجادة المعلقة على الحائط مصنوعة من ريش صدور البط ، وقد

أخذ من صدور مئات من الذكور الصالحة لذلك . أما حجرة الاغتسال فكانت على آخر تصميم وجد حتى هذا الوقت ، وصنابيرها من الذهب ، والنوافذ الخشبية زركشت بأشعار للأم نفسها ، تتحدث عن المسيح وعيد ميلاد المسيح .

ولكن حتى هذه الفخامة والضخامة لم تقنع أتباع مسز إدى ، وكانوا يتطلعون بشغف إلى أن يبنوا لها تذكارًا ، يظل إلى الأبد من أعظم ما يحفظ التاريخ تكريماً لقائدتهم .

وفى صيف سنة ١٩٠٢ – وقبل موت القائدة بثمانية أعوام – بدأوا يكونون رصيداً بلغ مليونين من الدولارات ، وسرعان ما توالت التبرعات ، وبعد أربعة أعوام نهض معبد شاهق البناء فى بدفورد ، كان أبيض ناصع البياض كالثلج ، بنى من الحجارة والجرانيت ، وكان ارتفاع قبته العظيمة ٢٢٤ مائتين وأربعة وعشرين قدماً ، بحيث ارتفعت عن الجبل العالى المجاور بقدم واحد ، وأنفق على هذه الكنيسة بسخاء وإسراف ، حتى قال عنه بعض الكتاب المعاصرين – وبعد مضى كل هذا الزمن –: « إنه أعظم حصن كنسى فى العالم » ، به سبعة سلالم مرمرية ناصعة ، والحواجز التى عليها من البرونز وبها اثنان وسبعون مصباحاً ، والثريات مصنوعة من البرونز أيضاً ، وكل واحدة منها معلقة بثمانى سلاسل أما القبة التى تغطى فضاء الردهة فواسعة جداً تشبه قبو السماء ، وقد قامت على غير عمدٍ وتبلغ سعتها نحو ميل ونصف ميل ، يعلق على جدرانها أقمشة مزركشة باهظة الثمن ، وتصطف المقاعد ذات الأخشاب الثمينة تحتها فى أناقة ونظام .

وكانت هذه الفخامة تجتذب الزوار من كل أنحاء الإقليم ، ولكى ينظم هذا الحشد كانت الصلاة تقام فيها ست مرات فى اليوم الواحد ، وفى كل صلاة من هذه الصلوات كانت أصوات الآلاف من العباد الأتقياء تردد

النشيد الذى ألقته مسز إدى :

أيها الراعى أرنى كيف أذهب
قدنى على سفوح جبالنا المنحدرة
كيف تحصد ، كيف تبذر
كيف تطعم أغنامك
إننى استمع جيداً إلى صوتك
خشية أن تزل بى قدمى
سوف أتبع ، وسوف أرقص فرحاً
طريقك مفروش بثمين الفراش

ولدى هذه الصلوات المتكررة الخاشعة لتعظيم الكنيسة الأم ، كان هناك شيء هام غائباً ! هو مسز إدى التى أقعدها عن السير أربعة وثمانون عاماً ، لقد كانت فى هذا الوقت عاجزة عن الحضور لتشهد قمة الانتصار الذى نالته .

* * *

كانت قد كبرت جدًّا ، وليس فى طوقها أن تحضر الأعمال العظيمة التى كانت هى حجر الأساس فيها ، ولكن الكبر لم يقعدها عن الاستمرار فى دعوتها الروحية التى تلقت الوحى بها ، تحت نشاطها ، و « شباب » قيادتها الدائم نظم أتباعها وحواريوها جمعية للنشر ، وأخرجوا خمس دوريات لنشر « العلم المسيحى » منها « الجرنال » و « الكوارتارلى » أى المجلة التى تخرج أربع مرات فى السنة و « سنتنال » **Sentinel** أى الحارس ، و **Herald** – أى المنادى « المونيتور » **Monitor** أى المرشد أو الناصح .

وهذه المجلة الأخيرة رأت النور لأول مرة عندما كانت مسز

إدى ترزح تحت عبء سنيها الأربعة والثمانين ، وكان ينظر إليها حتى من الدوائر المتشككة فى الدعوة كلها على أنها أنظف وأصرح صحيفة .- واختلفت أنظار الناس وأقوالهم حول مسز إدى :

كان أتباعها ينظرون إليها على أنها خالدة ، ويقولون لن تموت أبداً .
وكان خصومها يقولون إنها ماتت بالفعل .

وانتشرت الإشاعات الكثيرة حولها ، وقال كثيرون إنها ماتت من زمن سابق وإن القول بحياتها ليس إلّا نوعاً من الأساطير التى يرددها أتباعها . وأنهم اتخذوها وسيلة ليجددوا بها نشاط دعوتهم . وانتشرت إشاعات أخرى تقول . إن مسز إدى لم تمت ، ولكنها فقدت عقلها ، وكانت هذه إشاعة أشنع وأقسى على أتباعها ولكن مثيرى الإشاعة قالوا لو كانت فى قواها العقلية ما حرص أتباعها على إخفائها عن أعين الناس .

وأصر أحد أصحاب الصحف أن يستأصل هذه الإشاعات بخبر يقين ، فأرسل أحد محرريه ليقابلها ، وكان هذا شيئاً شاقاً أشبه شىء بمحاكمة تعذيبية ، لأن مسز إدى فى هذا الوقت كانت قد بلغت الثامنة والثمانين ، وشلت السنون حركتها ! ولكنها قابلت المحرر وتحدثت معه بعقلية واعية وجسم واهن .

أكدت له أنها واعية مدركة لكل ما حولها ، وأنها صحيحة العقل ، ثم ختمت المقابلة بهذه الكلمات : « كل ما أطلبه من الدنيا هو الزمن . زمن يكفى لأن أحاكى الرب وأن أكون على شاكلته ، لو كان من الممكن أن أحتوى العالم كله فى قلبى لفعلت وهذا ليس بممكن ، ولكننى أرجو أصدقائى أن يرموا بأبصارهم بعيداً عن شخصيتى ، وأن يثبتوا أبصارهم على الحق وحده » .

وأعلنت الصحيفة هذه المقابلة ، ولكن ظل الناس يتحاملون عليها ،

وظلوا بكثير من الغباء يطلبون حضورها إلى الكنيسة . ويقولون : إنه من الحتم أن تحضر القديسة لتنال ثوابها على الصلاة فى الكنيسة . وبغير ذلك تتلقى جزاءها على التقصير ! واضطرتها هذه التّهم وتلك الإشاعات أن تمتشق قلمها النارى وتكتب : حيث إن مسز إدى ينظر إليها كما ينظر إلى شخص مجرم أو مريض ، فإنها ترجو أن يسمع إعلانها عن نفسها أنها لا مريضة ولا مجرمة .

وبهذا مضت تقدم نصائحها لأخلاط الناس « أرجوكم . حاولوا أن تكونوا متحدين واستسلموا إلى الحقيقة الشائكة المرة إن مسز إدى تصلح أعمالها بنفسها وإنها تمنح امتيازها وحقوقها إلى جميع أصدقائها الأعزاء ، وأيضاً إلى أعدائها » .

ومنذ ذلك الوقت تركت وحدها وقلبها ملىء بالرحمة والإشفاق على الذين لم يبحثوا عن الحقيقة ، وظلت تتمثل وتحاكى شخصية الرب ، وكانت بين حين وحين تقتنصُ الفرصة لتطوف بها العربة حول بوسطن أو فى بعض ضواحيها الجميلة ، وكانت تنتظر بفارغ الصبر - لا نهاية الحياة - بل بدايتها ، وجاءت بداية هذه الحياة - طبقاً لما وصفت - وهى فى التسّعين من عمرها ، ماتت فى إحدى ليالى ديسمبر سنة ١٩١٠ .

خرجت من دنيا الأوهام والمشاعر الكاذبة إلى عالم الحقائق والشعور الصادق .

* * *

□ غاندى □

Mohandas K. Gandhi

١٨٦٩ - ١٩٤٨

○ الأحداث الهامة فى حياته :

١٨٦٩ ولد فى ٢ أكتوبر فى بروباندر

١٨٩٣ ذهب ليعمل محامياً فى جنوب إفريقية. ورفض وظيفة قانونى اعتنق مبدأ عدم التعاون (مع الإنجليز) ضد استعمال العنف أثناء حرب بور عمل فى مستشفى

١٩١٤ أمن مرور المعونة الهندية فى جنوب إفريقية

١٩١٤ - ١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى عمل فى هيئة الإسعاف

١٩١٩ أنشأ حملة عدم التّعاون مع انجلترا احتجاجاً على القانون الإنجليزى فى الهند

١٩٢١ أطلق عليه اسم « المهاتما » - (القديس) .

١٩٢٢ اعتقلته حكومة الهند البريطانية

١٩٢٤ أطلق سراحه

١٩٣٠ اعتقل ثانياً مع ٢٧٠٠٠ من أتباعه

١٩٣١ أطلق سراحه وأبحر إلى انجلترا لحضور مؤتمر المائدة المستديرة

١٩٣٢ عاد إلى الهند وسجن

١٩٣٣ اتخذ موقفاً إنسانياً لصالح المنبوذين

١٩٤٢ عهد إلى الهند ألا تستعمل العنف فى أى حرب

١٩٤٧ حصل على استقلال قومى للهند

١٩٤٨ مات فى ٣٠ يناير فى دلهى .

* * *

كان غاندى من أغمض رجال التاريخ ، ومن أعجب الشخصيات التى تجمع أنواعاً من المتناقضات ، جندى يحارب بآلات القداسة ، وهل كانت طريقته أو رسالته صحيحة أو غير صحيحة ؟ ذلك ما تحكم عليه الأجيال المقبلة ، أما بالنسبة لنا أبناء الجيل الذى عاش فيه غاندى ، فإنه من الممتع الشائق لنا أن نراقب ونتفهم هذه الوظيفة الغريبة علينا وعلى العالم كله ، شخص من أشد الناس غرابة وغموضا حاول أن يطبع صورة الله على وجوه الحيوانات العجم .

* * *

كان يعرف باسم المهاتما غاندى ، وهو لقب أطلق عليه متأخراً ، أما اسمه الحقيقى فهو موهانداس كارتشاند. غاندى.Mohandas Karmcnand Ghandhi ، ولما صار له أتباع خلعوا عليه لقب المهاتما Mahatma . وهى كلمة هندية تعنى القديس أو الروح العظيم ، وهو ينحدر من سلالة محاربين ومتسامحين ، كان أبوه وكان جده قادة قوم يفخرون ويتمجدون أنهم يعانون المشاق لأجل استقلالهم الروحى .

أما أمه – فعلى العكس من أبيه – كانت غيورا ذات حماسة متعبدة ناسكة لديانة أُحمْسَا Ahimsa – وهى ديانة تحرم الإساءة وإيذاء أى شيىء حى ،– ونشأ غاندى من بداية طفولته فى هذا الجو المضطرب المختلف ، والد محارب يدعو إلى الاستقلال الروحى ، وأم متزمتة شديدة على نفسها فى النسك ، ولهذا كانت شخصيته وتكوينه ميدان معركة بين التمرد وبين الدين . ثم اعتنق هو مذهباً ثقافياً سلمياً ، عندما نما عقله وثقافته واهتدى إلى التوفيق بين الثورة والدِّين ، فاختار مذهباً أخلاقياً جديداً هو الثورة من خلال الدين ، وبهذا المذهب صار شخصاً متفرداً مميزاً عن الآخرين ، وكان

قبل ذلك يحاول أن يعيش كما يعيش الناس ، « هندوكيا محترما » فى الهند .
أو من رجال الهندوس المرموقين .

وقد ارتبط بزوجة خطبها أو خطبت له وهو فى سن الثامنة ، وهذا الارتباط المبكر تقليد غير شاذ فى عرفهم ، وتزوج وهو فى سن الثانية عشرة ، ثم دخل مدرسة عامة فى مدينة بورباندر Porpander – المدينة البيضاء ذات القداسة فى الهند ، ثم دخل كلية أحمد آباد . وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وبعد عامين ذهب إلى انجلترا ليكمل دراسته فى جامعة لندن ، فقضى بها ثلاثة أعوام .

وأثناء دراسته فى الجامعة كان مغرماً بمشاهدة جماعة بريطانيين كانوا يتسمون بالأناقة ، وبمضى شىء من الزمن كان يحاول تقليدهم فى مظهرهم وفى أعمالهم ، وأكل مرة من طعامهم – الذى وصفه بالبربرية والهمجية – فشعر باشمئزاز وقرف ، وظل طول ليلته يقظاً لا يستطيع النوم ، وخيل إليه – على حد تعبيره – أن شخصاً يغتاله ، وبعد سنواته الثلاث التى أنفق فيها كثيراً من الوقت ومن المال ، محاولاً أن يكون شخصاً إنجليزياً ، رجع إلى الهند فى سنة ١٨٩١ . وعمل حينئذ محاميا لدى المحكمة العليا فى بومباى ، وقد رفض حالات قضائية كثيرة كان يراها تُخالف الحق، ثم ترك المحاماة وأنشأ داراً تجارية رابحة كان دخله السنوى منها نحو ٢٥,٠٠٠ – خمسة وعشرين ألف دولار فى العام ، وبذا كان ينظر إليه بعين الاحترام والتقدير سواء فى حالته المالية أو مكانته الاجتماعية ، وكان – كأى شاب ناشىء طموح فى الهند محسوداً من الكثيرين . ولكنه فجأة ترك كل هذه الأعمال واتجه إلى حالة أخرى كانت ذات أهمية لديه – هى حالة المظلومين وموقفهم التعس غير العادل من الظالمين المعتدين ، ولم يعد موقفه بعد موقف رجل القانون بل موقف رجل الأخلاق خادم العدالة والرحمة والإخاء ، وهو الموقف الذى كرس له حياته طول ما

عاش . وكان الجزاء الذى تقاضاه على هذا الجهاد تياراً من الإهانات والإساءات انتهى أخيراً بقتله .

دعى غاندى إلى بريتوريا فى جنوب إفريقية ليحضر حالة من أهم وأعظم حالات المحاكمة ،– فى هذا الوقت كان هناك نحو مائة وخمسين ألف هندوسى يعيشون فى هذه المستعمرة ، وكان هؤلاء القوم من أتباع غاندى يقهرون على تحمل كل نوع من أنواع الاضطهاد ! وعانوا كل المشقات التى يعانيها مظلوم مستضعف ، يتعرضون للنّهب والسلب ثم يحاكمون محاكمة ظالمة – وأخيراً – لأمور كثيرة – قررت حكومة انجلترا إبعاد هؤلاء الآسيويين ، ولم تكتف الحكومة بوقف هجرتهم ، بل قررت أن تستأصل الهندوسيين من جنوب إفريقية حتى الذين كانوا هناك قبل مجىء الإنجليز .

كان هذا الموقف موقف غاندى تطوع أن يتبنى هذه القضية وأن يدافع عنها ، إنها القضية التى أعلنها وطالب الناس أن يأخذوا بها ، قضية العدالة ضد القوة ، لذلك ذهب فى التو إلى جنوب إفريقية ، وكانت أولى خطواته أن يقيم الدليل الواضح على أن طرد الهندوس من إفريقية أمر لا يقره القانون ، وقد انتصر فى هذا الموقف ، وكانت الخطوة الثانية ، وهذا عجيب جداً – أنه تخلى عن أعماله القانونية . وهو فى أرق وأسمى مكانة ، وتحول إلى شخص من الذين لا يملكون شيئاً ، ومن ثم تقبله البيض من جنوب إفريقية على نحو ما وضع نفسه ، ولم يكن له بعد أى احترام ، بل وجهت إليه أسوأ الإهانات . بصق عليه ، وركلته الأرجل وطرد من حظيرتهم ، حتى إنهم رفضوا التماسه أن يدخل فنادقهم .

ولكن غاندى استمر يحارب فى ميادين أخرى ، لقد استكشف أسلحته السرية الجديدة استخدام قوى الدين ضد جميع القوى ، وضد كل أنواع العنف ، ورفض أن يشارك فى أعمال الأعداء ، وأشاع هذا المبدأ ،

وقال : « إن الجندى لا يخاف ولا يرهب أبدا من الموت . وكان الكثيرون يعترضون على هذا المبدأ . ويقولون إن المقاومة السلبية لا تقود إلا إلى الهزيمة ، ولكن غاندى – على العكس من ذلك – أعلن أن المقاومة السلبية لا تقود إلا إلى النصر ، وأن السيف يمكن أن يقتل ، ولكنه لا يقوَى على قهر الناس على التخلى عن مبادئهم ، إن الغاشمين قد يحطمون بعض ما نملك أو يقتلون بعضاً منا ، ولكنهم لا يستطيعون أن يستعبدوا الأحياء » ولأجل هذا السلاح الجديد سلاح عدم العنف ، وعدم التعاون مع الظالمين ، رأى غاندى أنه أحد الأسلحة العالمية التى تمكن الضعفاء من الحصول على قوة ، أو أن يتغلبوا على الظالمين ، وقال : إن هذا هو السلاح الذى نال به المسيحيون الأولون نصرهم ضد الرومان الغاشمين ، إن الإيمان هو الذى يقهر القوة ، وركوناً إلى هذا السلاح ، سلاح الإيمان ضد القوة – أخذ غاندى يدعو إليه حتى فيما وراء مسامحته أعداءه ، فإنه كان يساعدهم عندما يكونون فى ورطة ، وقد كان هذا النوع الجديد من وسائل حربه غير معد لقتل الإنسان ، ولكن ليقتل عناصر الضعف فيه ، وكانت خطتهُ أن يتخلص من أعدائه بتحويلهم إلى أصدقاء ، وقد كان من الغريب حقاً أنه عندما كانت حكومة جنوب إفريقية فى ورطة ، تخلى غاندى عن خطة المقاطعة التى دعا إليها ، وقدم إليها مساعدته الجادة الحقيقية ففى خلال حرب بور **Boer** . نظم صليباً أحمر من الهنود ، وطلب الثّبات تحت النيران ، وطالب بور بمفاوضة تُنْهى الحرب .

وفى سنة ١٩٠٤ تفجر وباء فتاك ، وطاعون جائح فى مدينة « جوهانسبرج » وعندئذ غامر غاندى وأخذ يزور المرضى ويساعدهم سواء كانوا هنوداً أو غير هنود ، وقدم للبيض حقاً مساعدة كبيرة ، وفى أول الأمر لم يستطيع البيض ولا الهنود أن يستوضحوا شخصيته رجلاً مع شخصيته فى طريقته ، ولذا عومل من جديد معاملات سيئة ، فبين حين وحين كان يضرب على جانبيه لما أحْدَثه من اضطراب ، ومرة اعتدى عليه الغوغاء

بوحشية حتى ظن أنه مات ، ويوشك أن يلفظ نفسه الأخير . فرموه فى حفرة ، ولكن بالتدريج بدأ العالم الصغير فى جنوب إفريقية يدرك مبدأه : « إن أسلحته التى تشفى أقوى من الأسلحة الضعيفة التى تقتل » – وانتصر فى معركته التى ليس بها ، دماء .

وفى سنة ١٩١٤ حصل الهندوس فى جنوب إفريقية على استقلالهم ، وكتب الجنرال سمتس Smuts –: « وكان هذا الجنرال قائد الجيش الذى كان يحارب غاندى ، أى شىء آخر يجب أن أعمله لكم ، وقال لغاندى : إنك ساعدتنا فى يوم حاجتنا فكيف نستطيع أن نضع يدنا عليك ؟ .. لقد رفضت أن تجرح الأعداء ... رغبت فى النصر بمعاناة شخصية منك ، وأنت أبداً لم تحاول العدوان على أى واحد منا . وهذا ما اضطرنا إلى الخضوع وأجبرنا على تحية عدم المساعدة !.

* * *

أثبت غاندى فى جنوب إفريقية شيئاً لم يكن معروفا من قبله ؛ قال لخصومه الإنجليز : إنكم تستطيعون أن تسجنوا أو تحطموا آلافاً من الأفراد ، ولكنكم لا تستطيعون أن تسجنوا أو تحطموا أمة بأكملها . ولذا فإنه ما دامت روح الأمة مصرة على الحرية ، فلن تستطيع أى قوة فى الكون أن تسلبها حريتها ، إنكم لا تستطيعون أن تسترقّوا أمة تأبى أن تعمل لكم ما تريدون ، وهذا سر سلاحى الجديد !.

والآن وقد رأى غاندى سلاحه قد انتصر فى معركة صغيرة فى جنوب إفريقية تقدم خطوة أخرى ليجربه على محيط أوسع فى الهند . كان أبناء الهند يعانون الآلام تحت نير المستعمر البريطانى ، وقد قاموا بمظاهرات عديدة ، ولكنها لم تكلل بنجاح ، ولهذا جاء غاندى ليعلم أبناء وطنه نوعاً جديداً

من الثورة ، ليست الكراهة ضد حكامنا ، ولكنها ضد الكراهة التى فى نفوس حكامنا « إننى أستطيع أن أخدمكم وأنتم إخوة ، ولكننى لن أخضع لكم وأنتم سادة متحكمون ، ومرة ثانية واجه العنف والشدة ضد عدم العنف والمسالمة ! وحقاً بدأ غاندى حربه ضد الإنجليز بحملات السلام ، وذهب إلى لندن ١٩١٤ . لينظم هيئة إسعاف من الهنود لمساعدة الإنجليز فى حربهم ضد الجرمان ، وردت إنجلترا على هذا العمل بعلامات المودة من قبلها ، ووعدت الهند بمنحها استقلالها بعد الحرب ، وأخذ غاندى هذا الوعد بثقة ، وخاطر بنفسه عدة مرات لأجل « إخوانه الإنجليز » ولكن عندما انتهت الحرب ، وأعلن السلام سنة ١٩١٨ ، نكصت الحكومة الإمبريالية على عقبيها ، ولم تف بشىء مما وعدت به ، وبعض أعضاء الحكومة الإنجليزية كان مأخوذاً بروح الأنانية والطمع ، ويرى أن الهند بلاد غنية جداً ، ولا يحسن أن تخرج من أيدى الإنجليز ، وبعض آخر كان يرى بإخلاص أن الهند مكونة من عدد من العناصر البشرية ومن الديانات والمذاهب ، وأن الإنجليز إذا أطلقوها من أيديهم وقعت فريسة لحروب داخلية ، وبقاؤها تحت الحكم الإنجليزى يحقق لغاندى آماله فى السلام الذى ينشده ، وعلى أى حال زوال الأوهام التى يتخيلها الهندوس لم يكن شيئاً هيناً . وكانت نتيجة هذا الموقف أن تأججت نار التمرد فى جوانب الهند كلها ، وقاد غاندى هذا التمرد ، ولكنه حاول جهده أن يبقيه فى حدود السلم وعدم العنف .

كثيرون من الهندوس قاموا بأعمال عنيفة ، ولكنهم لم يتعرضوا لشخص غاندى ، وقابلوا نصائحه بكثير من السخرية ، وكانوا يقولون : أين أسلحتك التى تبجحت بها وأعلنت ثمرتها الآن وكثرت سخرياتهم ونكاتهم اللاذعة ، ولكن غاندى كان قد تعلم صبر الشرق الرزين ، وكان يقول للساخرين : تريثوا وانظروا ، إن النصر الدائم لا يمكن أن يتحقق فى يوم .

واستمر غاندى فى سياسته وهو ينظر إلى المستقبل فى كثير من الثقة مستعملاً فقط أسلحته الحربية الخاصة ، وحيث إن انجلترا بعد خروجها من أزمتها لم ترع عهدها عاد هو من جديد إلى سياسة عدم المعاونة التى أعلنها وجرى عليها من قبل ، وفى الواقع لم تكن هذه السياسة مجرد مقاومة سلبية ، ولكنها كانت أشبه شىء بالحروب الصليبية التى لا تنتهى ، وأعلنها عصياناً للظلم وعدم العدالة ، وكان حقاً بطريقته الغريبة السلمية محارباً ، لم يكن له فائدة كبيرة من وراء المسالمين ، وقد درب جنوده بعنف كأى قائد على مبادئه ، وقال : لقد زرعت فى قلوبهم شجاعة الموت من غير قتل ، وإننى أعتقد أن عدم العنف فوق العنف وأكثر فاعلية منه ، وأن العفو والتسامح أسْمى من العقوبة ، وأن عزة النفس وكرامتها أثمن من المهانة والصغار ، وأن الدفاع الصامت أكثر قوة من قوة الضوضاء .

هذه الكلمات الحكيمة من غاندى ليست شيئاً مبتكراً ، فقد قيلت وكررت قبله من كثيرين ، ولكنه سبق أسلافه بخطوة واسعة ، وهى أنه وضع هذه الكلمات فى مبادىء وأعمال واقعية ، ومع الإصرار والعناد كان يؤمن بالنصر النهائى ، ويعتقد أن طريقته لا تخيب « إننى أعرف أن كثيرين من الغرب – وحتى هنا فى الشرق – يعتقدون أن انتصار السلم وعدم العنف شىء مستحيل الحدوث ، وأنا أقرر أنه قد يكون بعيداً ، ربما لا يحدث فى حياتى ، بل لقد يستغرق قروناً ولكنه سيأتى فى النهاية على أى حال ! وعندما تتمكن سياسة عدم العنف فى القلوب ، فإن أسباب الحروب الأهلية لن تستأصل فقط ، بل إن العدوان من الأمم الأجنبية سيعتبر عملاً من أعمال الماضى الأثيم . لا يمكن أن تسود القوة فى مكان يسود فيه الإيمان .

كانت عقيدة غاندى تتركز فى الإخاء الإنسانى ، أعداؤك هم إخوانك الأغبياء ، تواضع لهم عندما يسيئون إليك ، لا تطع عدوك – بإيذائه –

عندما يحاول هو إيذاءك لا يوجد عدو أبداً له قوة كافية أو وحشية كافية يعلو بها على الحب ، أو يستطيع بها إطفاء ثورة .

* * *

فى ٦ أبريل سنة ١٩١٩ أعلن غاندى حملته الأولى « العصيان المحب ، أى العصيان بسبب المحبة ضد الإخوة الإنجليز ، وكان الانجليز قد اتجهوا إلى ضغط أتباعه ، وفى هذا اليوم أعلن الإضراب العام فى جميع أنحاء العالم ، واعتبر الهندوس هذا أمراً دينياً لابد أن يطاع ، وساد الإضراب السلمى كل أنحاء الهند فيما عدا مدينة دلهى التى انفجرت فيها بعض الاضطرابات ، وهذا ما لا يريده غاندى ، ولهذا ذهب بنفسه ليسكن هذه الثورة ، ولكن الحكومة اعتقلته مما أثار بعض الهندوس ، فأعلنوا الثورة والتمرد ، وفى مدينة أمريتسار قام اضطراب آخر حاد – وفى ١١ أبريل « أى بعد نحو خمسة أيام احتل الجنرال داير Dyer – المدينة ، وبسهولة جداً أطفأت الحكومة الثورة ، وعاد الاستقرار فى كل مكان وجاء يوم ١٥ أبريل وهو يوم عيد قومى فى الهند ، فاحتشدت الجموع من الرجال والنّساء والأطفال فى الميدان العام فى أمريتسار ، وهتفوا هتافات معادية مما جعل الجنرال داير يفقد صوابه ، فأمر بإطلاق النار على هذا الحشد الأعزل من بنادق آليه ، وأردفه بتفجير قنابل أمطرتها الطائرات عليهم ، وكانت مذبحة شنيعة قتل فيها نحو خمسمائة شخص . وكانت مأساة وضعت غاندى ومبادئه تحت الاختبار » . أى نفع يستفيده الناس من إيمانك فى مواجهة القنابل والرصاص وطيارات الأعداء ؟.

ولكن عكس ما كان من الجنرال داير – لم يفقد غاندى صوابه ولم يرتع لشناعة الحادث « إنه ليس طريقاً سهلا مفروشاً بالأبسطة هذا الذى وعدت أن أقودكم فيه إلى النصر ، .. قلت إنها حرب – وأعلن أتباعه أنهم لابد أن يتأملوا باتزان ورباطة جأش ، وماذا عسى أن يكون اغتيال ألف

من الرجال والنساء الأبرياء ؟ إن آلافاً وآلافاً سيذهبون قبل أن نصل إلى المكان الذى ننشده فى هذه الدنيا . آلاف لا تكاثرهم أى أمة أخرى ، ولماذا نحْزن ونأسى على الذين فَقَدوا حياتهم فى معركة لا مقاومة فيها ؟ إن الذين فقدوا فى معارك المقاومة أكثر من هؤلاء عدداً . إننا جميعاً سنفقد حياتنا فى معركة الحياة الكونية ، ولكن معركتكم أيها الهنود ستكون فى صالحكم وستكسبونها ، ولكن لا يقتل العديد من أعدائكم ، ولكن بقتل حب القتال الذى فى نفوسهم ستوجهونهم إلى محبة الإنسان وعدم الرغبة فى قتل الأعداء .

ولم يكن غاندى يشعر بكراهة نحو الجنرال داير ، واعتبره مريض العقل .. كيف أشعر بالكراهة لرجل عقله مريض ؟ . واكتفى أن يطلب من بريطانيا استدعاء هذا الجنرال ، واستجابت الحكومة البريطانية لهذا الطلب ، ولم تكن غير راضية عن فعل داير ، ولكن السياسة الإنجليزية لا ترى إبقاء أحد حكامها بين شعب يكرهه ، وتحاول دائماً أن تأسوا الجراح التى تجرحها .

وظلت : الحرب بين الإيمان والقوة دائرة الرحى ، هذا لأن غاندى لم يكن ليقبل شيئاً دون حرية الهند « إننا نرحب بالأجانب ضيُوفاً علينا ، ولكننا لا نقبلهم حكاماً وسادة » .

وكتب بهذا رسالة إلى النائب البريطانى فى الهند ، وجاء فى رسالته التى بعث بها بواسطة البريد ! « إنه ليس بدون غصة أن أعيد إليكم الميداليةالذهبية التى منحتموها إيَّاى ، والتى قدمها إلى سلفكم لعملى الإنسانى فى جنوب إفريقية ، وفى حربكم الزولو Zulu ، وفى خدمتى لكم قائداً للهنود المتطوعين فى أعمال الإسعاف سنة ١٩٠٩ ، والميدالية التى منحت لى فى حروب « بور » Boer مكافأة على خدماتى حيث كنت مشرفاً على المتطوعين لمساعدة

بريطانيا فى هذه الحروب ١٨٩٩ » .

وأشار غاندى إشارة عابرة إلى أحداث أمريتسان ومذبحتها الرهيبة وختم الرسالته بقوله : « أنا لا أقبل احترام ولا تأثير حكومة متحركة من خطأ إلى خطأ .. إن حكومتكم يجب أن تتجه إلى التوبة ، لابد أن تتجه إلى الإقلاع عن عاداتها الأثيمة ، وقد رأيت أن أدعو إلى مقاطعتكم وعدم التّعاون معكم فى شىء ، وإذ كنا لا نتغلب عليكم بالقوة فإنى استطيع أن أقهر حكومتكم إلى التراجع ، وأن تكف عن خطاياها .

وتسلمت الكومة الميداليات ، ولكنها أهدت غاندى هدية جديدة ، وهى السنجن له ولخمسة وعشرين شخصاً من أتباعه ، ألقى القبض عليهم جميعا ، ولكنهم كانوا يغنون أغانى البهجة وهم يساقون إلى السجن .

واعترف غاندى أثناء محاكمته بجريمته ، وقال : ربما أكون قد ارتكبت إثماً لأننى تمردت على الحكومة . إننى لا أسألك الرحمة إيها القاضى العادل ، إننى لا أطلب تخفيف الحكم على ، إننى هنا مستعد لتلقى أقسى عقوبة يمكن أن تفرضها على ، لأن ما يعتبره القانون جريمة وطنية مدبرة أعتبره من قبلى واجباً وطنياً ، إنه اسمى الواجبات لكل مواطن ، والعمل الذى أمامك هو إما أن ترضى العدالة والإنسانية وتستقيل من وظيفتك هذه ، وإما أن توقع على أقسى العقوبات ! .

كان رئيس المحكمة التى حاكمته هو بروموسفيلد Broomsfield — واستمع إليه فى أناة وهدوء . ولم يأخذ بدفاعه الجارح الذى ألقاه فى شجاعة ورباطة جأش ، ثم قال له :

« لا أستطيع أن أنكر الحقيقة التى تمثلت أمام أعين الملايين من أبناء وطنك ، ومن المستحيل أن ننكر أنك وطنى عظيم وقائد عظيم . حتى الذين

يخالفونك فى السياسة ينظرون إليك على أنّك رجل ذو حياة مثالية عالية ، وأن حياتك حياة نبيلة شريفة أو أنّك قديس .

وبعد أن ألقى رئيس المحكمة خطبته التى مجد فيها غاندى ، وأثنى على حبه العدل ، حكم عليه بالسجن لخروجه على القانون وعدم احترامه له .

ومما يتّصل بهذه القصة أن أستاذاً من أساتذة القانون فى جامعة هارفاد ، كان يشرح لتلاميذه أحكام القضايا الكبرى المشهورة ، فشرح قضية غاندى ، وهنا وقف أحد الطلبة وقال : « هذه ياسيدى قد تكون مسألة قانونية ، ولكنها ليست من العدالة فى شئ » – فوافقه رفاقه جميعاً – وأجاب الأستاذ فى ابتسامة ساخرة : « إذا كنت تريد العدالة أيها الشاب فاذهب إلى المحكمة الإلهية ، أما ما ندرسه فهو قانون المدرسة » .

ولم يهتز غاندى ولم يضطرب لهذا الحكم إذ كان يتوقعه كان يعرف أنه سيحاكم بقانون المدرسة وتقبّل الحكم والسجن بالروح التى تقبل عيسى بها صلبه – حسبما تجرى روايات أتباعه – تقبل الصلب وهو يقول : سامح هؤلاء يا أبى ، إنهم لا يعرفون ماذا يعملون » وقال غاندى : إن آلامى ستغزو العالم كله .

* * *

كان غاندى قائداً دينياً . يتزعم قوماً قد ألقت المقادير على عواتقهم الصلبة عبئاً سياسياً ثقيلاً ، وكان تعلقه باستقلال بلاده أمراً ثانوياً . أما أول شئ كان مشغوفاً به فهو الحقيقة الكونية ، وكان يرى الهند هى البلد أو المكان الأول الذى تنتشر منه معرفة الحقيقة إلى العالم كله ، ولذا كان يقول : إنى وقفت نفسى على الهند لأننى أعتقد أن لديها رسالة لابد أن تبلغها إلى العالم كله . ولكن رسالته وفكرته الدينية ، لا حدود جغرافية لها ، « إن لدى

عقيدة حية تطغى على كل شيء حتى على محبتى للهند نفسها » – و لم تكن نشاطاته السياسية إلا دفاعاً عن نشاطاته الدينية .

ومع أن كثيرين كانوا يتشككون فى حكمته السياسية ، قليلون من المفكرين كانوا يبحثون ما فى مذهبه الدينى من نبل وسمو إنسانية ويعجبون به .

ونحن حين نتأمل هذه الرسالة الدينية – الهندوكية – ونبحث عناصرها الأولية الجوهرية . نجد أنه لا يختلف عن الديانات الأخرى الكبيرة ، فالديانات الكبرى فى العالم كله تشير إلى الإخاء فى الله ، أو على الأدق تشير إلى إخاء الله من خلال الإخاء بين بنى الإنسان ، ولكن ديانة غاندى كانت أكثر شمولاً من معظم الديانات . فهى تجمع المخلوقات الحية فى وحدة شاملة وترى أن الفرد من بنى الإنسان أو الحيوانات العجم أو الطيور أو غيرها ليس قطعة منفصلة مستقلة ولكنه عضو من أعضاء حياة واحدة شاملة . الحياة كلها وحدة ، وأكل الإنسان من لحم أى مخلوق حى – فى نظر غاندى ومذهبه – بشئٌ شنيع كأكل الإنسان نفسه ، ومن أشد الوصايا غرابة فى الديانة الهندية – كما فسر ذلك غاندى – « إنك لن تحطم الحياة فى أى من أوضاعها ، كل شيء حىّ هو قصيدة رثاء ورحمة » ، وهو كان يفهم من عقيدته وحساسيته لغة الإنسان الشاكى وصياح الحيوان الأعجم ، ذلك الصياح الذى ليس له حروف ولا كلمات ، إن الإنسان فى حال شكواه يصيح كما يصيح الحيوان الأعجم . ونقطة الارتكاز فى فلسفة الديانة التى يدين بها غاندى هى حصن الحياة المقدس الذى لا يثلم ، ولا يجوز اقتحامه ، ويتلو هذا قداسة الدماء التى لا يجوز بأى وجه أن تسفك ، ومن حيث إننا لا قدرة لنا على خلق شيء ، ليس لنا حق تحطم أى حى .

وتنبع رحمة غاندى وحبه مواساة كل شيء حى من عقيدته فى تناسخ الأرواح ، ومن تقمص الروح بعد موت الجسد جسداً آخر ، إن روح الفرد

تنتقل وترحل ، فى ألوان شتى من الحياة ، إنها تنتقل من جسد إلى آخر خلال بحر زاخر من المخلوقات ، وقد تكون مرة فى صورة إنسان . وأخرى فى صورة حيوان أعجم ..، كل عمل من أى شخص يضع طابعه على أرواحنا ، ويحدد الصورة التى ستكون عليها الروح فى تقمصها جسداً آخر بعد الذى هى فيه ، وهذه هى عقيدة « الكارما » قانون المصير والسلوك الإنسانى » إذا عمل الإنسان أعمالاً صالحة وأحب الرحمة والمواساة ، فسوف تعود روحه لتحيا فى إنسان أرقى وأسعد ، ولكنه إذا أسلم نفسه للشرور ونزعات الغرائز الدينية فسوف تنحط درجته فى الحياة إلى أن يكون منبوذاً أو فأرا أو سحلاة .. ولهذا فإن السماء أو الجحيم ليست شيئاً وراء حياتنا على الأرض ، وثواب كل شخص وعقابه يتوقف على أعماله ، وأفكاره ليست مجرد خلاصات أخلاقية ، ولكنها مزاولة أعمال ، وتاريخ كل روح يكون قصة كاملة ذات فصول عديدة ، إنها ليست كحياة الأفراد خليطاً من الأعمال لا معنى له ، ولكنها تكوين وتصميم له غاياته ومقاصده ، وعقلياته . إذا عومل الشخص بغير عدالة أو ظلم فى هذه الدنيا ، فذلك لأنه أساء سلوكه أو ظلم غيره فى حياة سابقة ، كل شيء لابد أن يسوى فى النهاية ، كل عمل طيب ، وكل عمل سيىء ، سوف يقابل الجزاء العادل عليه عندما تكمل الحياة كل دوراتها ، وكل إنسان لذلك هو بناء أثرى لقدره ، إنه يستطيع أن يهيىء مستقبله ليس فقط فى هذه الحياة ، بل أيضاً فى الحياة المقبلة ، والفناء النّهائى للحياة هو التخلص النهائى منها ، ووجود الإنسان فى أحسن حالاته ليس إلا جحيماً ، وستأتى السماء لكل واحد أخيراً عندما يموت وتتقمص روحه الشخصية ما لا نفس له . والروح الكونى الذى يشمل الوجود كله هو الله . وعند وصول هذه المرحلة لن يتجدد ميلاد الشخص فى حياة المعاناة والشقاء .

وحيث إن أرواح الأفراد جميعاً سوف تكون فى الروح الكونى –

– روح الله – فهذا يعنى أن الناس جميعاً متساوون ، والمخلوق الحى التافه الذى لا يؤبه به كبير عندى ومساوٍ لأى مخلوق آخر ، لا يوجد شخص محتقر ، والشخص المنبوذ ليس أقل قيمة أو اعتباراً من القسيس المحترم . « إنه مما يخالف أصول الديانة الهندوكية ، أن يتعاظم الإنسان أو يعلى نفسه على غيره . كلنا ولدنا لنخدم مخلوقات الله » ، وقد شَنَّ غاندى حروباً متطاولة كالحروب الصليبية ضد الكثيرين حتى بعض أبناء وطنه دفاعاً عن إخوانه ورفاقه المضطهدين المنبوذين ، وكان يقول : إننى أفضل أن أمزق إرباً إرباً على أن أبعد واحداً من إخوانى المنبوذين ، لماذ نضطهد هذه الطبقة من الناس ؟ أليسوا إخواننا ؟ « إننى لا أريد أن يتكرر ميلادى ، ولكننى إذا ولدت ثانياً فإنى أوثر أن أكون واحداً من هؤلاء المنبوذين لأشاركهم أساهم وأحزانهم ، وأيضاً ربما تتهيأ لى الفرصة لأخلصهم من حالهم التعسة ، ولحدة عاطفته نحو هؤلاء المنبوذين تبنى واحداً منهم وضمه لأسرته .

وكان نبىّ الهندوس الجديد يؤكد أن أسمى واجبات الإنسان أن يخفف من عناء أتباعه ، وعندما ينخفض جذر الإخاء إلى أحط درجاته ، وينسى الإنسان واجبه نحو أخيه الإنسان يأتى كرشنا – إله الحب – إلى الأرض فى صورة إنسان بشرى ، ليحمى كل أنواع الخير ، ويحطم كل أنواع الشر ، ثم يؤسس « الدّارما » Dharma – وهى قانون الحق . وكرشنا يولد ثم يولد إلى الأبد ، ويعانى الآلام ، ثم يموت ، وكل ذلك لخلاص الإنسان الذى يتم على يديه .

ويؤمن غاندى بأن المسيح عيسى بن مريم – كان صورة من صور الآلهة التى نزلت إلى الأرض فى صورة إنسان بشرى ، وأما بالنسبة لغاندى نفسه ، فكان متواضعاً غاية فى التواضع ، وكان يرى أنه أقل من أن تحل روح الله فيه ، أو حتى روح قديس : « إنهم يدعوننى مهاتما ، ولكننى رجل

عادى ككل الرجال ، لقد أخطأت كثيراً وارتكبت مساوىء شتى » كان يشبه نفسه بعسكرى رفعته المصادفة إلى رتبة عالية ، وكان يقول : إننى ربما كنت أقل قائد فى أى جيش وجد ، ولكنه كان يعتقد أنه اهتدى إلى طريقة حديثة من الحرب ، وسيأتى استقلال الهند ، ليس من خلال القوة البدنية ولكن من خلال قوة الروح » .

هذا قانون الأديان العظيمة فى العالم .

* * *

من حيث أن غاندى كان ينظر إلى نفسه بكثير من التواضع ، ويقول إنه أقل إنسان ، كان كذلك يعيش أقل عيشة وأبسطها ، كانت ملابسه من خشن القماش ، ومسكنه عشة خالية من الفراش ، وطعامه ضئيل قليل . حفنة من البلح ، وجرعة من عصير البرتقال ، وكوبة من لبن معزته ، وكان يطلب من أتباعه أن ينظروا إليه على أنه واحد منهم لا يختلف عنهم فى شىء ، وكرر هذا الرجاء مراراً لهم . ولكن أتباعه المخلصين يصرون على تقديره ومحبته إلى درجة تبلغ العبادة ، وكانوا كثيرين ويتزايدون ، ولم تشهد الهند ولا العالم منذ عهد بوذا رجلاً يتبوأ هذه المكانة العالمية إلّا غاندى ، كان الآلاف من محبيه يتزاحمون حوله ليسمعوا فقط صوته ، أو ليلمسوا جسده النحيل ، يريدون أن يلتمسوا حظاً من القداسة والخلاص ، بلمسة منه أو بكلمة أو قبلة من شفتيه الرقيقتين ، أما هو فكان يقابل هذا التّقدير أو هذه العبادة بابتسامة متواضعة رقيقة ، ويقول : أطفال محبوبون ولكنهم أغبياء . وكان يقابل الوطنيين الأثرياء المتكبرين بمثل هذه الإبتسامة ، ويطلق عليهم أيضاً اسم الأطفال والأغبياء المتكبرين ، مهراجات الهند .

وألقى مرة محاضرة أمام جمع من المهراجات – وكانوا حشداً كبيراً –

فأخذ يستحثهم على التخلى عن أموالهم وممتلكاتهم والجواهر الكثيرة التى يملكونها . فضايقهم بهذا الكلام ، ثم أخذوا يتسللون لواذاً واحداً بعد الآخر ، حتى انصرفوا جميعاً ولم يبق أحد فى صالة المحاضرة . وكما وصف غاندى – بعدُ – هذا الموقف ، لم يبق إلا الله والمشرف على المحاضرة وغاندى نفسه ، وبعد لحظات قليلة قام المشرف على المحاضرة ، أيضاً .

مسكين هذا الرئيس كما قال غاندى ، لابد أنه شعر بضيق وعدم ارتياح لهذه الصحبة الغريبة ! ولكن غاندى لم يكن أبداً ليفقد طبيعته الطيبة الوادعة عندما يواجه مثل هذه الخشونة .

وفى سنة ١٩٣١ عام احتكام الأزمة وشدة الضغط على العالم – قام غاندى بزيارة للندن ، واجتمع المدنيون ليروه ، ولكنهم عندما رأوا ملابسه الحقيرة بدأوا يسخرون منه ، وسمع سخرياتهم ، فقال لهم : الفرق بين ملابسى وملابسكم ، أنكم تلبسون أكثر وأنا ألبس أقل ، وأردف وهو يبتسم ابتسامته الساخرة : « إذا استمر الضغط الإنجليزى والأحزان التى فرضت علينا ، فسأكون أحسن لابس فى انجلترا .

وقال إن ما يسمى بمدنيَّة العصر الحديث ، ليس إلّا خداعاً كاذباً يُخفى وراءه وحشية كوحشية الحيوانات فى الغابات ، يكفى أنه يخفى قلوباً قاسية متحجرة ، إنها مدنية لا أخلاق فيها ولا دين ، فكيف تكون مدنية ؟.

أما تعريفه هو للمدنيه – المدنية الحقيقية – فيلخصه فى كلمتين اثنتين هما « الاستقامة الحسنة » وهى عنده قوة الروح .

إنه بواسطة القيادة الحسنة ، أو بواسطة قوة الروح كما كان يطيب له أن يقولَ ذلك : يستطيع الشخص أن يخوض معركته لطلب الحرية ضد جميع الأعداء سواء كانوا صُفْراً أو حمراً أو بيضاً .

وقد صمم هو على خوض المعركة بهذه الطريقة ، وهو يذكر هذه الألوان لأنه كان يواجه مقاومين من أجناس شتى فى الهند بجانب مقاومته الإنجليز .

وقد كان حواريو غاندى يعتقدون أنه أعظم معلم فى العالم كله ، ولكنه معلم المستقبل وليس معلم الوقت الحاضر . إن المقاومة السلبية – كما كان هو يقرر – لا تحتاج إلى أسلحة ولكنّها ليست أسلحة من الرجال ، بل من الكملة الممتازين ، وفى خطبة له قال : أين هى الشجاعة الكاملة التى تدفع حملة المدافع إلى السِّلم . وأين هو الوجه الباسم الذى يقرب المدفع إلى السلم .

ما كان غاندى يتطلبه هو عنصر من المحاربين ذو شجاعة قوية ، وسيف مسلول ، ولكن ما هذا السيف ؟ إنه سيف المقاومة السلبية ، وقد جاء فى كتابته أنه سيف مبارك مرتين ، أويدفع البركة إلى جانبين ، يبارك حامله الذى يحارب به ويبارك العدو الذى يوجه إليه ، إنه يقهر العَدُوّ من غير أن تراق قطرة واحدة من الدم ، لا ينتج عنه شىء أقل من النّصر ، أما النّصر بإراقة الدماء فهو الهزيمة للطرفين .

ما هذا الحلم المستحيل ؟. هل هو مجرد خيال ووهم دينى ؟ ربما !.

ولكن ماذا يحدث لو تركنا القادة الدينيين يطبقون مبادئهم ؟ إنهم ليسوا إلا فلاسفة يطبقون فلسفتهم ، ونحن رجال الدنيا لسنا إلا أغبياء لم يجربوا شيئاً !.

إن منهجنا فى استعمال العنف قد قادنا من إراقة الدماء إلى إراقة الدماء ! ، فكيف تعرف نتيجة المنهج الآخر منهج المقاومة السلبية وعدم العنف ، وما يقودنا

إليه ونتيجة قيادته ما لم نجربه ؟ .

* * *

كان موقف غاندى فى نهاية مطافه كموقف إبراهام لانكولن فى أمريكا !.

بعد أن أحرز لانكولن انتصاره وربح الجولة الأخيرة التى وقف حياته لها ، وهى صيانة الولايات المتحدة وتحرير العبيد بها ، بعد أن أحرز هذا النصر التاريخى بوقت قليل ، كان جزاؤه أن يغتال من أحد المغتالين .

والأمر كذلك عند غاندى — بعد أن حصلت الهند على استقلالها ببضعة شهور ، ختمت حياته وانتهت رسالته برصاصة من أحد المغتالين .

ففى ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ . كان غاندى عند أحد أصدقائه فى نيودلهى .

كان حينئذ فى قمة انتصاره السياسى ، نالت الهند استقلالها . واعترفت بها بريطانيا أمة مستقلة ، وانسحب الجيش البريطانى من كل أنحاء الهند ، وصارت الهند لأهليها !.

ومرت خمسة شهور على هذا الاستقلال الذى ناضل الوطنيون وناضل غاندى من أجله سنين طويلة ، وباء غاندى بطل هذا النصر بشهرة واسعة ، وكان أمامه شيء آخر ربما كان أهم وهو توحيد الأجناس والأديان فى الهند تحت شعار الإخاء الإنسانى . وكان قد عقد اجتماعاً للتوفيق بين المسلمين والهندوس ، وخرج من بيت صديقه شاقاً طريقه فوق حديقة المنزل عندما اعترض أحد معارضى سياسته طريقه ، وكان شاباً من الهندوس ، أسرع نحوه وأفرغ فيه ثلاث رصاصات ، فسقط على الأرض وحمل إلى بيته فمات بعد نصف ساعة .

لقد انتهت حياة داعية السلام بالقتل ، الرجل الذى عاش يحارب العنف قتله العنف .

أعظم شخصية هندية بعد بوذا ، المثل الكامل الأعلى لجهاز السلم ، سيف السلام والمودة قَضَى عليه السلاح الذى حاربه ، ولكنه لم ينتصر عليه ، لقد مات جسد غاندى ، ولكن ذكراه ظلت باقية حية فى قلوب أتباعه ، مات جسداً وبقى قديساً . قديس مارس المسيحية ربما فى ساعة واحدة أكثر مما مارسها قديسون مسيحيون فى مدى حياتهم كلها ، عاش لبلاده ومات فى سبيلها ، فهو حقاً شهيد السلم والإخاء الإنسانى .



□ جمال الدين الأفغانى □

١٨٣٨ - ١٨٩٧

يظهر المصلحون عادة عندما يكون فى حياة مجتمعاتهم ما يحتاج إلى الإصلاح ، وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ، كانت الدولة التركية العثمانية تمد أجنحتها على مساحات واسعة من البلدان ، واشتبكت مع بعض الدول الأوربية فى حروب وعقدت معاهدات . وكانت هىَ الخاسرة فى معظمها ، ولم تكن حال الشعوب الإسلامية أو الشرقية بوجه عام على حالة تسر ، واستكان أبناؤها إلى حكم الواقع فمنهم من كظم غيظة ومنهم من غفل عن حقه واكتفى بمعيشته الضيقة وعلمه القليل .

وفى هذه الظروف ظهر عدد من المصلحين ، كل منهم نظر إلى مجتمعه من زاوية خاصة ، وكل منهم اعتنق فكرة رأى أنّها ينبوع الإصلاح ، وأن مجتمعه لم يتأخر إلا بسبب إهمالها وعدم تيقظه لضرورتها وآثارها ، رأى محمد ابن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية أن صلاح المجتمع لا يكون إلا عن طريق إصلاح العقيدة ، وأن الناس فسدُوا لأنّهم اشركوا بالله شركاً خفياً وهم لا يشعرون ، ورأى عبدُ الرحمن الكواكبى أن اضمحلال العالم الإسلامى يرجع إلى تفككه ، وانقطاع عوالمه بعضهم عن بعض ، وأنهم لابد أن تكون لهم وحدة وأن يكون أمرهم شورى بينهم ، وتفرقهُم سوغ أيضاً استبداد الحكام ، وعن هذا الاستبداد نشأت المساوىء العديدة ، ولا يصلح هذا الفسادَ إلا قَانون الإسلام .

ورأى نامق كمال (كمال محمد فائق) أن تدخل الدول الأوزبية فى

شئون العثمانيين جَرَّ على العثمانيين بلاء كثيراً ، وأوقعهم فى الديون ، وأنه لإصلاح الموقف السيىء فى الدولة العثمانية ، لابد من سيادة القانون الإسلامى ، والأخذ بالأسباب التى نهضت بها الدول الأوربية ، وبذل جهداً فى محاولة تغذية المبادىء الإسلامية بمبادىء الثورة الفرنسية ، وأن يؤخذ منها ما لا يتعارض مع الإسلام .

وظهر مصلحون آخرون ربما كان أكثرهم شذوذاً هو مصطفى كمال أتاتورك (أبو الترك) كما لقب نفسه ، وهو لا يعتبر من المصلحين إلّا على شىء من التّجاوز ، وكان من أعداء الإسلام !.

وأبرز المصلحين فى هذا الوقت هو الشيخ جمال الدين الأفغانى ، فقد قام بدعوة ثائرة وطاف بعديد من البلاد ، وجرد نفسه من كل شىء إلا وسائل الدعوة التى يدعو إليها . ولم يتزوج ولم يدخر مالاً أو يقتن عقاراً .

ونجد الفكرة الجامعة بين هؤلاء المصلحين هى الفكرة الإسلامية – طبعاً فيما عدا مصطفى كمال – وهو إن صح أن يسمى مصلحاً – مصلح سياسى شاذ .

* * *

امتاز جمال الدين الأفغانى عن المصلحين فى عهده بسعة علمه وجراءة جنانه ، وقد بدأ تعلمه وهو فى الثامنة من عمره ، وعنى أبوه بتعليمه فساعد هذه العناية ما كان فى جمال الدين من ذكاء فطرى ، واستعداد للتحصيل والفهم .

كان أبوه يدعى « صفدر » أو السيد صفدر ، وهى كلمة فارسية معناها مقتحم الصف ، ولقب الشيعة بها الإمام علياً ، – ونطقها بالتاء تحريف وهو رجل مرموق المكانة من أسرة لها فى قلوب الناس هيبة واحترام . أسرة شريفة

تنتمى إلى الحسين بن على بن أبى طالب ، ومن أجدادها المحدث المعروف « الترمذى » وكان الناس يجلون هذه الأسرة لهذا النّسب العريق ، إذ هى أسرة ترتبط برسول الله – ﷺ – ولهذا كان يلقب ذووها بلقب السيد ، وكان الشيخ جمال الدين يسمى « السيد جمال الدين الحسينى » .

كانت الأسرة تقيم فى خطة « كنر » – وهى بلدة تبعد عن كابل مسيرة ثلاثة أيام ، وكان لهذه الأسرة سيادة على جزء من الأراضى الأفغانية تستقل بالحكم فيه – وخشى أمير البلاد – دوست محمد خان – نفوذ هذه الأسرة وتعلق الناس بها ، فأمر بنقل السيد صفتر وذويه إلى كابل ، فَفيها لا يطغى نفوذهم على نفوذه ، ويكونون بمقربة منه .

ولد جمال الدين فى قرية « أسعد أباد » من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨) م . ثم انتقل إلى كابل مع أبيه ، وتلقى منذ صغره مبادىء العلوم التى كانت شائعة فى عصره ، من النحو والصرف والمعانى والبيان ، وعلوم الشريعة من التفسير والحديث والفقه والتوحيد والتصوف ، والعلوم العقلية من المنطق وفلسفة الأخلاق ، والعلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك ، بل نال أيضاً حظاً من نظريات الطب والتشريح ، وما استكمل السنة الثامنة عشرة من عمره حتى كان قد حصل كل هذه العلوم ، وعرض له سفر إلى بلاد الهند فأقام هناك سنة وبعض السنة فدرس علوم الرياضة على الطريقة الأوربية الحديثة .

يبدو أن الشيخ جمال الدين – وهو ما يزال فى هذه السِّن – كان مولعاً بدرس البيئات الشرقية والوقوف على أسباب تخلفها ، فقد عزم على أداء فريضة الحج فلم يذهب إلى مكة مباشرة ، ولكنه أخذ يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر ، فاستغرقت رحلته عاماً أو نحوه ، ولم يصل إلى مكة إلا سنة ١٢٧٣ هـ – ويقول الشيخ محمد عبده – أول من كتب ترجمة

للشيخ جمال الدين : إنه « وقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته واكتنه أخلاقهم ، وأصاب من ذلك فوائد غزيرة » – ولم يعرفنا ما هى الأقطار التى طاف بها ، ولا الأشخاص الذين قابلهم فى كل بلد سوى ما كان منه فى الهند .

بعد أن أدى فريضة الحج رجع إلى بلاده ، وكانت تعانى اضطرابات سياسية ، وخصومات بين الأمراء الحاكمين وهم ذوو قرابة وبنو عمومة ، وانغمس جمال الدين فى هذا التيّار ، فآزر الأمير محمد أعظم ضد أخويه (محمد أسلم ، ومحمد أمين) ، وكتب له النصر وارتفعت مكانة جمال الدين فكان مقامه عند الأمير مقام الوزير والمستشار المطاع ، ولكن هذه المدة لم تطل ولم يحدثنا مؤرخوه عن أعماله الإصلاحية ويبدو أنه لكثرة الاضطرابات ، والفتن لم يستطع أن يعمل شيئاً وما لبث الأعداء أن تغلبوا على محمد أعظم ، فهرب إلى إيران ومات بعد قليل فى مدينة « نيسابور » وقدر الأمير الغالب مكانة الشيخ ومنزلته فى نفوس الناس ، فأبقاه فى كابل ، وكان فى هذا الوقت قد صار ذا شهرة واسعة لعلمه وذكائه وشرف نفسه وصفاته الخلقية ، وكان الأمير الجديد « شير على » يخشى وجوده فى كابل فكان يكيد له فى الخفاء كيداً لم يخف على الشيخ ، ورأى أنه لا قرار له على هذه المكايد فقرر فراق البلاد الأفغانية ، فاستأذن الأمير أن يخرج للحج ، فأذن له بالخروج واشترط عليه ألا يمر بإيران كيلا يجتمع مع محمد أعظم الذى كان لا يزال حياً .

ارتحل الشيخ سنة ١٢٨٥ هـ – (١٨٦٨ م) – عن طريق الهند ، فتلقته حكومتها بالإجلال والترحاب ، ولكنها لم تسمح له بالإقامة بها أكثر من شهر واحد ، ولم تسمح لعلماء البلاد أن يقابلوه إلا تحت بصر ومسمع منها – ثم نقلته إلى مصر عن طريق السويس ، وأقام فى مصر أربعين يوماً تردد فيها على

الجامع الأزهر ، وذهب إليه فى بيته بعض الطلبة السوريين ليستفيدوا من علمه ، وقد درس لهم فعلاً ولكن مدة إقامته كانت قصيرة .

ولم يذهب الشيخ إلى الحج بل سافر الشيخ إلى الآستانة ، فما لبث أن عُرِفَ وعلا ذكره وشاع الثّناء عليه ، وأعجب به رئيس الوزراء فقدّره وعينه عضواً فى مجلس المعارف ، واقترح طرقاً إصلاحية لتعميم المعارف فى البلاد ، ولم يوافقه رفاقه ، وسرعان ما دب الحسد فى نفوس الكبار ، فدبروا له المكايد ، وسنحت الفرصة لخصومه عندما طلب منه أن يُلْقى محاضرة يحث فيها على تعلم الصناعات ويبين آثارها ، ولم يكن الشيخ ضليعاً فى اللغة التركية ، ولكنه أعد المحاضرة وعرضها قبل إلقائها على وزير المعارف وبعض العلماء فاستحْسنوها وأثنوا عليها ، ولما كان يوم إلقائها هرع الناس لسماعها ، حتى اكتظت دار الفنون التى ألقيت فيها المحاضرة بالسامعين .

كان قوام المحاضرة أنْ شبَّهَ الشيخ المعيشة الإنسانية بجسم حى ، والصناعات بأعضاء هذا الجسم ، فكما أن كل عضو يؤدى عملاً لبقاء الجسم حياً أو لنفعه ورقيِّه كلُّ صناعة لها مثل هذا العمل فى معيشة الإنسان . وذكر أن الجسم لا يحيى إلا بالروح ، وروح المعيشة السعيدة إما الحكمة وإما النبوة ، والنبوة هبة الله لمن يصطفى من عباده ، والحكمة يكتسبها الإنسان بذكائه وتعلمه .

وكانت محاضرة مفيدة ولكن حسن فهمى أفندى – الذى كان يلقب بشيخ الإسلام – والذى كان ضائقاً بالشيخ منذ قدومه ، اتهمه أنه يزعم أن النبوة صنعة ، وأوعز إلى أتباعه من الوعاظ أن يشنعوا على الشيخ وأن يرموه بالكفر ، وغضب الشيخ وأراد أن يحاكم حسن فهمى أفندى ، وانقسمت الصحف بين مؤيد ومعارض له ، فلما كثر اللغط والاختلاف خشى

الصدر الأعظم مغبة هذه المشاكل ، فأمر الشيخ بالجلاء إلى وقت ما حتى تهدأ هذه الاضطرابات فسافر إلى مصر .

* * *

دخل جمال الدين مصر فى أول المحرم ١٢٨٨ هـ (١٨٧١) م ، ولم يكن على عزم الإقامة بها ، ولكنه كان يريد التنزه والتمتع بمناظرها ، وتلاقى مع رئيس وزرائها رياض باشا ، وكان يعرفه من قبل ، إذ كانا تلاقيا قبل ذلك فى الآستانة ، وكان من حسنات رياض أن استضافه لينتفع المصريون بعلمه ، فأعدَّ له نزلاً وأجْرى عليه راتباً قدره عشرة جنيهات فى كل شهر وكان ذلك تكريماً له وليس فى مقابلة عمل .

كانت إقامته فى مصر ثمانية أعوام من أول المحرم (١٢٨٨ – ١٢٩٦) (١٨٧١ – ٧٩) ، وكانت أياماً مباركة على مصر والمصريين والشرق كله ، لأنها أحيت نفوساً ونبهت عقولاً وكونت شخصيات كان لها أثرها الفكرى ، واستفاد الشرق كله منها .

لم يكن الشيخ مكلفاً من الحكومة أن يقوم بتدريس ، ولكن النابهين من أبناء الأزهر ومن محبى المعرفة عشت أعينهم إلى ضوء علمه ، وكان ذا علم غزير وفكر عميق ، وكان يحب أن يبث علمه وأن يبنى عقول الناشئين ويكون شخصيات الرجال ، ووجد هؤلاء فيه ينابيع علم لم يألفوها ، وتوجيهات تثير الحماس وتحيى الألباب ، وسرعان ما تحول بيته إلى مدرسة ، وكان مدرسته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما انتهى ، ولم يذهب للأزهر إلا زائراً ، ولكنه لم يلق فيه دروساً ، وكان من تلاميذه الذين توافدوا على بيته واستفادوا منه ، الشيخ محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وإبراهيم الهلباوى ، وأديب إسحٰق ، والمويلحى ... وغيرهم .

وكل هؤلاء كان لهم أثر ملحوظ فى تطوير الحياة الفكرية فى مصر .

كان المصريون لطول مارزحوا تحت نير الاستبداد وما ران عليهم من الجهل ، قد ألفوا الذلة للحكام ، فقصارى ما يكتب الكاتب أو يؤلف الشاعر مدح للأمير وثناء على تصرفه ، يخطىء الحاكم الخطأة الكبرى ، فيغضى عنها من يدركها ، وتخفى – مع عظمها على الآخرين ، فإذا كان عيد ميلاد الأمير أو جلوسه تبارت الأقلام والقرائح فى مدحه ، حسناته بارزة مشكورة ، وسيئاته مستورة مغفورة .

وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل .. منهم عبد الله فكرى باشا وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد .. ومصطفى باشا أحمد .. ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها »[1] .

وقد فتق الشيخ عقولهم بأفكاره ، وهداهم إلى طريق الكتابة التى تبرز المعانى ولا تتقيد بالصنعة ، فنشأ فى مصر بتوجيهه كتاب لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه .

كان الشيخ إذن مبدأ النهضة الاجتماعية والسياسية بمصر ، عرَّفَ الشعب حقوقه لدى الحكام ، وعرف الكتاب طرق الكتابة وأساليب التفكير الحر .

ولم يكن الشيخ يشعر بشىء من التعالى أو يرى لنفسه حق الترفع عن العوام فكان يجلس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين على كثير من الحشمة والوقار . وكان يجلس فى مقهى « البوسطة » يدخن

---

(١) من « زعماء الإصلاح » .

النرجيلة ويشرب الشاى ، ويلتف حوله جمع خليط من ذوى الثقافة العالية ، ومن الأميين السذج وممن بين هاتين الطائفتين على تفاوت ثقافتهم وعقولهم ، وكانوا جميعاً مستمعين أو سائلين ، وهو وحده المتحدث والمجيب ، يوزع بينهم أفكاره الحية وفلسفته الشخصية ، وآراءه الثائرة .

واتسعت حلقته فى المقهى وكثر زواره فى بيته ، فعلا صيته وذاعت شهرته ، فتيقظ أعداؤه ، وغيظ حاسدوه ، ودبرت له المكايد ودست له الدسائس .

كان الشيخ حركة دائبة ، ونشاطاً مستمراً وعمله يجارى تفكيره ، فهو يدرس فى بيته ويحاضر فى المقهى ، ويكتب فى الصحف ، ويوجه تلاميذه إلى الكتابة فى الصحف ويمدهم بالأفكار ، وحقاً لم يتخلص الكتاب من تلاميذه من عادة السجع فى الكتابة ، ولكنه كان سجعاً غير متكلف ، ولا متشدداً فيه ، ونجد تلميذه الأول محمد عبده لا يبرأ من السجع فى كتابته ، وكذا إبراهيم المويلحى ، وهو من بناة النهضة الأدبية الحديثة ، ولكن تلاميذه جميعاً اتجهوا إلى التفكير الحر القويم .

بصرهم بما عليه حال أمتهم من تخلف وجمود . وعرفهم أن الحكومة مسئولة عن هذا السوء ، ولا تستقيم الحكومة إلّا إذا كانت تحكم شعباً حياً يحاسبها على أخطائها ويرسم لها طرق صلاحها ، فإن شئت أن تقول إن كلامه يجارى كلام روسو فى عقده الاجتماعى ، لم تكن بعيداً عن الحق ، وإن شئت أن تجعله توليداً لخطبة أبى بكر الصديق : « إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وأن رأيتمونى على باطل فقومونى ... أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » كنت أقرب للصواب .

كان مجلسه فى المقهى كثير الفائدة ، لأنه لم يكن يلتزم فيه بموضوع

معين ، ولكن حديثه أياً كان – دعوة للإصلاح وبث للأفكار بين طوائف الأمة ، كان يحضر هذه الندوة العامل الأمى ، والطبيب والكيماوى والمؤرخ ، والمدرس والكاتب الصحفى ، فيبث فيهم أفكاره ويأخذ كل منها على قدر استعداده ، ولم يكن كلامه مجرد توجيه أو سرد حقائق ، بل لما طبع عليه الشيخ من الشدة والحمية كثيراً ما كان كلامه توبيخاً وإثارة . ولخص بعض مؤرخيه بعض مقاله فكان فيه : « إنكم أيها المصريون نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم القرون منذ غزاكم الملكوك الرعاة – الهكسوس – حتى اليوم وأنتم تحملون نير المستعمرين وتستكينون لوطأة الغزاة الفاتحين ... لو كان فى عروقكم دم ، وفى رءوسكم أعصاب .. لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة .

هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقى الأمم أحراراً » .

وكانت نفوس المصريين مهيأة لقبول هذه الثورة والاستجابة لهذه الدعوة فبوحى من كلام الشيخ بذرت بذور الثورة العرابية ، واهتدى المصريون إلى المطالبة بحقوقهم وتخليص بلادهم من براثن المستعمرين ، وكان للشيخ نداء مثل هذا بين الفرس والهنود ولكنه لم يأت بمثل هذه النتيجة .

كان يقول للهنود : « أنتم تعدون بالملايين ، لو كنتم ذباباً لأصم طنينكم آذان الإنجليز ، ولو كنتم سلاحف تحيط بالجزر البريطانية لزحزحتها من مكانها » .

ولكن لا إقامته فى الهند طالت ولا لقى نداؤه مجيباً ، وثمانية أعوام فى مصر آتت أكلاً وأخرجت ثماراً ، وكان لجهاده المستمر ثمر أى ثمر .

كان يكره المستعمرين بوجه عام ، ولكنه كان أشد كرهاً للإنجليز ،

إنّهم يتدخلون فى كل شئون الشرق ، وقد امتد سلطانهم على مساحات واسعة منه ، وكان يرى أن خروج الإنجليز وانحسار سلطانهم لا يأتى إلا بوعى الشعب ورقيه ونهضته ، وأن الشعب أيضاً هو الذى يقوم الحكومة ويوجهها ، ويحاسبها على أخطائها ، ولا يجدى على الأمة أن يكون لها نواب ومجلس تشريع ، وأعضاء برلمانها لا يفقهون شيئاً ، لقد أنشأ الخديو إسماعيل باشا مجلس شورى ، فأنف أعضاؤه أن يجلسوا فى مجلس المعارضة ، وقالوا لا نعارض رئيسنا ؟! فهذا شعب متراخ جاهل ألف الذلة والهوان !.

وهكذا كانت أحاديثه وكتاباته ودروسه ، وقد كتب فى العروة الوثقى بعد هزيمة العرابيين مقالاً ضافياً ذكر فيه أن الشعب الأفغانى انتصر على ٦٠,٠٠٠ من قوات الإنجليز ، « إن مقاومة الأهالى أشد من القوى العسكرية دخلت الحكومة الإنجليزية أرض الأفغان بستين ألفاً ، واستولت على المدن ، وكاد قدمها يرسخ فى البلاد ، فلما قام الأهالى من كل صقع ... عجز الستون ألفاً عن الوقوف موقف الدفاع ، واضطرت حكومة انجلترا بعد تسلطها سنتين ، وبعد إنفاق ثلاثين مليوناً من الجنيهات إلى ترك البلاد .

كانت تلك طبيعته وكان ذلك منهجه ، وقد أثارت أعماله فى مصر عداوات ضده ، وسعى القنصل الإنجليزى لدى توفيق باشا الذى تولى بعد أبيه إسماعيل بالوشاية فأصغى إليه ونفذ له ما أراد فأخرج جمال الدين من مصر .

* * *

ما صلة الشيخ بالماسونية ، أو ما هى الماسونية التى اتصل بها والأخرى التى أنشأها ؟

أثناء إقامة الشيخ فى مصر اتصل بالماسونية الاسكوتلاندية ، وكلمة

الماسونية تعنى البناء الحر ، وكانت هذه الجماعة تنمى كباراً من المصريين ، وفيها قابل الشيخ « محمد توفيق باشا – ولى عهد الدولة المصرية إذ ذاك » ولعل الشيخ كان يأمل من دخوله هذه الجماعة أن يُسَمَعَ صوتُه . ويبلغ آراءه الإصلاحية إلى هؤلاء الرواد ، فهم أقدر على تنفيذ المشروعات الإصلاحية ، ولكن الماسونية جماعة غامضة وراءها أيد صهيونية خفية ، وما أكاد أشك أنها كانت خافية على الشيخ وأنه حسبها جماعة إصلاحية أخذاً بما فى دعاياتها وعناوينها الجذابة ، ولم يقف على أسرارها الخفية ، ولذا صدم عندما أخبر أن هذه الجماعة لا تتدخل فى الشئون السياسية ، رأى إذن أنها تحد من الحرية وليست بناء حراً ، فمقتضى الحرية أن تصلح الفاسد وتقوم المعوج وتنصر المظلوم ، وتحد من عدوان الظالم ، وأوسع طريق لهذا الإصلاح هو طريق السياسة ، وهذه الجماعة أغلقته ، فليست بناء حراً ولا إصلاحياً .

غادر الشيخ هذه الجماعة إذ لم يرض عنها ، ولكن لم يركن إلى الراحة ، فأنشأ محفلاً آخر كان يتبع الشرق الفرنسى ، وكان الشيخ أصبح ذا سمعة ، وله تقدير فى النفوس ، فدروسه فى بيته وأحاديثه فى المقهى ، وآراؤه التحديدية ، جعلت الناس يُقدرونه ويثقون به ، لذلك أسرع الكثيرون إلى دخول محفله فكان أعضاؤه أكثر من ثلثمائة عضو ، وكانوا جميعاً من المثقفين !.

ومن العجيب أن هذا الضيف الوافد على مصر نصب نفسه رئيساً عليها وحاكماً أعلى ، أو بعبارة أخرى كون من جمعيته برلماناً يراقب الحكومة ويحاسبها .

كون من جمعيته شُعَباً كل شعبة تختص بوزارة أو مصلحة ، تنظر فى أعمالها وترشدها . وتكفها عن الظلم وترسم لها الطريق الذى ينبغى أن تسلكه .

وكان لهذه الجماعة صدى واسع اهتزت له السفارات الأجنبية ، وبدأت الدسائس والمؤامرات تحيك له المكايد والتدابير .

كان إسماعيل باشا – خديو مصر – قد أقيل ، وتبوأ عرشه ابنه توفيق ، وكان توفيق شديد الاعتزاز بأسرته ، يرى أن مصر ليست إلّا ضيعة لهم ، ويرى أن المصريين همج جهلة لا يصلحون للحكم النّيابى ، ويرى أن فى دعوة الشيخ جمال الدين تحريضاً عليه وتعريضاً لعرشه للضياع ، فاستدعاه لمقابلته ، فكان بينهما هذا الحوار ، قال الخديو :

– إنى أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها فى أعلى درجات الرقى والفلاح ، ولكن – مع الأسف – أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن تلقى عليه أقوالك المثيرة ، فيلقى بنفسه وبالبلاد فى التهلكة .

– ... إن الشعب المصرى كسائر الشعوب فيه الخامل والجاهل ، وليس محروماً من وجود العالم والعاقل ، وهو ينظر إليك بالعين التى تنظر بها إليه ، وإن قبلتم نصحى – نصح المخلص لكم – أسرعتم فى إشراك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى ، وأمرتم بإجراء انتخابات نواب ..

وخرج الشيخ من عند الأمير يخطب الناس ، ويبين لهم حقهم فى المطالبة بإنشاء مجلس نيابى ، فزاد ذلك الطين بلة ، وعظم الأمر على توفيق باشا فاجتمع مجلس الوزراء ، وقرر إبعاد الشيخ عن مصر ، فقبض عليه ، ونقلته باخرة إلى الهند ، ونزل فى بمباى ، ثم نقل إلى حيدر أباد ، وكان معه تابعه عارف (أبو تراب) .

خرج الشيخ وبقيت أفكاره وآثاره..

بث فى الجيش روح الثورة ، إذ كان يطالب بمساواته بالجيش

الجركسى ، وبصر الشّعب بحقه لدى الحاكم ، وأيقظ فى المصريين روح العزة ، وبث فيهم روح الثورة والتمرد . بجانب ذلك أنشأ طائفة من الكتاب والصحف تردد أفكاره وتدعو لمبادئه... وإذن فقد خرج ولم يخرج ، ظلت أفكاره تعمل عملها حتى نتجت عنها الثورة العرابية .

* * *

كانت حياة الشيخ فى حيدر أباد محدودة ، محاطة بالرقباء ، ولم تظهر له آثار فكرية إلا رسالة « الرد على الدهريين » – وهو الاسم الذى حملته فى ترجمتها العربية ، أما الاسم الذى كتبها به فهو « رسالة فى إبطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران » وهو عنوان طويل جرياً على الطريقة القديمة . وسبب تأليف هذه الرسالة أن مدرس الفنون الرياضية بعث إليه برسالة يسأله فيها عن حقيقة النيتشيرية ، ومذهب النيتشريين وبداية ظهورهم ، والنيشيرية من كلمة Naturism – الإنجليزية ، وكلمة Nature معناها الطبيعة ، فالنيتشريين تعنى الطبيعيين ، الذين يردون وجود الكون وتغيراته إلى الطبيعة .

وكان هذا المذهب قد شاع فى تلك الأيام ، وشجع شيوعه مذهب العالم الطبيعى « داروين » – إذ نال كتاباه : « أصل الأجناس » و « النشوء والارتقاء » شهرة وانتشارا ، وانبنى عليه مذهبٌ إلحادى أو تيارات إلحادية ، وظهرت فى الهند جماعة تسمت بالنيتشرية ، ودعت إلى نكران الإله ، وعدم الإيمان بالبعث أو فناء العالم ، وقالوا كما قال السابقون : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، قالوا إن وجود الكون من المادة ، والمادة لا تفنى ولا تتجدد ، ولكنها تتحول ، واستندت فى كل ذلك إلى نظريات داروين ، ولم يكن داروين ملحداً ، وحين أرسل إليه كارل ماركس الجزء الأول من كتابه « رأس المال » رده إليه ، واعتذر بأنه ليس من علماء

الاقتصاد ، وأنه يؤمن بأن لهذا الكون موجداً . ولكن نظرياته وكتابيه أثارت موجات الإلحاد .

ورد الشيخ ممتع حقاً يدل على ما كان له من سعة الاطلاع ودقة الفهم للعلوم الحديثة ، وفى هذا الرد أثبت الشيخ أن الدين أكد إنسانية الإنسان وسيادته فى هذا الكون ، وأنه يبث فى الناس صفات الحياء والأمانة والصدق ، وهى الصفات التى ينبنى عليها العمران وتتقدم بها الحضارة إذ يسود الأمن والإخاء والمحبة والتعاون أما المادية فإنها تثير الأنانية ، وتقضى على التعاون وتفقد البواعث على عمل الخير إذ لا يرجو الإنسان على عمله جزاء ، ولا يخاف على إساءاته عقوبة ، إن الحياة على هذه الطريقة حياة جافة جامدة ، أشبه شىء بحياة الحيوانات العجم .

وذكر بعد ذلك ميزات الإسلام على الأديان الأخرى وأخذ يسردها واحدة بعد واحدة ، وأهم ما فيها أنه دائماً يخاطب العقل ، ويدعو إلى إعماله ولا يقبل التقليد الأعمى ، بل يوبخ المقلدين المتبعين ما وجدوا عليه أسلافهم .

ثم أفاض فى وصف آثار الماديين وما ينتج عنها من سوء ، وأنها ليس وراءها غير التخريب والدمار .

ثم استعرض ظهور هذا المذهب فى عدد من الأمكنة والأزمنة وبين أنه دائماً مخرب مثير للفساد .

كتبت الرسالة باللغة الفارسية ، ثم ترجمت إلى اللغة الأوردية ثم ترجمها الشيخ محمد عبده إلى اللغة العربية .

فإن كان لنا أن نؤاخذ الشيخ على شىء فى هذه الرسالة ، فإنا نأخذ عليه ربط الديانة بالسعادة الدنيوية وتقدم الحضارة ، وهذه نتائج تأتى طبيعية

وليست هى الغرض الأساسى للتكليف بمبادىء الدين ، ثم إن الحَقَّ جَمَالٌ ويجب أن يؤخذ به لما فيه ، وإذا تخلفت عنه نتائجه – وهذا لا يكون – وجب أن نأخذ به ، وهذا كما نقول للطفل الناشىء : كن صادقاً يحبك الناس ، فإذا لم يحبه النّاس لصدقه ، فإنه لا يتركه ، بل يظل عليه ، لأن الصدق جمال ، ويجب أن يعشق لجماله .

وعلى أى حال هذه الرسالة ثمرة ما عمل الشيخ فى هذه المدة .

ثم قامت الثورة العرابية فى مصر ، وكان الإنجليز يدركون أنها غرس وضع الشيخ بذوره من قبل ، فنقلته من حيدر أباد إلى كلكتا ، وشددت عليه المراقبة هناك ، وانتهت الثورة بدخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، أى بعد نحو ثلاث سنوات من رحيل الشيخ من مصر ، وحينئذ سمح له أن يغادر الهند إذا أراد لأى بلد غير شرقى ، فذهب أولاً إلى لندن ، وكان سفره فى باخرة قطعت البحر الأحمر ، ولما كان فى ميناء بورسعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده رسالة أخبره فيها أنه ذاهب إلى لندن ، وأنه قد حجبت عنه أخبار العالم بنحو سبعة شهور ، وأنه لا يعرف أين مستقر رفيقه العارف الذى كان يدعى أبا تراب ، ولم تطل إقامته فى إنجلترا فقفل إلى باريس .

كان الشيخ محمد عبده بعد فشل الثورة العرابية قد نفى من مصر وأقام فى بيروت .

وقد كتب إليه الشيخ جمال الدين أن يوافيه إلى باريس .

* * *

كان الشيخ مصلحاً وقف نفسه على الإصلاح ، وهو ذو نشاط لا يهدأ ولا يكل ولا يمل ، وقد أصبح الآن فى باريس فى بلد أوربى بعيد عن الشرق ، فهل يعوقه هذا عن العمل للإصلاح ؟ لا ، إنها عزيمة لا تفل .

استدعى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده للتعاون على مواصلة الإصلاح فماذا يعملان ؟.

اتّفقا على إنشاء جريدة عربية تطبع فى باريس ، وتوزع على العرب هناك وتبعث إلى أنحاء العالم الإسلامى ، ووظيفتها الأولى تفهيم العرب والمسلمين حقوقهم وواجباتهم . وإيقاظ هممهم النائمة وأفكارهم الغافلة ، وتحفز رغباتهم إلى الاستزادة من العلوم . ومعرفة ما عليه العوالم المتقدمة ، ثم إزالة اليأس عن نفوسهم وإشرابها الأمل فى النجاح والرقى .. إلخ .

وصدرت الجريدة لأول مرة فى مارس سنة ١٨٨٤ ، أى بعد احتلال الإنجليز مصر بعامين أو نحوهما ، وفى العدد الأول منها ذكرت أهم الأغراض التى صدرت من أجلها ، وفيها تركيز على التمسك بالأصول التى كان عليها أسلاف المسلمين ، ودفع لمزاعم الأعداء ، أن الإسلام عائق عن التقدم .

واستمرت الجريدة ثمانية شهور أصدرت خلالها ثمانية عشر عدداً ، ولم تكن تصدر بانتظام ، وكان الكثير منها يقدم هدية ، ووزعت سراً فى جهات كثيرة فى الشرق .

كانت الجريدة أو المجلة تسمى « العروة الوثقى » — أخذاً لإسمها من الآية الكريمة ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ ، وكان هناك جمعية منبثقة من الجمعية الخيرية الإسلامية تحمل هذا الاسم .

وكان وراء المجلة جمعية سرية منبثة فى جميع الأقطار الإسلامية ، وكان أعضاؤها من المثقفين ذوى الغيرة والحمية لدينهم ، ولسنا ندرى كيف تكونت هذه الجمعية بسرعة مع أنها سرية ، فالشخص الذى ينضم إليها كان لابد أن يقسم أقساماً رهيبة مطولة ، ولكنها هكذا انتشرت وتكونت لها فروع فى الشرق وفى الغرب . وكان لشعبها اجتماعات منتظمة للمذاكرة وتجديد العزائم والتواصى بمواصلة الجهاد .

كانت مجلة « العروة الوثقى » مدرسة متنقلة ، وكانت تحمل صوت الشيخ ونذره وما استحث به الهنود والمصريين من قبل ، ويبدو أن أتباعها كانوا على حظ كبير من الجرأة والمخاطرة ، فقد كانوا يذهبون سراً إلى الأقطار والبلدان المختلفة ، وقد جاء الشيخ محمد عبده لرسالتها سرًّا إلى مصر وإلى تونس بينما كان محكوماً عليه بالنفى والبعد عن مصر .

وأحس أولو الأمر فى مصر وفى الهند ، وأحس معهم أو قبلهم الإنجليز بخطر هذه الجريدة ، فتشددوا فى منعها ، فراقبوها وفرضوا العقوبات على من يقرؤها أو توجد عنده ، وبذا تعسر أو تعذر وصولها إلى من يعنون بها ، ولم يكن بد من توقفها فتوقفت ، وخسر العالم الإسلامى بتوقفها خسارة كبيرة ، إن البذور التى بذرتها لم تجد الوقت الكافى لإنباتها ونموها ، ولكن هكذا كانت نهايتها .

* * *

لم تكن الثلاث السنوات التى قضاها الشيخ فى باريس عجفاء عقيماً ، وإن كانت مليئة بالمتاعب ، فحيث بعد الشيخ عمن يقيدون حريته فطلق عزيمته لا يقف ولا ينتهى .

أجاد اللغة الفرنسية ، وكان يعرفها من قبل إلى حد ما ، وبجانب ما كان يكتبه ويقترح كتابته فى العروة الوثقى اشترك فى معركة عقلية ثقافية مع المستشرق الفرنسى الشهير إرنست رينان ، وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين[1] .

(1) تخرج ريبان فى المدارس اللاهوتية ، وكان ثقة فى اللغات الشرقية ، ثم أخذ بمذهب حرية الفكر ، وله كتاب قيم عن ابن رشد ، وكان يقول إنه ما فهم فلسفة أرسطو إلا بابن رشد وله كتاب تاريخ الأديان وحياة يسوع ، وتاريخ اللغات السامية بين فيه علاقة النحو العربى باللغات السامية الأخرى وباليونانية .

وكان قد ألقى فى كلية السربون محاضرة أنكر فيها أن للعرب فلسفة أو تمدناً ، لأن حياتهم المدنية مستعارة من حياة الفرس وعاداتهم ، وفلسفتهم هى الفلسفة اليونانية جاءت إليهم من طريق غير مباشر ، أخذوها من النصارى المجاورين له ، وفلاسفة الإسلام أيضاً أجانب إذا استثنيا الكندى ، وزاد أن الإسلام بما فيه من عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر والغيبيات والمعجزات ، يعوق عن البحث الحر ولا يشجع على إعمال العقل ، وأيضا ما نقلوه إلى أوربا من جوانب الفلسفة كان سيىء الترجمة لم تستفد منه أوربا إلا بعد إعادة ترجمته .

أثارت محاضرة رينان ثائرة الشرقيين فى باريس ، وأخذ يرد عليها ويفندها من يستطيع ذلك وترجمت المحاضرة وبعض الردود ليقف المسلمون – فى كل مكان – على أفكارها ويفندوها ، ورد الشيخ جمال الدين أخيراً ، ولكن كان رده – على غير عادة الشيخ – رزيناً هادئاً ، وكان حقاً يتسم بالمنطق وقوة الحجة ، وكان بين الشيخ وبين رينان تعارف سابق ، كما كان بينهما لقاءات ، وقَدَّر كلٌّ واحد منهما علم صاحبه وعقله وأثنى عليه . ولذا جاء فى أول هذا الرد مجاملة وثناء ، حتى قال الشيخ إنه استفاد كثيراً من هذه المحاضرة ، والتمس له العذر بضيق الوقت الذى لم يسمح له بتوضيح أفكاره لأن الإسلام لم ينقل لأى بلد فتحه شراً ، بل نقل الخير الكثير ، وأكثر الشّعوب التى غزاها العرب كانت على حظ من التأخر ، وتأثرت بعاداتها ودياناتها السابقة فشوهت أفكار الإسلام ، ويكفى الإسلام أنه وُجدَ بين قوم لم يكن لهم أى علم ولا ثقافة بل كانوا أميين لا علم لديهم ولا مدنية ، وفى خلال قرن واحد انتشر الإسلام فى مساحات واسعة ، وتقدم بالعلوم تقدماً بالغاً ، ولم تستطع روما ولا بيزنطة – قبل الإسلام – أن تستفيدا من علوم اليونان على قرب المسافة ، حتى كان الإسلام هو الذى قدم إليهما هذه

الأفكار . ثم إنه ليس من العيب أن يأخذ العرب من علوم سابقيهم ومدنيتهم ، وهم لم يقفوا عندما ورثوا ، بل زادوا عليه وهذبوه ، ولم يكن الذين أخذوا عنهم – وإن كانوا على ديانات غير إسلامية – غير عرب ، ولا يمكن القول بأن ابن باجة وابن رشد وابن طفيل أقل عروبة من الكندى وهم لم يولدوا فى الجزيرة ، ولكن العرب كانوا قد انتشروا ، وعلى أى حال لولا الإسلام ما كانوا .

ووازن الشيخ بين ما قاله رينان عن إحراق كتب ابن رشد فى الأندلس – وكان ذلك على يد البربر – وبين الاضطهادات العديدة فى المسيحية ، فلا ينبغى إذن أن يعيب رينان الإسلام بشىء يوجد أسوأ منه فى المسيحية .

ورد رينان ثانياً على الشيخ وأثنى عليه كثيراً ، وسلم له بأنه ليس كل ما كتب عن اليونان والرومان والعرب مشرفاً ، ولا كل ما ظهر هنا أو هناك كان بسبب الدين ، واعتذر عن عدم توفيته المقام حقه بأن آراءه معروفة فى كتبه ، وأنه لا يريد من المسيحيين والمسلمين إلا الاهتمام بالعلم ، وألا تكون العقائد حائلاً دونه ، وأنه هو والشيخ يرجوان هذا الموقف .

* * *

رأى الشيخ ورأى حواريوه – بعد أن توقفت المجلة – ألّا مُقام لهم بباريس ، فرجع الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، ورجع الشيخ جمال الدين إلى طهران – وكان الشاه – ناصر الدين قد دعاه إليه، ولم تطل إقامته فى المملكة الفارسية ، فقد كان الشيخ دءوباً على دعوته ولم تمنعه دعوة الشاه له من نقده والاقتراح عليه ، وضاق به الشاه والذين حوله وأحس الشيخ بحرج موقفه فاستأذن فى مغادرة البلاد بعد ثلاث سنوات ١٨٨٦ – ٨٩ .

غادر فارس إلى روسيا ، فأقام فى سان بطرسبرج ، واتصل بالمسلمين المساكين هناك ونشر فى الصحف الروسية عدة مقالات سياسية ، كان أهم ما فيها نقد الإنجليز فى معاملتهم مستعمراتهم فى الشرق ، ولكنه تحدث ونقد أيضاً سياسة الشرقيين ، ونقد الشاه فى حكمه الاستبدادى ، وقابل القيصر ، ولم يرض أى منهما عن وجهة نظر الآخر ، كان القيصر يؤيد الشاه فى حكمه الاستبدادى ، لأن شعبه لا يصلح لحكم الشورى لأنه شعب جاهل ولا ينبغى لأى ملك أن يقبل حكومة الفلاحين فيه ، وكان الشيخ يرى أن من الخير للشاه أن تكون رعيته أصدقاء له ، وأن الفلاحين يعرفون أوجه إصلاح بلادهم .

كانت إقامته فى روسيا قصيرة جداً ، وفارقها ليزور معرض باريس ، ولكنه فى ميونيخ بألمانيا قابل الشاه ، فعرض عليه العودة إلى فارس واعتذر له عما سبق ، ووعده بتنفيذ الإصلاحات التى اقترحها فعاد .

وفى طهران التف حوله المثقفون محبو الإصلاح وأظهر الشاه رضاه عما اقترحوا ، ولكن الدسائس عادت من جديد تحاك للشيخ فتغير الشاه ، ورأى الشيخ بوادر الشر ففر إلى مقام الشيخ عبد العظيم – من سلالة الأئمة – ومقامه هذا ذو قداسة لدى الفرس –، فاتخذه الشيخ صومعة لـه ومنبراً لدعوته ، فذهب إليه الناس كباراً وصغاراً يستمعون لما يقول ، فزاد موقف الشاه حرجاً ، ولم يسعه إلا أن يرسل إليه كتيبة مسلحة تتكون من خمسمائة جندى ، وكان الشيخ يعانى مرضاً والجو بارداً ، والأرض يكسوها الثلج ، فحملوه إلى الشاه غير مبالين بمرضه ولا بكرامته ولا بقداسة المكان .. فأرسل إلى البصرة .

أخطأ الشاه لأنه – بقطع النظر عن إهانة الشيخ – أخرج الليث من قفصه أو حل وثاقه ، ففى البصرة كان الشيخ يكتب ضد الشاه ويخطب

ويتحدث ، وقام بسببه هياج على الشاه ، وكان قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكار « التنباك » ووضح الشيخ أضرار هذا الاحتكار ، فاضطر هياج الجماهير الشاه إلى نقض عقده ودفع غرامة ثقيلة :

لم يغفر الشيخ للشاه هذه الإهانة وظل يتحدث عن مساويه ويهيج الشّعب عليه حتى أنزله من فوق عرشه ، سافر من البصرة إلى لندن فحدث الإنجليز كثيراً عن مساوىء الشاه ، وأصدر مجلة شهرية – عربية إنجليزية – اتخذها وسيلة لتشويه سمعة الشاه وبهذه الثورة اجتمع علماء فارس وأصدروا فتوى ضد الشاه .

* * *

كان الشيخ وهو فى باريس قد قابل بعض الأعضاء من حزب « تركيا الفتاه » وكانوا غاضبين على السلطان العثمانى ولهم خطط فى إصلاح الدولة ، وقد شجعهم الشيخ وزكى جمعيتهم .

فلما كان فى لندن وأكثر من التشنيع على الشاه – لجأ الشاه إلى السلطان عبد الحميد ليكف عنه أذى الشيخ أو يعمل شيئاً يكفكف به حدته ، ورأى السلطان أنه قد يناله شىء من شرر هذه النّار ، فطلب إلى الشيخ أن يزور الآستانة ، وإذ لم يجب أخذ السلطان يغريه ويمنيه بتنفيذ مقترحاته الإصلاحية واغتر الشيخ بهذه الوعود المعسولة فاستجاب .

أكرم السلطان الشيخ كل الإكرام ، راتب سخى وخدم وقصر للإقامة ، ولكن كل هذه كانت أسلاكاً من الذهب لقفص لا يستطيع الشيخ الإفلات منه .

لم يكن الشيخ من رجال السياسة ذوى العمق وحسن التأتى للأمور ، بل كان شديد الاعتداد بنفسه ، ولذا لم يقدم للسلطان ما كان يتوقعه منه

من تبجيل وتعظيم ، قابله مقابلة النّدِ للنّدِ ، وكان السلطان عبد الحميد داهية عميقاً يستشف ما وراء كل كلمة تصدر من الشيخ ، وقد طلب منه مرة أن يكف عن التنديد بالشاه والهجوم عليه ، فقال الشيخ : عفوت عنه لأجلك ، ولم يقدر وقع الكلمة فى نفس السلطان ، كيف يرى هذا الرجل أنه يعفو عن ملك أو لا يعفو ، وكان يجلس مع الخليفة فى غير مبالاة يعبث بمسبحته أو يهز يده ولفت بعضُ أعوان السلطان نظره إلى هذا فقال : إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، فكيف ينكر على أن أعبث بسبحتى ، وانتهى كلامه إلى السلطان فتيقظ له أكثر وأخذ منه حذره .

* * *

مرت بالعالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر أحداث واضطرابات ، لا يزال إلى اليوم يعانى آثارها ، وقد كانت أحداثاً جساماً شملت جميع أراضيه ، وهذا هو القرن الذى عاش فيه الشيخ جمال الدين .

ففى سنة ١٨٥٨ قضى الإنجليز على الحكم المغولى فى الهند نهائياً ، وصار مسلمو الهند لا حاكم إسلامياً لهم ، وانطوت صفحة بيضاء من صفحات الحكم المغولى ساد الهند خلالها وحدة لم يسبق لها نظير ، ونمت بها – كما يقول المؤرخ الكبير ويلز – حَضارات وأُسُسُ مَدنيةٍ لم يقم مثلها فى غير هذا العهد – ولم يقهر الإنجليز أبناء الإسلام على تركه ولكن شئون الإسلام أهملت ، ولم يبق للمسلمين خليفة أو حاكم يدعون له فى خطب الجمع والأعياد ، وتطلع المسلمون هناك إلى الخليفة العثمانى ، يريدون منه نصراً للإسلام بوجه عام .

وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام غزا الروس طشقند وبخارى وسمرقند ، فاقتصت من الدولة العثمانية أجزاء خصبة ، ولكن ظل المسلمون يتجهون إلى

الخليفة العثمانى ويدعون له .

وبعد ذلك بنحو عشرة أعوام أخرى (١٨٧٧ - ١٨٧٨) نشبت الحرب الروسية العثمانية المعروفة ، وكانت كما هو معروف ذات أخطار حربية وسياسية ، وأهم ما يعنينا منها فى هذا الموقف أنها قطعت الصلة بين تركيا وبين المسلمين فى أواسط آسيا ، فقد كان الروس قبل ذلك هددوا الخانات الأتراك هناك ، فاستنجدوا ببنى عثمان ، وجرت بينهم وبين السلطان عبد العزيز اتصالات فلما جاءت هذه الحرب شغلت القسطنطينية عن كل شىء .

وفى سنة ١٨٨١ بسطت فرنسا حمايتها على تونس ، وفى العام الثانى ١٨٨٢ م احتلت إنجلترا مصر ، وأطلق على تركيا فى هذا الوقت اسم « الرجل المريض » ووقفت الدول الأوربية الكبرى تتطلع بطمع وشراهة إلى تركة هذا المريض الذى وقف بين الموت والحياة ، لايموت فتؤخذ تركته ، ولا يحيا فيدفع عن نفسه ، ولكنها كانت تتذرع بشتى الحيل لتستولى بطريقة أو بأخرى على ما تستطيع .

وفى سنة ١٨٩١ أعلنت ألمانيا حمايتها على دار السلام .

ولم يقف الأمر عند الاستيلاء أو الحكم السياسى ، بل نال المسلمين هنا وهناك ألوان من التعذيب والإهانات والإكراه على ترك مظاهر الإسلام ، ففى الأراضى التى وقعت تحت أيدى الروس وفى البلقان وبلاد القرم والهند وفى الجزائر وتونس .. لقى المسلمون ألواناً من البلاء والإهانات ، ولكن ظل الذين كانوا تحت الحكم الإسلامى يدعون للخليفة فى خطب الأعياد والجمع .

وترددت بين المسلمين هنا وهناك نغمة عالية تهيب بالناس أن سبب

هذه الكوارث كلها هو إهمال تعاليم الدين الإسلامى والجرى وراء النظم الأوربية ، وكان من الدعاة للعودة الإسلامية البارزين نامق محمد كمال (١٨٤٠ — ١٨٨٨) م وكان يرى أن لا نهضة للشرق إلا بالعودة إلى الإسلام ، وطالب الدولة العثمانية أن تأخذ بالنظم الأوربية التى لا تتعارض مع الإسلام ، وأن تعمل على قوة الروابط بينها وبين العوالم الإسلامية لأنها مقر خلافتهم ، ولأنها أكبر الدول الإسلامية وأرقاها ، وكتب فى هذا الشأن مقالات لم تعدم صدى بين الأتراك ، وكان هناك آخرون طالبوا بالإصلاح أيضاً .

وفى هذه الظروف كانت دعوة الشيخ الأفغانى إلى إصلاح أوضاع المسلمين ، وكانت أوسع مدى وأبعد صدى من دعوات الآخرين ، وكان يربط بين الدين والسياسة والاجتماع ، وينظر إلى الدين نظرة شاملة واسعة ، ويود لو عاد المسلمون إلى عهد الخلافة الراشدة ، ولكن حيث يصعب خضوع الأمم الإسلامية لحاكم واحد ، دعا إلى إيجاد روابط بينها تقوم على القرآن والسنة وسيادة العدالة والشورى ، أو بعبارة أخرى دعا إلى حلف إسلامى تتوحد فيه كلمة المسلمين ، ويكونون يداً على من سواهم ، وهذه ما عرفت باسم الدعوة إلى جامعة إسلامية ، وكانت حال الشعوب الإسلامية بحاجة إلى هذه الجامعة ولاقت الدعوة إليها قبولاً لديهم ، وواجهت أيضا عداء من الأوربيين ودعاة التنصير .

ورأى السلطان عبد الحميد الثانى أن فى هذه الفكرة تأييداً له ، وأن فيها ما يحمى دولته التى أصبحت هدفاً لدول أوربا، حتى زعيم حزب الأحرار فى انجلترا وهو الوزير — جلاد ستون — كان ينادى بوجوب طرد العثمانيين من أوربا ، ووقف بجانب شعوب البلقان يساندها فى مسعاها للتخلص من حكم المسلمين . كل هذا دعا الخليفة إلى مساندة الدعوة للجامعة الإسلامية ،

وعمل بأساليب عديدة على تثبيت مركز الخلافة ، فأظهر الشعائر الدينية ، وحارب مظاهر الفجور والترف التى كانت شائعة فى مقر الخلافة وأنشأ معهداً دينياً لتدريب الوعاظ والدعاة الإسلاميين[1] ، وكان يبعث بهم إلى مختلف الجهات لينشروا دعوة الإسلام ، ويؤيدوا الخليفة ويعلنوا عن حسن سلوكه ، وأيضاً لينشروا فكرة الجامعة الإسلامية ، واستحث الصحف على الدعاية له خليفة إسلامياً صالحاً ، ويطول بنا الحديث لو استعرضنا كل ما فعله الخليفة فى هذا الوقت لإنهاض الفكر الإسلامى وإحياء دعوة الإسلام ، ويعتبر هذا كله نجاحاً لدعوة الشيخ الأفغانى ، وفى هذه الظروف دعاه الخليفة إلى استنبول !.

هل دعاه تأييداً لهذه الفكرة – فكرة الجامعة الإسلامية – أو دعاه ليكون تحت سمعه وبصره واتقاء لشره ؟– كان الأفغانى قد اتصل ببعض أعضاء جمعية تركيا الفتاة ، وأثنى على منهاجها وعملها وسماها الجمعية الصالحة ، فلعل الخليفة خشى أن ينضم إليها فقربه إليه !.

* * *

كانت حياة الشيخ فى استانبول كحياته فى مصر أو الهند أو إيران كلها محفوفة بالدسائس وتدبير المكايد الخفية له ، وكان أبو الهدى الصيادى – وهو رئيس الوزراء فى تركيا فى ذلك الوقت – أبرز الكائدين للشيخ ، وأنكى من يدبر لإبعاده والتخلص منه :

---

(١) اقترح الشيخ محمد عبده على الشيخ جمال الدين وهما فى باريس إنشاء معهد للدعاة –، يُعرِّف أبناؤه بتعاليم الإسلام ويعملون على نشره فى أنحاء العالم ورأى الشيخ أن فى اللجوء إلى هذه الفكرة والاعتماد عليها بطءاً من جهة وإطفاء لحركة الجهاد التى يدعوان إليها من جهة أخرى ، فقال له : أنت مثبط ، ودعا إلى هذا المعهد الشيخ رشيد رضا ، وعملت به جمعية الإخوان المسلمين فيما بعد ، ويعمل به الآن على نطاق ضيق .

وكانت حياته أيضاً مليئة بالنشاط والدعوة المخلصة للإسلام .

وكان السلطان متيقظاً لما يحاك ضده من الدول الأوربية ، وإلى الدعايات التى تشوه سمعته فى مملكته الواسعة ، ورأى فى وجود الشيخ لديه وتقريبه منه ما يدفع عنه هذه المكايد ، وارتاح الشيخ إلى هذا ، ويقول عن ذلك الموقف ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعداد العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذى فيه نهضة المسلمين عموماً دفعنى إلى مد يدى له ، فبايعته بالخلافة والملك ، عالماً علم اليقين أن الممالك الإسلامية لا تسلم من شراك أوربا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها إلا بيقظة ، والانضواء تحت راية الخليفة الأعظم أقوى سلاح لها .

ولم يكن الخليفة إزاء ما يدس لديه على الشيخ وإزاء الأحداث التى حدثت عند حسن ظن الشيخ ، ولم يحسن الاستفادة من هذا العقل الكبير !.

اقترح الشيخ على الخليفة أن يقيم فى الدولة ولايات كل ولاية يحكمها خديو ، ويأتمر الحكام جميعاً بأمر السلطان ، وتبقى بكل ولاية حامية عسكرية عثمانية ، بعبارة أخرى أراد الشيخ أن تكون وحدة إسلامية على نسق الولايات المتحدة ، ولم يقبل الخليفة هذا وقال له : وماذا أبقيت لعرش آل عثمان ؟ وأجاب الشيخ تبقى عظمة مولاى السلطان ملك هؤلاء الملوك ، وإذا قويت هذه الخديويات فسرعان ما تنتظم فارس وأفغانستان والهند ويصير الإسلام قوة رهيبة يخشى الغرب جانبها ويكف عن حرب الإسلام .

فى هذه الأثناء اغتيل شاه فارس على يد فارسى من تلاميذ الشيخ ، طعنه وقال : خذها من يد جمال الدين ، وأبدى الشيخ – وهو فى تركيا – إعجابه بهذا القاتل ، مما أثار الريبة حوله ، وجعل الخليفة يحذره ! .

ونشأت جفوة بين السلطان والشيخ ضاع بها الأمل المنشود الذى

كان الشيخ يعمل له ، وضاعت الجامعة الإسلامية .

وكان الشيخ يريد مغادرة تركيا ، ولكن المرض دهمه فحجب عنه الزوار وأجريت له عملية جراحية من أجل سرطان أصابه فى فمه ، وعلى إثرها اجتاز هذا العالم إلى الرفيق الأعلى .

مات فى شهر مارس سنة ١٨٩٧ ، ودار حول موته لغط كثير ، وشيعت جنازته بدون أى حفاوة ، ودفن فى قبر حقير ، ولكن أفكاره لم تمت إذْ أحياها بعده تلاميذه ، وكان أنجبهم وأنشطهم محمد عبده .

* * *

وجهت إلى الشّيخ جمال الدين اتهامات كثيرة خطيرة ، وقد يكون من أهمها رميه بالإلحاد ، وموالات الماسونية الصهيونية ، ولا أقف لدى شىء من هذا ، ولكن الشىء المؤكد أن مدرسته لم تمت بعده ، وأهم الذين أمدوها بالحياة واستمرار النشاط والعمل تلميذه الأول الشيخ محمد عبده ، ثم تلميذ الشيخ عبده محمد رشيد رضا .

أما محمد عبده فكان بسبب التجارب وممارسة الجهاد مدة طويلة ، وبسبب ما نال الثورة العرابية من فشل يتجه اتجاهاً آخر غير اتجاه أستاذه ، رأى أن يدع الجانب الثورى ، وأن يكون جهاده لرفع مستوى الأمة فى ثقافتها وتفكيرها وصناعتها وأيضاً أعمالها التجارية والزراعية ، لقد واجه الحقيقة الماثلة فى الشرق ، لماذا استعمره الأوربيون ؟. إنهم لم يستعمروه إلا لنقصه فى هذه الجوانب ، وهم يتخذون منه أسواقاً لمتاجرهم ، ومورداً من مواردهم ، ولو كان لدى الشرقيين ما يستغنون به عما يستوردونه من الغرب ما وجد الغرب فائدة فى استعمارهم . وهنا كانت عناية الشيخ بالتعليم ، والتعليم يشمل تصحيح العقيدة ودرس التاريخ ومعرفة مكانة الإسلام بين

الأديان ، كما يشمل أنواع الصناعات ، وكافة العلوم الأخرى من الطب والكيمياء والفلك والجغرافيا وما إلى ذلك مما يتميز به الرجل المستنير الفاقه ، ومضى الشيخ فى هذا الطريق وقدم إصلاحات للأزهر ، ووضع مثلاً جيدة للتفسير .

وقد لقى الشيخ عبده إيذاء كثيراً كما لقى أستاذه من قبل ، ولكنه مات مأسوفا عليه من شيوخ الأزهر ومن غير الأزهريين ولا يزال اسمه نابهاً لامعاً .

وأما الشيخ رشيد رضا فهو أوفى تلميذ لأستاذه وأقدر تلاميذه على نشر فضائله والتعريف بمميزاته ، وقد سلك طريقه فى الدرس والبحث ونشر العلم ، ولما مات الشيخ عبده أخرج الشيخ رضا كتابه الضخم « تاريخ الإمام محمد عبده » — وفيه ترجمة وافية للشيخ جمال الدين صارت مرجعاً لكل الذين كتبوا عنه .

وأخرج الشيخ رشيد رضا تفسير المنار ، وضمنه آراء الشيخ محمد عبده ، وانتهى فيه إلى قريب من آخر سورة يوسف ، ثم أكملها بعده الشيخ حسن البنا ، ولكن المجلة ودار نشر « المنار » والتفسير كلها توقفت .

وللشيخ رشيد رضا مجموعة من الكتب والبحوث ، وكان من أحرص الناس على وقته والانتفاع به .

وسميت مدرستهما المدرسة السلفية نظرا لتعلقهما بأعمال السلف من المسلمين ، ورغبتهما الجادة فى إعادة حياة إسلامية سلفية .

ويمتاز هذان الشيخان بدرس الأديان الأخرى ، ومقدرتهما على الموازنة بين الإسلام وبينها ، ومعرفتهما بما فى العهد القديم والأناجيل من تضارب ينبو عن المشاعر الإنسانية ، وعن المنطق وطبيعة الأديان .

ولم يقم من تلاميذ الشيخ رضا بعده من يسد فراغه ، ولكن استفاد الكثيرون من علمه وبحوثه .

وتوقفت الدعوة بعد ذلك ، حتى جاء الشيخ حسن البنا – فنهج بها منهجا عمليا ، وهو مستفيد من هذه المدرسة ، ونذكر كلمة عنه .

* * *

□ حسن البنا □
١٩٠٦ - ١٩٤٩

هذا رجل من طراز آخر ، يختلف عن السابقين جميعاً فى طريقة دعوته وعمق إخلاصه ، ونشاطه الدينى الواسع ، ولا شك أنه استفاد ممن سبقوه فى هذا الميدان الإسلامى ، وعلى الأخص مدرسة الشيخ جمال الدين والشيخ محمد عبده وأيضاً الشيخ محمد رشيد رضا .

والشّيخ حسن البنا من أسرة متواضعة فقيرة فى المال جداً ، ثرية جداً فى الأخلاق والدين ، أبواه وإخوته كلهم ذوو مشاعر دينية ومثل أخلاقية ، وإذا كان كل شخص من عمل البيئة التى ينشأ فيها ، فإن لهذا الشيخ – وهذا لقب أضفى عليه لدعوته الدينية – مع بيئته الصالحة مواهبه الذاتية ، من حب الحق وحب الجهاد فى سبيله ، ومن الذكاء الحاد النادر ، والألمعية الصادقة .

ولأمر ما نجده مولعاً منذ صغره بمحاربة الرذائل ومظاهر الفساد كما نجده مولعاً بتكوين الجمعيات الدينية ، ولم يقف بعمله وجمعياته عند طريقة سلبية ولا أن يكتفى بتكوين النفس وتقويم السلوك الفردى ، ولا حتى بإلقاء العظات والتعريف بمبادىء الإسلام ، بل مع هذا كله كان يعنى بالجانب العملى والبعد عن الخلافات وسفسطة الألفاظ .

* * *

نشأ الشيخ حسن البنا ، فى بلدة المحمودية ، وساعدته الأقدار بإمداده منذ نشأته بالمكونات الدينية ، فقد كان يحفظ القرآن فى مدرسة الرشاد الدينية ، وهى مدرسة أنشأها عالم معروف فى وقته كان مكفوف البصر له

اتجاه دينى روحى وكان لديه مكتبة كبيرة ، كان يختار الشيخ البناء من بين تلاميذه ليقرأ له ما يريد قراءته منها ، وكان لهذه المكتبة وهذه القراءة أثر طيب فى نفس هذا الصبى الناشىء أمدّته بالمعلومات وبثت فيه حب القراءة والاطلاع .

وفى هذه السِّن المبكرة كون مع رفاقه « جمعية الأخلاق الأدبية » وكان أبناؤها يراقبُون الحالات الشّاذة النّابية فيحاولون إصلاحها أو إزالتها ، فكانوا يرسلون الخطابات الناقدة والنّصائح المفيدة سراً إلى ذويها ، ومرة كان يمشى على شاطىء النيل فرأى أحد الملاحين قد علق على سارية سفينته تمثالاً خشبياً لشخص عارى الجسد يَتنافى منظره مع حسن الأخلاق ، فذهب الصبى لتوه إلى ضابط النقطة - نقطة البوليس - ويبدو أنه كان رجلاً خَيِّراً ، فقام لفوره مع الصبى ، وهدد صاحب السفينة فأنزل التّمثال ، وسُرّ الضابط من عمل الصبى وشعوره الطيب الكريم ، فذهب إلى المدرسة ليعلن لناظرها إعجابه بهذا التلميذ ، وسر الناظر أيضاً ، فأذاع نبأ الحادث على التلاميذ وهم فى طابور الصباح ، واتخذ منه وسيلة لحثهم على الفضائل ، وبث الأخلاق الكريمة فى الناس .

ولعله منذ هذا الوقت نبتت فى ذهنه فكرة السرية ، والإعداد فى خفية لما يريد ، ولعلها هى التى تطورت فيما بعد وكون على غرارها الجهاز السرى للإخوان ! فقد كانت جمعية الأخلاق تبعث برسائل سرية ، وظلت سرية مدة حتى انكشف أمرها .

وفى المدرسة الأولية ، كون « جمعية منع المحرمات » وهكذا نجده منذ حداثته شغوفاً بالإصلاح عن طريق تكوين الجمعيات ، وكان توفيقاً من الله ، لأن أعمال الفرد ضعيفة التأثير قليلة الجدوى .

ومن عوامل التوفيق ومكونات الروح الدينى العملى الشجاع فى نفس

هذا الصبى أن اتصل برجال الطريقة الحصافية الشاذلية ، وكان مؤسسها الشيخ حسنين الحصافى ، أزهرياً متفقهاً عابداً جريئاً ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم .

وكان معروفاً لدى كبار المصريين ، وقد زار رياض باشا – رئيس الوزراء فى ذلك الوقت – فدخل أحد العلماء فسلم وانحنى حتى كاد يركع ، فانتهره الشيخ الحصافى ولطمه على خديه ، وقال له : استقم ، فالركوع لله وحده ، لا تُذِلُّوا الدين فَيُذِلكم الله ، وسكت الرجل وسكت الباشا .

ودخل أحد الباشوات – وفى أصبعه خاتم من الذهب ، وفى يده عصاً ذات مقبض ذهبى ، فانتهره الشيخ الحصافى كما ينتهر أَىَّ تلميذ مخطىء من تلاميذه وقال له : الذهب للنساء وليس للرجال ، لا تخالف أمر رسول الله ، وأراد الباشا أن يعترض الشيخ فتدخل رياض باشا وعرفه به ، ويبدو أن الشيخ كانت له سمعة طوعت الباشا للإذعان والصمت .

وأكثر من هذا أنه زار الخديو محمد توفيق باشا مع بعض رفاقه فى بعض المقابلات ، فقرأ عليه السلام ، ورد الخديو بالإشارة ، فقال الشيخ فى صوت جهير : « رَدُّ السلام يكون بمثله أو أحسن منه ، ... الرد بالإشارة لا يجوز » ولم يسع الخديو إلا أن يرد السلام ، وزاد ولعل ذلك كان مداراة لموقفه – أنْ أثنى على الشيخ ، ولكن الشيخ نصر الإسلام وكفى .

هناك أحداث أخرى شبيهة بهذا من جرأة الشيخ وحرصه على تعاليم الدين وقد ذكرها الشيخ البنا فى مذكراته – ولا شك أنها تركت فى نفسه آثاراً عميقة وثبتت فى أخلاقه ما كان عليه من جرأة .

ومن مآثر الجمعية الحصافية أنها قاومت الإرسالية التبشيرية الإنجيلية وكان الصبى مُنْذ مِجًّا معها وقد رأيناه بعد ذلك يقاوم جماعات التبشير فى الإسماعيلية .

ومن التوفيق الذى يسر له أن قُبِلَ بمدرسة المعلمين فى دمنهور – ولم تكن سنه قد بلغت السن القانونية ، ولم يكن أكمل القرآن حفظاً .

وفى مدرسة المعلمين ظل حريصاً على إعلان شعائر الدين – يؤذن ويدعو للصلاة ويحرص على الزى العربى ، ويوالى حفظ القرآن وقراءته تعبداً .

وانغمس أيضاً فى التّيارات الوطنية ، وشارك فى المظاهرات والاضطرابات التى حدثت فى هذا الوقت ، وظل على صلته بالجمعية الحصافية .

من هذا نجد أن تكوين الشيخ البنا كان مزيجاً من المدنية والتقليد ، ومن النزعة السنية المحافظة والنزعة المدنية المتطورة ، ومن التعبد الدينى والرياضة البدنية ، والجهر بدعوة الإسلام والترتيب والتدبير لها سراً واتخاذ القرآن الكريم والسنة النبوية أساساً لكل أعماله ، وهذه الجوانب كلها انعكست على دعوة الإخوان المسلمين كما سنرى بعد ، وهو قد اتصل بعديد من الهيئات والجماعات الدينية ، وبكثير من الأشخاص البارزين فى حقل الدعوة ، وفضلاً عن بيئته وبيته المؤمن ، كان بِفطْرتِه ذا نزعة دينية متطورة تبعاً لإخلاصه ورغبته فى المزيد من القربى إلى الله ، فهو يقرأ القرآن ويعرف أحكام تجويده ، ويحرص على صلاة الفجر فى المسجد ، ويوقظ المؤذنين للآذان ويعظ الناس ويفقههم فى المساجد .

بجانب ذلك كله – وهو ما يزال ناشئاً فى مدرسة المعلمين فى دمنهور كان يقرأ الكتب الفقهية الكبيرة وكتب السير النبوية المطهرة ، وأعانه على هذه القراءة مكتبة والده التى كانت تحوى أمهات هذه الكتب ، وكان والده يستحثه ويشجعه على هذه القراءة ، فتكونت له وهو ناشىء حديث ملكة الاطلاع والصبر على القراءة ، وتغذت عقليته بمعلومات واسعة .

ومن جميل ما حدث له أنه كان ذا حرص على حفظ المتون الأزهرية ، يحفظ متون الفقه والمواريث والنحو ومصطلح الحديث ، ولا يقف فى حفظه ودرسه الفقه عند مذهب معين ، وهذا ما أكسبه مرونة فى عقله وأحكامه وتسامحاً فى الخلافات التى كثيراً ما يتعثر فيها المتعصبون لمذهب معين .

ويبدو أنه كان ذا نهم شديد فى قراءته ودرسه ، ومِنْ وراء نهمه وذكائه الحاد الخارق تشجيع والده إذ يقول له : « مَنْ حَفِظَ المتون حاز الفنون » وقد حفظ المتون وحاز الفنُون حقاً .

* * *

أنهى هذا الشاب دراسته فى مدرسة المعلمين الأولية ، وكانت مدتها ثلاث سنوات ، وكان أول فرقته فى امتحاناتها الثلاثة ، وعين مدرساً فى مدرسة أولية لكنه لم يتسلم عمله ، إذ آثر أن يدخل « مدرسة دار العلوم » — ويبدو — وإن لم يقل — أن الناحية المادية كانت ذات أثر فى تردده بين قبول الوظيفة أو مواصلة الدراسة ، فمدرسة دار العلوم بالقاهرة ، تحمله نفقات أكثر من التى كان يتحملها فى دمنهور ولكن تعطشه للعلم وحب والده للعلم أيضاً ، والمغريات التى كانت فى دار العلوم كلها مالت به إلى مواصلة درسه ، ودخل امتحان أو مسابقة القبول بها فنجح بتفوق ، وحصل على مكافأة شهرية قدرها جنيه واحد فى كل شهر ، وكان فى هذا الوقت يكفيه معيشة وشراء كتب إلى حد ما .

كانت المقادير تهيىء هذا الشاب لدعوته الدينية ، وتهيىء له أسباب نجاحه فيها ، ففى مدرسة المعلمين وجد نخبة من الأساتذة الصالحين العباد ، وجهوه وقدروه وأفادوه ، وفى دار العلوم وجد مجموعة أخرى تدعو إلى الله وترشد إلى طريقه ، وفى القاهرة وجد عدداً من ذوى العلم والبحث فى مختلف

الجوانب الفكرية ، ولذكائه الشديد كانت الدروس التى يتلقاها فى دار العلوم هيّنة سهلة عليه ، ولديه من قبل كثير منها ، وهذا هيأ له وقتاً أوسع للاتصال بدور العلم الكثيرة فى القاهرة وللإفادة منها ، وظل على صلة بالطريقة الحصافية ، وهكذا كانت حياته فى أول عام له بدار العلوم علماً وعبادة .

ولأسباب خاصة انتقلت الأسرة كلها إلى القاهرة ، وأصبح يعيش بين أهله .

وكان لصلته ببعض الجمعيات الدينية والوعاظ ، ولعقليته الولود وإخلاصه يرى أن دعوة المساجد وحدها ليست كافية ، ففكر فى تكوين جماعة من الدعاة ، ينتخبون من أبناء الأزهر وأبناء دار العلوم ، وأذاع فكرته ونجحت ، وتكونت الجماعة ومن طريف أعمالها أنها كانت تعظ فى المقاهى ، وربما فى الميادين ، فكانت دعوة شبيهة بدعوة « ويزلى » ، ولكن كانت عظاتهم قصيرة لا تزيد على عشر دقائق أو نحوها ومن العجيب أنها لاقت قبولاً وإقبالاً عليها وتقديراً لذويها .

وفى سنة ١٩٢٧ م انتهت دراسته فى دار العلوم ، كانت أربعة أعوام وكان الأول فيها كلها ، ومن حقه أن يبعث إلى الدراسة فى أوربا – وهى أمنية يتمناها كل طالب ، ولكنه كان متردداً ، لما يعلمه عن الحياة فى أوربا من مظاهر التحلل ، ولأنه لا يريد أن ينقطع عن الدعوة للإسلام ، وقطع تردده أن مدرسة دار العلوم لم تعين مبعوثين إلى الخارج هذا العام وعين مدرساً بالإسماعيلية .

* * *

لم تفارقه فكرة الدعوة للإسلام ، ووجد الناس فى الإسماعيلية تتقسمهم خلافات مذهبية واسعة بينما إرساليات التّبشير من حولهم تعمل

بجد لتنصير من يتنصر ولتُعرِّفَ بتاريخ المسيحية من لم يعرف ، ورأى هو أن ينأى عن كل هذه الخلافات وأن يعمل لفكرة الإسلام والتعريف به قواعد وعباداتٍ وتاريخاً ، وكان جاداً فى عمله – فى المساجد والأندية والمقاهى ، ومع العلماء والأعيان والشعب ، ولاقى قبولاً وتشجيعاً من كثيرين ، ولاقى اعتراضات ودسائس من آخرين ، ولم يأبه بالثناء لأنه يعمل لله ، ولم يثبطهُ الخصومُ لأنه يعمل لله ! واستهان بالصعاب لأنه يعمل لله .

كانت دروسه ومحاضراته وأحاديثه تتركز كلها ، حول ذلة المسلمين واستكانتهم وبيان أن لا منجى لهم إلَّا الإسلام ، وكان يُعرِّفُ بامجاد الإسلام وعزته ، فيستهوى قلوب السامعين ، واجتمع إليه فى منزله بعض ممن تأثروا بحديثه ، وتشاوروا ماذا يفعلون وما المخلص مما تورطت فيه الأمة ، وما هو الطريق لإعادة مجد الإسلام وانتهى تفكيرهم إلى تكوين « جمعية الإخوان المسلمين » ووضعت نواتها أوائل سنة ١٩٢٨ . ومهمتها الأولى هى تعريف المسلمين بأهمية دينهم وفائدته لهم واستأجرت الجماعة حجرة من مكتب أو كتاب ، وضعوا فيها مالهم من أدوات قليلة وكانوا يجتمعون فيها ليلاً أو آخر النهار ، وقاموا بنشاط ملحوظ أثار حسد الحاسدين ، وكُتبتْ فيهم الشّكاوى للبوليس ولوزارة المعارف وللقصر الملكى ولرئيس الوزراء – إسماعيل صدقى فى هذا الوقت – واتهم المدرس الناشىء حسن البنا بأنه وفدى ضد صدقى باشا ، وأنه ضد الملك فؤاد وبأنه شيوعى ، وبأنه يجمع المال للجمعية ويأخذه لنفسه ، وبغير هذا أيضاً من التهم ، ومع أن بعض هذه التهم كان يناقض بعضاً ، انخدع بها بعض الناس حتى أن أحد محبى الخير كان قد منح الجمعية قطعة أرض لتقيم عليها مسجداً وبناء للجمعية ، وحرر بذلك عقد تنازل عن القطعة ، فعاد يطلب استرجاعها ، وهو من قبل كان يريد بناء مسجد عليها ، وسلمه المدرس رئيس الجمعية الناشئة عقد تنازله واستطاعت الجماعة أن تشترى قطعة أرض مناسبة أخرى ، ومن تبرعات الخيّرين بَدأ

بِنَاءُ الجمعية يظهر ، وكان نشاط الدعوة على أيدى هؤلاء قويا واسعا لم يقف فى محيط الإسماعيلية ولكنه امتد حتى العريش والسويس وغيرهما .

وفجأة نُقل أحد الأعضاء العاملين إلى شبراخيت فأحدث نقله فراغاً فى نشاط دعاة الإسماعيلية . ولكنه افتتح فرعاً للإخوان المسلمين فى شبراخيت ، ثم فتح فرع فى المحمودية ثم آخر فى دمنهور ، وبدأت الجمعية تلد وتتكاثر ، ثم جاء قرار بنقل حسن البنا إلى القاهرة وبذلت جهودٌ لإلغاء نقل الشيخ البناء وإبقائه فى الإسماعيلية ، ولكنه آثر النقل إلى القاهرة حتى إنه أبرق إلى « وزير المعارف » إذ ذاك يطلب تثبيت نقله إلى القاهرة .

وفى القاهرة زاد النشاط وتعددت الشّعب ، وانتقلت إلى الأقاليم ، ثم بواسطة الطلبة الغرباء الذين يفدون على القاهرة للدراسة والذين تشبعوا بفكرة الإخوان انتقلت الدعوة إلى خارج القطر ، وربما كان « جيبوتى » أول قطر يفتتح شعبة ، وكان عمل هذه الشّعبة بطبيعة موقفه شاقاً ، فجيبوتى مستعمرة فرنسية ، واللغة الفرنسية هى اللغة السائدة فيها ، وتليها اللغة المحلية ، ولعلها كانت اللغة الأمهرية ، واللغة العربية هناك ضعيفة جداً ، ومعدومة عند الكثيرين ، ولكن بقدر ما كانت دعوة الإخوان شاقة كانت مفيدة ، أفادت فى نشر اللغة العربية وتحفيظ القرآن والتعريف بحقائق الإسلام ، وهذه مأثرة لا تنسى ، ولم يقم بها أحد قبل الإخوان .. يضاف إلى هذا أنهم كونوا شعباً للاخوات المسلمات ،وكانت مدارس ناجحة لتكوين الناشئين ، ومرشدات ناجحات لتعليم الكبار .

وكان نشاط الجماعة متعدداً منوعاً ، فهناك درس الثلاثاء فى المركز العام للإخوان وكان يلقيه المرشد العام للإخوان ، وأحياناً أشخاص آخرون تحت إشرافه ويكون له تعقيب وتعليق ، وهناك المحاضرات فى الشّعب وفى المساجد وهناك النّشرات والرّسائل ، ونقلت الدعوة إلى الكليات الجامعية ،

وإلى المدارس الثانوية ، وكان هذا تخطيطاً ناجحاً جداً ، لأن شبان اليوم وطلاب المدارس عما قريب يكونون مدرسين وعاملين فى المصالح العديدة ورؤساء أقسام أو هيئات ، وقد حدث ذلك فعْلاً فيما بعد حتى إنه لم تكن ثم مصلحة خالية من عدد من الإخوان ، وكل أخ كان داعية إلى فكرتهم بقوله وبعمله .

أصدرت الجماعة ، وإن شئت الجماعات . نشرات عديدة ، وصدر فى القاهرة عدد من المجلات منها « رسالة المرشد العام » ، ومنها « النذير » ومنها « مجلة الإخوان » و « الدعوة » ، وأخيراً صدرت جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية . ومجلة الشهاب .

والمهم لدينا الآن هو كفاح هذه الجماعة فى دور الإعداد وبداية البناء .

ونظراً لما كان فى طبيعة المرشد العام وتكوينه الدينى والثقافى ، وضح فى هذه الجماعة عنصر جديد أو عناصر لم تكن مألوفة فى الجماعات الدينية ، تناولت نواحى الإصلاح السياسية والاجتماعية ، وتزعمت حركة مقاومة التبشير ، وجاهرت بنقد الحكومة ونددت بتقصيرها فى تشجيع الدعوة الإسلامية وعدم عملها أى شىء ، لمقاومة التّيار التبشيرى ، وكان حادًّا نشيطاً فى تلك الأيام ، كما عابت مناهج الأحزاب السياسية ، وتحزبها لمصالحها الخاصة ، وأكثر من ذلك أن تكونت لجان لدرس هذه الجوانب السيئة واقتراح الوسائل التى يمكن بها علاجها ، واعتمدت فى كل ما اتجهت إلى إصلاحه إلى أشاعة التربية الإسلامية بين أبناء الأمة جميعاً . وكانت فى هذا قريبة من منهج الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى رأيناه آنفاً ، وجاء فى بعض نشراتهم .

« ... يجب أن تعد البلاد التى تريد النهوض مدرسة طلبتها كل

المواطنين ، وأساتذتها الزعماء وأعوانهم ، وعلومها الحقوق والواجبات العامة ، ومن أجل ذلك يجب أن ينظم أمران مهمان هما المنهج والزعامة » .

واعتمدت أكثر ما اعتمدت على الأخلاق والجهاد ، ورسم الطريق السليم .

« سل أى زعيم سياسى . رئيس الوفد ، أو رئيس الأحرار ، أو رئيس حزب الشعب أو رئيس حزب الاتحاد ... عن المنهج الذى أعده للنهوض بالأمة والسير بها إلى نوال أغراضها .

« إن نهضتنا لا تزال مبهمة لا وسائل لها ولا غايات ولا مناهج ولا براج .

وتكررت دعوتها إلى سلامة العقيدة والاعتصام بالوحدة الإسلامية ، وتربية النفس ، وتربية الجسم . وحب الحق لله الحق ، وحب الخير والتضحية فى سبيل الدعوة .

وصادفت دعوة الإخوان قبولاً ، واستهوت مبادئها الشباب ، فكان أتباعها يزيدون يوماً بعد يوم ، وكثرت شعبها أيضاً فى مختلف الجهات ، فلم تبق مدينة أو قرية كبيرة ليس بها شعبة أو شعب للإخوان ، وكان المركز العام يوم الثلاثاء أشبه بمدرسة كبيرة ، وبعد انتهاء الدرس يزدحم الشارع بالإخوان خارجين من المركز ، ولم تكن الدار خالية من الإخوان والرواد العديدين فى أى وقت .

* * *

لماذا عظم الإقبال على هذه الجماعة ، ولماذا نمت بكل هذه السرعة ؟ إن الجمعية التى بدأت فى الإسماعيلية سنة ١٩٢٨ م ، قبل أن تكمل عشرة

أعوام كانت قد بلغت أشدها وأصبحت بارزة معروفة محسوباً حسابها بين مختلف الهيئات ، وهى ذات نشاط متعدد وذات مبادىء خاصة واسعة ويرجع كل ذلك إلى تكوين مؤسسها والتجارب التى مرت به .

الجمعيات الدينية تعرفها وتقدر محاضراتها ، والصوفية يرهبونها ويخشون ما تذيعه من أفكار ، ومع ذلك تحبها طائفة خاصة منهم ، وتتعشَّق مبادئهم ، والسياسيون أيضاً يهابونها لكثرة أتباعها ، ويدركون أن لها قدرة على ترجيح كفة على أخرى فى مواسم الانتخابات ، والعباد ومحبو الإصلاح ، ومتعشقو الفكرة الإسلامية تهوى إليها قلوبهم ... وهكذا .

كان قد مر على الأمة المصرية وعلى العالم الإسلامى كله حين من الدهر ركدت فيه الدعوة الإسلامية ، وصارت خُطب المنابر تقليدا متبعا خالياً من روح الإسلام وسمو مبادئه ، والكثيرون يرجعون إلى دواوين تخصص لكل شهر خطباً معينة ، وبذا انبتت خطب المساجد عن تيار الحياة . أما دعوة الإخوان فقد ردت إلى الخطابة روحها بما بث من مبادىء ، فقد عرفت الناس بحقيقة الدعوة وبما كان عليه نبىُّ الإسلام وصحابته . وكان مما تردده دائماً .

« الإسلام دين ودولة ، مصحف وسيف ، مسجد وميدان . دعوة وعمل .. » وكتبت مبادئها فى لوحات وزعت على الشعب والمساجد والمحلات فأيقظت مشاعر الناس وبثت فى نفوسهم روح الجهاد ومنة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحسن السلوك والاستقامة وكمال العبادة .

ما فائدة التعاليم والتوجيهات الإسلامية إذا لم يعمل بها ، ولماذا يقتصر الإسلام على جانب عبادى سلبى ، وقد شرع الله فيه الجانب العملى الإيجابى ؟ لقد كان المسجد فى صدر الإسلام ومنذ عهد نبىّ الإسلام برلماناً تبحث فيه شئون المسلمين ، وتقرر الحروب ، وتفصل الأحكام ، فلماذا انكمش عمله

ولم يبق فيه إلّا جانبٌ ضئيل ؟ والإسلام تربية شاملة يربى الأجسام ويربى الأرواح ويدرب على العمل ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، فلماذا لا نعمل ما يحببنا إلى الله ؟- ولماذا نذكر الصلاة وحدها وننسى واجب الجهاد ، وغدْوة « أو روحةٌ فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها !- ولماذا ننأى عن الجهاد ونؤثر السلامة والله تعالى يقول : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ... والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

ولكن المؤمن لا يقوى على الجهاد إلا إذا كان قوى الإيمان ، ولا يقوى إيمانه إلا بالعبادة بكل أنواعها ... وبهذا ظهر شمُول الدعوة وترابط مبادئها وتبلور أغراضها حول القرآن والسنة .

وكان فى الإخوان نظام الكتائب ، والكتيبة جماعة تسهر الليل للعبادة والتهجد وقراءة القرآن ، وكان بها فرقة جوالة . وفرقة ألعاب رياضية تزاول عدداً من أعمال الرياضة وكانت تقوم بالرحلات والأعمال الكشفية ... إلى غير ذلك من الأعمال والدراسات ، وبذلك استهوت الشباب من المدارس والجامعات ، وكان من الجميل ومن النادر الذى لم يعهد أن نرى كل جماعة من هؤلاء ترعى واجب العبادة ، ويقوم بينها خطباء ، ينشرون الوعى الإسلامى بين إخوانهم ، ويذكرونهم بأيام الله وآياته .

وبذا قام الإخوان بواجب العديد من الكليات الجامعية دراسة وعملاً ، وأهم ما حققته فى هذا المجال أنها كونت مدارس خطابية . وكونت جيلاً من الخطباء الفاقهين ، لم تشهد مصر مثله ، كذلك حققت نوعاً من التعارف والوحدة بين أتباعها ، فما يكاد الواحد من الإخوان ينزل بلداً حتى يتجه إلى شعبة الإخوان فيه ، أو إلى المكتب الإدارى وكان يكفى أن يعرف أنه

من الإخوان فيقوم له إخوانه بكل ما يحتاج إليه ، ويقدمون له من المساعدات ما يبتغى ، أو يدعونه لإلقاء محاضرة بينهم أو الاستماع إلى محاضراتهم .

وإلى جانب التكوين الخطابى أنشأ الإخوان مدارس افتتحوها للشباب ، وكانت شعبهم أيضاً مدارس بما يتداول فيها من المحاضرات ، ويدرس من العلوم المختلفة .

وكان فى المركز العام بالقاهرة درس الثلاثاء الذى يلقيه المرشد العام ، وقلما ناب عنه غيره فيه ، ودرس الخميس لطلاب المدارس والجامعات ، وشملت هذه الدروس ثقافات إسلامية واسعة من الحضارة والتاريخ والسيرة النبوية وسير العظماء والعباد إلى جانب دروس التفسير والحديث .

وتدخلت الجماعة فى شئون الدولة الكبرى ، وطالبت أن تكسى كلها بلباس إسلامى طالبت البرلمان أن يكون به مسجد فبنى به مسجد . ووجد بين رجال البوليس والجيش إخوان مسلمون وشعب للإخوان ، وكان المرشد العام يبعث برسائله الإصلاحية الإسلامية إلى الوزراء ورئيس الوزارة وإلى القصر الملكى ، واكتست الجماعة بهذا هيبة ، وما وافت سنة ١٩٤٧ م حتى كان فى كل قرية ومدرسة ، ومصلحة حكومية عدد من الإخوان المسلمين ، ومساجد تقام فيها الصلاة ، وتلقى الدروس الدينية ، وتقرأ أوراد الإخوان ومأثوراتهم ، وغصت الكليات الجامعية بشباب الإخوان .

وبدأت الأحزاب السياسية تنظر إلى هذه الجماعة بكثير من الهيبة والحذر ، واشتبك الإخوان فعلاً مع أكبر حزب وهو حزب الوفد ، وكان أبناؤها يَرْبُونَ على أتباعه عدداً ، ويمتازون بالنظام ، وبشهرتهم بالصلاح والتقوى .

* * *

وقامت حرب فلسطين سنة ١٩٤٧ ، واشترك فيها الإخوان المسلمون متطوعين فَأبلوا فيها أيما بلاء ، كانوا هم القادة المستبسلين ، قوم باعوا أنفسهم لله ، وكان من شعاراتهم « الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » فهذه إذن أمنية تحققت ، وأدركت إسرائيل خطر هذه الجماعة فمضت تكيد لها .

وفى أحد الأيام نشرت جريدة المصرى حديثاً مطولاً شغل الصفحة الأولى منها وصفحة أخرى ، وكان الحديث مترجماً عن جريدة أمريكية ، وجاء فيه فيما أذكر أنهم اتخذوا نداء لهم « الله أكبر ولله الحمد » – على نحو ما كان يفعل الألمان إذ يقولون : « هيل هتلر » أى يحيا هتلر . ووصف المقال كثرة الإخوان واستماتتهم فى سبيل عقيدتهم ، وقال إنهم يريدون أن يكونوا حكاماً ليقيموا شريعة الإسلام .

وكان للإخوان حقاً تعهدات ومواثيق تعكس إصراراً على إقامة حكم إسلامى ، ورشح المرشد العام للإخوان نفسه فى انتخابات برلمانية ، وكان يرشح نفسه فى دائرة الإسماعيلية مهد الدعوة الأول ، ولكن وزارة السعديين أسقطته بطريق التزوير فى الانتخابات ، ومنعته وزارة الوفد من الترشيح بطريق الرجاء والنصيحة ظاهراً ، وبمنع قيد اسمه باطناً .

وكانت جريدة الإخوان تخصص باباً بعنوان « عقيدتنا » تنشر فيه أهدافها ووسائلها . وكانت تقرأ على مدى واسع فى الخارج سواء فى الشرق أو فى أوربا ، وقد وجد أحد الدارسين المصريين فى باريس عدداً من جريدة الإخوان يتحدث عن الإسلام فى باب « عقيدتنا » فترجم المقال إلى الفرنسية وقدمه إلى مسيو « إرنسيت رينان » – وهو حفيد رينان الذى كان يحاور الشيخ جمال الدين الأفغانى فى شأن الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامى . فلما قرأ المقال مترجماً كتب هذا التعليق :

« إن هذه الكلمات عميقة المبحث والمقصد . وهى – دون ريب –

مستمدة من المنهج نفسه الذى رسمه محمد - [ﷺ] - ونجح فى تنفيذه فأسس به أمة ودولة وديناً . وقد زيد فيها ما يناسب روح العصر مع التقيد بروح الإسلام .

« وفى عقيدتى أنه لا نجاح للمسلمين اليوم إلا باتباع السبيل نفسه ، ذلك السبيل الذى سلكه محمد - [ﷺ] - وصحبه ، ولكن تحقيقه على الحالة التى عليها المسلمون بعيد ... » .

أصبحت جمعية الإخوان معروفة فى مصر وفى خارج مصر ، وفى العالم الشرق والعالم الغربى ، وفى أمريكا ، وظهرت منافساً خطيراً للأحزاب السياسية وللصحافة المصرية ، وبينما كان أتباع الجمعية يزدادون كانت المكايد تدبر لهم ، تنبأ قوم بأن حزب الوفد سينتصر عليها ، فانتصرت هى على الوفد ، وظن قوم أن لا دخل لها فى الحكم حيث لم يدخل أحد من ذويها البرلمان ، فإذا هى بصحافتها تتدخل فى كل شىء ، وتنتقد وتقترح وتخطط ، والناس يرددون ما تقول ، وصحفها تقرأ فى داخل القطر وفى خارجه ... فماذا يفعل الخصوم ؟ وماذا يفعل البرلمان ؟ .

كانت الخطة الصهيونية الأمريكية الانجليزية أن أوعزت إلى الملك فاروق وإلى محمود فهمى النقراشى أن الإخوان يريدون زحزحة الملك فاروق وتولية الشيخ البناء ملكاً إسلامياً على مصر ، ولم يكن لدى الجماعة أى تفكير فى مثل هذا العمل ، ولكن دعوتهم كانت مركزة على سيادة القانون الإسلامى ، ووحدة الدول العربية ، وكلا الأمرين مما يخيف المستعمرين والطامعين فى الشرق من الدول الغربية الكبرى ، ولهذا كانت هذه الوشاية ونجحت .

كان يمكن أن يُعالج الموقف بشىء من الأناة والتعقل ، ولكن رئيس

الوزراء إذ ذاك كان محمود فهمى النقراشى ، وكان معروفاً بضيق أفقه السياسى ، وضيق عقله وجنوحه إلى العنف فى حَلّ المواقف الداخلية[1] وقادته سذاجته وعنفه إلى إعلان حل جمعية الإخوان المسلمين ، وأظن ذلك كان فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م .

ومنذ ذلك الوقت انفتح باب من الشر لم يغلق إلى الآن .

أرسل الشيخ البناء إلى النقراشى من يرجوه أن يبقى على المركز العام للإخوان بالقاهرة ، وأن يكتفى بإغلاق الشعب ولا يبيع محتوياتها من المكاتب والكتب وأدوات الأعمال الرياضية وما إلى ذلك ، وذهب الرسول إليه حقاً[2] - وأخبره بأن بيع ممتلكات الإخوان فى مزادات علنية سيكون شاقاً عليهم ، واقترح عليه أن يتروى فى الأمر بعض التروى ، على أقل تقدير ليظل للجماعة بصيص من الأمل فى عودتها وكانت إجابة النقراشى أنهم أطفال[3] وأنهم سوء يجب التخلص منه بسرعة .

وأخذت الأحداث تتوالى ، بيعت ممتلكات الإخوان واستولت الحكومة على ديارهم ، وأسْرع المتحمسون من شبان الإخْوان فقتلوا النقراشى ، وكانت الإجابة على قتله تدبير مكيدة لقتل الشّيخ حسن البنا فقتل أيضاً بعد أقل من شهرين من قتل النقراشى .

* * *

(١) كان النقراشى شاذاً قاسياً - فحين أضرب طلبة الجامعة - جامعة القاهرة الآن - وخرجوا فى مظاهرة أمر بفتح الكوبرى أثناء مرورهم فتساقطوا فى النهر ، وحين أضرب طلبة الأزهر أمر الجنود فاقتحموا المسجد والمعهد والكليات وضربوا الطلبة وهكذا كان شأنه .

(٢) كان هذا الرسول هو الشيخ أحمد الباقورى .

(٣) الكلمة التى قالها النقراشى فيما ذكر لى الشيخ الباقورى كلمة وقحة قبيحة .

كانت الأحداث تتوالى فى خفاء ، وغموض وسرعة ، وكانت أصابع العابثين شتى ، وَقَرَّ فى ذهن الملك فاروق أن حسن البنا ينافسه وأنه يعمل على الإطاحة به ليتبوأ هو مكانه – ونقلت نتيجة حائط حكومية كانت تحمل فى أعلاها صورة الملك – وقد أزيلت الصورة ووضعت مكانها صورة حسن البناء ، واحتفظ الملك بهذه النتيجة وأطلع عليها بعض الناس وقال : هذا الرجل يريد قتلى وتولية نفسه ملكا على مصر .

و لم يعنه أن يبحث إن كان الإخوان هم الذين فعلوا أو فعله غيرهم ، وإذا كانوا هم فاعليه فهل كان ذلك بقرار أم كان عبثاً من بعض الشبان .

لم يكن فاروق على حظ من الثقافة ولا الكياسة ولا يدرك خبايا السياسة ، ولذا لم يفكر لا فى حقيقة الوشايات التى نقلت إليه ولا فى عاقبة ما قرره فى نفسه من حل جمعية الإخوان وقتل حسن البنا ، ولعله بجانب ذلك كان يشعر أنه فقد مكانته فى نفوس الناس بسبب انحرافاته وسوء سمعته ، وكان عدواً للوفد منذ تولى النحاس باشا الوزارة بإملاء السفير البريطانى سنة ١٩٤٢ ، وخشى أن يجتمع الوفد والإخوان عليه .

وجد فاروق فى غباء النقراشى وزلفى الطامعين من أذناب النقراشى وأعداء الوفد أداة طيبة يستعين بها .

بدأ النقراشى فصَادر جريدة الإخوان المسلمين ، ومَنَعها من الصدور ، وكان الشيخ البنا الذى مارس الاعتقالات والمصادمات وإغلاق شعب الإخوان وفتحها ، يطمع فى إعادة الجريدة وصحف الإخوان الأخرى – بينما كان الأمر يدبر لقتله ، فلما حلت الجمعية وبيعت ممتلكاتُها ، ووزعت كتبها كان قد أيقن أنه مقتول لا محالة .

وبعد قتل النقراشى حيل بينه وبين الاتصال بالناس ، روقب وروقب

تليفونه وقبض على من كان يسلم عليه عرضاً فى الشارع ، وهزل جسمه وشحُبَ لونه ودار يتخبط هنا وهناك يلتمس طريقاً للخلاص فأُوصدت كل الأبواب فى وجهه ، طلب مقابلة رئيس الديوان الملكى ليحادثه ويشرح له موقفه فلم يؤذن له ، طلب مقابلة رئيس مجلس النواب أو الشيوخ أو وزير الداخلية فلم يسمح له بأى من ذلك ، وطلب إذناً بالخروج من مصر فلم يجب .

وشرد الإخوان فنقل من نقل إلى الصعيد وروقب من روقب ودخل المعتقلات أعداد لا حصر لها .

وأخيراً فى ليلة ١٢ فبراير من سنة ١٩٤٩ ، قتل حسن البنا ، وقدم قتله قرباناً إلى صاحب الجلالة وتحية له فى عيد ميلاده[١] .

وكان إبراهيم عبد الهادى القطب الثالث فى حزب السعديين بعد أحمد ماهر ومحمود النقراشى . قد تولى الوزارة ، وفى عهد هذا الوزير نال الناس من الرهبة ونال المعتقلين من التّعذيب ما تقشعر له الأبدان ، هذا الوزير - وكان محامياً - أول من خرق القوانين بتعذيب المعتقلين ، وأول من اخترع جريمة هتك الأعراض ، والنيل من نساء المعتقلين .

مر تدبير قتل الشيخ البنا بمراحل متتالية ، وكما يصوره كتاب « من قتل حسن البنا » كان الملك وكان الإنجليز والنقراشى معنيين بقتله ، وتطوع عدد من وزارة الداخلية وأنصار الملك وحكومة النقراشى للإسهام فى قتله ، وكان الشيخ - كما قالوا - كالعصفور فى قفص . وكان يتوقع قتله بعد أن عجز عن عمل أى شىء يجدى ، لاسمح له بمقابلة مسئول كبير ، ولا سمح

---

(١) كان عيد ميلاد الملك فاروق يوم ١١ فبراير .

له بالخروج من القطر ولا حتى بالخروج من القاهرة . وكان مدركاً تماماً أن اعتقال ذويه وأتباعه وتركه هو بدون اعتقال إنما هو تدبير لقتله .

وكان الأمر واضحاً — فهو يشعر بالرقابة حوله من كل جانب ، وقطعت الحرارة من تليفونه ، وظلت اعتقالات الإخوان مستمرة .

ودعى الشيخ — بواسطة رسول — أن يحضر إلى جمعية الشبان ، ونهاه أبوه وأسرته عن الذهاب ولكنه قال : الأعمار بيد الله ، وبكى أولاده ، وخرج ولم يعد إلا جثة هامدة .

ذهب إلى جمعية الشبان المسلمين ، ولم يحضر الذين طلبوا مقابلته ، وكان كل شيء من قبل وزارة الداخلية قد رتب لقتله ، وكان لابد للشيخ أن ينصرف بعد أن قاربت الساعة الثامنة مساء ، وطلب عربة أجرة — تاكسى — لتوصيله إلى بيته ، وجاءت السيارة ، ودخل هو وصهره عبد الكريم منصور — وقبل أن تتحرك السيارة تقدم رجل يرتدى الملابس البلدية ، ففتح الباب الذى بجانب المرشد وأخذ يطلق عليه الرصاص ، وألقى الشيخ بجسمه على الأرض وأخفى رأسه ، وجاء شخص آخر ليفتح الباب الثانى بالقوة ، وهشم الزجاج وأطلق الرصاص على السيارة وعلى عبد الكريم ، وأغمى على السائق وكان هناك عدد كبير من رجال الشرطة لم يتحركوا ولم يعملوا شيئاً .

وجاءت سيارة إسعاف نقلت المصابين إلى قصر العينى ، ووضع كل واحد فى مكان بعيد عن الآخر ، ولم يقم أحد بالعناية بهما .

وفى الساعة الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل من مساء ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ لفظ الشيخ آخر أنفاسه ، ولكن كيف كانت نهايته ؟.

قال الأطباء مات من أثار الجراح ، وقال آخرون قتل فى قصر العينى ،

إذ أجهز عليه بعض رجال الحكومة ، وقيل أهمله المستشفى حتى نزف دمه ، وقيل إن مدير القصر إذ ذاك وهو صهر طبيب الملك ساعد فى القضاء عليه .

وقيل إن الملك فاروق أمر أن يترك بغير علاج حتى يموت ، وقيل إن الملك ذهب إلى القصر بنفسه ليراه قتيلاً .

وعندما فحصه الأطباء الشرعيون قالوا إن سبع رصاصات اخترقت جسده ، ونقل عن أحد الأطباء الشرعيين الذين باشروا تشريح جثمانه أنه كان يمكن وقف نزيفه وإنقاذ حياته بعمل بسيط .

* * *

رأى عبد الرحمن عمار أن ينقل جثمان الشيخ البنا من مشرحة قصر العينى إلى المقبرة مباشرة ، وطلب والد الشيخ بإلحاح أن تشيع جنازته من بيته ، وبعد مشاورات سمح بذلك على أن تشيع الجنازة فى صمت تام .

نقل الجثمان فى سيارة تحت حراسة ، وأحاط المخبرون ورجال البوليس بالمنزل وقام والد الشيخ ، وكان مسناً فى نحو التسعين من عمره بتجهيز ابنه ، وحتى سكان المنزل المجاور لم يكونوا يعرفون شيئاً ، فقد وصل الجثمان قبل الفجر على أن يخرج قبل الساعة التاسعة صباحاً ، ولم يسمح لأحد أن يدخل أو يساعده ، ولعل بنات الشيخ وزوجه هن اللائى ساعدن جدهن فى تجهيز والدهن .

وأنزلت الجثة إلى النَّعْش ولم يسمح لأحد بالمشاركة فى حملها ، وحمله بناته وزوجته ومضت الجنازة فى صمت لا يمزقه إلا هتاف إحدى بناته :

« قر عينا يا أبتاه ، لن نتخلف عن رسالتك ، لئن منعت الحكومة من يشيع جنازتك — وما أشد نذالة الحكام — فحسبنا عزاء وجزاء أن أرواح

الشهداء ، تمشى معنا ، وتشيع عن أهل السماء ، ما عجز عن تشييعه أهل الأرض » .

وكان رجال البوليس ملء الشارع حتى المقبرة .

وصُلِّى على الشيخ فى مسجد قيسون – صلى عليه أبوه ، ولم يكن بالمسجد أحد .

ودفن بمدافن الإمام ، وعاد النِّساء الثلاث اللاتى حملنه ، وعاد أبوه ، واستمرت الحراسة على القبر وعلى المنزل .

وبعضٌ قليلٌ من النساء – مجازفة وجهلاً – مشين خلف الجنازة ، ولكنهنَّ لم يعدن إلى بيوتهنَّ بل شيعن إلى المعتقلات .

وتعرض مكرم عبيد – رئيس حزب الكتلة الوفدية – لرجال البوليس فمشى ودخل بيت الشيخ وقدم عزاء لذويه ، وكان له من مسيحيته حصانة .

ولم يكن ثم عزاء أصلاً ، لا فى سرادق ولا فى المنزل .

* * *

مات حسن البنا ودفن وانطوت صفحة من الجهاد بدأت معه – كما رأينا – منذ حداثته ، فماذا كان موقف الآخرين ؟ .

بكى الإخوان ، وبكى الباكون من غير الإخوان ، وأسف الذين كانوا يعلقون على جماعة الإخوان آمالاً .

وأبدى ذوو الزُّلْفى إلى الملك شماتة ، وانطلقت صحف الحكومة والصحف المشايعة لها فى تجريح الجماعة وكَيْلِ التهم لهم جزافاً ، ونال قاتلوه

مكافآت مجزية .

وتناقلت نبأ الوفاة سفارات الأمم بالقاهرة ، على الأخص سفارات أمريكا وانجلترا وروسيا وفرنسا .

وتبارى الآخرون فى عرض مساوىء الإخوان ومدى خروجهم على الإسلام ، ولكن إبراهيم عبد الهادى والملك فاروق ومن معه كانوا يشعرون بحرج الموقف وتأذى الناس وغضبهم .

جعل إبراهيم عبد الهادى دراسة الدين مادة إجبارية فى المدارس ، وأخرج قراراً بإلغاء بيوت الدعارة ، وأرسل الأزهر طوائف الوعاظ يجوبون البلاد ليشعروا الناس أنهم لم يفقدوا شيئاً بحل جمعية الإخوان المسلمين ، وانقطع الملك عن الخروج للصلاة وشدد الحراسة على القصر .

وظلت الأحداث تتوالى ، ثم لم يجد الملك بدا من تغيير الوزارة فأقال إبراهيم عبد الهادى فى آخر شهر رمضان وقال هذه هدية عيد الفطر للشعب .

أما الجمعيات الإسلامية الأخرى – أنصار السنة ، والجمعية الشرعية ، وشباب سيدنا محمد ، والعشيرة المحمدية ... فأبدوا فى صمت بالغ أسفهم وأحزانهم .

وكان شيخ الأزهر فى هذا الوقت هو الشيخ محمد مأمون الشناوى ، وقد جاء المشيخة بعد كل من الشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وهو من بلديات إبراهيم عبد الهادى ، وكان يرغب فى تثبيت نفسه وشخصيته لدى الملك ولدى إبراهيم عبد الهادى . وكان ضيق العقل قليل البضاعة العلمية ضعيف الشخصية قاصر التفكير ، فاعلن وأعلن معه أتباع له عَداء كل من كان ينتمى إلى الإخوان ، وبعض المدرسين طلبت إدارة المباحث نقلهم ، فنقلهم الشيخ إلى معاهد الصعيد ولما قالت المباحث بعد ذلك أنها لاترى

مانعاً من إعادتهم إلى مقارهم إن لم يكن لدى الشيخ مانع – خاف من هذه الكلمة وأبى إعادتهم !.

وقال بعض الأزهريين إن الإخوان يمثلون دور الخوارج ، وحل جمعيتهم خدمة عظيمة للبلاد وهكذا .

* * *

مات حسن البنا و لم تمت دعوة الإخوان المسلمين ، ظلوا يتعاطفون ويتلاقون على غير موعد ولا نظام ثابت فيتواصون ويتذاكرون ماضيهم ويعزى بعضهم بعضاً .

وفى سنة ١٩٥١ سقط الحكم العسكرى الذى حل به الإخوان .

وعادت الجماعة لم يثبطها أو يفت فى قواها ما خسرت من أموال وممتلكات ، و لم تطل أيام الملك فاروق و لم يسعد فى أيامه القليلة بعد حلّ الإخوان .

سافرت أمه وبعض بناتها إلى أمريكا وظهرت بمظهر لايناسب ملكة أو أم ملك ، وتزوجت أخته الصغرى على الرغم منه من شاب قبطى كان يعمل فى سفارة مصر فى واشنطن – ثم قامت الثورة فطردته من البلاد .

وظلت جمعية الإخوان ، ولكن ينقصها ما كان يمتاز به الشيخ البنا من ذكاء ، وعمق وحسن تفكير وخطابة .

كانت عقليته عجيبة يرى الشخص فيحكم عليه ويحدد شخصيته لأول نظرة ، ويتعرف على الشّخص ثم يغيب عنه السنين فإذا قابله خاطبه باسمه وذكره بالمناسبة التى قابله فيها ، ويكاد يعرف أشخاص كل شعبة ، وما لكل فرد فيها من مميزات .

ولما قامت الثورة تركت الإخوان عامين ، ومنذ سنة ١٩٥٤ ، وبعد حادث المنشية صب على الإخوان العذاب صباً ، وكان العهد الناصرى كعهد نيرون ، وبعد موته ظهرت كتبٌ عديدة تصف ما عاناه الإخوان فى معتقلاتهم وهو شيء يجعل الولدان شيباً .

ومهما يكن من شيء فقد بقيت الدعوة وبقى الإخوان المسلمون .

إن دعوتهم مهما قيل فيها هى دعوة الإسلام ، وصدى لدعوة رسول الله – ﷺ – ولذلك بقيت .

امتازت دعوة الشيخ البنا بأنها دعوة عملية لم تعتمد على النظريات ، والعظات ، وإنما نقلت أفكارها إلى دور التنفيذ والعمل ، وقد نقلت الفكر الإسلامى كله إلى طور جديد ، ولئن كان الشيخ جمال الدين قد ترك من ورائه مدرسة ذات لون خاص من الفكر – لقد ترك الشيخ البنا ، مدرسة ذات لون من الجهاد .

ولا ريب أن الفكر الإسلامى المعاصر خسر خسارة كبيرة بحل هذه الجماعة ، كانت مدرسة واسعة المناهج ، وكانت دار تربية إسلامية للشباب ، وكانت وقاية للشباب من إهدار الوقت وضياع العمر فيما لا يجدى ، وبعد ضياع الشُّعَبِ الإخوانية صار الشباب يقضون أوقاتهم أمام التلفزيون وفى دور الملاهى وانقطعت الدعوة إلى التطهر والعبادة ، وانقطع تيار التفكير والاطلاع ، ثم فشا الفساد بين الناشئين .

وكلمة الإخوان الآن رهيبة لا تقال إلا باحتراس ، والذين ينتمون إلى الإخوان محل ريبة فى نظر الحكومة ، ولا يسمح لهم بإعادة درس الثلاثاء ، وفى مجلس الشعب أفراد من الإخوان دخلوا بطريقة ملتوية ، منهم المستشار مأمون الهضيبى ابن المستشار حسن الهضيبى أول مرشد للإخوان بعد الشيخ

البنا ، ومنهم سيف الدين البنا ابن الشيخ البنا ،– ولكن لم يسمع لأحد منهم مطالبة بقانون إسلامى أو حكومة إسلامية ، ولا أظنهم يستطيعون ذلك ولا يسمع لهذا الاقتراح لو اقترحوه .

وذهب الآن معظم الذين عاشوا فى عصر الشيخ البنا ، ولكن يوجد أتباع يتعشقون دعوة الإخوان ، ويوجد ممثلون لهم فى الأقطار النائية فى أنحاء أوربا ودولها الكبيرة وفى باكستان والهند وجزر أندونسيا والفلبين وفى شرق آسيا وجهات أخرى كثيرة وهذه الجماعات وإن تعددت شعبها وأماكنها قليلة العدد ، وهم يمثلون الجذوة التى تحتفظ بحرارتها تحت ركام التراب ، وهم دائماً يعزّون أنفسهم بأن ظالميهم لم يبوءوا إلا بالخسارة ولم يشيعوا إلّا باللعنات ، ولم يتركوا وراءهم إلا سوء السمعة وعظات التاريخ وأن الشيخ حسن البنا رغم ما أعدوه لتشويه سمعته مذكور معروف عند الأشراف والمنصفين .

انتقلت روح الشيخ البنا الجهادية إلى أتباعه بصورة ما ومن أبرز صور هذه الروح إصرار الأتباع على بلاغ الدعوة ، وأن يصدعوا بها بقدر ما يستطيعون ، وطاقاتهم تختلف باختلاف استعدادهم وثقافاتهم ، ولكن العاملين منهم ينهجون منهجه ، ويتأسون بطريقته وعمله .

كان دؤوبا على نشر كلمة الإسلام وتعليم الناس حتى فى حالات سجنه واعتقالاته ، اعتقل مرة فى معتقل الزيتون مدة بلغت الشهرين أو قاربتهما ، فلما خرج من معتقله ، – وكان ذلك ليلاً – ذهب إلى مركز الإخوان العام فى الحلمية قبل أن يذهب إلى بيته ، وحدّث الإخوان عما فعل . فقال : لم يحدث شيء غير أننى افتتحت شعبة للإخوان بمعتقل الزيتون ! وسألوه عما كان ، فقال إنه كان يقرأ للناس هناك كتاب « سبل السلام »[1]، وأنه أحفظ هناك زميله – عبد الحكيم عابدين ،– القرآن ،

(١) كتاب « سبل السلام » كتاب معروف يذكر أحاديث الأحكام الفقهية ، ألفه الفقيه =

وكان كاتم سر جمعية الإخوان ، وكان معتقلاً أيضاً .

ومن الطريف فى حوادث اعتقال الشيخ البنا ، أن المعتقلين وحراس المعتقل كانوا يحضرون دروسه ويستمعون إليها بشغف ، وكان يوقظ المعتقلين لصلاة الفجر ويلقى عليهم دروسا بعدها ، ويقضى هو ليله متهجداً قارئاً للقرآن ، وما يستفيد منه من الكتب الدينية ! .

ونقلته وزارة التعليم مرة إلى قنا ، ولم تكن بها شعبة للإخوان بعد ، فأنشأ بها شعبة صارت بعد ذلك أُمًّا لعدد من الشعب فى مراكز المديرية (المحافظة) ومدنها وقراها .

وقد سلك الإخوان هذا المسلك حين اعتقلهم إبراهيم عبد الهادى منفى الطور فى سيناء ، وذكر لى – الشيخ محمد الغزالى – الداعية المعروف – أن معتقلهم هناك كان شعبة كبيرة ، وأن عرب سيناء كانوا يبعثون بأولادهم إليهم ليعلموهم القراءة والكتابة ويحفظوهم حظاً من القرآن – وكانوا يوقظون ليلهم ويصومون نهارهم وتلقى عليهم الدروس من الفاقهين من بينهم ، وأحياناً يحضر حراس المعتقل ليسمعوا دروسهم وليصلوا معهم .

هذا ما يوضح أن روح الشيخ انتقلت إليهم ، وأن جهادهم لم ينقطع بموت مرشدهم .

* * *

= المحدث محمد بن إسماعيل الكحلانى – الصنعانى – الذى كان يعرف باسم الأمير – المتوفى سنة ١١٨٢هـ – وهو شرح لكتاب « بلوغ المرام ، من جمع أدلة الأحكام » الذى جمعه الإمام : أحمد بن على بن حجر العسقلانى – القاهرى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ وكان « سبل السلام » يدرس فى مدرسة القضاء الشرعى ، وكلية الشريعة ، ودار العلوم ، وهو مرجع للباحثين فى الفقه الإسلامى .

ولقى الإخوان أشد وأقسى ما لاقوا فى العهد الناصرى ، وكنا ندهش ونحن نقرأ ما كتب كتابهم - وهو كثير وهم أيضاً كثيرون - عن ألوان التعذيب التى لاقوها ، حتى النساء المساكين ، وقد كتبت السيدة - زينب الغزالى - فى كتابها « أيام من حياتى » صوراً كئيبة وقحة مما كانت تعامل به ، وتحدث الذين دخلوا المعتقلات فى هذا العهد بأكثر مما كتب الكاتبون ، ومن طريف ما ذكره بعض هؤلاء أنه منذ كانت الهدنة بين إسرائيل والعرب بعد حرب سنة ١٩٤٨ ، عملت إسرائيل على أن تستورد من إمريكا أحدث ما أخرجته مصانعها من آلات الحرب ، وعملت مصر أيضاً على أن تستورد من أمريكا أحدث أنواع التعذيب ، وكان تيار الناصريين الفكرى معارضة وهَدْمًا لتيار الدعوة الإخوانية ، وفشا الفساد فى الشباب ، وغفلوا نهائياً عن دعوة الإسلام ونداء الإسلام .

* * *

وبعد الهزيمة السافرة النكراء ، فى سنة ١٩٦٧م استيقظت فى نفوس بعض من الشباب فكرة الإسلام ، ودعوة التقوى والعمل الصالح ، وقال كثيرون : إنها عقوبة من الله بسبب إهمال دينه الحق ، وقامت جماعات إسلامية سرية وُصِفَتْ بالتطرف ، وحوربت أيضًا ، ولكن لم تكن عقوبات أتباعها كالعقوبات التى لاقاها الإخوان المسلمون .

والآن للإخوان جماعة ليست معلنة ولا مستترة ، لهم مرشد عام ، ولهم أتباع منذ عهد الشيخ البنا ، وآخرون انضموا إليهم ، ولا تزال دعوتهم تستهوى الكثيرين ولكنهم لا يتمتعون بحرية إعلانها .

ونظراً لما لهذه الدعوة من مساس بقلوب الشباب خاصة ، قامت صحف دينية تذكر أمجاد هذه الجماعة - ، وتضرب على أوتارها وتردد نغماتها ، ويعلم الله وحده بمستقبلها .

ومهما يكن من شيء ، فإن حسن البنا ولد داعية ، وعاش داعية ، ومات داعية ، ولم يترك من ورائه كتباً ولا بحوثاً ، لأن وقته كله منذ أنهى دراسته فى كلية دار العلوم حتى لقى ربه - كان كله موقوفاً على الدعوة ، وكانت أسفاره متواصلة ، وعبادته وقرآنه مما يملأ وقت فراغه ، وقد عمل فى عشرين عاماً ما لم يعمله غيره فى سنين طويلة ، هذا لأن دعوته هى دعوة الإسلام ، أعلن نبيُّ الإسلام من قبل موادها ووضح مبادئها .

ولست أرى للحكومات العربية طريقاً تجتذب به الناس ، وتجعلهم يقبلون به عليها ويلتفون حولها مثل طريق الدعوة الإسلامية ، ولن ينقص ذلك أى حاكم شيئاً بل يزيده فى قلوب الناس تمكناً وثباتاً !

رحم الله هؤلاء المصلحين وأثابهم ، ورحم الله حسن البنا وأكرم مثواه

* * *

□ خاتمــة □

هذه أطراف موجزة من حياة اثنين وعشرين مصلحاً ، قد يقرؤها قارؤها على أنها أقاصيص أدبية فيها تسلية ومتعة ، وقد يقرؤها لما فيها من العظة والاعتبار ، أو لما فيها من سبل الإصلاح وطرق الهداية ، أو لما فيها من تاريخ ما لم يعن به التاريخ ، أو لغير ذلك من دواعى القراءة ، ولكنها – دون ريب – ستترك فى نفسه آثاراً قيمة عميقة ، إن الجانب الإنسانى من الإيثار وحب الحق للحق ، وحب الخير للناس ، والرغبة فى هدايتهم إلى الله والعمل للدار الآخرة ، والإخلاص كل الإخلاص فيما دعوا إليه – كل ذلك هو العامل المشترك بينهم جميعاً . كل منهم عناه أن يخدم الإنسانية ، وأن يتسامى بالناس عن النزعات المادية ، وأن يوجد صلة بينهم وبين الله الخالق ، الواحد الأحد ، أو بين الآلهة التى اعتقد أنها تستحق العبادة ، ويجب على الإنسان أن يجلها ويقدم لها أدلة الشكر والتقدير ، وبعض لم يعرف الله ولكنه رأى أن الحياة المادية شرور وآثام ، وأن الإنسان بوصفه الإنسانى يجب أن يتخلص من هذه الشرور ...

ومهما يكن من شأنهم جميعاً فإن اتجاههم الروحى والمعنوى سمو بالإنسان وتوجيه له إلى الخير والمحبة والإحسان والعدل ، ونحن فى أيامنا الحاضرة بحاجة – إلى هذه الدعوة ، والاستماع القلبى إلى هذا النداء ، إن تيارات المادة والأنانية ، وحب الذات ، وجحد حقوق الآخرين ... تطغى على حياة الدول والأفراد ، أنكرت الشيوعية وجود الله والحياة الآخرة ، فاستباح أتباعها حكومات وأفراد ! ما تحرمه الإنسانيّة وما حاربته الأديان وجاءت من أجله الرسل ، وطغى حب المال على الرأسمالية فطوعت لهم

أنفسهم أن يجمعوه من حله ومن غير حله ، ومن كلا الاتجاهين نبع الظلم وفشت أنواع الفساد .

وشبابنا المسكين الذى ضللته الدعايات ، والتبست عليه السبل ، ورانت على قلبه المادة بحاجة إلى توجيه روحى ، يخلصه من حيرته ، ويوجهه التوجيه الإنسانى الصحيح ، ولا أقل من أن نضع بين يديه هذه الصور الخاشعة الرائعة من حياة القديسين . إن فيها عزاء وسلوى للشاكين ، وتوجيهاً وهداية للضالين ، وإيقاظاً وبعثاً لمشاعر التقوى وواجبات الدين ، وكفاً للضالين المارقين من ضلالهم وغيهم ، وعظة وتذكيراً للغافلين عن واجباتهم .

ومن قبلى أننى استمتعت كثيراً بسير هؤلاء القادة ، ووجدت فى جهاد كل منهم ما يغرى بمتابعة سير الآخر وجهاده ، ومن خلال أفكارهم وآرائهم تبدو – عن طريق الموازنة – نصاعة الإسلام وجلاله ، إنه الدين الحق الصحيح الذى يرجع بعقيدته وقوانينه إلى الله ، وإنه الآن الدين الفقير فى دعوته ودعاته ، وأتباعه الذين ينتمون إليه ويحملون اسمه ، ليس لهم منه إلا هذه التسمية والانتماء الشكلى ، ووقر فى أذهان الكثيرين من حكامه ، أو فى أذهان أكثرهم أن الحكومات الدينية تنأى عن العدل ، وتوجه الناس وفق آراء طائفة ميزتها هى لبس المسوح وإطالة اللحى واعتجار العمائم ... ، على نحو ما فعل البابوات من العصور الوسطى ، وقد لاقى منهم المصلحون ما قصته تراجمهم فى هذا الكتاب ؟ .

أفما آن لنا أن نميز بين دعاة الإسلام وبابوات المسيحية فى العصور الوسطى ، أو ما آن لنا – ونحن فى عصر العلم وكثرة الجامعات – أن نعرف حقائق ديننا وندرس حياة دعاته وزعمائه ؟ .

لقد حورب نبى الإسلام من قومه ، وأخرجه المشركون ومن معه من ديارهم ثم لم يكن للعرب عزة ونصر إلا بالدين الذى حاربوه ، أحياهم

من موت وقواهم بعد ضعف ، وجعل لهم ذكراً بين الأمم ولسان صدق فى الآخرين : أفهذا دين ينسى أو تشريع يهمل ؟ .

والمصلحان اللذان ذكرناهما ، لم يحاربهما قسس المسلمين ولاباباواتهم وإنما حاربهما حكام ظالمون ، والذى بثّاه فى فكر المسلمين . وقوماه من سلوك الشباب ، وهديا إليه من طرق الخير ... أكبر من أن ينسى ، وأعز من أن يمحى ، وخسارة المسلمين فيما فقدوا من آثارهما لا تعوض ، إلا بإعادة مناهجهما ، وهى دون ريب لابد أن تعود ، لأنها إعلان لكلمة الله وقرآنه ﴿ وإنه لذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

وشبابنا – المصرى وغير المصرى – بعد أن توالت علينا الهزائم فى شتى الميادين ، ميادين الحروب ، وميادين الأخلاق ، وميادين العلم ، وميادين السياسة ، بعد هذا كله تتجه نفسه إلى الدين ، ويرى فيه الحل لعقدنا العديدة ، والمنقذ من مآسينا الشديدة ، وعليه أن يتسلح بالعلم والأخلاق والآداب الإسلامية لاستعادة مجدنا ، وتجديد بنائنا ، ولا يأس من رحمة الله ، إننا مؤمنون به ولا نيئس من رحمته ، فلا ييئس منها إلا القوم الكافرون !

وفى سير هؤلاء – أنبياءَ ، وقديسين ، ومصلحين – . ما يشحذ العزائم للجهاد ، ويبعث فى النفوس الصبر عليه ، واحتمال الأذى فى سبيل الإصلاح ، وليس الجهاد هو الحرب أو إراقة الدماء وخلق العداوات ، إن الحرب إحدى وسائله ، ولكن الدعوة إلى الإسلام والتعريف به ، من أول ما يفعله المجاهدون ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

* * *

الفهرس

□ فهـرس □

مقدمة المترجم ٧
مقدمة المؤلفين ١٠
موسى ١٢
أشعياء ٢٧
زرادشت ٤١
بوذا ٥٣
كونفشيوس ٧٠
يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) ٨٧
عيسى ٩٩
بولس ١١٠
محمد ﷺ ١٢٥
فرنسيس الأسيزى ١٤٧
جون هس ١٦٠
مارتن لوثر ١٧٨
اجنيتس لويولا ١٩٩
جون كالفين ٢١٧
جورج فوكس ٢٣٨
سويدن بورج ٢٥٦
جون ويزلى ٢٨٠
بريجهام يانج ٣٠١
مارى بيكر إددى ٣٢٠
موهانداى ك. غاندى ٣٣٩
جمال الدين الأفغانى ٣٥٩
حسن البنا ٣٨٨
خاتمة ٤١٧

رقم الإيداع ١٩٩١/٤٥٩٥

الترقيم الدولى ٧-٠٠-٥٠٧٠-٩٧٧

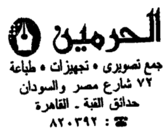


مؤسسة الخليج العربى

ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٢٦ يوليو - القاهرة

ت ٣٤٧٢١٨٣ - ٣٤٧٢٢٠٦



□ هـذا الكتـاب □

* يحوي صورا حية لجهاد اثنين وعشرين قائداً دينياً من مختلف الأديان والمذاهب ، وهبوا جميعاً حياتهم لله ، ووقفوا جهودهم الجسمية والعقلية لخدمة الإنسانية وهداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم .
* يلبي رغبات مكبوتة في نفوس الطامحين إلى العدالة ومحبي المعنويات والنزعات الروحية . والضائقين بطغيان المادة واستيلائها على قلوب الناس وعقولهم .
* ثقافة تاريخية ودينية وعقلية لا غنى لأي ناشيء عن الإلمام بها.
* متعة أدبية بما فيه من قصص وعروض وأفكار لهؤلاء القواد .
* جولة شائقة ممتعة بين عصور التاريخ وألوان الفكر وصور الجهاد ، وبيئات الفكر والسياسة ، ومدارس الفلسفة الدينية وصور الحياة الاجتماعية في الشرق والغرب .
* لا يمله القاريء بل تستهويه أحداثه وتستولي على قلبه صور الحياة التي عاشها هؤلاء المصلحون .
* به أحاديث وتواريخ لفرق مستحدثة لم يتحدث عنها كتاب قبله .
* يوفر على القاريء مشقة البحث والحيرة بين بطون المراجع العديدة التي قلما يجدها أولا يجدها أصلا .

* * * إنه هدية **مؤسسة الخليج** الناشئة لقرائها * * *

* * * كتاب ثمين بثمن زهيد * * *



مؤسسة الخليج العربي
ARABIAN GULF EST.
١٩٥ شارع ٢٦ يوليو – القاهرة
ت ٣٤٧٢١٨٣ – ٣٤٧٢٢٠٦